ليف تولستوي

ملكوت الله في داخلكم



17.5.2016

ترجمة هڤال يوسف

ملكوت الله في داخلكم

ليف تولستوي

ترجمة: هَڤال يوسف

ملكوت الله في داخلكم

عنوان الكتاب: ملكوت الله في داخلكم

العنوان الأصلي للكتاب: Царство Божие внутри вас

تأليف: ليف تولستوي

ترجمة: هَڤال يوسف

تصميم الغلاف والإخراج: دارين أحمد

لوحة الغلاف: ايليا افيموفيتش ريبي

الطبعة الأولى، 2010

معابر للنشر والتوزيع

سوريا، دمشق

ص ب: 5866

هاتف: 3312257 - 11- 00963

بريد إلكتروني: maaber@scs-net.org

"ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكنّ النفس لا يقدرون أن يقتلوها
بل خافوا بالحري من الذي يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما في جهنم"
(إنجيل متّى: 10، 28)

"قد اشتُريتم بثمن فلا تصيروا عبيداً للناس"
(كورنثوس: 7، 23)

.

مدخل

عام 1884 كتبت كتاباً بعنوان "فيمَ تكمن عقيدتي؟" وفي هذا الكتاب قمتُ بعرض ما أؤمن به حقاً.

من خلال عرض إيماني بتعليم المسيح لم أستطع إلاّ أن أفصح عن سبب عدم إيماني بتلك العقيدة المسيحية المُسمّاة عادةً "المسيحية"، وعن سبب اعتباري إياها ضلالاً.

من بين الارتدادات الكثيرة عن دين المسيح أشرت إلى الارتداد الرئيس، وبالتحديد إلى عدم الاعتراف بوصية عدم مقاومة الشرّ بالعنف، والذي يشير، بجلاءٍ أكبر من الارتدادات الأخرى، إلى تحريف التعليم الكنسي لتعليم المسيح.

كنتُ أعلم القليل جداً – مثلنا جميعاً – عن ما صُنع، وبُشّر به، وكُتب عنه، في الأزمنة القديمة حول مسألة عدم مقاومة الشرّ. كنت أعرف ما الذي صُرِّح به حول هذا الموضوع من قِبل آباء الكنيسة، أوريجين وترتوليان وغيرهما. وكنت أعلم كذلك أنه كانت هناك، وما زالت، بعضٌ مما يُسمّى طوائف المينّونيين[1] والهيرنغوتيريين والكويكرز[2] الذين لا يُبرِّرون للمسيحية استخدام السلاح، ولا يؤدّون الخدمة العسكرية. لكني كنتُ أعلم النزر اليسير عمّا فعلته هذه الطوائف لتوضيح هذه المسألة.

هيئة الرقابة الروسية منعت كتابي – كما توقّعت – لكن بسبب سمعتي ككاتب من جهة، ولأنه أثار اهتمام الناس من جهة أخرى، انتشر هذا الكتاب، كمخطوطات ومنسوخات في روسيا، وفي نسخ مترجمة خارج البلاد، واستدعى، من جهة، من قِبل الناس الذين يشاطرونني أفكاري، جُملة شواهد عن مؤلَّفات كُتبت أيضاً حول هذا الموضوع، واستدعى، من جهة أخرى، جملة انتقادات للأفكار الواردة في الكتاب ذاته.

---

1 – Mennonites: فرقة بروتستانتية انتشرة بصورة رئيسة في أمريكا وكندا وهولندا (حيث أسسها مينوسيمونس) في أواسط القرن السادس عشر) وألمانيا. تدعو إلى الكمال الأخلاقي والصبر وعدم مقاومة الشر بالعنف، وتؤمن بالمجيء الثاني للمسيح.

2 – Quakers: (الأصحاب). جماعة دينية مسيحية تأسست أواسط القرن السابع عشر في إنكلترة. تنكر الإكليروس والأسرار الكنسية، وتنادي بالسلام ومحبة البشر، وتهيب بالأعمال الخيرية. راجت أساساً في أمريكا وإنكلترة وشرق أفريقيا.

هذا وذاك، إضافةً إلى الظواهر التاريخية في الفترة الأخيرة، أوضح لي الكثير جداً، وقادني إلى نتائج واستنتاجات جديدة أريد الإفصاح عنها.

في البداية سوف أتحدث عن الشواهد التي حصلت عليها حول تاريخ مسألة عدم مقاومة الشرّ، ثمّ عن الأفكار المتعلقة بهذه المسألة، والتي عبّر عنها النقّاد، سواء المتدينين، أي الذين يدينون بالدين المسيحي، أم الدنيويين، أي الذين لا يدينون بالدين المسيحي، وفي النهاية سأتحدث عن الاستنتاجات التي قادني إليها هؤلاء وأولئك والأحداث التاريخية في الآونة الأخيرة.

I

أحد أول أصداء كتابي كان رسائل من الكويكرز الأميريكيين. في هذه الرسائل، معبِّرين عن تعاطفهم مع أرائي المتعلقة بعدم شرعية شتّى أشكال العنف والحروب بالنسبة للمسيحي، أخبرني الكويكرز عن تفاصيل ما يدعونها طائفتهم التي تدعو، منذ ما يزيد عن 200 سنة، بالأفعال لا بالأقوال، إلى تعليم المسيح المتعلق بعدم مقاومة الشرّ بالعنف، والتي لم تستخدم من قبل، ولا تستخدم الآن، السلاح للدفاع عن نفسها. إضافة إلى الرسائل، أرسل إلي الكويكرز منشوراتهم ومجلاتهم وكتبهم. ومن هذه المجلات والمنشورات والكتب، التي أرسلوها إليّ، عرفت إلى أي درجة أثبتوا، بصورة دامغة ومنذ سنوات بعيدة، إلزامية تطبيق الوصية المتعلقة بعدم مقاومة الشرّ بالعنف بالنسبة للمسيحي، وإلى أي درجة فضحوا عدم صحة العقيدة الكنسية التي تُبيح الإعدامات والحروب.

مُبرهنين، من خلال سلسلة من المناقشات والنصوص، أنّ الدين، القائم على محبة السّلم وعلى الإحسان إلى البشر، لا يجتمع مع الحرب، أي مع تشويه البشر وقتلهم، يؤكّد الكويكرز ويبرهنون أنْ ما من شيء عتّم على الحقيقة المسيحانية في عيون الوثنيين، وأعاق انتشار المسيحية في العالم، مثلما فعل عدم اعتراف الناس، الذين يُسمّون أنفسهم مسيحيين، بهذه الوصية، مما يعني إباحة الحرب والعنف للمسيحيين.

يقول الكويكرز: "إنّ تعليم المسيح – الذي استوعاه البشر من خلال عدم مقاومة الشرّ والوداعة والحِلم وحبّ السّلم، وليس عن طريق السيف – يمكن له أن ينتشر في العالم فقط عبر قدوة السّلم والوئام والمحبة بين أتباعه".

"المسيحي – بموجب تعليم الله ذاته – يمكن له أن ينقاد، في التعامل مع الناس، فقط لحبّ السلام، وبالتالي لا يمكن أن تكون هناك سلطة قادرة على إرغام المسيحي على القيام بما يناقض تعليم الله، ويناقض الميزة الرئيسة للمسيحي المتعلقة بمعاملة الأقربين".

"إنّ قاعدة الضرورة الدولتية – يقول الكويكرز– يمكنها إرغام أولئك، الذين من أجل منافع دنيوية يحاولون التوفيق بين النقائض، على تغيير قانون الله لكن بالنسبة للمسيحي،

الذي يؤمن بحقّ بأنّ اتّباع تعليم المسيح سوف يمنحه الخلاص، لا يمكن أن يكون لهذه القاعدة أي معنى".

التعرّف إلى أعمال الكويكرز ومؤلّفاتهم – فوكس، بِن، وبشكل خاص كتاب دايموند Dymond عام 1827 – لم يُظهر لي أنّ استحالة الجمع بين المسيحية وبين العنف والحرب مُدركَة منذ سحيق القدم فحسب بل وأنّ هذه الاستحالة قد تمّ برهانها، منذ سحيق القدم، بمنتهى الوضوح واليقين بحيث يمكن فحسب الاندهاش من كيفية إمكانية استمرار هذا الجمع المستحيل بين التعليم المسيحي وبين العنف الذي دعت، وما زالت تدعو، إليه الكنائس.

عدا عن الشواهد التي تلقّيتها من الكويكرز تلقّيت، في الوقت ذاته تقريباً، من أمريكا كذلك، شواهد حول ذات الموضوع من مصدر مختلف كلياً، ومجهولٍ كلياً بالنسبة إلي من قبل. ابن وليام لويد هاريسون، المناضل المعروف في سبيل حرية الزنوج، كتب إليّ – بعد قراءة كتابي الذي وجد فيه أفكاراً تتطابق مع التي كان والده قد عبّر عنها عام 1838، مفترضاً أنّه سيكون أمراً ذا أهمية لي معرفة ذلك – أنه سوف يرسل إلي بيان، أو إعلان، اللامقاومة Non-resistance الذي كتبه والده قبل خمسين سنة تقريباً.

وقد ظهر هذا الإعلان في الظروف التالية: وليام لويد هاريسون، إذ كان يناقش إجراءات إيقاف الحروب في "الجمعية من أجل إقامة السلام بين البشر" التي كانت موجودة في أمريكا عام 1838، توصّل إلى استنتاج مفاده أنّ إقامة السلام الشامل يمكن أن يتأسس فقط على الاعتراف الصريح بوصية عدم مقاومة الشرّ بالعنف (إنجيل متّى: 5، 39) بكافة معانيها، كما يفهمها الكويكرز الذين كانت تربطهم بهاريسون علاقات الصداقة. حين توصّل هاريسون إلى هذا الاستنتاج وضع، واقترح على الجمعية آنذاك، الإعلان التالي الذي وقّع عليه حينئذٍ، أي عام 1838، الكثير من الأعضاء.

إعلان المبادئ – المُتبنّاة من قِبل أعضاء الجمعية – الموضوع من أجل إحلال السلام الشامل بين البشر

بوسطن، عام 1838

نحن، المُوقّعين أدناه، نعتبر أنّ من واجبنا تجاه أنفسنا، وتجاه القضية العزيزة على قلوبنا، وتجاه البلد الذي نعيش فيه، وتجاه العالم برمّته، إعلان عقيدتنا هذه، مُعربين فيها عن المبادئ التي نتمسّك بها، والأهداف التي نتطلّع إليها، والوسائل التي ننوي استخدامها من أجل تحقيق انقلاب سلمي خيِّر شامل.

عقيدتنا هي:

نحن لا نعترف بأيّ حكومية بشرية. إننا نعترف بملَكٍ ومُشرِّعٍ واحد فقط، فقط بقاضٍ وحاكمٍ واحد للإنسانية. نعتبر العالم كله وطناً لنا، ونعتبر البشر أجمعين مواطنينَ لنا. نُحبُّ البلدان الأخرى بقدر ما نحبّ بلدنا. مصالح وحقوق أبناء بلدنا ليست أغلى لدينا من مصالح وحقوق البشرية جمعاء. لذا لا نُبيح أن يكون في مقدور الشعور الوطني تبرير الثأر للإساءة أو الضرر المُلحَق بشعبنا...

نعتبر أنْ ليس من حقّ الشعب الدفاع عن نفسه ضدّ أعداء الخارج، ولا الهجوم عليهم. نعتبر كذلك أنّ الأفراد لا يجوز أن يكون لهم هذا الحقّ فيما يخصّ علاقاتهم الشخصية. إذ لا يجوز أن يكون للجزيء قيمة أكبر من مجموع الجزيئات. فإذا كانت الدولة لا يجوز لها مقاومة الغزاة الغرباء، الذين يهدفون إلى اجتياح وطننا وقتل مواطنينا، فكذلك تماماً لا يجوز مقاومة عنف الأفراد الذين يُخلّون بالاستقرار الاجتماعي ويُهدّدون الأمن الشخصي. إنّ المبدأ الذي تُبشِّر به الكنائس، والقائل إنّ كافة الحكومات على الأرض قد أقامها الله وباركها، وإنّ كل السلطات القائمة في الولايات المتحدة وروسيا وتركيا توافق مشيئة الله، لهو مبدأ سخيف بقدر ما هو مُجدِّف. فهذا المبدأ يُصوِّر خالقنا ككائنٍ منحازٍ ومُشجِّعٍ للشرّ ومُقرٍّ به. ما من أحد يجرؤ على الإقرار بأنّ السلطات، القائمة في أيّ بلدٍ كان، تعامل أعداءها بروحية تعليم المسيح، وعلى سنّته. ولهذا لا يمكن لعمل هذه السلطات أن يكون مقبولاً عند الله، ولهذا أيضاً لا يمكن أن

يكون الله هو الذي قد أقام هذه السلطات. لذا يجب الإطاحة بها، لكن ليس بالقوة وإنما عبر الانبعاث الروحي للبشر.

نحن لا نعتبر أنّ الحروب فقط – سواء الهجومية أم الدفاعية – ليست مسيحية وليست شرعية بل كذلك الإعداد للحروب: بناء شتى أنواع الترسانات والتحصينات والسفن الحربية؛ وشتى أشكال الجيوش الدائمة؛ شتى القيادات العسكرية؛ شتى النصب المُشيَّدة على شرف الانتصارات أو الأعداء المجندلين؛ شتى الغنائم المغتنمة في ساحات القتال؛ شتى الاحتفالات بالمآثر الحربية؛ شتى الاحتلالات المتحققة عن طريق القوة الحربية – نعتبرها لامسيحية ولاشرعية. ونعتبر أيّ قرار حكومي يطلب الخدمة العسكرية من رعاياها لامسيحياً ولاشرعياً.

نتيجةً لهذا كله لا نعتبر فقط الخدمة في الجيوش أمراً غير جائزٍ بالنسبة إلينا بل كذلك شغل مناصب تُلزمنا بإرغام الناس على حُسن السلوك عبر تخويفهم بالسجن أو الإعدام. لذا؛ فإننا نستقيل طوعاً من كافة المؤسسات الحكومية، ونمتنع عن شتى أشكال السياسة، ونرفض كافة التكريمات والمناصب الدنيوية.

بما أننا نعتبر أنْ لا حقّ لنا في شغل مواقع في المؤسسات الحكومية؛ فإننا نعتبر كذلك أنْ لا حقّ لنا في انتخاب أشخاص آخرين لشغل هذه المواقع، وأيضاً أنْ ليس من حقنا مقاضاة الناس لاسترداد ما أخذوه منّا، بل نُقرّ بأنّ علينا إعطاء الرداء أيضاً لمن أخذ قميصنا، لا أن نُعرّضه للعنف على الإطلاق (إنجيل متّى: 5، 40). نؤمن بأنّ المسيح قد أبطل القانون الجنائي للعهد القديم: "عينٌ بعين وسنٌّ بسن"، وبأنّ على جميع تابعيه أن يدعوا – بموجب العهد الجديد– إلى العفو عن الأعداء بدلاً من الانتقام منهم، في كلّ الأحوال دونما استثناء. أما ابتزاز المال عن طريق العنف، والسَّجن والنَّفي والإعدام، فجليٌّ أنه ليس غفراناً للإساءة، بل هو انتقام.

إنّ تاريخ البشرية مليء بالبراهين على أنّ العنف الجسدي لا يساعد على الانبعاث الأخلاقي، وأنّ النزعات الآثمة للإنسان يمكن كبحها فقط عن طريق المحبة، وأنّ بالإمكان القضاء على الشرّ فقط بالخير، وأنْ ليس علينا الاعتماد على قوة اليدين لحماية أنفسنا من الشرّ، وأنّ أمن البشر الحقيقي يكمن في الطيبة والصبر والرحمة، وأنّ الودعاء فقط يرثون الأرض بينما رافع السيف يُقتَل بالسيف.

وبالتالي؛ فكما من أجل ضمانٍ أوثق لحياة البشر وأملاكهم وحريتهم ومصالحهم الشخصية واستقرارهم الاجتماعي، فكذلك من أجل تنفيذ مشيئة الذي هو ملك الملوك ورب الأرباب نتبنّى، بكلّ جوارحنا، التعليم الأساس لعدم مقاومة الشرّ بالعنف، مؤمنين إيماناً راسخاً أنّ هذا التعليم، إذ يستجيب لكلّ الحالات المحتملة ويعكس إرادة الله، لا بدّ أن ينتصر على كافة القوى الشريرة في نهاية المطاف.

نحن لا نُبشِّر بعقيدة ثورية؛ فروح العقيدة الثورية هي روح الانتقام والعنف والقتل. إنها لا تخشى الله ولا تحترم شخصية الإنسان، أما نحن فنرجو أن نمتلئ بروح المسيح. وإنّ اتِّباعنا قانوننا الأساس في عدم مقاومة الشرّ بالعنف لا يجيز لنا إحداث المؤامرات أو الفتن أو العنف. سوف نخضع لكافة قوانين الحكومة وأوامرها باستثناء التي تناقض أوامر الكتاب المقدّس، وسوف تقتصر مقاومتنا على الخضوع المستكين للعقوبات التي قد تُمارس في حقنا من جرّاء عدم طاعتنا، وننوي تحمّل كافة أشكال الهجوم علينا دونما مقاومة لكننا، من جهتنا، ننوي، دون توقّف، مهاجمة شرّ العالم أينما كان، في الأعلى أو الأسفل، في ميادين السياسة والإدارة والدين، متطلّعين، بكافة الوسائل المتاحة لنا، إلى اتِّحاد الممالك الأرضية في ملكوت ربنا يسوع المسيح. نعتبر حقيقةً لا شكّ فيها أنّ كل ما يناقض الكتاب المقدّس قابل للإبطال، ويجب إبطاله الآن فوراً. وبالتالي، فإذا كنّا نُصدِّق نبوءة أنّ السيوف سوف تُسكُّ سِككاً والرماحُ مناجلَ (إشعياء: 2، 4)؛ فعلينا الآن فوراً، دون تأجيل ذلك إلى المستقبل، أن نفعل هذا قدر المستطاع. وبالتالي؛ فإنّ كل الذين يصنعون الأسلحة ويبيعونها ويستخدمونها، ويعملون على شتّى أنواع التجهيزات الحربية، إنّما يتسلّحون، بهذا، ضد السيادة العالمية لابن الله على الأرض.

الآن، وبعد أن عبّرنا عن مبادئنا، سوف نتحدث عن السُبل التي نأمل بوساطتها بلوغ هدفنا.

نحن نأمل أن ننتصر عن طريق "جنون النشر". فسوف نحاول نشر آرائنا بين الناس، أيّاً كانت الشعوب أو الأديان أو طبقات المجتمع التي ينتمون إليها. ومن أجل هذه الغاية سنقوم بتنظيم قراءات جماهيرية، ونشر إعلانات ومنشورات مطبوعة، وإنشاء الجمعيات، وتقديم العرائض إلى كافة المؤسسات الحكومية. وبشكل عام سوف نستخدم كافة الوسائل التي في متناولنا لتحقيق انقلاب جذريّ في آراء ومشاعر وأفعال مجتمعنا

فيما يخصّ إثمية العنف في التعامل مع أعداء الداخل والخارج. ونحن، إذ نتبنّى هذه القضية العظيمة، ندرك تماماً أنّ إخلاصنا قد يتعرّض لاختبارات قاسية؛ فمهمتنا قد تجلب علينا الإهانات والإساءات والآلام، ونتوقّع عدم الفهم والتفسير الكاذب واللعنات. سوف تقوم زوبعة ضدنا. قد يتّحد غرور ونفاق وغطرسة وقسوة الحكّام والسلطات للقضاء علينا. اتِّكالنا ليس على البشر وإنما على الرب الذي هو على كلِّ شيءٍ قدير. فإذا ما رفضنا الحماية البشرية؛ فما الذي يمكنه أن يدعمنا إن لم يكن إيماننا، غالب العالم؟ لن تُدهشنا التجارب التي سنتعرّض لها بل يسعدنا أن نكون جديرين بمشاطرة المسيح آلامه.

نتيجةً لهذا كله سوف نُقدِّم أرواحنا لإلهنا مؤمنين بما قيل حين قيل إنّ من يتخلَّ عن بيته وإخوته وأخواته وأبيه وأمه وزوجته وأبنائه وحقله في سبيل المسيح سوف ينال ما هو أكثر من ذلك بمئات المرات، ويرث حياةً أبدية.

وبالتالي، إذ نؤمن، رغم كل ما قد يتسلّح ضدنا، بمبادئ لا شكّ في انتصارها في العالم برمّته، والمعبَّر عنها في هذا الإعلان، نضع هنا تواقيعنا، معتمدين على إدراك البشرية وضميرها، وعلى قدرة الله التي نُسلِّم أنفسها لها قبل أيّ شيء آخر.

* * *

على إثر هذا الإعلان قام هاريسون بتأسيس جمعية اللامقاومة ومجلة أسماها "اللامقاوِم" (non-resistant) التي كان يدعو فيها إلى عقيدة اللامقاومة بكافة معانيها وتبعاتها، كما عُبِّر عنها في الإعلان. وقد حصلتُ على الشواهد عن المصير اللاحق لجمعية ومجلة اللامقاومة من السيرة الرائعة لوليام لويد هاريسون التي كتبها أبناؤه.

لم تستمر الجمعية والمجلة زمناً طويلاً لأنّ معظم رفاق هاريسون في قضية تحرير العبيد، متوجّسين من أنّ المطالب الراديكالية، المعبَّر عنها في مجلة "اللامقاوم"، قد تُبعد الناس عن العمل العملي لتحرير الزنوج، امتنعوا عن الدعوة إلى مبدأ اللامقاومة، كما عبِّر عنه الإعلان. والجمعية والمجلة كفّتا عن الوجود.

إنّ إعلان هاريسون، الذي يُعبِّر بهذه القوة والبلاغة عن قضية نشر الدعوة البالغة الأهمية للبشر، كان يجب أن يوقظ الناس، وأن يغدو معروفاً على نطاقٍ عالمي، وأن يصبح مادةً لشتّى أشكال المناقشات. لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث. فهذا الإعلان مجهول

تقريباً، ليس في أوروبا فقط بل حتى بين الأمريكيين، الذين يُجلّون عالياً ذكرى هاريسون. تلك المجهولية ذاتها حلّت كذلك بمناضل آخر في سبيل عدم مقاومة الشرّ هو الأمريكي أدين باللو الذي بشّر بهذه العقيدة على امتداد خمسين سنة، والمتوفّى حديثاً. إنّ مدى ضآلة شهرة كلّ ما يعلق بمسألة اللامقاومة يُرى من أنّ هاريسون الابن، الذي كتب سيرة ممتازة لوالده في أربعة مجلّدات ضخمة، هاريسون الابن هذا، ردّاً على سؤالي ما إذا كانت هناك جمعية للامقاومة الآن، وما إن كان هناك أنصار لها، أجابني بأنّ هذه الجمعية، على حدّ علمه، قد حُلّت، وأنْ لا وجود لأتباع هذه العقيدة، في حين أنّه، في الوقت الذي كتب إلي، كان يعيش في نوبيدات في مساشوستس أدين باللو الذي شارك في مساعي والد هاريسون، مُكرّساً خمسين سنة من عمره لنشر عقيدة اللاعنف شفاهةً وكتابةً.

فيما بعد تلقّيت رسالةً من ويلسون، تلميذ باللو ومساعده، وتواصلت مع باللو ذاته. كتبت إلى باللو، وهو ردّ عليّ وأرسل إلي مؤلّفاته. إليكم مقتطفاتٍ منها:

يقول باللو في إحدى مقالاته التي تفضح لامنطقية المسيحيين الذين يُقرّون حقّ الدفاع والحرب: "لقد وعدتُ يسوع المسيح – ربّي ومعلّمي– أن أتبعه، زاهداً في كلّ شيء، في السرّاء والضرّاء. لكنني مواطن جمهورية الولايات المتحدة الديمقراطية التي أقسمت لها يمين الولاء بأن أحافظ على دستور بلادي، وأن أضحّي بحياتي في سبيلها إذا تطلّب الأمر. المسيح يطلب إليّ أن أفعل للآخرين ما أريدهم أن يفعلوا لي. دستور الولايات المتحدة يأمرني بأن أفعل بمليوني عبد (كان هناك عبيد آنذاك، في الوقت الراهن يمكن وضع العمال محلهم دون تردد) تماماً عكس ما أرغب في أن يفعلوا بي؛ أي العمل على إبقائهم في العبودية التي هم فيها الآن. وهذا غيض من فيض؛ فأنا مواظب على الانتخاب أو الترشّح، وأُشارك في الحُكم، بل أنا مستعد لأن يتمّ اختياري لأيّ منصب حكومي كان. وهذا لا يمنعني عن أن أكون مسيحياً. فأنا أواصل تديني، ولا أجد صعوبة في تنفيذ عهدي للمسيح وعهدي للحكومة في آن واحد".

"يسوع المسيح يمنع علي مقاومة من يصنع بي شرّاً، وإفقادهم عيناً بعين أو سنّاً بسنّ أو دماً بدم أو حياةً بحياة. حكومتي تأمرني بالعكس تماماً، وتُدافع عن نفسها بوساطة

المشنقة والسلاح والسيف، وتستخدم ذلك ضد أعدائها في الداخل والخارج. ونتيجةً لذلك، البلاد متخمة بالمشانق والسجون وترسانات الأسلحة والسفن الحربية".

"في تعزيز واستخدام أدوات القتل المُكلِفة هذه يمكننا بسهولة بالغة إحياء فضيلة العفو عن المسيئين إلينا ومحبة أعدائنا ومباركة لاعنينا والإحسان إلى كارهينا؛ فمن أجل هذه الغاية لدينا قساوسة دائمون لكي يصلّوا لأجلنا ويستدعوا مباركة الله للمجازر المقدّسة. إني أرى هذا كله (أي التناقض بين الدين والحياة) وأستمرّ بالتديّن والتسلّط كذلك، وأفتخر بأني مسيحي ورع وخادم مخلص للحكومة في الآن ذاته. لا رغبة لدي في الموافقة على هذا المفهوم اللامعقول للتناقض. لا يمكنني الامتناع عن ممارسة تأثيري وترك أناسٍ عديمي الأخلاق على رأس الحكومة. يقول الدستور: "يحقّ للحكومة إعلان الحرب"، وأنا أوافق على هذا وأدعمه، وأُقسم أني سأدعمه، ولا أكفُّ عن أن أكون مسيحياً من جرّاء ذلك؛ فالحرب أيضاً واجب مسيحي. تُرى أليس مبدءاً مسيحياً قتل الآلاف من الأقارب، واغتصاب النساء، وسلب وحرق المدن، وارتكاب شتى أشكال القسوة الممكنة؟ لقد آن الأوان للتخلي عن هذه العواطف المختلقة كلها؛ فهذه هي الوسيلة الأكثر حقيقيةً للعفو عن الإساءة ومحبة الأعداء، لأنه ما من شيء يمكنه أن يكون أكثر مسيحية من القتل دونَ تمييز ما دمنا نقوم بذلك بروح المحبة".

في منشورٍ آخر بعنوان "كم يلزم من الناس لكي يتحوّل الشرّ إلى برّ؟" يقول: "لا يجوز للفرد أن يقتل؛ فإنْ قتل فهو مجرم، إنه قاتل. وإذا ما فعل ذلك شخصان، عشرة، مائة، فهم قتلة. لكنّ دولة، أو شعب، يجوز لها أن تقتل قدر ما تريد، ولن يكون هذا قتلاً بل عملٌ جيّد وخيّر. يكفي فحسب جمع عدد كبير من الناس ولن يعود ذبح آلاف الناس عملاً آثماً. لكن كم يلزم من الناس لأجل ذلك؟ هذا هو السؤال. لا يجوز للفرد أن يسرق وينهب لكن شعباً برمّته يجوز له ذلك. لكن كم شخصاً بالتحديد يلزم لذلك؟ لماذا لا يجوز لشخص واحد، أو عشرة أشخاص، أو مائة، خرق قانون الله بينما الكثرة تستطيع ذلك؟"

إليكم كاتيخيزيس[3] باللو الذي قام بتأليفه من أجل رعيّته.

---

3 – تعليم أصول العقيدة من خلال الأسئلة والأجوبة.

كاتيخيزيس اللامقاومة

(الترجمة تمّت بتصرف مع إغفال بعض الفقرات)

س. من أين أُخذت كلمة "لامقاومة"؟

ج. من المنقول: "لا تقاوموا الشرّ" (إنجيل متّى: 5، 39)

س. عمّ تُعبِّر هذه الكلمة؟

ج. تُعبِّر عن فضيلة مسيحية سامية أمر بها المسيح.

س. هل ينبغي فهم كلمة "لامقاومة" بمعناها الأوسع، أي عدم مقاومة الشرّ بأيّ شكل كان؟

ج. كلا، يجب أن تُفهم بالمعنى الدقيق لموعظة المُخلِّص، أي عدم الردّ على الشرّ بالشرّ. يجب مقاومة الشرّ بشتّى الوسائل العادلة، لكن ليس بالشرّ على الإطلاق.

س. مِمَّ يُلحَظ أنّ المسيح قد أمر بعدم المقاومة بهذا المعنى بالتحديد؟

ج. من الكلمات التي قالها في هذه الأثناء: "سمعتم أنّه قيل: عينٌ بعين وسنٌّ بسنّ. وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرّ، بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر أيضاً، ومن أراد أن يُخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً".

س. عمَّن كان يتحدث في عبارة: "سمعتم أنّه قيل"؟

ج. عن رجال الدين والأنبياء، عن أنهم كانوا يقولون إنّ كتابات العهد القديم تتضمّن ما يُسمّيه اليهود عادةً القانون والأنبياء.

س. أيّ أوامر كان يقصدها المسيح بكلامه: "قيل لكم"؟

ج. الأوامر التي يعطي فيها نوح وموسى والأنبياء الآخرون الحقّ بإلحاق أذى شخصي بمُلحق الضرر بهدف العقاب أو القضاء على الأعمال الشريرة.

س. اذكر هذه الأوامر.

ج. "سافِك دم الإنسان بالإنسان يُسفَك دمه" (سفر التكوين: 9، 6)

"من ضرب إنساناً فمات يُقتَل قتلاً". "وإن حلّت أذيّة تُعطي نفساً بنفس وعيناً بعين وسنّاً بسنّ ويداً بيد ورجلاً برجل وكيّاً بكيّ وجرحاً بجرح ورضّاً برضّ". (سفر الخروج: 21، 12-23-25)

"وإذا أمات أحدٌ إنساناً فإنه يُقتل". "وإذا أحدث إنسانٌ في قريبه عيباً، فكما فعل كذلك يُفعل به". "كسرٌ بكسر وعينٌ بعين وسنٌّ بسنّ". (لاويين: 24، 17-19-20)

"فإن فحص القضاة جيداً، فإذا الشاهد شاهد كاذب، قد شهد بالكذب على أخيه، فافعلوا به كما نوى أن يفعل بأخيه. لا تُشفق عينك [عليه]: نفسٌ بنفس. سنٌّ بسنّ. يدٌ بيد. رِجلٌ برِجل". (تثنية: 19، 18-21)

هذه هي الفروض التي يتحدث عنها يسوع.

لقد علّم نوح وموسى والأنبياء على نحوٍ بحيث أنّ الذي يقتل أو يُشوّه أو يُعذّب أقرباءه، ويعمل الشرّ؛ من أجل مقاومة شرّ كهذا والقضاء عليه يجب معاقبة فاعل الشرّ بقتله أو تشويهه أو تعذيبه بطريقة ما. يجب الردّ على الإساءة بالإساءة، وعلى القتل بالقتل، وعلى التعذيب بالتعذيب، وعلى الشرّ بالشرّ. هكذا علّم نوح وموسى والأنبياء لكنّ المسيح أبطل هذا كلّه: "وأما أنا فأقول لكم (كُتِب في الأناجيل): لا تقاوموا الشرّ، لا تردّوا على الإساءة بالإساءة بل، بالحري، اصبروا على الإساءة المتكررة من فاعل الشرّ". ما كان مسموحاً به بات ممنوعاً. وإننا، إذ نفهم شكل المقاومة الذي علّموه، نعلم تماماً ما الذي تُعلِّمه لامقاومة المسيح.

س. هل أباح القدماء الردّ على الإساءة بالإساءة؟

ج. أجل، لكنّ يسوع منع هذا. لا يحقّ للمسيحي على الإطلاق قتل قريبه، فاعل الشر، أو الإساءة إليه.

س. هل يحقّ له قتل أو تشويه الآخر في حالة الدفاع عن النفس؟

ج. كلا.

س. هل يجوز له تقديم شكوى للقضاء لكي يُعاقَب المسيء إليه؟

ج. لا، لأنّ ما يفعله من خلال الآخرين إنما يقوم به هو ذاته من حيث الجوهر.

س. هل يجوز له القتال ضمن الجيش أو ضد المتمردين الداخليين؟

ج. طبعاً لا. لا يجوز له قبول أيّ مشاركة في الحرب أو الإعدادات الحربية. لا يجوز له استخدم الأسلحة المميتة. لا يجوز له الردّ على الإساءة بالإساءة، سواء كان بمفرده أم برفقة آخرين، بنفسه أم من خلال الناس الآخرين.

س. هل يجوز له أن ينتخب أو يُهيّئ، طوعاً، أناساً عسكريين للحكومة؟

ج. لا يجوز له القيام بأيّ شيء من هذا إذا كان يريد أن يكون مخلصاً لشريعة المسيح.

س. هل يجوز له تقديم المال طوعاً لمساعدة الحكومة القائمة على القوة العسكرية، وعلى الإعدام والعنف عموماً؟

ج. كلا. يجوز له ذلك فقط إذا كان المال مخصصاً لغرض عادلٍ بذاته، حيث الغاية والوسائل خيّرة.

س. هل يجوز له دفع الضرائب لحكومة كهذه؟

ج. كلا، لا ينبغي له دفع الضرائب طوعاً لكن عليه عدم مقاومة جباية الضرائب. الضريبة، المفروضة من قِبل الحكومة، تُجبى بغضّ النظر عن إرادة الرعايا. لا ينبغي مقاومتها، يجب عدم اللجوء إلى العنف. لا يجوز للمسيحي استخدام العنف لذا يجب عليه وضع مُلكيته الخاصة تحت تصرّف السلطات التي تفرض عليه غرامة قسرية.

س. هل يجوز للمسيحي التصويت في الانتخابات والمشاركة في القضاء والإدارات؟

ج. كلا؛ فالمشاركة في الانتخابات أو القضاء أو الإدارات إنما هي مشاركة في عنف الدولة.

س. فيمَ يكمن المعنى الرئيس لعقيدة عدم مقاومة الشرّ؟

ج. في أنها الوحيدة التي تمنح إمكانية اقتلاع الشرّ من جذوره، سواء من قلوبنا أم من قلب القريب. هذه العقيدة تُحرّم القيام بما يُخلّد ويُفاقم العنف في العالم. ذلك الذي يهاجم الآخر ويسيء إليه يُضرم لدى الآخر شعور الكراهية الذي هو جذر كلّ الشرور. إيذاء الآخر لأنه أذانا – كأنما من أجل القضاء على الشرّ– يعني تكرار العمل السيئ بحقه وبحقّ أنفسنا، يعني خلق، أو على الأقل تحرير وتشجيع، الشيطان الذي نريد طرده. لا يمكن طرد شيطان بوساطة شيطان، لا يمكن تطهير الباطل بوساطة الباطل، والشرّ لا يمكن هزمه بالشرّ.

اللامقاومة الحقيقية هي المقاومة الحقيقية الوحيدة للشرّ. هي تقطع رأس الأفعى. إنها تقتل الشعور الشرير ثم تمحقه في نهاية المطاف.

س. ولكن، إذا كان جوهر العقيدة صحيحاً فهل هي قابلة للتطبيق؟

ج. هي قابلة للتطبيق مثل أيّ فضيلة أخرى يأمر به شرع الله. لا يمكن عمل الخير في أيّ ظرف دون نكران للذات ودون حرمان ومعاناة، ودون فقدان الحياة في الحالات القصوى. لكنّ الذي يُثمِّن الحياة أكثر من تحقيق مشيئة الله ميت مسبقاً بالنسبة للحياة الوحيدة الحقيقية. إنسان كهذا، إذ يحاول إنقاذ حياته يفقدها. عدا عن أنّ اللامقاومة، بشكل عام، تُكلِّف تضحيةً بحياةٍ واحدة أو بمنفعة ضرورية من منافع الحياة في حين أنّ المقاومة تُكلِّف آلاف الضحايا.

اللامقاومة تصون – المقاومة تُدمِّر

التصرّف بإنصاف أكثر أماناً بما لا يُقاس من التصرّف بعدم إنصاف. واحتمال الإساءة أكثر أماناً من مقاومتها بالعنف، حتى فيما يتعلق بالحياة الدنيا. ولو أنّ البشر جميعاً لم يقاوموا الشرّ بالشرّ لكان عالمنا سعيداً.

س. لكن عندما تسلك قلة من الناس على هذا النحو؛ فماذا قد يحدث لهم؟

ج. لو تصرّف إنسان واحد فقط على هذا النحو، واتّفق الآخرون كلهم على صلبه؛ أفليس أمجد له أن يموت منتصراً بالمحبة اللامقاومة، وهو يُصلّي من أجل أعدائه، من أن يعيش متوَّجاً بتاج قيصرٍ مُضرّجٍ بدماء القتلى؟ لكن سواء كان فرداً واحداً أم كانوا آلافَ الناس الحاسمين بصلابة بأن لا يقاوموا الشرّ بالشرّ، وسواء كانوا وسط أقرباء متنوِّرين أم وسط غرباء همجيين؛ فهم آمنون من العنف أكثر بكثير من الذين يتّكلون على العنف. إذ سرعان ما سيتركهم المجرم والقاتل والكاذب وشأنهم مقارنةً بمن يقاوم بالسلاح. آخذوا السيف بالسيف يهلكون، والباحثون عن السلام، السالكون بودّ، دون أذى، الذين ينسون الإساءة ويعفون عنها، معظمهم ينعمون بالسلام، وإذا ماتوا يموتون مباركين.

وبالتالي، إذا التزم الجميع بوصية اللامقاومة فمن الجليّ أنه لن تكون هناك لا إساءات ولا شرور. لو كان أمثال هؤلاء أكثرية لأنشأوا حكومة المحبة والإحسان حتى إلى المسيئين، دون أن يقاوموا الشرّ بالشرّ أبداً، دون أن يستخدموا العنف على

الإطلاق. لو أنّ هؤلاء كانوا أقلية كثيرة العدد بما يكفي لمارسوا تأثيراً أخلاقياً مُصلحاً على المجتمع بحيث تُلغى كل العقوبات القاسية، ولحلّ السلام والمحبة محلّ العنف والعداوة. لو أنهم كانوا أقلية قليلة فقط فنادراً ما سيختبرون ما هو أسوأ من احتقار العالم، في حين أنّ العالم ذاته، دون أن يشعر بذلك ودون أن يشكر على ذلك، سيغدو أكثر حكمةً، ولكان تحسّن باستمرار من جرّاء هذا التأثير الخفي. وفي أسوأ الأحوال، لو تمّ تعذيب بعضٍ من أفراد الأقلية فإنّ هؤلاء القتلى في سبيل الحقّ سيتركون وراءهم، تلقائياً، عقيدتهم التي باتت مقدّسة بالدم الشهيد.

السلام على كلّ الباحثين عن السلام، ولتكن المحبة الظافرة ميراثاً خالداً لكلّ الأنفس الخاضعة طوعاً لقانون المسيح: "لاتقاوموا الشرّ بالعنف".

* * *

على امتداد خمسين سنة كتب باللو ونشر كتباً تدور معظمها حول مسألة عدم مقاومة الشرّ بالعنف. في هذه المؤلَّفات، الرائعة من حيث وضوح الأفكار وجمال العَرْض، يتمّ بحث المسألة من كافة جوانبها. حيث يتمّ التأكيد على إلزامية هذه الوصية لكلّ مسيحيٍّ يؤمن بالكتاب المقدّس كوحيٍّ إلهيّ. وتُورَد كل الاعتراضات المعتادة على وصية عدم المقاومة، سواء من العهد القديم أم الجديد، مثل: الطرد من الهيكل، إلخ، ويتمّ تفنيدها كلها، وبغضّ النظر عن الكتب المقدّسة، يتمّ إظهار المعقولية العملية لهذه القاعدة، وتُقدَّم كافة الاعتراضات المعتادة عليها وتُدحَض. حيث يبحث أحد فصول مؤلَّفاته في عدم مقاومة الشرّ في الحالات الاستثنائية التي يُعتبَر فيها أنّ عدم مقاومة الشرّ ليس ممكناً، وبالتالي فهذا يبرهن على أنّ هذه القاعدة ليست ثابتة بصورة عامة. مُورِداً هذه الحالات الاستثنائية، يبرهن باللو أنّ في هذه الحالات بالذات يجب، ومن الحكمة، استخدام هذه القاعدة. ما من جانب من جوانب المسألة، سواء بالنسبة لمؤيديها أم لمعارضيها، لم يتمّ بحثه في هذه المؤلَّفات. أقول هذا كله لكي أُظهر أنّ تلك المؤلَّفات كانت يجب أن تستدعي اهتماماً لا شكّ فيه من قِبل معتنقي المسيحية، وأنّ المفروض، لهذا السبب، أنّ عمل باللو كان يجب أن يكون معروفاً، والأفكار التي عبّر عنها كانت يجب إما الاعتراف بها وإما دحضها. لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل.

إنّ أعمال هاريسون الأب، وتأسيسه جمعية اللامقاومين وإعلانه، أقنعتني، حتى أكثر من مراسلاتي مع الكويكرز، أنّ ارتداد المسيحية الرسمية عن قانون المسيح المتعلق بعدم المقاومة بوساطة العنف هو أمر ملحوظ ومُشار إليه منذ زمن بعيد، ولم يتوقّف البشر عن تعريته يوماً. وقد أكّد نشاط باللو لي هذا الأمر أكثر. لكنّ مصير هاريسون، وكذلك خصوصية باللو غير المعروف لأحد رغم خمسين سنة من العمل الدؤوب والمستمر في المنحى ذاته، أكّد لي وجود مؤامرة غير معلنة، لكن متينة، لإسكات كل تلك المحاولات.

توفّي باللو في آب عام 1890، وقد نعته مجلة (Religio - philosophicae, August 23) الأمريكية المسيحية المنحى.

وقد كُتب في هذه النعوة المادحة أنّ باللو كان رئيساً روحياً لإحدى الطوائف، وأنه ألقى 8 – 9 آلاف خطبة، وقام بتزويج 1000 زوج، وكتب حوالي 500 مقال، لكن لم تُقَل كلمة واحدة عن الهدف الذي كرّس له حياته، بل حتى لم يتم ذكر كلمة "لامقاومة". مثل الكويكرز الذين يُبشرّون منذ 200 سنة، ومثل نشاط هاريسون الأب وتأسيسه الجمعية والمجلة وإعلانه، كذلك تماماً مجمل نشاط باللو كما لو أنّ لا وجود له، وكما لو أن لم يكن له وجود.

المثال المذهل عن مدى مجهولية المؤلّفات، الهادفة لشرح وصية عدم مقاومة الشرّ بالعنف وفضح الذين لا يعترفون بهذه الوصية، هو مصير كتاب التشيكي خيلجيتسكي، الذي عُرف عنه منذ أمدٍ قريب لكنه لم يُطبَع حتى الآن.

فور صدور كتابي باللغة الألمانية تلقّيت رسالة من براغ من بروفسور في جامعة محلية يخبرني فيها بوجود كتاب، لم يُطبع في أيّ زمان ومكان، للتشيكي خيلجيتسكي، الذي عاش في القرن الخامس عشر، بعنوان "شبكة الإيمان". في هذا الكتاب، حسبما كتب لي البروفسور، يُعرب خيلجيتسكي، قبل أربعة قرون، عن تلك النظرة ذاتها إلى المسيحية الحقّ والمسيحية الباطلة التي أعربتُ، أنا كذلك، عنها في كتابي "فيمَ تكمن عقيدتي؟"

كتب إلي البروفسور أنّ كتاب خيلجيتسكي يجب أن يصدر، للمرة الأولى، باللغة التشيكية في مجلة أكاديمية بطرسبورغ للعلوم. وبسبب عدم إمكانية الحصول على

الكتاب ذاته حاولت التعرّف إلى ما هو معروف عن خيلجيتسكي، وقد حصلت على هذه الأدلة من كتاب ألماني أرسله إلي البروفسور الذي من براغ ذاته، ومن مؤلّف بيبين "تاريخ الأدب التشيكي".

إليكم ما يرد لدى بيبين:

"(شبكة الإيمان) هي تعليم المسيح الذي يجب أن يسحب الإنسان من الأعماق المظلمة لبحر الدنيا وأكاذيبها. الإيمان الحقيقي يكمن في الإيمان بكلمة الله، لكن الآن جاء زمان يعتبر فيه البشر الإيمان الحقيقي هرطقةً، لذا يجب على العقل أن يشير إلى جوهر الإيمان الحقّ إذا ما كان أحدهم لا يعرف ذلك. لقد حجبته الظلمة عن البشر، وهم لا يعرفون القانون الحقيقي للمسيح".

"لشرح هذا القانون يشير خيلجيتسكي إلى البنيان البدئي للمجتمع المسيحي، ذلك البنيان – يقول هو– الذي تعتبره كنيسة روما في الوقت الراهن زندقةً شنيعة".

"تلك الكنيسة البدئية كانت مثاله الخاص للنظام الاجتماعي القائم على المساواة والحرية والأخوّة. المسيحية – حسب رأي خيلجيتسكي– ما زالت تحتفظ في ذاتها بتلك الأسس، ويلزم فقط أن يعود المجتمع إلى عقيدتها النقية، وحينذاك سوف يغدو أي نظام آخر، يحتاجه الملوك والباباوات، فائضاً عن الحاجة: في كل شيء يكفي قانون المحبة وحده..."

"يُرجع خيلجيتسكي سقوط المسيحية تاريخياً إلى زمن قسطنطين الكبير الذي أدخله البابا سيلفيستر إلى المسيحية مع كلّ الأخلاقيات والحياة الوثنية. قسطنطين، بدوره، خصّ البابا بثروةٍ وسلطة دنيويتين. منذ ذلك الوقت والسلطتان تعاضدان بعضهما بعضاً باستمرار، وتتطلّعان إلى المجد الدنيوي فحسب. الدكاترة وحاملو شهادات الماجستير والشرائح الدينية يهتمون فقط بإخضاع الدنيا كلها لسلطتهم؛ فقاموا بتسليح البشر ليقتلوا ويسلبوا بعضهم بعضاً، وقضوا كلياً على المسيحية في الدين وفي الحياة. يرفض خيلجيتسكي كلياً حقّ الحرب والإعدام: إنّ أيّ محارب، حتى "الفارس"، ليس سوى مُغتصب ومجرم وقاتل".

الشيء ذاته يرد في الكتاب الألماني مع بعض التفاصيل من سيرة خيلجيتسكي ومقتطفات من مراسلاته.

بعد أن عرفتُ، على هذا النحو، جوهر عقيدة خيلجيتسكي انتظرت، بفارغ الصبر، صدور "شبكة الإيمان" في مجلة الأكاديمية. لكن مرّ عام، عامان، ثلاثة، ولم يصدر الكتاب. فقط في عام 1888 علمت أنّ الكتاب، الذي كان قيد الطبع، قد مُنع. فحصلت على مسوّدة ما طُبع منه، وقرأت الكتاب. الكتاب مذهل بكافة المعايير. وقد نقل بيبين محتواه بأمانة مطلقة.

إنّ فكرة خيلجيتسكي الأساسية هي أنّ المسيحية، عندما اتّحدت مع السلطة في عهد قسطنطين وواصلت تطورها في تلك الشروط، انحرفت تماماً وكفّت عن أن تكون مسيحية. أعطى خيلجيتسكي كتابه عنوان "شبكة الإيمان"، مقتبساً إياه من آيات الإنجيل المتعلقة بدعوة التلاميذ إلى أن يصبحوا صيادي بشر، وخيلجيتسكي، مواصلاً هذه المقارنة، يقول: "أسرَ المسيح، بوساطة تلاميذه، في شبكته، عقائد العالم برمّته لكنّ الأسماك الكبيرة انسلّت منها بعد أن مزّقت الشبكة، وعبر الثقوب التي صنعتها هذه الأسماك الكبيرة غادرت بقية الأسماك كلها كذلك، وبالتالي أصبحت الشبكة فارغة تقريباً".

الأسماك الكبيرة، التي مزّقت الشبكة، هي الحكّام والأباطرة والباباوات والملوك الذين، دون أن يرفضوا السلطة، اعتنقوا ليس المسيحية بل قشرتها فقط.

يُعلِّم خيلجيتسكي ما كان يُعلّمه، وما زال يُعلّمه، اللامقاومون المينونيون والكويكرز والبوغوميل[4] والبولصيون[5] وكثيرون غيرهم. يُعلِّم أنّ المسيحية، التي تأمر أتباعها بالوداعة والحِلم وحُسن الخُلق وغفران الإساءة وإدارة الخدّ الآخر عندما يُضرب المرء على خده ومحبة الأعداء، لا تجتمع مع العنف الذي يُعدُّ شرطاً ضرورياً للسلطة.

---

4 – البوغوميل Bogomils (عباد الله): حركة دينية اتُّهمت بالهرطقة، معادية للإقطاع، تنتسب إلى القديس بوغوميل، قامت في البلقان في القرون 10–14، نادت بمشاعية الممتلكات.

5 – البولصيون Paulicians: البولصية حركة دينية مسيحية، اتُّهمت بالهرطقة، ظهرت في أرمينيا في القرن السابع. ينسب أنصارها تعاليمهم إلى بولص الرسول، ويقوم مذهبهم على الثنوية. أقاموا دولة في آسيا الصغرى في أواسط القرن التاسع، قضت عليها الجيوش البيزنطية عام 878 م.

المسيحي – حسب رأي خيلجيتسكي– ليس فقط لا يجوز له أن يكون ضابطاً أو جندياً بل ولا يجوز له قبول أيّ مشاركة في الحكم، ولا يجوز له أن يكون تاجراً أو حتى ملاّكاً، ويمكن له أن يكون حرفياً أو فلاّحاً فقط.

هذا الكتاب هو أحد الكتب النادرة، السالمة من الحرق، التي تُعرّي المسيحية الرسمية. إذ إنّ أمثال هذه الكتب كلها، المُسمّاة هرطوقية، قد أُحرِقت مع مؤلّفيها، بحيث أنّ المؤلّفات القديمة، التي تفضح ارتداد المسيحية الرسمية، قليلة جداً، لذا فإنّ هذا الكتاب يتمتع بأهمية خاصة.

لكنّ هذا الكتاب، عدا عن أنه ممتع، وكيفما نظرنا إليه، هو أحد أكثر نتاجات الفكر روعةً، سواء من حيث عمق المضمون أم من حيث القدرة المذهلة للغته الشعبية وجمالها أم من حيث أسبقيته. غير أنّ هذا الكتاب، رغم مرور قرونٍ أربعة عليه، ظلّ غير مطبوع، ومازال مجهولاً للناس باستثناء العلماء المختصين.

المفروض أنّ كل المؤلّفات التي من هذا القبيل، سواء مؤلّفات الكويكرز أم هاريسون أم باللو أم خالجيتسكي، التي تؤكّد وتُبرهن، استناداً إلى الكتاب المقدّس، أنّ عالمنا يفهم تعليم المسيح فهماً باطلاً، يجب أن تثير الاهتمام والاضطراب والضجة والجدال، سواء وسط رعاة الكنائس أم بين الرعية. المفروض أنّ هذه المؤلّفات، التي تمسّ جوهر الدين المسيحي ذاته، كان الواجب أن يتمّ النظر فيها وإقرار صحتها أو دحضها وتفنيدها. لكن لم يحدث شيء من هذا القبيل. الأمر ذاته يتكرّر مع هذه المؤلّفات كلها. الناس، ذوو الآراء الأشدّ اختلافاً، المؤمنون منهم و – الأمر الجدير بالدهشة – الليبراليون غير المؤمنين، كما لو أنهم متآمرون، جميعهم، بصورة متماثلة، يسكتون عنها بعناد، وكل ما يقوم به أناسٌ من أجل بيان المعنى الحقيقي لتعليم المسيح يبقى مجهولاً أو منسيّاً.

لكنّ ما يثير الدهشة أكثر هو مجهولية مؤلّفَين، علمتُ بهما، أنا كذلك، بمناسبة صدور كتابي، هما كتاب دايموند (Dymond) "عن الحرب" “on war”، الصادر للمرة الأولى في لندن عام 1824، وكتاب دانييل موسرّ Daniel Musser "حول المقاومة"، المكتوب عام 1864. إنّ مجهولية هذين الكتابين تُثير الدهشة بشكل خاص لأنّ كلا الكتابين، ناهيكم عن قيمتهما، لا يبحثان في النظرية بقدر بحثهما في التطبيق العملي

للنظرية في الحياة، ويناقشان موقف المسيحية من الخدمة العسكرية، الأمر الذي له أهمية خاصة في الوقت الراهن في ظلّ الخدمة العسكرية الإلزامية العامة.

ربما يُطرح السؤال التالي: فكيف، إذاً، يجب أن يتصرّف فرد من الرعيّة، يؤمن بأنّ الحرب لا تتوافق مع دينه، عندما تأمره الحكومة بالمشاركة في الخدمة العسكرية؟

يبدو أنّ هذا هو السؤال الأكثر حيويةً، وهو على نحو بحيث أنّ الإجابة عنه، في ظلّ الخدمة العسكرية الإلزامية العامة الراهنة، لها أهمية خاصة. كلّ المسيحيين، أو جُلّهم، جميع الرجال، يُستدعَون إلى الخدمة العسكرية. فكيف، إذاً، على الإنسان أن يردّ – كمسيحي – على هذا المطلب؟ جواب دايموند على النحو التالي:

"واجبه هو رفض أداء الخدمة بوداعة لكن بصلابة".

"هناك أناسٌ يَخلصون، لسببٍ ما ودون أيّ محاكمة محددة كانت، إلى أنّ مسؤولية إجراءات الدولة تقع فقط على عاتق الذين يصدرون الأوامر، أو أنّ الحكّام والملوك هم الذين يُقرِّرون ما هو حسن وما هو سيئ للرعايا، وأنّ على الرعايا الطاعة فحسب. أعتقد أنّ محاكمات كهذه تغشّي ضمائر البشر بالضباب. "لا يمكنني عدم المشاركة في الهيئة الحكومية لذا لستُ مسؤولاً عن جرائمها". صحيح أننا لسنا مسؤولين عن جرائم الحكّام لكننا مسؤولون عن جرائمنا نحن. وجرائم الحكّام تغدو جرائمنا عندما نساعد على ارتكابها رغم علمنا أنها جرائم... أولئك الذين يعتمدون على أنهم مجبرون على طاعة الحكومة، وعلى أنّ مسؤوليتهم عن الجرائم المرتكبة من قِبلهم سوف تُلقى على كاهل سادتهم إنما يكذبون على أنفسهم بأنفسهم. يقولون: إننا نتصرّف حسب إرادة الآخرين، وأفعالنا ليست حسنة وليست سيئة؛ في أفعالنا لا يمكن أن يكون هناك ثواب على الخير أو عقاب على الشرّ، حيث إننا نقوم بها رغماً عنّا".

الملاحظ هو أنّ هذا القول ذاته يرد في كتيب تدريب الجنود الذي يُجبَرون على دراسته، حيث يرد فيه أنّ القائد هو المسؤول عن تبعات الأمر الذي يعطيه. لكنّ هذا غير صحيح. لا يمكن للإنسان التنصل من مسؤوليته عن أفعاله. وهذا يُرى مما يلي: "إذا أمرك القائد بقتل طفل جارك، بقتل أبيك أو أمك، فهل ستطيعه؟ إذا لم تُطِع فلا جدوى من الجدال برمّته لأنك إذا كنت قادراً على عدم طاعة القادة في حالة واحدة؛ فأين

ستضع الحدّ الذي يمكن لطاعتك أن تصل إليه؟ ما من حدٍّ آخر سوى الذي تُحدّده المسيحية، وهذا الحدّ معقول وقابل للتطبيق".

"ولهذا؛ فإننا نرى أنّ من واجب كل إنسان، يعتبر أنّ الحرب والمسيحية لا تجتمعان، أن يرفض، بوداعة لكن بحزم، أداء الخدمة العسكرية. وليعلم الذين يتوجّب عليهم التصرّف على هذا النحو أنّ هناك واجباً عظيماً على كاهلهم. فعلى إخلاصهم لعقيدتهم يتوقّف مصير السلام في الإنسانية، بقدر ما يتوقّف على البشر. فليُبشِّروا بقناعتهم وليدافعوا عنها، ليس بالقول فقط بل وعبر المعاناة إذا لزم الأمر. إذا كنتم تؤمنون بأنّ المسيح قد حرّم القتل فلا تُصدِّقوا أحكام الناس ولا أوامرهم التي تدعوكم إلى المشاركة فيه. من خلال رفضٍ صلبٍ كهذا للمشاركة في العنف تجلبون لأنفسكم البركة التي تُعطى للذين يسمعون هذه الكلمات ويُطبّقونها، ولسوف يأتي زمانٌ يُجلِّكم فيه العالم كمشاركين في بعث الإنسانية".

كتاب موسَّر عنوانه "إقرار اللامقاومة" أو "الفصل بين مملكة المسيح ومملكة العالم"، وقد صدر عام 1864.

هذا الكتاب مُكرّس للمسألة ذاتها، ويقوم بتوضيحها بسبب طلب الحكومة الأمريكية إلى مواطنيها أداء الخدمة العسكرية أثناء الحرب الأهلية. وله قيمة معاصرة كذلك، إذ إنه يُبيّن الظروف التي يجب فيها على الناس، ويمكنهم، رفض أداء الخدمة العسكرية. يقول المؤلِّف في المقدمة:

"معروفٌ أنّ هناك في الولايات المتحدة أناساً يرفضون الحرب بوعي، يدعونهم بالمسيحيين "اللامقاومين" أو "العُزّل". هؤلاء المسيحيون يرفضون الدفاع عن بلدهم، وحمل السلاح، وقتال الأعداء، بموجب أمر الحكومة. حتى الآن كانت الحكومة تحترم هذا المبرِّر الديني، والذين يتبرَّرون به كانوا يُعفَون من الخدمة. لكن، منذ بدء حربنا الأهلية والرأي العام ساخط على هذه الحال. طبيعي أنّ الأشخاص، الذين يعتبرون أنّ من اجبهم تحمّل كل أعباء ومخاطر الحياة العسكرية في سبيل الدفاع عن وطنهم، يشعرون بالسخط تجاه الذين استفادوا معهم، لأمدٍ طويل، من رعاية الدولة ومنافعها، في حين أنهم، في وقت الحاجة والخطر، لا يريدون تحمّل الجهد والخطر للدفاع عنها. طبيعيٌ كذلك أنهم يعتبرون موقف هؤلاء الناس لامعقولاً، شنيعاً ومريباً".

"الكثير من المؤلِّفين والكتّاب – يقول الكاتب– انتفضوا ضدّ هذا الموقف، وحاولوا إثبات عدم صواب اللامقاومة، سواء تبعاً للعقل السليم أم للكتب المقدسة، وهذا طبيعي تماماً، وفي كثير من الحالات هؤلاء الكتّاب محقّون؛ هم محقّون فيما يتعلق بالأشخاص الذين يرفضون تحمّل أعباء الخدمة العسكرية دون أن يرفضوا المكاسب التي يحصلون عليها من الحكومات، لكنهم ليسوا محقّين فيما يتعلق بمبدأ "اللامقاومة" ذاته. بادئ ذي بدء يبرهن الكاتب إلزامية قاعدة اللامقاومة بالنسبة للمسيحي؛ بأنّ هذا الفرض قد فرضه المسيح بجلاء على كافة المسيحيين دون أيّ احتمالٍ للتأويل.

"إن كان حقّاً أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله، فاحكموا" – يقول بطرس ويوحنا. على هذا النحو تماماً يجب على كل إنسان، يرغب في أن يكون مسيحياً، أن يتعامل مع طلب الذهاب إلى الحرب، فقد قال له المسيح: "لاتقاوم الشرَّ بالعنف".

بهذا يرى الكاتب أنّ مسألة المبدأ ذاته محسومة. لكنّ السؤال الآخر، المتعلق بما إذا كان يحقّ للأشخاص، الذين يقبلون المكاسب المعطاة لهم عبر عنف السلطة، رفض أداء الخدمة العسكرية، فالكاتب يعالجه بالتفصيل، ويَخلص إلى أنّ المسيحي، الذي يتّبع شرعة المسيح، إذا كان لا يذهب إلى الحرب فكذلك تماماً لا تجوز له المشاركة في أيٍّ من الدوائر الحكومية: لا في القضاء، ولا في الانتخابات. كذلك تماماً لا يجوز له اللجوء إلى السلطة أو الشرطة أو القضاء في شؤونه الشخصية.

بعد ذلك يعالج الكتاب العلاقة بين العهدين القديم والجديد، ومدى أهمية الحكومة لغير المسيحيين. ويُورد الاعتراضات على عقيدة اللامقاومة ويقوم بتفنيدها. ثم يختتم المؤلِّف كتابه بما يلي:

"المسيحيون ليسوا بحاجة إلى الحكومة لذا لا يجوز لهم طاعتها في ما يناقض تعليم المسيح، ناهيكم عن المشاركة فيها".

يقول الكاتب: "لقد اختار المسيح تلاميذه من العالم، وهم لا ينتظرون مكاسب أو سعادة دنيوية بل، على العكس، ينتظرون حياةً أبدية. الروحية التي يعيشون بها تجعلهم راضين وسعداء في جميع الأحوال. فإذا ما احتملهم العالم فهم راضون دائماً، أما إذا لم يتركهم العالم وشأنهم فسيذهبون إلى مكان آخر؛ فهم جوّالون في الأرض، وليس لديهم

مكان محدّد للعيش فيه. يرون أنّ الموتى يستطيعون دفن موتاهم، بينما هم يلزمهم شيء واحد فقط: "اتّباع مُعلّمهم".

من دون التطرّق إلى مسألة صحة أو عدم صحة تحديد واجب المسيحي فيما يتعلق بالحرب، والتي يتمّ بحثها في كلا الكتابين، من المستحيل عدم رؤية أهمية وحيوية حلّ هذه المسألة.

هناك أناس، هناك مئات آلاف الكويكرز، هناك المينونيون، هناك دوخوبوريونا[6] كلهم والمَلَكانيون[7]، هناك أناسٌ لا ينتمون إلى طائفة محددة، والذين يرون أنّ العنف، وبالتالي الخدمة العسكرية، لا يجتمع مع المسيحية لذا، في كل عام، لدينا في روسيا، يرفض بعض الناس أداء الخدمة العسكرية حين يُستدعون إليها بناءً على قناعاتهم الدينية. فكيف تتصرّف الحكومة؟ هل تقوم بتسريحهم؟ - لا. هل تجبرهم على الالتحاق بالخدمة، وتعاقبهم في حال الرفض؟ - لا. عام 1818 تصرّفت الحكومة على النحو التالي: إليكم مقتطفات من يوميات نيكولاي بافلوفيج مورافيوف – كارسكي، غير المعروفة لأحد تقريباً في روسيا، والتي لم تسمح الرقابة بنشرها.

2 تشرين الأول / أوكتوبر 1818. تيفليس

أخبرني القومندان صباحاً بأنه، منذ فترة قريبة، تمّ إرسال خمسة فلاحين من ملاّكي مقاطعة تامبوف إلى جورجيا. لقد سيق هؤلاء الناس إلى الجندية لكنهم يرفضون أداء الخدمة، وقد جُلدوا بالسياط عدة مرات وتمّ اقتيادهم إلى القطعة العسكرية لكنهم يُسلّمون أنفسهم، طوعاً، لأقسى أشكال التعذيب بل وللموت حتى لا يخدموا. يقولون: "أخلوا سبيلنا، ولا تمسّوا بنا فنحن لن نمسّ بأحد. كل البشر سواسية، والحاكم إنسان مثلنا؛

---

[6]- الدوخوبوريون Dukhobors (المناضلون الروحيون): وهم أتباع فرقة من "المسيحيين الروحانيين"، ظهرت في روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. تنكر الطقوس والأسرار الأرثوذكسية والإكليروس والرهبنة، وترفض السلطات الدنيوية والحروب. هاجر أعضاؤها إلى كندا بسبب القمع في أواخر القرن التاسع عشر.

[7]- المَلَكانيون Molokanes: المَلَكانية أو "الحليبية" هي فرقة من المسيحيين الروحانيين ظهرت في روسيا في النصف الثاني من القرن الثامن عشر. ينكر أتباعها الإكليروس والكنائس، يقيمون الصلاة في البيوت. أطلقوا على مذهبهم اسم "الحليب الروحي النقي".

فلماذا علينا دفع الضرائب له، لماذا عليّ تعريض حياتي للخطر لكي أقتل، في الحرب، إنساناً لم يصنع بي شرّاً؟ يمكنكم تمزيقنا إرباً لكننا لن نغيّر أفكارنا، لن نرتدي معاطف الجنود، ولن نتناول حصصنا من الطعام. من يشفق لحالنا يتصدّق علينا، ونحن لم نكتنز، ولا نريد أن نكتنز، شيئاً". هذه هي أقوال أولئك الرجال الذين يُؤكِّدون وجود الكثيرين من أمثالهم في روسيا. لقد ساقوهم إلى مجلس الوزراء أربع مرات، وفي نهاية المطاف قُرِّر أن يَمثلوا أمام الملك الذي أمر بإرسالهم إلى جورجيا من أجل إصلاحهم، وأمر القائد الأعلى بأن يُطلعه على النجاحات التدريجية في إيصال هؤلاء الفلاحين إلى جادة الصواب."

ما الذي انتهى إليه هذا الإصلاح؟ لا أحد يعلم، إذ لا أحد يعلم بالحادثة برمّتها، والتي حُفظت على أنها "سري للغاية".

هكذا تصرّفت الحكومة قبل 75 سنة. هكذا تصرّفت في معظم الحالات التي أُخفيت بعناية عن الشعب دائماً. هكذا تتصرّف الآن كذلك باستثناء المينونيين الألمان الذين يعيشون في مقاطعة خيرسون، والذي يُعدُّ رفضهم أداء الخدمة العسكرية محلّ احترام، ويُرغمون على قضاء فترة خدمتهم في العمل في الغابات. وفي حالات قريبة العهد لرفض أداء الخدمة العسكرية، من قِبل غير المينونيين، تبعاً لقناعات دينية، تصرّف موظفّو الدولة على النحو التالي:

في البداية استخدموا كافة وسائل العنف، المستخدمة في وقتنا الراهن، من أجل "إصلاح" الرافضين وإيصالهم إلى "جادة الصواب"، وقاموا بحفظ نتيجة هذه الملفّات بسرية عظيمة. لدي علم بأنه، في قضية أحد رافضي أداء الخدمة عام 1884 في موسكو، بعد مرور شهرين على رفضه، تشكّلت إضبارة سميكة وضخمة، حُفظت في الوزارة كملفّ سرّي للغاية.

يبدأ الأمر عادةً من أنهم يرسلون الرافض إلى القساوسة، وهم – يا للعار– دائماً يعظون الرافضين. لكن، بما أنّ الوعظ باسم المسيح – الكفر بالمسيح– يكون دون جدوى في معظم الحالات، فإنهم يرسلون الرافض، بعد الوعظ، إلى الجندرمة. الجندرمة عادةً، إذ لا يجدون أيّ شيء سياسي، يعيدونه إلى حيث كان، وحينها يرسلون الرافض إلى العلماء، إلى الأطباء في مستشفى المجانين. أثناء هذا النقل كله، الرافض، المحروم

من الحرية، يتعرّض لشتّى أشكال الإهانات والتعذيب كمجرمٍ مدان (تكرّر هذا الأمر في الحالات الأربعة). يُخرج الأطباء الرافض من مستشفى المجانين، وحينها تبدأ مختلف الإجراءات السرية الخبيثة حتى لا يتمّ إخلاء سبيل الرافض، ولكي لا يُشجِّع الآخرون على الرفض اقتداءً به، بالإضافة إلى عدم تركه بين الجنود لكي لا يعلم الجنود منه أنّ استدعاءهم إلى الخدمة العسكرية لا يتمّ قطعاً بموجب شرع الله، كما يؤكِّدون لهم، بل على النقيض من شرع الله.

كان الأسهل للحكومة إعدام الرافض: ضربه بالعصي حتى الموت، أو بأيّ طريقة أخرى كما كانت تفعل فيما مضى، لكنّ إعدام إنسان بصورة مكشوفة لأنه مخلص للدين الذي نحن أنفسنا نُبشِّر به أمر ممنوع، وترك إنسانٍ يرفض الخضوع أمر غير جائز كذلك. وها هي الحكومة تحرص على إرغام هذا الإنسان، من خلال التعذيب، على الكفر بالمسيح، أو التخلّص منه بطريقة غير ملحوظة، لكن ليس عبر إعدامه علناً بل عبر إخفاء سلوك هذا الإنسان، وإخفائه هو ذاته، عن الآخرين بطريقةٍ ما. وتبدأ شتى أنواع الفخاخ والمكائد والتعذيب في حقّ هذا الإنسان. فإما أن يتم نفي هذا الإنسان إلى الأقاصي البعيدة أو أن يُتّهم بالعقوق وعندها يُحاكَم على خرق النظام ويُدخَل السجن، أو يُرسَل إلى سَرية التأديب حيث يُعذِّبونه بحرية في خفيةٍ عن الجميع، أو يعتبرونه مجنوناً ويودعونه مستشفى المجانين. فعلى سبيل المثال، نُفي أحدهم إلى طشقند، وكأنما نقلوه إلى القوات التي في طشقند، وآخر إلى أومسك، وأُدين ثالث بالعقوق وأُدخل السجن، أما الرابع فإلى مستشفى المجانين.

في كلّ مكان يتكرّر الأمر ذاته. ليست الحكومة فقط بل ومعظم الليبراليين، أصحاب الفكر الحرّ، كما لو أنهم متواطئون، يديرون ظهورهم بحرص لكلّ ما قيل وكُتب وفُعل ويُفعَل من قِبل الناس لفضح عدم توافق العنف، في أشدّ أشكاله هولاً وفظاظةً ووضوحاً - في الجندية، أي الاستعداد لقتل أيٍّ كان- ليس مع تعاليم المسيحية فحسب بل ومع الإنسية Humanism على الأقل، والتي يبدو أنّ المجتمع يدعو إليها.

إنّ الطبقات العليا، الحاكمة، ليس في روسيا وحدها بل وفي أوروبا وأميريكا، جعلتني أتيقّن من وجود علاقة عدائية متعمّدة، لدى هذه الطبقات الحاكمة، تجاه المسيحية الحقّ تتجلّى، غالباً، في السكوت عن كافة تجلياتها.

II

هذه الرغبة في إخفاء وإسكات كل ما حاولت قوله في كتابي أثارت لديّ أفكاراً بشأنها.

مُنع كتابي عند صدوره، كما كنت أتوقّع، وبموجب القانون كان يجب حرقه، لكنّ الكتاب، بدلاً من حرقه، دُرس من قِبل الموظفين، وانتشر، في قُصاصات وطبعات ليتوغرافية [حجرية]، وفي ترجماتٍ طُبعت خارج البلاد، بأعداد كبيرة.

وبسرعة كبيرة ظهرت الانتقادات الموجَّهة لكتابي، وهي ليست دينية فحسب بل ودنيوية كذلك، والتي لم تسمح بها الحكومة فقط بل وشجّعتها، بحيث أنّ حتى دحض الكتاب، الذي عُدّ مجهولاً للجميع، أصبح مادةً للمؤلَّفات اللاهوتية في الأكاديميات.

نقّاد كتابي، سواء الروس أم الأجانب، ينقسمون إلى نوعين رئيسين: النقّاد المتدينين، وهم الذين يعتبرون أنفسهم مؤمنين، والنقّاد الدنيويين ذوي الفكر الحرّ.

سأبدأ من الأولين:

في كتابي، أنا أتّهم مُعلّمي الكنيسة بأنهم يُعلِّمون ما يناقض وصايا المسيح التي عبّر عنها، بوضوح وبصورة قاطعة، في الموعظة على الجبل، وبشكل خاص ما يناقض الوصية القائلة بعدم مقاومة الشرّ، وأنهم بهذا يُفقدون تعليم المسيح قيمته كلها. يعترف معلِّمو الكنيسة بالموعظة على الجبل مع الوصية المتعلقة بعدم مقاومة الشرّ بالعنف وحياً إلهياً، وبالتالي، فما داموا قد وجدوا أنّ من الضروري الكتابة عن كتابي فلا بدّ لهم، باديْ ذي بدء، من أن يردّوا على هذه النقطة الرئيسة في الاتّهام، وأن يقولوا صراحةً ما إذا كانوا يعتبرون الموعظة على الجبل والوصية المتعلقة بعدم مقاومة الشرّ بالعنف مُلزمتين للمسيحي أم لا، لا أن يردّوا كما يفعلون عادةً، أي أن يقولوا: "رغم أنه لا يمكن نفي ذلك من جهة، لكن من جهة أخرى لا يمكن تأكيده، خاصةً وأنّ... إلخ" بل أن يجيبوا مثلما طُرح السؤال في كتابي: "هل طلب السيح فعلاً من تلاميذه تطبيق ما علّمهم إياه في الموعظة على الجبل، وبالتالي هل يجوز للمسيحي أم لا اللجوء إلى القضاء، مُديناً الناس أو باحثاً عن حماية القوة، مع بقائه مسيحياً؛ هل تجوز للمسيحي أم لا، مع بقائه مسيحياً، المشاركة في الإدارات، مستخدماً العنف ضدّ أقربائه، وخاصةً الخدمة

الإلزامية العامة التي تواجه الجميع في الوقت الراهن؛ السؤال هو: هل يجوز للمسيحي أم لا، مع بقائه مسيحياً، أن يتعهّد، في تناقضٍ مع أمر المسيح الصريح، بالمشاركة في الأعمال المستقبلية المناقضة للدين صراحةً، وأن يتجهّز، عبر التحاقه بالخدمة العسكرية، لقتل البشر أو القيام بذلك؟"

الأسئلة موضوعة بصورة واضحة وصريحة، والمفروض أن يتم الردّ عليها بذات الوضوح والصراحة. لكن، في كافة الانتقادات الموجّهة إلى كتابي، لم يُصنع شيء من هذا القبيل، تماماً كما لم يُفعل شيء فيما يتعلق بكافة محاولات فضح ارتداد معلّمي الكنيسة عن شرع المسيح، والتي يمتلئ بها التاريخ منذ أيام قسطنطين.

قيل الكثير جداً حول كتابي؛ قيل إني أُفسّر هذا الموضع أو ذاك تفسيراً خاطئاً، وإني على ضلالة إذ لا أعترف بالثالوث والتكفير عن الذنوب وخلود النفس؛ قيل الكثير جداً لكن لم يُقَل الشيء الوحيد الذي يشكّل، بالنسبة لأيّ مسيحي، سؤال الحياة الرئيس والجوهري: كيفية الجمع بين التعليم حول العفو والوداعة والزُّهد ومحبة الكلّ: الأقربين والأعداء، المعبَّر عنه بوضوح في أقوال المعلِّم وفي قلب كلٍّ منا، وبين متطلبات العنف الحربي تجاه البشر، سواء كانوا من شعبنا أم من شعب غريب؟

كل ما يمكن تسميته أشباه إجابات عن هذا السؤال يمكن حصره في الفئات الخمس التالية. وقد حاولت، بهذا الخصوص، أن أجمع كل ما استطعت جمعه من خلال كل ما كُتب حول هذا الموضوع من قبل، وليس من خلال الانتقادات الموجّهة إلى كتابي فقط.

الطريقة الأولى والأكثر فظاظة للإجابة تكمن في التأكيد الجريء بأنّ العنف لا يناقض تعليم المسيح، وبأنه مباح بل حتى مفروض على مسيحيي العهدين القديم والجديد.

هذا النوع من التأكيد يأتي، بمعظمه، من أناسٍ يتربّعون على أعلى درجات المراتبية الحكومية أو الدينية، ونتيجةً لذلك هم متأكدون تماماً من أنّ أحداً لن يجرؤ على الاعتراض على تأكيداتهم، وإذا ما اعترض أحد فإنهم لن يُصغوا إلى هذه الاعتراضات. معظم هؤلاء الناس، من جرّاء خُدار السلطة، فقدوا القدرة على تصوّر أنّ هناك مسيحية يشغلون مواقعهم باسمها، وكل ما هو مسيحي هو طائفوية بالنسبة إليهم، ويعتبرون كل ما هو مكتوب، سواء في العهد القديم أم الجديد، ويمكن تفسيره بمعانٍ وثنية معادية

للمسيحية، أساس المسيحية. ولكي يُثبتوا أنّ المسيحية لا تتناقض والعنف يُورِد هؤلاء الناس، بجرأةٍ هائلة عادةً، أكثر المواضع إغواءً من العهدين القديم والجديد، مُفسِّرين إياها بأكثر الأشكال لامسيحيةً: موت حنانيا وسفيرة، موت سيمون الساحر، إلخ. يتم إيراد كل أقوال المسيح التي يمكن تأويلها كتبريرٍ للقسوة: الطرد من الهيكل، "إنه يكون لسدوم في ذلك اليوم حالة أكثر احتمالاً مما لتلك المدينة...الخ" (إنجيل لوقا: 10، 12).

وفق مفاهيم هؤلاء الناس، الحكومة المسيحية ليست ملزمة على الإطلاق بأن تسترشد بروح الوداعة والعفو عن الإساءة ومحبة الأعداء.

لا جدوى من تفنيد تأكيدٍ كهذا لأنّ الناس، الذين يؤكِّدون هذا، يدحضون أنفسهم بأنفسهم أو، بالأحرى، يتنكّرون للمسيح، مختلقين مسيحهم محلّ الذي باسمه توجد الكنيسة والمواقع التي يشغلونها فيها. لو عرف البشر جميعاً أنّ الكنيسة تُبشِّر بمسيحٍ يعدم ولا يغفر، بمسيحٍ يقتل، لما آمن أحد بهذه الكنيسة، ولما كان بمقدور أحد برهان ما تُبرهنه الكنيسة.

الطريقة الثانية، الأقلّ فظاظةً بعض الشيء، تكمن في التأكيد على أنّ المسيح قد علّم فعلاً تقديم الخدّ الآخر وإعطاء الرداء، وعلى المطلب الأخلاقي السامي، لكن رغم ذلك... بما أنّ هناك أشرار في الدنيا؛ فإنه إذا لم يتم قمع هؤلاء الأشرار فسوف يهلك العالم برمّته، وسيهلك الأبرار. وقد عثرت على هذه الحجة، للمرة الأولى، لدى يوحنا فم الذهب، وقد أظهرت عدم صحتها في كتابي "فيمَ تكمن عقيدتي؟"

ما من أساس لهذه الحجة لأننا إذا سمحنا لأنفسنا بأن نعتبر أناساً ما أشراراً فإننا – أولاً– نقضي بهذا على مجمل معنى التعليم المسيحي الذي، بموجبه، كلنا سواسية وإخوة كأبناءٍ للأب السماوي الواحد الأحد؛ وثانياً، حتى لو أنّ الله قد أباح استخدام العنف ضدّ الأشرار؛ فبما أنه يستحيل علينا إيجاد التحديد الصحيح واليقيني الذي يمكننا بموجبه معرفة الأشرار من غير الأشرار فيمكن لكل الناس، أو لمجتمع البشر، أن يعتبروا بعضهم بعضاً أشراراً، وهو ما يحدث الآن. ثالثاً، حتى لو كان بالإمكان تمييز الأشرار من غير الأشرار، بصورة يقينية، فحتى في تلك الحالة لا يجوز في المجتمع المسيحي إعدام الأشرار أو تشويههم أو وضعهم في السجون لأنه، في المجتمع المسيحي، لا يحقّ

لأحد القيام بذلك لأنّ المسيحي، باعتباره مسيحياً، مفروضٌ عليه عدم ممارسة العنف تجاه الأشرار.

الطريقة الثالثة للإجابة، والأكثر دقّةً مما سبق، تتمثّل في التأكيد على أنّ وصية عدم مقاومة الشرّ بالعنف، رغم أنها مُلزمة للمسيحي عندما يكون الشرّ موجّهاً ضده شخصياً فإنها لا تعود مُلزمة عندما يكون الشرّ موجّهاً ضد الأقربين، وأنّ المسيحي آنذاك ليس فقط غير ملزم بتطبيق الوصية بل يجب عليه، من أجل حماية الأقربين، استخدام العنف ضد العنيفين، على النقيض من الوصية.

هذا التأكيد متعسّف تماماً، وفي تعاليم المسيح كلّها يستحيل العثور على إثبات لهذا التفسير. إنّ تفسيراً من هذا القبيل ليس تقييداً للوصية فحسب بل نفيٌ صريح لها وقضاء عليها. إذا كان يحقّ لكل الناس استخدام العنف عندما يتهدّد الخطر أحداً آخر فإنّ مسألة استخدام العنف تقود إلى السؤال: ما الذي يُعدُّ خطراً مُهدِّداً؟ فإذا كان حكمي الخاص هو الذي يقرّر مسألة الخطر بالنسبة لشخص آخر فما من حالة من حالات العنف إلاّ ويمكن تبريرها بالخطر المُهدِّد للآخر. لقد تمّ إعدام السحرة وحرقهم، وإعدام الأرستقراطيين والجيرونديين، وأُعدم أعداؤهم كذلك، لأنّ الذين كانوا في السلطة اعتبروهم خطراً على الناس.

أما إذا كان هذا التقييد الهام، الذي ينسف معنى الوصية من جذوره، قد خطر للمسيح فكان لا بدّ له من التذكير به في مكانٍ ما. لكن في مواعظ المسيح كلها، وفي حياته، ليس لم فقط لم يُوضع هذا التقييد بل، على العكس، تمّ التحذير من هكذا تقييد باطل ومغوٍ ومُهلك للوصية. إنّ خطأ وعدم جواز هذا التقييد يظهر، بمنتهى الوضوح، في الكتاب المقدّس أثناء الحديث عن مجادلة قيافا الذي قام بهذا التقييد بالذات. فقد أقرّ بأنّ إعدام يسوع البريء ليس أمراً حسناً لكنه رأى فيه خطراً ليس عليه هو وإنما على الشعب كله، ولهذا قال: "خيرٌ لنا أن يموت إنسانٌ واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلّها!" وبوضوح أكثر أُفصح عن نفي هذا التقييد في الكلمات التي قيلت لبطرس عند محاولته مقاومة الشرّ الموجّه ضد يسوع بالعنف. لم يكن بطرس يدافع عن نفسه وإنما عن معلّمه الحبيب. وقد منع المسيح هذا صراحةً قائلاً إنّ من يأخذ السيف بالسيف يهلك.

فضلاً عن أنّ تبرير العنف، المستخدم ضدّ الأقربين لحماية قريبٍ آخر من عنف أسوأ، خاطئ تماماً لأنه، عند استخدام العنف ضدّ من لم يرتكب الشرّ بعد، لا يمكن على الإطلاق معرفة أيّ شرّ سيكون أكبر– شرّ عنفي أم شرّ العنف الذي أُريد الحماية منه. إننا نقوم بإعدام المجرم، مُخلِّصين المجتمع منه، ولا يمكننا على الإطلاق معرفة ما إذا كان المجرم السابق سيتغير غداً أم لا، أم أنّ إعدامنا له قسوةً لا جدوى منها. نقوم بسجن عضو المجتمع الخطر، برأينا، لكن اعتباراً من الغد قد يكفّ هذا الإنسان عن أن يكون خطراً، وبالتالي فاعتقاله عبث. أرى مجرماً، أعرفه من قبل، يلاحق فتاة، وفي يدي سلاح، فأقوم بقتل المجرم، وأنقذ الفتاة، لكنّ موت المجرم أو جرحه حدث دون أن أعرف، ربما، ماذا كان سيحدث لو لم يحدث هذا. ما مدى ضخامة كمية الشرّ الذي يجب أن يحدث، وهو يحدث، من جرّاء منح البشر أنفسهم الحقّ في الاحتراس من الشرّ الذي قد يحدث. 99% من شرور العالم، بدءاً من التعذيب القاسي وصولاً إلى قنابل الديناميت وإعدام وتعذيب عشرات الآلاف ممّن يسمّونهم مجرمين سياسيين، تقوم على هذه المحاكمة.

الجواب الرابع، الأكثر دقةً، عن السؤال: كيف يجب على المسيحي التعامل مع وصية عدم مقاومة الشرّ بالعنف؟ يكمن في التأكيد على أنّ وصية عدم مقاومة الشرّ بالعنف لا تُنفى من قِبلهم بل يُعتَرف بها، مثل أيّ وصية أخرى، لكنهم لا ينسبون، فحسب، لهذه الوصية معنى استثنائي خاص، كما يفعل أهل الطوائف. إنّ جعل هذه الوصية شرطاً ثابتاً للحياة المسيحية - كما يفعل هاريسون وباللو ودايموند والكويكرز والشيكرز والمينونيت، وكما يفعل الإخوان المورافيون والوالدينيون والألبيغون[8] والبوغومول والبولصيون– إنما هي طائفوية وحيدة الاتجاه. ليست لهذه الوصية قيمة أقل أو أكثر من الوصايا الأخرى، والإنسان الذي يخرق - بسبب ضعفه– أياً من الوصايا يظلّ مسيحياً إذا ما كان إيمانه صحيحاً.

8- الألبيغون Albigeois: طائفة دينية مسيحية، قامت في فرنسا وإيطاليا وألمانيا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. رفض أتباعها الولاء للكنيسة الكاثوليكية، وأنكروا الاعتقاد بالثالوث والأسرار الكنسية وتقديس الصليب والأيقونات. قُضي عليهم نهائياً في أواخر القرن الثالث عشر.

هذه المراوغة حاذقة جداً، وكثير من الناس، من الراغبين في أن يُخدعوا، يسهل خداعهم. تكمن الحيلة في تحويل النفي الصريح المتعمَّد للوصية إلى خرقٍ عرَضيٍّ لها. لكن يكفي فحسب مقارنة تعامل معلّمي الكنيسة مع هذه الوصية ومع الوصايا الأخرى التي يعترفون بها فعلاً حتى يقتنع المرء بأنّ معاملة معلّمي الكنيسة للوصايا التي يقرّونها ولهذه الوصية مختلف تماماً. فهم يعترفون فعلاً بالوصية التي تُحرّم الزنى ولهذا فهم لا يُقرّون أبداً، ولا بأي حال من الأحوال، بأنّ الزنى ليس شرّاً. لا يشير وعّاظ الكنيسة أبداً إلى الحالات التي يجب فيها خرق وصية تحريم الزنى، ويُعلِّمون دائماً وجوب تجنّب الغوايات التي تؤدّي إلى فتنة الزنى. لكنّ الأمر ليس ذاته مع وصية اللامقاومة. جميع وعّاظ الكنيسة يعرفون متى يمكن خرق هذه الوصية. وهكذا يعلِّمون الناس. وليس فقط لا يُعلِّمون ضرورة تجنّب الغوايات، التي أهمها القَسَم، بل هم أنفسهم يخلقونها. الوعّاظ الكنسيون لا يدعون أبداً، بأيّ حال من الأحوال، إلى خرق أيّ وصية أخرى. لكن فيما يتعلق بوصية عدم المقاومة فهم يُعلِّمون صراحةً وجوب عدم فهم هذا المنع بشكل مباشر جداً، وأنه ليست فقط لا توجد حاجة لتطبيق الوصية دائماً بل وأنّ هناك ظروفاً وحالاتٍ يجب فيها القيام بالنقيض تماماً، أي الإدانة والقتل والإعدام. وبالتالي؛ في حالة وصية عدم مقاومة الشرّ بالعنف يوعَظ، في معظم الحالات، بكيفية عدم تطبيقها. إنّ تطبيق هذه الوصية – هم يقولون- أمر بالغ الصعوبة، وجديرٌ بالكمال فقط. لكن كيف لها ألاّ تكون صعبة عندما ليس فقط لا يُمنع خرقها، وإنما يُشجَّع عليه صراحةً عندما تتمّ مباركة الحكّام والسجون والمدافع والأسلحة والجيوش والحروب. ليس صحيحاً، إذاً، أنّ الوعّاظ الكنسيين يعترفون بتساوي هذه الوصية مع الوصايا الأخرى. الوعاظ الكنسيون ببساطة لا يعترفون بها، وبسبب عدم جرأتهم على الاعتراف بذلك يحاولون إخفاء عدم اعترافهم بها.

هذه هي الطريقة الرابعة للإجابة.

الطريقة الخامسة، وهي أكثرها دقةً وشيوعاً وقدرةً، تكمن في العزوف عن الردّ؛ في التظاهر بأنّ هذه المسألة قد حُسمت، من قِبل أحدهم، منذ زمنٍ بعيد، بشكل واضح ومقنع كلياً، وأنه ما من داعٍ للتحدث عنها.

هذه الطريقة يستخدمها كافة الكتاب المتدينين، المثقفين بدرجة أو بأخرى، أي الذين يشعرون بأنّ قوانين المنطق مُلزمة لهم. عارفين أنّ التناقض القائم بين تعاليم المسيح التي نعتنقها بالأقوال وبين مجمل نظام حياتنا لا يمكن حلّه عن طريق الكلمات، وأنه عند التطرّق إليه يغدو أكثر جلاءً فحسب، هم، بمهارة تزيد أو تنقص، متظاهرين بأنّ مسألة الجمع بين المسيحية والعنف قد حُسمت، أو لا وجود لها على الإطلاق، يقفزون من فوقها.[9]

معظم الانتقادات الدينية الموجَّهة إلى كتابي تستخدم هذه الطريقة. ويمكنني إيراد العشرات من انتقادات كهذه، والتي يتكرّر فيها كلها، دونما استثناء، الأمر ذاته: يجري الحديث عن كلّ شيء ولكن فقط ليس عن مّا يُشكّل الموضوع الرئيسي للكتاب. كمثالٍ تقليديّ عن انتقادات كهذه سأورد مقال الكاتب والواعظ الإنكليزي المتفاصح، أستاذ المواربات والسكوتات العظيم، مثل كثيرين من علماء اللاهوت، فارّار. صدر هذا المقال في مجلة (Forum) الأمريكية، في تشرين الأول عام 1888.

بعد أن يعرض محتوى كتابي بأمانة وإيجاز، يقول فارّار: "توصّل تولستوي إلى قناعة مفادها أنّ العالم قد كُذِب عليه عندما تمّ إقناع البشر بأنّ تعليم المسيح "لا تقاوموا الشرّ بالشرّ" لا يجتمع مع الحرب والمحاكمات والإعدام والطلاق والقسَم، ومع الأهواء الشعبية، ومع معظم مؤسسات الحياة الأهلية والاجتماعية بشكل عام. هو يؤمن بأنّ ملكوت الله سوف يحلّ الآن إذا ما طبّق البشر خمس وصايا للمسيح، وبالتحديد: 1)

9- أعرف مقالة واحدة فقط، ليست نقدية بالمعنى الدقيق للكلمة، تبحث في الموضوع ذاته، وتعالج كتابي، دون أن تتراجع عن هذا التعريف العام. إنها نشرة ترويتسكي (من مدينة كازان) "محادثة على الجبل". من الواضح أنّ الكاتب يعترف بتعليم المسيح بمعناه الحقيقي. يقول إنّ وصية عدم مقاومة الشرّ بالعنف تعني ما تعنيه تماماً، والأمر ذاته فيما يتعلق بوصية عدم القَسَم. هو لا ينفي معنى تعليم المسيح، كما يفعل الآخرون، لكنه، للأسف، لا يستنتج من هذا الاعتراف الاستنتاجات الحتمية التي تنبثق من تلقاء ذاتها في حياتنا عندما يُفهم تعليم المسيح على هذا النحو. إذا كانت وصيتا عدم مقاومة الشرّ بالعنف وعدم القَسَم مُلزمتين؛ فإنّ أيّ شخص سوف يسأل بالطبع: وماذا عن الخدمة العسكرية؟ وأداء اليمين؟ عن هذا السؤال بالتحديد لا يعطي الكاتب جواباً، ولا بدّ من إعطاء جواب. وإذا كان إعطاء جواب متعذّراً فعدم التكلّم أفضل لأنّه يخلق بلبلة. (تولستوي)

العيش بسلام مع الناس كافة؛ 2) عيش حياة طاهرة؛ 3) عدم القسَم؛ 4) عدم مقاومة الشرّ قط؛ 5) نبذ الاختلافات بين الشعوب.

"تولستوي – يقول هو– ينفي ألوهية وحي العهد القديم والرسالات، ويرفض كافة دوغمات الكنيسة مثل: الثالوث والتكفير عن الذنوب وحلول الروح القدس والقداسة، ويعترف فقط بأقوال ووصايا المسيح. لكن هل هذا التفسير لتعليم المسيح تفسير صحيح؟ هل جميع الناس مُلزَمون بأن يتصرّفوا كما يُعلِّم تولستوي، أي تطبيق وصايا المسيح الخمس؟"

كنت أتوقّع أنّ فارّار، ردّاً على هذا السؤال الجوهري، الوحيد القادر على تحريض الإنسان على كتابة مقال عن الكتاب، سيقول إنّ هذا التفسير لتعليم المسيح صحيح ويجب اتّباعه، أو سيقول إنه تفسير خاطئ، وسيبرهن: لماذا، ويُقدِّم تفسيراً آخرَ للأقوال التي أفسِّرها تفسيراً خاطئاً. لكنه لا يفعل أيّ شيء من هذا القبيل. فارّار يُعرب فحسب عن "قناعته" بأنّ تولستوي، رغم أنه منقاد لصفاء نيّةٍ نبيل، قد وقع في غواية التفسيرات الخاصة ووحيدة الجانب للإنجيل ولفكر المسيح وإرادته.

فيمَ تكمن هذه الغواية؟ لا يُوضِّح ذلك، وإنما يقول فقط: "الدخول في إثبات هذا ليس ممكناً في هذا المقال لأنني، حتى في هذه الحالة، قد تجاوزت عدد الصفحات المسموح لي بها".

ويختتم بقلب مطمئن: "غير أنّ القارئ، إذا ما شعر بالارتباك من فكرة أنّ عليه، كمسيحي، مثل تولستوي، أن يهجر ظروف حياته المعتادة، وأن يعيش كعامل بسيط، فليطمئن وليتمسك بالمبدأ القائل: "Securus judicat ordis terrarum" [العالم كله يُحاكِم بلا تروٍّ]. بغضّ النظر عن استثناءات قليلة، – يواصل هو– المسيحية برمّتها، منذ عهد الرسل حتى أيامنا هذه، قد وصلت إلى قناعة مفادها أنّ غاية المسيح كانت إعطاء البشر مبدأً عظيماً، وليس هدم أسس المجتمع الإنساني برمّته، المُثْبَتة بناءً على إقرار إلهي، وعلى الضرورة. أما إذا كانت مهمتي هي إثبات مدى استحالة العقيدة الشيوعية التي يُقيمها تولستوي على التناقضات الظاهرية الإلهية (يا للعجب!)، والتي يمكن تفسيرها فقط بالاعتماد على المبادئ التاريخية بالتوافق مع كافة طرائق تعليم المسيح، فإنّ هذا يحتاج إلى مساحة أكبر من التي تحت تصرّفي".

يا للمرارة، لا مساحة لديه! والمثير للاستغراب أنه طوال خمسة عشر قرناً لم تتوفّر المساحة لأحد لكي يُثبت أنّ المسيح، الذي نتّبعه، لم يقل قط ما قاله. وأنّ بمقدورهم إثبات ذلك لو أرادوا. بالمناسبة، ما من حاجة لإثبات ما يعلمه الجميع، إذ يكفي القول:
"Securus judicat ordis terrarum"

هكذا هي، دونما استثناء، كافة انتقادات الناس المتدينين المثقفين، وبالتالي المدركين لمدى الخطر على مناصبهم. المخرج الوحيد بالنسبة لهم هو الأمل، عبر استغلال نفوذ الكنيسة والقِدَم والقداسة، بإمكانية تخويف القارئ من التفكير في المسألة بعقله الخاص. وهم ينجحون في ذلك.

في الحقيقة، من سيخطر في باله أنّ كل ما يتمّ تكراره، بهذه الثقة والتعالي من قرنٍ إلى قرن، من قِبل كل هؤلاء الخوارنة والأساقفة والمطارنة والسينودِس والباباوات الأكثر قداسةً، إنما هو كذبة دنيئة وافتراء يفترونه على المسيح من أجل تأمين الأموال التي يحتاجون إليها لكي يعيشوا حياةً هانئة على حساب الآخرين. الكذب والافتراء واضحان، خاصةً في الوقت الراهن، إلى درجة أنّ الإمكانية الوحيدة لاستمرار هذا الكذب تكمن في تخويف الناس، عبر استغلال ثقتهم دون وازعٍ من ضمير.

الأمر ذاته في الدوائر العسكرية في السنوات الأخيرة، حيث يجلس إلى طاولة في بهو، في الأماكن الأولى، تحت صورة بالحجم الطبيعي للإمبراطور، موظفون هرِمون مهمّون، بأوسمتهم، وبحرية ودون تكلّف يتحدثون ويسجّلون ويعطون الأوامر ويستدعون. وهنا، بصليبٍ وغفّارة حريرية، بشعر أشيب منسدل على ردائه الكهنوتي، قسّ عجوز ذو مظهر ورع يقف أمام المنصب الذي يتوضّع عليه صليب ذهبي مع كتاب مقدّس مشغول بالذهب.

يتم استدعاء إيفان بيتروف. يدخل شاب، يرتدي ملابس وسخة، خائف، بعضلات وجه مرتعشة وعينين بارقتين متقافزتين، وبصوتٍ متقطّع يقول هامساً تقريباً:

– أنا... بموجب قانون... أنا كمسيحي... لا أستطيع أن...

– ما الذي يُبرطم به؟ يسأل الرئيس نافذ الصبر، مُضيّقاً عينيه ومُصغياً، وهو يرفع رأسه عن الكتاب.

– تكلّم بصوتٍ أعلى! – يصرخ العقيد ذو الكتّافيتين اللامعتين.

- أنا... إنني... كمسيحي...

في النهاية يتبيّن أنّ الشاب يرفض أداء الخدمة العسكرية لأنه مسيحي.

- لا تتفوّه بالهراء. قف عند المقياس. قِسه يا دكتور. هل يصلح؟

- يَصلُح.

- حلِّفه يا أبتِ.

ليس فقط أنّ أحداً لم يتكدّر، بل حتى لم يولِ أحدٌ اهتماماً لما "يُبرطم" به هذا الفتى المسكين الخائف. "كلّهم يُبرطمون بشيء ما، ولا وقت لدينا، إذ علينا مقابلة كلّ هؤلاء".

يريد المجند أن يقول شيئاً آخر: "هذا ضدّ شريعة المسيح".

- انقلع، انقلع، فبدونك نعلم ما هو وفق الشريعة وما ليس وفق الشريعة، أما أنت فانقلع من هنا. عِظْه يا أبتِ. التالي: فاسيلي نيكيتين.

ويُخرجون الفتى المرتعش. ومَنْ، سواء الحرّاس أم فاسيلي نيكتين الذي يُدخلونه أم كل الذي شهدوا المشهد بحياد، سيخطر في باله أنّ أقوال الفتى القصيرة المبهمة، التي أربكت القيادة للتو، تتضمن الحقيقة، وأنّ الأقوال الصاخبة، المنطوقة بتعالٍ، للموظفين والقسّ المطمئنين والواثقين من أنفسهم، باطلة، وكذب محض.

انطباع كهذا لا تخلقه مقالات فارّار فقط بل وكل المواعظ والمقالات والكتب المُهيبة التي تصدر في شتى الأماكن ما إن تلوح، في مكانٍ ما، الحقيقة التي تُعرّي الكذب السائد. وعلى الفور تبدأ المناقشات أو الكتابات المطوّلة والذكية والمنمّقة والمتعالية حول المسائل التي تلامس الموضوع عن قرب مع صمتٍ حاذق عن الموضوع ذاته.

هذه هي الطريقة الخامسة والأكثر فاعليةً للتخلّص من التناقض الذي وضعت نفسها فيه المسيحية الكنسية التي تُبشّر بالمسيح بالأقوال وتتنكّر لتعليمه في الحياة، وتُعلِّم الناس ذلك.

الذين يتبرّرون وفق الطريقة الأولى يؤكّدون، بصورة مباشرة وفظّة، بأنّ المسيح قد أباح العنف: الحرب والقتل - إنما يكفرون بتعليم المسيح من تلقاء أنفسهم. والذين يدافعون عن أنفسهم وفق الطريقة الثانية والثالثة والرابعة خائفون، ويسهل إثبات خطأهم. لكنّ الأخيرين، الذين لا يجادلون ولا يسمحون بالجدال، المختبئين وراء رِفعتهم، والمتظاهرين أنّ هذا الأمر سبق له أن حُسم من قِبلهم أو من قِبل الآخرين، منذ زمن

بعيد، وأنه لم يعد موضع شكّ؛ هؤلاء يبدون محصنّين، وسيبقون محصنّين ما دام البشر خاضعين لتأثير الإيحاء المخدّر، الذي توحي به لهم الحكومات والكنائس، وما داموا لا يستيقظون منه.

هكذا تعامل مع كتابي المتدينون، أي المؤمنين بالمسيح، وما كان لهم أن يتعاملوا على نحو آخر؛ إذ يقيّدهم التناقض الذي هم فيه - الإيمان بألوهية المعلِّم والكفر بأقواله الواضحة-، والذي يجب تخليصهم منه بطريقة ما. وبالتالي لم يكن بالإمكان توقّع مناقشات حرّة حول جوهر المسألة منهم، حول تغيّرات حياة البشر، والتي تنشأ من خلال دمج تعليم المسيح مع النظام القائم.

كنتُ أتوقّع مجادلات كهذه من النقّاد الدنيويين، ذوي التفكير الحرّ، الذين لا يربطهم بتعليم المسيح شيء، والذين يستطيعون النظر فيه بحرية. كنت أتوقّع أنّ الكتّاب ذوي التفكير الحرّ لن ينظروا إلى المسيح كمُنشئ دينٍ للعبادة والخلاص الشخصي (كما يفهمه الكنسيون)، وإنما -كما يقولون- كمصلح، كهادمٍ للأسس القديمة ومانحٍ لأسسٍ جديدة للحياة، الحياة التي لم ينتهِ إصلاحها بعد، والمستمرّ حتى الآن.

منظورٌ كهذا إلى المسيح وتعليمه يتجلّى في كتابي. لكن - لدهشتي- من بين الانتقادات الكثيرة الصادرة لكتابي لم يكن هناك انتقاد واحد - روسي أو أجنبي- يناقش الموضوع من الجانب المعروض في كتابي، أي الذي عليه النظر إلى تعليم المسيح كتعليم فلسفي، أخلاقي واجتماعي (ولنتحدث مرة أخرى بلغة الناس المتعلمين). لم يتوفّر هذا في أيٍّ من الانتقادات.

النقّاد الدنيويون الروس - معتقدين أنّ محتوى كتابي كله ينحصر في عدم مقاومة الشرّ، وفاهمين عقيدة عدم مقاومة الشر ذاتها (ربما لكي تتلاءم مع الاعتراض) كما لو أنها تمنع أيّ صراع ضد الشر- انقضّوا على هذه العقيدة بشكل مسعور، وبرهنوا، بنجاح كبير على امتداد سنوات عدة، أنّ تعليم المسيح خاطئ بما أنه يمنع مقاومة الشر. دحوضهم لتعليم المسيح *الخيالي* هذا كانت ناجحة جداً، حيث أنهم كانوا يعلمون مسبقاً أنّ آراءهم لا يمكن أن تُدحض أو تُصحّح بما أنّ الرقابة، التي لم تسمح بنشر الكتاب، لن تسمح كذلك بنشر المقالات المدافعة عنه.

الملفت للنظر، في هذا السياق، هو أنّ الرقابة عندنا، في حين تمنع قول كلمة واحدة عن الكتاب المقدّس، تسمح بتحريف ونقد وشجب وصية المسيح الواردة في إنجيل متّى (5، 39)، والسخرية منها بشكل مباشر.

النقّاد الدنيويون الروس - غير عارفين بكلٍّ ما فُعل فيما يخصّ معالجة مسألة عدم مقاومة الشرّ، ومعتقدين أحياناً بأني قد ابتدعت شخصياً مبدأ عدم مقاومة الشرّ بالعنف، مهاجمين الفكرة بحدّ ذاتها، داحضين ومحرّفين إياها، ومقدّمين بحميةٍ شديدة حججاً عولجت ودُحضت منذ زمنٍ بعيد ومن كافة الجوانب- قاموا بإثبات أنّ على الإنسان، دون شك، الدفاع عن جميع المُساء إليهم والمضطهدين، وأنّ عقيدة عدم مقاومة الشرّ بالعنف - لهذا السبب- عقيدة لاأخلاقية.

بالنسبة لكلّ النقّاد الروس تَمثّل معنى موعظة المسيح فقط وكأنها تعيقهم، نكايةً بهم، عن نشاطٍ محدّد موجّه ضدّ ما يعدّونه شراً في الوقت الراهن. والنتيجة كانت أنّ معسكرين متناقضين قاما بمهاجمة مبدأ عدم مقاومة الشرّ بالعنف: المحافظون، لأنّ المبدأ يمنعهم عن مقاومة الشرّ الذي ينتجه الثوريون، وعن ملاحقتهم وإعدامهم؛ والثوريون، لأنّ هذا المبدأ يمنعهم عن مقاومة الشرّ الذي ينتجه المحافظون، وعن الإطاحة بهم. امتعض المحافظون من أنّ عقيدة عدم مقاومة الشرّ بالعنف تمنعهم عن القمع النشط للعناصر الثورية القادرة على تدمير رفاهية الشعب، والثوريون استاءوا من أنّ عقيدة عدم مقاومة الشرّ بالعنف تمنعهم عن الإطاحة بالمحافظين الذين يدمّرون رفاهية الشعب. الملفت للنظر، في هذا السياق، هو أنّ الثوريين هاجموا مبدأ عدم مقاومة الشرّ بالعنف رغم أنّه المبدأ الأشدّ هولاً وخطورةً على أيّ طغيان، إذ إنّ ضرورات مقاومة الشرّ بالعنف كلها، بدءاً من محاكم التفتيش وصولاً إلى قلعة شليسلبورغ[10]، قد تأسست، وتتأسس، منذ أنْ وقف فيه العالم على النقيض من هذا المبدأ.

إضافةً إلى ذلك، أشار النقاد الروس إلى أنّ تطبيق وصية عدم مقاومة الشرّ بالعنف سوف يحرف البشرية عن درب الحضارة الذي تسير فيه. ودرب الحضارة الذي تسير

10- كانت قلعة شيسلبورغ سجناً وقسماً للشرطة في مدينة سان بطرسبورغ في زمن تولستوي.

فيه البشرية الأوروبية -حسب رأيهم- هو الدرب الذي يجب أن تسير فيه دائماً الإنسانية جمعاء.

هذا هو الطابع الرئيس للانتقادات الروسية.

أما النقاد الأجانب فقد انطلقوا من الأسس ذاتها لكنّ مناقشاتهم حول كتابي كانت مختلفة بعض الشيء عن مناقشات النقّاد الروس، ليس من حيث قلّة الامتعاض وزيادة التهذيب فحسب، بل ومن حيث الجوهر كذلك.

من خلال مناقشة كتابي، ومناقشة تعاليم الكتاب المقدّس كما عُبِّر عنها في الموعظة على الجبل بشكل عام، أكّد النقّاد الأجانب أنّ هذه العقيدة لا تشكّل جوهر المسيحية (الدين المسيحي - حسب ريهم- هو الكاثوليكية والبروتستانتية)، فالموعظة على الجبل مجرّد مجموعة من الأمنيات التافهة غير العملية، du charmant docteur كما يقول رينان، الصالحة لسكان الجليل السانجين وشبه الهمجيين، الذين عاشوا قبل 1800 سنة، وللرجال الروس شبه الهمجيين - سوتاييف وبونداريف وتولستوي- وليس، على الإطلاق، للذين ينتمون إلى أعلى درجات الثقافة الأوروبية.

حاول النقّاد الدنيويون الأجانب، بأسلوب مهذّب ودون أن يهينوني، إعطاء إحساس بأنّ آرائي، القائلة إنّ البشرية يمكنها الانقياد لتعليم ساذج كالموعظة على الجبل، ناشئة، جزئياً، عن جهلي، عن جهلي بالتاريخ، عن جهلي بكلّ تلك المحاولات غير المجدية لإحياء مبادئ الموعظة على الجبل في الحياة، والتي فُعِلت في التاريخ دون أن تؤدّي إلى شيء، جزئياً بسبب عدم فهم مجمل معنى الثقافة الأوروبية الراقية التي وصلت إليها البشرية الأوروبية في الوقت الراهن، بمدافعها الضخمة وبارودها الذي لا دخان له، باستعمارها أفريقيا، واحتلالها إيرلندة، ببرلماناتها وصحافتها وإضراباتها ودساتيرها وبرج إيفلها.

هكذا كتب فوغ، هكذا كتب ليروي بينلين، هكذا كتب ماثيو أرنولد، هكذا كتب الكاتب الأميريكي سافاج، وإينغِرزال، الخطيب الأميريكي المعروف الحرّ التفكير، وكثيرون غيرهم.

"إنّ تعليم المسيح ليس صالحاً لأنه لا يناسب عصرنا الصناعي"،- يقول إينغرزال بسذاجة، مُعبِّراً بهذا، بمنتهى الدقّة وبسذاجة، عن نفس ما يفكِّر فيه، بتأنّق، الناس

المتعلّمون، في الوقت الراهن، بخصوص تعليم المسيح. التعليم لا يصلح لعصرنا، تماماً كما لو أنّ وجود العصر الصناعي أمر مقدّس، لا يجب، ولا يمكن، تغييره. مثل السُكارى إذا ما نُصِحوا بأن يستيقظوا من سُكرهم يجيبون بأنّ هذه النصائح ليست في محلها في ظلّ حالتهم الكحولية.

إنّ مجادلات الكتّاب الدنيويين جميعهم، الروس والأجانب، مهما اختلفت نبراتهم وأساليب حججهم، كلها تقود، من حيث الجوهر، إلى سوء الفهم الغريب ذاته، وبالتحديد إلى أنّ تعليم المسيح، الذي إحدى تبعاته هي عدم مقاومة الشرّ بالعنف، غير صالحٍ لنا لأنه يتطلّب منّا تغيير حياتنا.

تعليم المسيح ليس صالحاً لأنه إذا ما طُبِّق لا يمكن لحياتنا هذه أن تستمر؛ بكلمات أخرى: إذا ما بدأنا نعيش بشكل جيد -كما علّمنا المسيح- فلن يكون بمقدورنا العيش بشكل سيئ، كما نعيش الآن، وكما اعتدنا أن نعيش. أما مسألة عدم مقاومة الشرّ بالعنف فليست فقط لا تُناقَش، بل يتمّ التذكير بأنّ تعليم المسيح ذاته، الذي يشتمل على مطلب عدم مقاومة الشرّ بالعنف، يُعدُّ برهاناً كافياً على عدم قابلية التعليم برمّته للتطبيق.

ولكن يبدو أنّ هناك حاجة للإشارة إلى أيّ حلّ كان لهذه المسألة، حيث أنها تكمن في أساس كافة القضايا التي تشغلنا. والسؤال يكمن في التالي: ما السبيل لحلّ الخلاف بين البشر عندما يعدّ بعض الناس شرّاً ما يعدّه آخرون خيراً، وبالعكس؟ وبالتالي أن أعتبر أنّ الشرّ هو ما أعتبره أنا شرّاً، بغضّ النظر عن أنّ خصومي يعتبرونه خيراً، لا يُعدُّ جواباً. يمكن أن يكون هناك جوابان فقط: إما العثور على معيار صحيح، لا جدال فيه، للشرّ، وإما عدم مقاومة الشرّ بالعنف.

لقد جُرِّب المخرج الأول منذ بداية العصور التاريخية ولم يؤدِّ، كما نعلم جميعاً، إلى نتائج موفَّقة حتى الآن.

الجواب الثاني -عدم مقاومة ما نعتبره شرّاً بالعنف إلى أن نجد معياراً مشتركاً- هو الجواب الذي اقترحه المسيح. قد نكتشف أنّ الجواب الذي قدّمه المسيح ليس صحيحاً، ونقوم باستبداله بجواب آخر، أفضل، عندما نعثر على معيارٍ لا شكّ فيه من قِبل الجميع، وفي الآن ذاته يقدِّم تعريفاً للشرّ؛ ويمكن ببساطة عدم فهم جوهر المسألة، كما تفعل الشعوب *الهمجية*، لكن لا يجوز التظاهر بأنّ السؤال لا وجود له على الإطلاق، كما

يفعل النقّاد المثقفون، أو الإقرار بأنّ منح الحقّ لشخصيات نافذة أو لمجالس الناس (خاصةً عندما نكون نحن أنفسنا هؤلاء الناس) لتعريف الشرّ، وحقّ مقاومته بالعنف، يحلّ المسألة، في حين، وكما نعلم جميعاً، لَنّ إقراراً كهذا لا يحسم المسألة على الإطلاق حيث أنّ هناك دائماً أناسٌ لا يُقرّون بهذا الحقّ للشخصيات النافذة أو للمجالس.

وهذا الإقرار، القائل إنّ ما يبدو لنا شرّاً هو الشرّ، أو عدم الفهم التامّ للمسألة، هما ركيزتا مجادلات النقّاد الدنيويين حول التعليم المسيحي، بحيث لَنّ المجادلات حول كتابي، سواء مجادلات النقّاد الكنسيين أم الدنيويين، أظهرت لي أنّ معظم الناس، ببساطة، ليس فقط لا يفهمون تعليم المسيح ذاته بل ولا يفهمون الأسئلة التي يجيب عنها التعليم.

III

وهكذا؛ فإنّ الأدلّة، التي حصلتُ عليها بعد صدور كتابي، عن كيف فُهم ويُفهم، دائماً، الدين المسيحي في معناه المباشر والحقيقي من قِبل قِلّة من الناس، وكذلك الانتقادات الكنسية والدنيوية له، النافية لإمكانية فهم تعليم المسيح في معناه المباشر، أقنعتني بأنّ الفهم الحقّ لهذا التعليم، في الوقت الذي أصبح واضحاً أكثر فأكثر لأقلية من الناس من جهة، أصبح جوهره مبهماً أكثر فأكثر للأكثرية من جهة أخرى، بحيث وصل الإبهام، في نهاية المطاف، درجةً لم يعد فيها البشر يفهمون أبسط مبادئه المعبَّر عنها بأبسط الكلمات في الأناجيل.

إنّ عدم فهم تعليم المسيح، في معناه الحقّ، البسيط والمباشر، في زماننا، حيث ينفذ نور هذا التعليم إلى أشدّ زوايا الوعي الإنساني ظلمةً؛ حيث يُنادَى على السطوح بما يُقال همساً في الأذن[11]، كما قال المسيح؛ حيث يتغلغل تعليم المسيح إلى كافة مناحي الحياة الإنسانية: الأسري والاقتصادي والأهلي والدولي والعالمي- لما كان لعدم الفهم هذا تفسيراً لو لم تكن له أسباب.

أحد هذه الأسباب هو القناعة الراسخة - سواء لدى المتدينين أم غير المتدينين- بأنّ الدين مفهومٌ لهم منذ زمن بعيد، وبشكل تام ويقيني ونهائي، بحيث لا يمكن أن يكون له معنى آخر سوى الذي يعطونه إياه. وسبب ذلك يكمن في استمرارية نقل الفهم الباطل للتعليم، وبالتالي عدم فهمه.

لا يمكن لأقوى تيار مائي إضافة قطرة واحدة من السائل إلى إناءٍ ممتلئ.

بالإمكان توضيح أكثر الأشياء حكمةً لأكثر الناس غباءً إذا لم تكن لديه أيّ فكرة عنها، لكن ليس بالإمكان توضيح أكثر الأمور بساطةً لأشدّ الناس ذكاءً إذا كانت لديه قناعة راسخة بأنه يعلم، بل يعرف يقيناً، ما يُبلَّغ إليه.

11- استشهاد من إنجيل متّى (10، 27) حيث يرد: "والذي أقوله لكم في الظلمات قولوه في وضح النهار، والذي يُقال لكم همساً في الأذن نادوا به على السطح".

يتمثّل الدين المسيحي، بكلّ تفاصيله الدقيقة، لبشر عالمنا على هذا النحو بالضبط؛ تعليماً معروفاً من قِبلهم، منذ زمن بعيد وبصورة يقينية، وليس بالإمكان فهمه بشكل مختلف عن فهمهم له.

في الوقت الحالي، يفهم أتباع العقائد الكنسية المسيحيةَ كوحيٍ خارقٍ إعجازي يتحدث عن الدين بطريقة رمزية؛ أما غير المؤمنين فيفهمونها كتجلٍّ، ولّى زمانه، لحاجة الإنسان إلى الإيمان بالخارق؛ كظاهرة تاريخية تنعكس كلياً في الكاثوليكية أو الأرثوذكسية أو البروتستانتية، لم يعد لها أيّ قيمة حياتية لنا. بالنسبة للمؤمنين معنى الدين تحجبه الكنيسة، ولغير المؤمنين يحجبه العلم.

في البداية سوف أتحدث عن الأولين:

قبل 1800 سنة ظهر في العالم الوثني الروماني دين جديد غريب لا يشبه أيّاً من الأديان السابقة، نُسب إلى المسيح الإنسان.

كان هذا الدين جديداً تماماً، سواء من حيث الشكل أم المضمون، بالنسبة للعالم اليهودي الذي ظهر فيه، وخاصةً بالنسبة للعالم الروماني الذي بُشِّر به وانتشر فيه. وسط كمال الشريعة الدينية اليهودية؛ شريعة الشرائع حسب قول إشعياء، ووسط التشريع الروماني الوضعي، الواصل درجةً عظيمةً من الكمال، نشأ دين لا ينفي كافة الآلهة فحسب – شتى أشكال الخوف منهم، شتى أشكال الكهانة والإيمان بها– بل وينفي كافة المؤسسات البشرية، وشتى أشكال ضروراتها.

مكان كافة شرائع الأديان السابقة قدّم هذا الدين فقط قدوة التكامل الداخلي والحقّ والمحبة في شخص المسيح، ونتائج هذا التكامل الداخلي الذي يبلغه البشر،– الكمال الخارجي الذي تنبّأ به الأنبياء–، هو ملكوت الله الذي في ظلّه يفقد الناس جميعاً قدرتهم على العدوان، وسوف يُعلِّمهم جميعاً الله، ستجمعهم المحبة، وسيرقد الأسد بجوار الحمَل.

بدلاً من التهديد بالعقاب على عدم تطبيق القواعد التي وضعتها الشرائع السابقة، الدينية منها والحكومية، بدلاً من إغواء الثواب على تطبيقها، دعا هذا الدين فقط من خلال حقّانيته. "إن شاء أحد أن يصنع مشيئته يعرف التعليم: هل هو من الله أم أنا أتكلم من عندي؟" (إنجيل يوحنا: 7، 17). "إن كنتُ أقول الحقّ فلماذا لا تؤمنون بي؟ لماذا تطلبون قتل إنسان يُكلِّمكم بالحق؟ فقط الحقّ يُحرِّركم. يجب طاعة الله فقط في الحقّ.

التعليم كله يُكشَف ويتوضّح بروح الحق. افعلوا ما أقول وستعلمون إن كان ما أقول حقاً أم لا".

لم يتم تقديم أيّ براهين لإثبات صحة التعليم سوى الحقّ، سوى تطابق التعليم مع الحقّ. لقد كمن مجمل التعليم في معرفة الحقّ واتّباعه، في إدراك الحقّ أكثر فأكثر؛ في المزيد فالمزيد من الاقتراب إلى الحقّ في شؤون الحياة.

وفقاً لهذا التعليم، ما من أعمال يمكن لها تبرير الإنسان؛ وتجعله باراً، هناك فقط التوق القلبي إلى مثال الحقّ للتكامل الداخلي في شخص المسيح، وللتكامل الخارجي ممثَّلاً في إحياء ملكوت الله. يكمن تطبيق التعليم فقط في سلوك الدرب الذي يشير إليه؛ في الاقتراب إلى الكمال الداخلي- الاقتداء بالمسيح، وإلى الكمال الخارجي- إقامة ملكوت الله. لا تتوقّف كثرة بِرّ الإنسان أو قِلّته، بموجب هذا التعليم، على درجة الكمال التي بلغها، وإنما على مدى سرعة الحركة.

وفقاً لهذا التعليم، إنّ تحرّك زكّا العشّار والزانية وقاطع الطريق على الصليب، عبر الابتلاء، أكثر بِراً من التقوى الساكنة للفرّيسي. الخروف الضالّ أغلى من 99 خروفاً ليس ضالاً. الابن الضالّ، النقد الضائع والمعثور عليه من جديد أغلى لدى أيّ إله من النقود التي لم تضيع.

إنّ أيّ مقام[12] -بحسب هذا التعليم- إنما هو درجة معيّنة فحسب على درب الكمال الداخلي والخارجي اللامُدرك، ولهذا لا معنى له. يكمن الخير فقط في التوجّه نحو الكمال، أما التوقّف عند مقام ما فهو إيقافٌ للخير. "... فلا تعلم شمالك ما تصنع يمينك." (متّى: 6، 2). "ليس أحداً يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يكون أهلاً لملكوت الله." (لوقا: 9، 63). "لاتفرحوا بهذا أنّ الأرواح تخضع لكم بل افرحوا بأنّ أسماءكم مكتوبة في السماوات." (لوقا: 11، 20). "فكونوا كاملين كما أنّ أباكم السماوي هو كامل." (متّى: 5، 48). "فاطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه..." (متّى: 6، 32).

12- يميّز المتصوفة المسلمونَ بين الحال والمقام، الحال متغيرة والمقام ثابت. ووجدنا أن هذه الكلمة أنسب من كلمة "حالة" التي هي ترجمة حرفية للكلمة الروسية.

يكمن تطبيق التعليم فقط في التحرك الدائم؛ في بلوغ حقيقةٍ أسمى فأسمى، وفي تجسيدها في الذات أكثر فأكثر، في المزيد فالمزيد من المحبة، والمزيد فالمزيد من تجسيد ملكوت الله خارج أنفسنا.

جليٌّ أنّ هذا الدين، الذي ظهر في العالمين اليهودي والوثني، ما كان له أن يُفهَم من قِبل معظم البشر الذين كانوا يعيشون حياةً مختلفة كلياً عمّا كان يتطلّبه هذا الدين، ولم يكن بإمكانه، كدينٍ مناقضٍ كلياً لكافة الأفكار السابقة، أن يكون مفهوماً بكافة معانيه حتى للذين اعتنقوه.

فقط عبر سلسلة من المغالطات والأخطاء والتفسيرات الأحادية الجانب، المُصحَّحة والمَزيدة من قِبل أجيال من البشر، توضّح جوهر الدين المسيحي أكثر فأكثر للبشر. وقد أثّر المنظور المسيحي إلى العالم على المنظورين اليهودي والوثني، وأثّر المنظوران اليهودي والوثني على المنظور المسيحي. والمنظور المسيحي، باعتباره حياً، نفذ أكثر فأكثر إلى العقيدتين اليهودية والوثنية، وبدأ يتحرّر أكثر فأكثر من الشوائب الباطلة التي تراكمت عليه. وأدرك البشر أكثر فأكثر جوهر المسيحية، وجسّدوه [المنظور] في المسيحية أكثر فأكثر.

كلما ذهبت البشرية أبعد في حياتها كلّما اتّضح لها جوهر المسيحية أكثر، إذ ليس بالإمكان، ولا يمكن، أن يحدث أمر مختلف مع أيّ تعليم عن الحياة. حيث قامت الأجيال اللاحقة بتصحيح أخطاء الأسلاف، واقتربت أكثر فأكثر من فهم معناه الحقّ.

هكذا كانت الحال منذ الأزمنة الأولى للمسيحية. وها قد ظهر، منذ عصورها الأولى، أناسٌ راحوا يقنعون أنفسهم أنّ المعنى الذي يعطونه هم للدين هو الوحيد الحقّ، ولأنّ الدليل على ذلك هو الكرامات التي تؤكّد صواب فهمهم.

كان هذا هو السبب الرئيس لبداية عدم فهم الدين، وبعد ذلك لتحريف الدين كلياً.

افتُرِض أنّ تعليم المسيح لا يُبلَّغ للبشر كأيّ حقيقة أخرى وإنما بطريقة خاصة خارقة، إذ إنّ حقّانية فهم الدين لا تُبرهَن من خلال توافق الرسالة مع متطلبات العقل ومجمل طبيعة الإنسان، وإنما عبر عجائبية التبليغ التي تُعدُّ برهاناً دامغاً على حقّانية الفهم. وقد نشأ هذا الافتراض من عدم الفهم، وكانت نتيجة ذلك استحالة الفهم.

بدأ هذا الأمر منذ العهود الأولى، حين كان الدين يُفهَم بصورة منقوصة وباطلة غالباً، كما نلاحظ في الأناجيل وأعمال الرسل. كلّما قلّ فهم الدين كلّما أصبح مبهماً أكثر، وكلّما أصبحت هناك حاجة أكبر لبراهين خارجية على حقّانيته. المبدأ القائل بعدم الفعل بالآخرين ما لا تريدهم أن يفعلوا بك، لم يكن بحاجة إلى برهان عن طريق المعجزات، ولم يكن هذا المبدأ بحاجة إلى إيمان حتى لأنّ هذا المبدأ مقنع بذاته، ويتوافق مع العقل ومع فطرة الإنسان، لكنّ المبدأ القائل بألوهية المسيح كان يجب إثباته من خلال معجزات غير مفهومة على الإطلاق.

كلّما كان تعليم المسيح مبهماً أكثر كلما مُزج معه الأعجوبي أكثر؛ كلّما ابتعد تعليم المسيح عن جوهره أكثر وأصبح مبهماً أكثر كلما أصبحت هناك حاجة أكبر لإثبات عصمته، وكلّما أصبح التعليم مفهوماً بصورة أقلّ.

منذ الأزمنة الأولى يمكن رؤية - بموجب الأناجيل وأعمال الرسل- كيف استدعى عدم فهم التعليم ضرورة برهانه من خلال العجائبي واللامفهوم.

وقد بدأ هذا -حسب كتاب أعمال الرسل- منذ الاجتماع الذي اجتمع فيه التلاميذ في أورشليم لمناقشة مسألة تعميد أو عدم تعميد المختونين وآكلي ذبائح الأوثان.

إنّ طرح السؤال بحدّ ذاته يُظهر أنّ مناقشيه لم يفهموا تعليم المسيح الذي نبذ كافة الطقوس الخارجية: الوضوء، الغُسل، الصوم، السبت. فقد قال صراحةً: "ليس ما يدخل الفهم يُنجّس... بل ما يخرج من القلب"، وبالتالي فإنّ مسألة تعميد غير المختونين كان بإمكانها أن تنشأ فقط بين أناسٍ يحبّون المعلّم، شاعرين -بغموض- بعظمة تعليمه، لكنهم لم يفهموا التعليم ذاته بوضوح بعد. وهكذا كانت الحال.

بقدر عدم فهم أعضاء الاجتماع للتعليم بقدر ما كانوا بحاجة إلى إثبات خارجي لفهمهم الناقص. ولأجل حلّ هذه المسألة توجّب -حسبما ورد في كتاب أعمال الرسل-، لأولّ مرة، الإقرار، بشكل ظاهري، بصحة تأكيدات معينة، وقيلت هذه الكلمات المرعبة

المسبّبة شرّاً بالغاً: "ونحن شهودٌ له.. والروح القدس أيضاً"[13]، أي تمّ الإقرار بصحّة ما أقرّوه عبر المشاركة الإعجازية للروح القدس، أي الله، في هذا القرار. لكن حقيقة أنّ الروح القدس، أي الله، كان يتكلم من خلال الرسل، مرة أخرى، كانت بحاجة إلى إثبات. ومن أجل ذلك كانت هناك حاجة للتأكيد على أنّ الروح القدس، على شكل ألسنة نار، لمّا حلّ يوم الخميس، استقرّت على الذين أقرّوا ذلك. (أعمال الرسل: 2، 1-2). لكن حتى حلول الروح القدس كان يجب إثباته للذين لم يروا ألسنة نار (رغم أنه ليس مفهوماً لماذا لسان النار، المشتعل فوق رأس الشخص، يُظهر أنّ ما يقوله هذا الشخص حقيقة لا ريب فيها)، وأيضاً كانت هناك حاجة للمعجزات والإشفاءات والتعميدات والإماتات، وكل تلك المعجزات المغوية التي يمتلئ بها كتاب أعمال الرسل، والتي ليس فقط لا يمكنها الإقناع بحقّانية الدين المسيحي فحسب وإنما يمكنها فقط التنفير منه. كانت تبعات هذه الطريقة لإثبات الحقيقة هي أنه كلما رُوكِمت، الواحدة تلو الأخرى، إثباتات صدق حكايات المعجزات كلما ابتعد الدين ذاته عن جوهره البدئي، وكلما أصبح مبهماً أكثر.

هكذا كانت الحال منذ العهود الأولى، وهكذا سار متعزّزاً باستمرار، حيث وصل، منطقياً، في زماننا، إلى دوغمات جوهرانية، وعصمة البابوات والقساوسة أو عصمة الرسالات، أي إلى كل ما هو مبهم تماماً إلى درجة الخواء من المعنى، وإلى درجة تطلّب إيماناً أعمى، ليس بالله وليس بالمسيح وليس حتى بالدين، وإنما بأشخاص، كما في الأرثوذكسية، أو بكتاب، كما في البروتستانتية. كلما اتّسع انتشار المسيحية كلما اجتذبت حشداً أكبر من الناس غير الجاهزين؛ كلما فُهمت أقلّ كلّما، بحسمٍ أكبر، أُكِّدت عصمة الفِهم، وكلما قلّت أكثر إمكانية فهم الجوهر الحقّ للدين. وحتى عصر قسطنطين انحصر مجمل فهم التعليم في خلاصة أقرّتها سلطة دنيويةٍ -خلاصة المجادلات التي جرت في المَجْمَع- كناية عن الدين دُوِّن فيها: أؤمن بـــ...، وبـــ...، وبـــ...، وفي الختام: بالكنيسة الرسولية الجامعة المقدّسة الوحيدة، أي عصمة الأشخاص الذين يسمّون أنفسهم كنيسة،

13- رغم أنّ هذا الكلام يفيد حجة تولستوي لكنّ هذا الكلام قاله بطرس والرسل لرئيس الكهنة. ربما كان تولستوي يقصد تبرير بطرس خدمتَه الأمم (أعمال الرسل: 11، 17) وذلك حين يردّ قائلاً: "فإن كان الله قد أعطاهم الموهبة كما لنا أيضاً... فمن أنا؟ أقادرٌ أن أمنع الله؟".

وبالتالي انحصر كل شيء في أنّ الإنسان بات يؤمن، ليس بالله أو بالمسيح، كما أوحي إليه، وإنما بما تأمر به الكنيسة.

"لكنّ الكنيسة مقدّسة؛ فالمسيح هو الذي أسّس الكنيسة. لم يرد الله السماح للبشر بتفسير تعليمه على هواهم، ولهذا أنشأ الكنيسة". كل هذه المبادئ خاطئة ولا أساس لها إلى درجة أنّ من المخجل دحضها. لا يُرى في أي موضع، ما عدا في تأكيد الكنيسة، أنّ الله، أو المسيح، قد أقام شيئاً من قبيل ما يقصده الكنسيون بكلمة كنيسة. في الأناجيل توجد إشارة ضدّ الكنيسة، كمظهر خارجي، بمنتهى الجلاء والوضوح، وذلك في الموضع الذي يرد فيه أنّ تلاميذ المسيح لا ينبغي لهم أن يدعوا أحداً بالمعلمين أو الآباء، لكن لم يُقل شيء، في أيّ موضع، عن إقامة ما يسميه الكنسيون الكنيسة.

لقد استُخدمت كلمة "كنيسة" في الأناجيل مرتين. مرةً بمعنى اجتماع الناس، الذي يحلّ المجادلات، والكلمة الثانية ربطاً بالكلمات المبهمة عن الصخرة - بطرس وأبواب الجحيم[14]. من هذه الذِّكرَيَن لكلمة "كنيسة"، الذي يعني الاجتماع فحسب، يستنتجون ما تعنيه كلمة "كنيسة" في الوقت الراهن.

لكنّ المسيح ما كان له على الإطلاق أن يبني كنيسة، بالمعنى الذي نفهمه الآن من هذه الكلمة، لأنّ مفهوماً مماثلاً للكنيسة، كالتي نعرفها في الوقت الراهن، مع الأسرار والإكليروس، والأهم، تأكيدها لعصمتها، لم يُتضمَّن في أقوال المسيح، ولا في أذهان أناس ذلك الزمن.

كون البشر قد استخدموا الكلمة التي استخدمها المسيح لتسمية ما تركّب منها بعد ذلك؛ فهذا لا يعطيهم الحق البتّة في إقرار أنّ المسيح قد أقام الكنيسة الوحيدة الحقّ.

عدا عن أنه، إذا كان المسيح قد أنشأ حقاً هكذا مؤسسة، كالكنيسة التي يقوم عليها مجمل التعليم والدين برمّته، فكان سيصرّح بإقرار كهذا بمنتهى الدقّة والوضوح، ولكان أشار إلى الكنيسة الحقّ الوحيدة، بعيداً عن المعجزات التي تستخدمها جميع الخرافات، إشاراتٍ لا تدع مجالاً للشكّ في حقّانيتها، لكن لا يوجد شيء من هذا القبيل. وكما كانت

14- يرد في إنجيل متى (16، 18): "... وعلى هذه الصخرة سأبني كنيستي ولن تقوى عليها أبواب الجحيم."، والحديث عن بطرس الرسول.

الحال، ما زالت هناك الآن مختلف المؤسسات التي كلّ منها تسمّي نفسها الكنيسة الحقّ الوحيدة.

يقول "الكاتيخيزيس" الكاثوليكي: "الكنيسة هي جامع[15] المؤمنين، الذي أسّسه ربنا يسوع المسيح، والمنتشر في الأرض كلها، والخاضع لسلطة القساوسة الشرعيين وأبينا المقدّس- البابا"، والقصد من Pasteurs Ligitimes هو مؤسسة بشرية يرأسها البابا، مؤلّفة من أشخاص معينين مرتبطين فيما بينهم بنظام معين.

ويقول "الكاتيخيزيس" الأرثونكسي: "الكنيسة هي جامع أقامه يسوع المسيح على الأرض، متّحدٌ فيما بينه اتّحاداً تامّاً بوساطة التعليم الإلهي والأسرار تحت إشراف وقيادة الإكليروس المنصَّب من قِبل الله"، ويُقصد بالإكليروس المنصَّب من قِبل الله الإكليروس اليوناني بالتحديد، والمكوَّن من أشخاص معينين يتقلّدون هذه المناصب أو تلك.

ويقول "الكاتيخيزيس" اللوثري: "الكنيسة هي المسيحية المقدّسة، أي جامع كلّ المؤمنين بقيادة المسيح، رئيسهم الذي من خلاله يُقدِّم، ويُبلِّغ ويُمثِّل، الروحُ القدس الخلاصَ الإلهيّ من خلال الإنجيل والأسرار"، والمقصود هو أنّ الكنيسة الكاثوليكية ضالّة ومرتدة، ولأنّ الرسالة الحق محفوظة في اللوثرية.

بالنسبة للكاثوليك، الكنيسة الإلهية تتوافق مع الإكليروس الروماني والبابا. وللأرثونكس تتوافق الكنيسة الإلهية مع مؤسسات الإكليروس الشرقي والروسي[16].

15- كلمة "كنيسة" تعني اجتماع ومكان الاجتماع، وكلمة جامع، كما يطلقه المسلمون على مكان عبادتهم، باتت أقرب إلى قارئ اليوم، وهي مستخدمة في العهد القديم كذلك، مثل: سفر الجامعة. لذا ترجمناها على هذا النحو.

16- إنّ تعريف خومياكوف للكنيسة، الذي حقق بعض النجاح بين الروس، لا يُصحّح الحال إذا ما أقررنا، مع خومياكوف، أنّ الكنيسة الأرثونكسية هي الكنيسة الحقّ الوحيدة. يؤكّد خومياكوف أنّ الكنيسة هي جامع الناس (الجميع دونما تمييز بين الرعاة والرعية) الذين تجمعهم المحبة، حيث أنّ الحق يتكشّف فقط للناس الذين تجمعهم المحبة (فلنحب بعضنا بعضاً، من خلال وحدة الرأي... إلخ). وهذه الكنيسة هي، أولاً، التي تعترف بمجمع نيقية، وثانياً، هي التي، بعد انشقاق الكنائس، لا تعترف بالباباوات والدوغمات الجديدة. لكن في ظلّ تعريف كهذا للكنيسة تصعب أكثر المماهاة، كما يريد خومياكوف، بين الكنيسة المتحدة بالمحبة والكنيسة التي تعترف بمجمع نيقية وعصمته. حيث أنّ تأكيد خومياكوف بأنّ هذه الكنيسة المتحدة بالمحبة، وبالتالي المقدّسة، هي ذات الكنيسة التي يعتنقها الإكليروس اليوناني، هو أكثر تعسفاً من تأكيد الكاثوليك

وللوثريين تتوافق الكنيسة الإلهية مع جامع الناس المؤمنين بالكتاب المقدّس و"كاتيخيزيس" لوثر.

في الحديث عن نشأة المسيحية عادةً ما يستخدم الناس، الذين ينتمون إلى إحدى الكنائس الموجودة، كلمة "كنيسة" بصيغة المفرد، وكأنّ الكنيسة هي، وكانت، كنيسة واحدة فقط. لكنّ هذا خاطئ تماماً؛ فالكنيسة، كمؤسسة تؤكّد عن نفسها بأنها تحوز الحقَ الذي لا ريب فيه، ظهرت فقط عندما لم تعد وحيدة، وعندما أصبحت هناك كنيستان على الأقل.

ما دام المؤمنون كانوا متفقين فيما بينهم، وكان الجامع واحداً، لم يكن هناك سبب لكي يؤكّدوا أنّهم كنيسة لكن عندما انقسم المؤمنون إلى أحزابٍ متناقضة، ينفي كل منها الآخر، ظهرت الحاجة لأن يثبت كل طرف حقّانيته، ناسباً لنفسه العصمة. وقد ظهر مفهوم الكنيسة الوحيدة فقط عندما اختلف طرفان في الجدال، كل منهما يسمّي الآخر هرطقةً، ويعترف فقط بذاته بأنه الكنيسة المعصومة.

إذا كنّا نعلم أنه كانت هناك كنيسة، قررت في العام 51 للميلاد قبول غير المختونين، فإنّ هذه الكنيسة قد نشأت فقط لأنه كانت هناك كنيسة أخرى –لليهود من ذوي النفوذ– قررت عدم قبول غير المختونين.

إذا كانت هناك الآن كنيسة كاثوليكية تؤكّد عصمتها؛ ففقط لأن هناك كنائس يونانية–روسية وأرثونكسية ولوثرية تؤكّد كل منها عصمتها، وبهذا تنفي الكنائس الأخرى كلها. وبالتالي فالكنيسة الوحيدة ليست سوى خيالاً فنطازياً لا توجد لها أي دلائل واقعية. إذ كظاهرة تاريخية فعلية وُجدت، وتوجد، جوامع كثيرة للبشر، كلّ منها يُقرّ لنفسه بأنه الكنيسة الوحيدة التي أسّسها المسيح، وأنّ الجوامع الأخرى، التي تسمّي نفسها كنائس،

وقدامى الأرثونكس. وإذا ما قبلنا بمفهوم الكنيسة بالمعنى الذي يقصده خومياكوف، أي جامع الناس المتحدين بالمحبة والحقّ، فأي شخص يمكنه، فيما يتعلق بهذا الجامع، أي يقول إنه يرغب كثيراً في أن يكون عضواً في جامع كهذا إذا كان موجوداً، أي أن يكون في المحبة والحقّ، لكن لا توجد أي علامات خارجية يمكن للمرء بموجبها أن يعدّ نفسه، أو شخصاً آخر، منتمياً إلى هذا الجامع المقدّس، أو أن يبتعد عنه، إذ ما من مؤسسة يمكنها التجاوب مع هذا المفهوم.– حاشية المؤلّف.

ليست سوى هرطقات وانشقاقات. وإنّ "كاتيخيزيسات" أكثر الكنائس اختلافاً -الكاثوليكية والأرثونكسية واللوثرية- تقول هذا صراحةً.

يرد في "الكاتيخيزيس" الكاثوليكي:

مَن يتواجد خارج الكنيسة؟ -الكفّار والهراطقة والمنشقّين. المنشقّون يُعرفون بمن يُسمّون الأرثونكس، والهراطقة يُعرفون باللوثريين. وبالتالي؛ فالكاثوليك فقط -حسب الكاتيخيزيس الكاثوليكي- ينتمون إلى الكنيسة.

وفي ما يدعى "الكاتيخيزيس" الأرثونكسي يرد:

"يُقصد بكنيسة المسيح الوحيدة فقط الكنيسة الأرثونكسية التي ظلّت متوافقة كلياً مع الكنيسة المسكونية. أما كنيسة روما والمذاهب الأخرى (اللوثريون لا يُسمّون المذاهب الأخرى كنيسة حتى)؛ فلا يجوز نسبها إلى الكنيسة الحقّ الوحيدة، حيث أنها قد انفصلت عنها بأنفسها.

بموجب هذا التحديد، يتواجد الكاثوليك واللوثريون خارج الكنيسة، وفقط الأرثونكس يتواجدون داخل الكنيسة.

أما "الكاتيخيزيس" اللوثري فيقول:

"يُتَعَرَّف إلى الكنيسة الحقّ من خلال أنّ فيها تُعلَّم كلمة الله بوضوح وصفاء، دون إضافات بشرية، وتُقام فيها الأسرار وفق تعليم المسيح".

حسب هذا التعريف، كل الذين أضافوا شيئاً إلى تعليم المسيح والرسل، كما فعلت الكنيستان الكاثوليكية واليونانية، يتموضعون خارج الكنيسة، وفقط البروتستانت داخل الكنيسة.

يؤكّد الكاثوليك أنّ الروح القدس حلّ في إكليروسهم دون انقطاع؛ والأرثونكس يؤكّدون أنّ ذلك الروح القدس ذاته إنما حلّ، دائماً، في إكليروسهم؛ والآريوسيون[17] يؤكّدون أنّ الروح القدس قد حلّ في إكليروسهم. كما أكّدت، بذات الحق الذي تؤكّد به

17- الآريوسية أو الآريانية Arianism: تيار في المسيحية بين القرنين الرابع والسادس، يُنسب إلى الكاهن آريوس الاسكندراني (توفي عام 336م) الذي كان ينكر أن يكون الابن (المسيح) مساوياً للآب (الإله) في الجوهر. أُدينت الأريوسية من قِبل المجمعين المسكونيين لعامي 325 و 381.

الكنائس السائدة في الوقت الراهن، شتى المذاهب البروتستانتية: اللوثرية والإصلاحية والمشيخانية[18] والمنهجية[19] والسويدينبورغية[20] والمورمونية[21]، كلها تؤكّد أنّ الروح القدس قد حلّ في جوامعها فقط.

إذا كان الكاثوليك يؤكّدون أنّ الروح القدس، أثناء انفصال الكنيستين الآريوسية واليونانية، قد هجر الكنائس المنفصلة، وبقي في الكنيسة الحقّ الوحيدة؛ فالبروتستانت كذلك، أيّاً كان اسمهم، لهم الحق ذاته في تأكيد أنّ الروح القدس، أثناء أنفصال كنيستهم عن الكنيسة الكاثوليكية، قد هجر الكاثوليكية وانتقل إلى الكنيسة التي يعترفون بها. وهكذا يفعلون.

كل الكنائس تستخلص عقيدتها من النقل المتواتر عن المسيح والرسل. وبالفعل، إن أي عقيدة مسيحية، نابعة من المسيح، كان عليها حتماً أن تصل إلى الجيل الحالي عبر منقول معين. لكنّ هذا لا يثبت أنّ أحد هذه المنقولات هو الحقّ اليقين دوناً عن المنقولات الأخرى كلها.

إنّ أي غصن على الشجرة ناشئ عن الجذر مباشرةً، لكن كون كل غصن ناشئ عن الجذر ذاته لا يثبت على الإطلاق أنّ كل غصن هو الغصن الوحيد. كذلك تماماً الكنائس.

18- المشيخانية أو البريسبيتيريانية Presbyterhans: طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في إنكلترة في القرن السادس عشر. نادت بكنسية (رخيصة التكاليف)، وأنكرت الأسقفة، واعترف أنصارها فقط بسلطة شيخ الكنيسة المنتخب (بريسبيتر). المذهب المشيخاني هو المذهب الرسمي في اسكوتلندة اليوم، وله أنصار في إنكلترة وأمريكا وغيرها.

19- المنهجية Methodism: طائفة بروتستانتية ظهرت في إنكلترة في القرن الثامن عشر، وانتشرت في أمريكا وإنكلترة. انفصلت الكنيسة "الميثودية" عن الأنغليكانية تحت راية الدعوة إلى الالتزام الدقيق والمنهجي (من هنا جاءت التسمية) بالأوامر والوصايا الدينية. يُشددون على التوبة والصبر.

20- السويدينبورغيون: هم أنصار عمانوئيل سويدينبورغ (1688 - 1772)، وهو عالم وفيلسوف لاهوتي صوفي سويدي. ذهب إلى أنّ الثالوث الإلهي ليس ثالوث أشخاص بل ثالوث جوهر. وقد أسس أتباعه كنيسة عُرفت باسم "أورشليم الجديدة". وينتشرون في أمريكا وإنكلترة بشكل خاص.

21- المورمونية Mormonism: بدعة مسيحية أسسها جوزيف سميث (صاحب "كتاب النبي مورمون") في أمريكا عام 1830. وهي خليط من المسيحية والإسلام والبوذية والديانة اليونانية القديمة. راجت في المكسيك وكندا وإنكلترة.

فكل كنيسة تقدّم براهين، كهذه تماماً، على تعاقبها، بل حتى تقدّم المعجزات لصالح حقّانيتها، مثلها مثل الكنائس الأخرى كلها، وبالتالي هناك تعريف واحد صارم ودقيق لماهية الكنيسة (ليس كشيء فنطازي على هوانا وإنما كما هي، وكما كانت، بالفعل)، وهو: الكنيسة هي جامع الناس الذين هم على يقين بأنهم يمتلكون الحقيقة الكلية والوحيدة.

وهذه الجوامع بالذات، التي تحولت فيما بعد إلى مؤسسات ذات نفوذ عن طريق دعم السلطة، كانت العائق الرئيس أمام انتشار المفهوم الحق لتعليم المسيح.

وما كان لها أن تكون على نحوٍ مغاير؛ فالميزة الرئيسة لتعليم المسيح، التي تميزه عن التعاليم السابقة كافة، تكمن في أنّ البشر، الذين يدينون به، يتطلعون إلى المزيد فالمزيد من فهم وتطبيق التعليم، في حين أنّ العقيدة الكنسية أكّدت مفهومها، المنجز والنهائي، له وتطبيقها إياه.

مهما بدا لنا -نحن البشر- الأمر مستغرباً، ورغم تربيتنا على التعليم الباطل بأن الكنيسة هي مؤسسة مسيحية وعلى ازدراء الهرطقات؛ ففقط في ما سُمّيت هرطقات كانت الحركة الحقّ، المسيحية الحقّ، وفقط عندما كفّت هذه الهرطقات عن الحركة، وترسّخت كذلك في الصيغ الثابتة للكنيسة، كفّت عن أن تكون مسيحية.

وبالفعل، ما الهرطقة؟ أعيدوا قراءة كافة المؤلَّفات اللاهوتية التي تبحث في الهرطقات، في الموضوع الذي يتنطّع لتعريف الهرطقة، وستجدون أنّ كل لاهوت يتحدث عن تعليمٍ حقّ وسط تعاليم باطلة، أي هرطقات، تحيط به، ولكن لن تجدوا حتى ما يشبه التعريف للهرطقة.

مثالاً عن هذا الغياب التام لأيٍّ مما يشبه التعريف لما يُفهم بكلمة "هرطقة" يمكن أن يكون رأي العالم المؤرّخ المتخصّص في تاريخ المسيحية بريسّانسيه E. de Pressense في مؤلّفه "تاريخ الدوغما" (Historire du Dogme) وذلك في مقدمته المعنونة "Udi Ghristus, idi Ecclessia" (باريس، 1869). هاكم ما يقوله في مقدمته (ص3): "أعلم أنّهم، لدينا، يتنازعون الحق في كيفية تعريف (أي تسمية الهرطقات) تلك التوجّهات التي كافحها الآباء الأوائل بمنتهى الجدية. إنّ تسمية "هرطقة"

وحدها تعدُّ اعتداءً على حرية الضمير والفكر. لكننا، من جهتنا، لا يمكننا المشاطرة في شكوك من هذا القبيل، والتي لن تؤدّي إلا إلى نزع السمة المميّزة للمسيحية عنها".

وفي حديثه عن أنّ الكنيسة، بعد قسطنطين، قد أساءت بالفعل استخدام سلطتها لتسمية المخالفين لها هراطقة وملاحقتهم، يقول مناقشاً العهود الأولى:

"الكنيسة مجتمع حرّ، والانفصال عنها مكسب فحسب. إنّ المحاججة ضدّ الضلال قائمة على الأفكار والمشاعر فحسب. فالصيغة الدوغمائية العامة والوحيدة لم يتم ابتكارها حتى الآن، والاختلافات الجزئية تظهر بحرية، كما في الشرق كذلك في الغرب. التيولوجيا ليست مقيدة على الإطلاق إلى الصيغ الثابتة. وإذا ما سُلِّط الضوء على المعتقدات المشتركة وسط هذا الاختلاف كله؛ أفليس من حقنا أن لا نرى في هذا منظومة مُصاغة بصورة نهائية، وضعها ممثلون نافذون لهذه المدرسة أو تلك، وأن لا نرى الدين ذاته في منطلقه الأصفى، وفي تجلياته المباشرة ذاتها؟ إذا ما تبيّن أنّ هذه الوحدة، التي يُعثَر عليها في كافة العقائد الأساسية، تنهض ضدّ هذه الاتجاهات أو تلك؛ أفلا يحقّ لنا أن نفترض، انطلاقاً من هذا، أنّ هذه الاتجاهات كانت على النقيض من المبادئ الأساسية للمسيحية؟ وألن يتحول افتراضنا إلى يقين تام عندما نتعرّف في هذا التعليم، الذي تتقضه الكنيسة، ملامح مميّزة لهذا الدين البالي أو ذاك؟ إذا ما قبلنا بأنّ الغنوصية[22] والإبيونية[23] هي صيغ شرعية للفكر المسيحي فيجب أن نقرّ، بجرأة، بأنْ لا وجود على الإطلاق، لا لفكر مسيحي ولا لطابع مميّز يمكن بوساطته التعرّف إليه. لكنّا أبطلناه نهائياً بدعوى نشره. في زمن أفلاطون ما كان أحد ليجرؤ على الإفصاح عن موافقته على عقيدة كهذه، والتي لا مكان فيها لنظرية المُثُل، ولكان أضحك اليونان كلها

22- الغنوصية أو العرفانية Gnosticism: تيار فلسفي ديني ظهر في العصور اليونانية المتأخرة (القرن الأول- القرن الخامس). وهو مذهب ثنوي يقول بوجود مبدأين هما الروح (الخير) والمادة (الشر)، يحدد صراعهما مجرى الأحداث في الكون، وبأن المعرفة الحقة هي معرفة الإنسان لنفسه تمهيداً لمعرفة الله والاتحاد به. من أبرز أعلامها باسيليدس وفالنتينوس.

23- الإبيونية Ebionism: إحدى المجموعات المسيحية المبكرة. أخذت بالطقوس اليهودية، وكانت تعتقد أن المسيح هو ابن يوسف ومريم نزل عليه الروح القدس، وأن العالم مسرح للصراع بين قوى الخير وقوى الشر، سينتهي بقيام "مملكة الخير".

لو فكّر في عدّ أبيقور أو زينون طلاباً في أكاديمية. وبالتالي، إذا كان هناك دين أو تعليم اسمه المسيحية، فلا بدّ أن تكون له هرطقاته (ص4)".

تتلخّص مناقشة المؤلِّف برمّتها في أنّ أي فكر لا يتوافق مع مجموع الدوغمات التي نعتنقها هو هرطقة. لكن في الوقت الراهن، في هذا المكان، البشر يعبدون شيئاً ما، وعبادة الشيء ما هذه، في مكانٍ ما، وفي زمانٍ ما، لا يمكنها أن تكون معياراً للحقّ.

كل شيء يتلخّص في "Udi Ghristus, idi Ecclessia": "المسيح هناك حيث الكنيسة".

إنّ أيّاً مما يسمّى هرطقة، تعتبر ما تعتنقه الحقّ، يمكن لها، كذلك تماماً، أن تجد في تاريخ الكنيسة تفسيراً منطقياً لما تعتنقه، وأن تستخدم كل حجج بريسّانسيه لمصلحتها، وأن تدعو فقط ما تعتنقه هي بالمسيحية الحق، وهو ما فعلته وتفعله كل الهرطقات.

التعريف الوحيد للهرطقة هو التسمية التي تطلقها مجموعة من الناس على أي رأي يناقض جزءاً من العقيدة التي تعتنقها المجموعة. أما المعنى الأضيق، الذي يوصّف الهرطقة غالباً، فهو بمعنى الرأي الذي يناقض العقيدة الكنسية المقامة والمدعومة من قِبل سلطة دنيوية.

هناك مؤلّف ضخم ورائع قلّة يعرفونه اسمه ("Unparteusche Kirchen und Ketzer- Historie", 1729)، يبحث في هذا الموضوع بشكل مباشر، ويُظهر كلّ لاشرعية وتعسّف وعبثية وقسوة استخدام كلمة "هرطقة" بمعنى "الكفر". هذا الكتاب محاولة لكتابة تاريخ المسيحية على أنه تاريخ هرطقة.

في مقدمة كتابه يطرح الكاتب جملة من الأسئلة:

1 – عن الذين يُسمَّون الهراطقة.

2 – عن الذين سمّوا الهراطقة.

3 – عن موضوعات الهرطقة ذاتها.

4 – عن طريقة اتهام الهراطقة.

5 – وعن أهداف وتبعات الاتهام بالهرطقة.

على جميع هذه البنود يضع كذلك الكاتب عشرات الأسئلة، والتي يقدّم بعد ذلك إجابات عنها من مؤلّفات لاهوتيين معروفين، والأهم هو أنه يتيح للقارئ ذاته أن يضع

استنتاجاته من خلال محتوى مجمل الكتاب. كأمثلة عن هذه الأسئلة، المشتملة جزئياً على الأجوبة، أورد ما يلي:

فيما يتعلق بالبند الرابع حول كيفية الاتهام الهرطقة يقول في أُحد هذه الأسئلة (س7): "ألا يُظهر مجمل التاريخ أنّ أكثر الذين أصبحوا هراطقة وباتوا معلّمي هذه الصنعة كانوا بالتحديد أولئك الحكماء الذين حجب عنهم الآب أسراره، أي المنافقين، الفريسيين والمشرّعين أو الكفار والمفسدين". (س.س20، 21): "ألم يتم، في الأزمنة الفاسدة للمسيحية، نبذ أولئك الذين وهبهم الله مواهب عظيمة كمنافقين وحاسدين، والذين كانوا سيبجلّون عالياً في أزمنة المسيحية النقية. وعلى العكس من ذلك، هؤلاء الناس الذين –عند انحطاط المسيحية– تعالَوا على كل شيء، واعتبروا أنفسهم معلّمي المسيحية الأكثر نقاءً، أما كان هؤلاء الناس، في أزمنة رسل المسيح وتلامذته، ليُعدّوا أشدّ الهراطقة وأعداء المسيح خزياً".

وإذ يُعبِّر، في هذه الأسئلة، عن فكرة أنّ التعبير الكلامي عن جوهر الدين، الذين كانت الكنيسة بحاجة إليه والذي عُدَّ الارتداد عنه هرطقةً، لم يستطع على الإطلاق التغطية على عقيدة المؤمن ذاتها، وأنّ –لهذا السبب– مطلب التعبير عن الإيمان خلق الهرطقات، يقول في السؤالين 21 و23:

"وإذا كانت الأعمال والأفكار الإلهية تُعدُّ عظيمة وعميقة بالنسبة للإنسان إلى درجة أنه لا يجد الكلمات المناسبة للتعبير عنها؛ فهل ينبغي عدّه هرطوقاً إذا لم يكن قادراً على التعبير عن فهمه لها بدقة؟ أليس لهذا السبب لم تكن هناك هرطقات في العهود الأولى، وأنّ المسيحيين لم يكونوا يدينون بعضهم بعضاً تبعاً لتعبيرات كلامية، وإنما بموجب القلوب والأعمال، وأنهم كانوا يعيشون في ظلّ حرية تامة للتعبير عن الأفكار دون خوف من أن يُعدُّ المرء هرطوقاً؟"

"ألم تكن الوسيلة الأكثر اعتياداً وسهولةً للكنيسة (يقول في السؤال 31)، إذا ما أراد القس التخلّص من أحدهم أو إهلاكه أن يجعل هذا الشخص يشكّ في عقيدته، فيلقي عليه رداء الهرطقة، وبذلك تتم إدانته وإزاحته؟"

"رغم حقيقة وجود المغالطات والأضلولات بين الذين يُسمَّون هراطقة، لكن ليس أقلّ صحةً وجلاءً، من الأمثلة التي لا تحصى المضروبة هنا (أي في تاريخ الكنيسة

والهرطقات) -يقول لاحقاً- أنه لا يوجد، ولم يوجد، شخص صادق واحد ذو ضمير له شيء من القيمة لم يتم إهلاكه من قِبل الكنسيين بسبب الحسد أو لأسباب أخرى".

هكذا فُهم معنى الهرطقة قبل قرابة 200 سنة، وبغضّ النظر عن ذلك ما زال هذا المفهوم قائماً حتى الآن، ولا يمكن له إلا أن يبقى ما دام مفهوم الكنيسة قائماً. الهرطقة هي الوجه الآخر للكنيسة؛ فحيث توجد الكنيسة يجب أن يكون مفهوم الهرطقة موجوداً. الكنيسة هي جامع الناس الذين يعتقدون أنهم يحوزون الحقّ اليقين. والهرطقة هي رأي الناس الذين لا يعترفون بيقينية حقّ الكنيسة.

الهرطقة هي تجلّي الحركة في الكنيسة، هي محاولة لتدمير الإقرار النهائي للكنيسة، إنها محاولة لفهم الدين فهماً حياً. وإنّ أي خطوة نحو الأمام لفهم الدين وتطبيقه إنما قام بها الهراطقة: الهراطقة كانوا ترتوليان وأوريجين وأوغسطين وسافونارولا وخيلجيتسكي وغيرهم. وما كان للأمر أن يكون على نحوٍ آخر.

إنّ تلميذ المسيح، الذي يكمن تعليمه في المزيد فالمزيد من فهم التعليم والمزيد فالمزيد من تطبيقه، وفي التوجّه نحو الكمال، لا يمكنه -لأنه تلميذ المسيح- أن يؤكّد، عن نفسه أو عن شخص آخر، بأنه يفهم تعليم المسيح ويُطبّقه بالكامل، وبدرجة أقلّ يمكنه تأكيد ذلك عن أيّ جامعٍ كان.

أياً كانت درجة فهم وكمال تلميذ المسيح؛ فإنه يشعر دائماً بعدم كفاية فهمه وتطبيقه كذلك، ويتطلّع إلى المزيد فالمزيد من الفهم والتطبيق. لذا فإنّ إقراره أنه يحوز، أو إقرار جامع ما أنه يحوز فهماً وتطبيقاً كاملين لتعليم المسيح إنما هو ارتداد عن روح تعليم المسيح.

مهما بدا ذلك غريباً؛ فإنّ الكنائس، ككنائس، كانت دائماً، ولا يمكنها إلا أن تكون، ليست مؤسسات غريبة فحسب بل ومعادية لتعليم المسيح صراحةً. وليس عبثاً أسماها فولتير بالمشينة؛ وليس عبثاً أنّ كل، أو تقريباً كل، الطوائف المسيحية اعتبرت، وتعتبر، أنّ الكنيسة هي تلك الزانية التي تنبّأت بها رؤيا يوحنا اللاهوتي؛ ليس عبثاً أنّ تاريخ الكنيسة هو تاريخ القسوة والأهوال الأعظم.

"الكنائس، ككنائس، ليست سوى مؤسسات تتمتع بمبدأ مسيحي في أساسها رغم ابتعادها عن الطريق المباشرة بعض الشيء" -هكذا يعتقد كثيرون، لكن الكنائس،

كجوامع تؤكّد عصمتها، هي مؤسسات معادية للمسيحية في جوهرها. ليس فقط لا يوجد ما هو مشترك، سوى الاسم، بين الكنائس وبين المسيحية بل هما مبدأان نقيضان ومعاديان لبعضهما بعضاً. أحدهما هو التكبّر والعنف وتأكيد الذات والجمود والموت، والثاني هو التواضع والوداعة والاستكانة والحركة والحياة.

من المستحيل خدمة سيدين معاً، ويجب اختيار هذا أو ذاك. خدم كنائس كافة العقائد، وبشكل خاص في الأزمنة الأخيرة، يحاولون تقديم أنفسهم على أنهم مناصرو الحركة في المسيحية؛ فيقومون بتنازلات، ويرجون تصحيح سوء الاستخدام المندسّ في الكنيسة، ويقولون إنه بسبب سوء الاستخدام لا يجوز نفي مبدأ الكنيسة المسيحية ذاته، الوحيدة القادرة على توحيد الجميع، وأن تكون وسيطاً بين الله والبشر. لكنّ هذا ليس صحيحاً؛ فالكنيسة ليست فقط لم توحّد قط بل كانت دائماً أحد الأسباب الرئيسة لانقسام البشر، لكراهيتهم بعضهم بعضاً، للحروب والمجازر ومحاكم التفتيش وليالي بارثولومي ...إلخ، ولن تكون الكنائس أبداً وسطاء بين البشر والله، وهو أمر لا لزوم له، وقد منعه صراحةً المسيح الذي كشف تعليمه مباشرةً ودون وساطة لكلّ البشر، بل هي تضع صيغاً ميتة مكان الله، وليست فقط لا تكشف الله للبشر وإنما تحجبه عنهم. الكنائس، الناتجة عن عدم الفهم والمعزِّزة عدم فهمها بالجمود، لا يجوز لها أن تلاحق، ولا أن تضطهد، أيّ فهم للتعليم. هي تحاول إخفاء ذلك لكن هذا مستحيل لأنّ أيّ حركة إلى الأمام عبر الطريق التي أشار إليها المسيح تُحطِّم وجودها.

سوف تستمع إلى، وتقرأ، المقالات والخطب التي يتحدث فيها كتّاب العصر الجديد الكنائسيون من كافة المذاهب عن الحقائق والفضائل المسيحية، سوف تسمع وتقرأ هذه الأفكار والمواعظ والعقائد المختلقة والمبتدعة منذ قرون، والتي تكون أحياناً شبيهة بالحقيقة، وسوف تشكّ في أن تكون الكنائس معادية للمسيحية: "لا يمكن لهؤلاء الناس، الذين قدّموا أناساً مثل يوحنا فم الذهب وفينيلون وبوتلر وغيرهم من دعاة المسيحية، أن يكونوا معادين لها". هناك رغبة في القول: "قد تنحرف الكنائس عن المسيحية، قد تخطئ، لكن ليس بإمكانها أن تكون معادية للمسيحية". لكنك ستنظر إلى الثمار التي تقيِّم الشجرة من خلالها، كما علّم المسيح، وسترى أنّ ثمارهم كانت شريرة، وأنّ عاقبة عملهم كانت تحريف المسيحية، ولن يكون بمقدورك إلا أن تعترف، مهما بلغ تقوى

هؤلاء الناس، بأنّ عمل الكنيسة، الذي شارك فيه هؤلاء الناس، لم يكن مسيحياً. إنّ برّ وفضيلة كلّ هؤلاء الناس الذين خدموا الكنيسة كان برّ وفضيلة هؤلاء الناس ولم يكونا برّ وفضيلة القضية التي قاموا بخدمتها. كلّ هؤلاء الناس الخيّرين، مثل الفرنسيسكييَن الأسيزي و دي لوببيس وطيخون زادونسكي وتوما الإكويني وغيرهم، كانوا أناساً خيّرين، بغضّ النظر عن أنهم خدموا قضية معادية للمسيحية، ولكان برّهم وفضيلتهم أكبر لو لم يقعوا تحت تأثير الأضلولة التي خدموها.

لكن فيمَ الحديث عن الماضي، ومحاكمة الماضي الذي ربما قُدِّم لنا بصورة كاذبة، والذي نعرف عنه القليل؛ فالكنيسة بأسسها وأعمالها ليست شأناً من شؤون الماضي: الكنائس ماثلة أمامنا الآن، ويمكننا المناقشة بصددها على أرض الواقع وفقاً لعملها، ولتأثيرها على الناس.

فما هو عمل الكنائس في وقتنا الراهن؟ كيف تؤثّر في الناس؟ ما الذي تفعله الكنائس لدينا، لدى الكاثوليك، لدى البروتستانت بشتى طوائفهم؟ ما هو جوهر عملها، وما هي عواقب عملها؟

إنّ عمل كنيستنا الروسية، التي تسمّى الأرثوذكسية، ماثل أمام أعين الجميع. وليس بالإمكان إخفاء هذه الحقيقة الهائلة، ولا يمكن المجادلة فيها. ما هو عمل هذه الكنيسة الروسية، هذه المؤسسة الضخمة البالغة النفوذ، والمكوَّنة من جيش عرمرم قوامه نصف مليون شخص، والذي يكلِّف الشعب عشرات الملايين من الروبلات؟

يتلخّص عمل هذه الكنيسة في تلقين جمهور الشعب الروسي المكوّن من 100 مليون نسمة، بشتى الوسائل الممكنة، تلك العقائد المتخلّفة والبالية، التي لم يعد لها مبرّر على الإطلاق في الوقت الراهن، والتي دعا أناسٌ غرباء شعبنا إليها، والتي لم يعد أحد يؤمن بها تقريباً الآن، بمن فيهم أولئك الذين يقع على عاتقهم واجب نشر هذه العقائد الباطلة.

إنّ تلقين شعبنا صيغ الإكليروس البيزنطي، حول الثالوث وأم الله والأسرار والمباركة ...إلخ، الغريبة عليه، والبالية، والتي لا معنى لها لبشر زماننا، يُعدُّ جزءاً من عمل الكنيسة الروسية. الجزء الثاني لعملها هو تقليد عبادة الأصنام بالمعنى المباشر لهذه الكلمة: تبجيل الأضرحة "المقدّسة" والأيقونات وجلب الأضحيات لها، وتوقّع تحقّق الأمنيات منها. لن أتحدث عمّا يُقال ويُكتب من قِبل الإكليروس مرفقاً بمسحة علمية

وليبرالية في المجلات الدينية، بل سأتحدث عمّا يقوم به الإليروس في الأراضي الروسية الشاسعة برمّتها، بين شعب مؤلّف من 100 مليون نسمة. ما الذي يعلّمونه للشعب بحرص ومواظبة ودأب، وبصورة مماثلة في كل مكان؟ ما الذي يطلبونه منه من منطلق ما يسمّى العقيدة المسيحية؟

سأبدأ من البداية، من ولادة الطفل: عند ولادة طفل يعلمونهم وجوب تلاوة صلاة على الطفل والأم ليطّهرا، حيث أنّ هذه الأم التي أنجبت تكون نجسة من دون هذه الصلاة. من أجل ذلك، أمام صور القديسين المسمّين ببساطة آلهة من قِبل الشعب، يأخذ القسّ الطفل على يديه، ويتلو التعاويذ، وبهذا يُطهّر الأم. ثم يتم تلقين الوالدين، بل حتى يؤمران تحت طائلة العقاب في حال عدم التنفيذ، ضرورة تعميد الطفل، أي يرشّه القسّ بالماء ثلاث مرات، فيتلو كلمات لا يفهمها أحد، وتُصنع أعمال مفهومة بدرجة أقلّ - مسح أجزاء من الجسد بالزيت، قصّ الشعر، النفخ، البصق على شيطانٍ متخيَّل. وعلى هذا كله أن يُطهّر الطفل ويجعل منه مسيحياً. بعد ذلك يتم تلقين الوالدين وجوب تقريب الطفل، أي إعطاءه جزءاً من جسد المسيح، على شكل خبز ونبيذ، ليتناوله، الأمر الذي يعني أنّ الطفل يتقبّل في ذاته نعمة المسيح ...إلخ. ثم يُلقنون أنّ هذا الطفل -حسب عمره- يجب تعليمه الصلاة. والصلاة تعني الوقوف مباشرةً أمام ألواحٍ رُسمت عليها وجوه المسيح والعذراء والقديسين، والسجود بالرأس والجسد كله، ولمس الجبين والكتفين والبطن باليد اليمنى، مع وضعية معينة للأصابع، والنطق بكلماتٍ سلافية، والتي من بينها الأكثر شيوعاً، والأكثر تلقيناً لجميع الأطفال: "يا والدة الله، أيتها العذراء، افرحي ...الخ." ثم يُلقَن المربّى أنّ عليه القيام بالشيء ذاته عند رؤية أي كنيسة أو أيقونة، أي أن يرسم إشارة الصليب، ثم يُلقّنونه أنّ في الأعياد (الأعياد هي اليوم الذي ولد فيه المسيح مع أنّ أحداً لا يعلم متى حدث ذلك، واليوم الذي خُتن فيه، ويوم وفاة السيدة العذراء، واليوم الذي جُلب فيه الصليب أو جيء فيه بالأيقونة، أو اليوم الذي رأى فيه "عبيط" ما رؤيا ...إلخ) عليه ارتداء أفضل الملابس، والذهاب إلى الكنيسة، وشراء الشموع ووضعها تحت صور القديسين، وتلاوة الأذكار وتقديم قطع الخبز ليتم تقطيعها إلى أشكال مثلّثة، ثم الصلاة مرات كثيرة من أجل صحة ورفاهية القيصر ورؤساء الكنيسة، ومن أجل صحة المرء وشؤونه، ثم تقبيل الصليب ويد القسّ.

فضلاً عن هذه الصلاة، يُلقَّن أيضاً أن عليه، مرة واحدة على الأقل في السنة، أن يعترف. والاعتراف يعني دخول المرء الكنيسة وإخبار القسّ عن خطاياه، معتقداً أنّ الإخبار عن خاطاياه لشخص غريب عليه يُطهّره من الذنوب كلياً. ثم يُلقّن الرجل والمرأة، إذا كانا يريدان أن تكون معاشرتهما الجنسية مقدّسة، أنّ عليهما الذهاب إلى الكنيسة وعلى رأسيهما إكليلان معدنيان، وأن يحتسيا النبيذ، ويدورا حول الطاولة ثلاث مرات على أصوات الأناشيد، وحينذاك تغدو المعاشرة الجنسية بين الرجل والمرأة مقدّسة، ومتميّزة كلياً عن شتى أشكال المعاشرة الأخرى.

أما في الحياة فيتم تلقين وجوب اتّباع القواعد التالية: عدم تناول اللحم والحليب في أيام معلومة، وفي أيام معلومة أخرى تجب الصلاة وإقامة القداديس على الموتى، واستقبال القسّ في الأعياد وإعطاءه المال، وعدة مرات في السنة يجب أخذ ألواح عليها رسومات من الكنيسة وحملها على المناشف عبر الحقول والبيوت. أما قبل الموت فيلقّن الإنسان أنّ عليه حتماً تناول الخبز والنبيذ، وسيكون أفضل لو أنه تمكّن من مسح جسده بالزيت؛ فهذا سيضمن له الجنة في الآخرة. أما بعد وفاته فيوعز إلى أهله أنّ من المفيد وضع ورقة كُتبت عليها صلاة في يد المتوفّى من أجل خلاص روحه، ومفيد أيضاً لو أنهم قرأوا على الميت آية معينة، ونطقوا اسم الميت في وقت محدد في الكنيسة.

هذه العقيدة تُعدُّ ملزمة لكل الناس.

أما إذا أراد أحدهم الاعتناء بروحه عنايةً خاصة؛ فبموجب هذه العقيدة يُوعز إليه أنّ الضمانة الأكبر لنعيم الروح في ذلك العالم تُدرك عبر تقديم المال للكنائس والأديرة، الأمر الذي يُلزم القديسين بالدعاء له. ووفقاً لهذه العقيدة تُعدُّ زيارة الأديرة وتقبيل الأيقونات والأضرحة مُنجية.

حسب هذه العقيدة، تتركّز في هذه الأيقونات والأضرحة قداسةٌ خاصة، وقدرةٌ وبرٌّ، والتقرّب إلى هذه الأشياء: لمسها، تقبيلها، إشعال الشموع لها، الزحف تحتها – كل هذا

يساعد على الخلاص، تماماً مثل الصلوات الموصى عليها[24] التي تُنشد قدّام هذه المقدّسات.

وها هي هذه العقيدة، وليست أيّ عقيدة أخرى، المسمّاة الأرثوذكسية، أي الدين الحقّ، تُلقَّن، على أنها المسيحية، للشعب في الوقت الراهن، بكل ما أوتي من قوة، وبحماسة كبيرة، على امتداد قرون كثيرة.

وليكفّوا عن القول إنّ المعلّمين الأرثوذكس يرون أنّ جوهر الدين يكمن في شيء آخر، وإنّ هذه صيغ قديمة فحسب لا يُعدُّ القضاء عليها أمراً ضرورياً. هذا غير صحيح؛ ففي روسيا كلها يتم فقط تلقين هذه العقيدة، بسعيٍ دؤوب، من قِبل الإكليروس الروسي كله. وما من شيءٍ آخر. فعن الشيء الآخر يجري الحديث ويُكتب في العواصم لكن وسط الشعب المكوّن من مائة مليون يُصنع هذا فقط، ويُلقَّن هذا فقط، ولا شيء أكثر. الكنسيون يتحدثون عن هذا الشيء الآخر لكنّهم يلقّنون هذا بكافة السبل الممكنة.

وقد أُدخل هذا السجود كله وكل هذه الأيقونات إلى اللاهوت، وإلى كتب تعليم أصول الدين، ويتم تعليمه للشعب بحرص، نظرياً وعملياً، وبكافة السبل المهيبة وبتألّق ونفوذ وعنف، فيخدّرونه ويرغمونه على الإيمان به، وبغيرةٍ يحمون هذه العقيدة من أي محاولة لتحرير الشعب من هذه الخرافات الهمجية.

على مرأى منّي -كما قلت-، بمناسبة صدور كتابي، طوال سنوات كثيرة كان تعليم المسيح وأقواله المتعلقة بعدم مقاومة الشرّ موضوعاً للسخرية، للنكات الهازلة، والكنسيون ليس فقط لم يقاوموا هذا التجديف بل وشجّعوا عليه، لكن حاولوا أن تقولوا كلمة غير لائقة عن الوثن الشنيع، المسمّى "القدّيسة الإيبيرية"، الذي يجول به أناسٌ سكّيرون عبر موسكو، حتى يتصاعد عويل سخط هؤلاء الكنسيين الأرثوذكس أنفسهم. ما يحدث هو الدعوة إلى طقوس وثنية فحسب. وليكفّوا عن القول إنّ هذا لا يعيق الآخر، "هذا يجب القيام به وعدم ترك ذاك"، و"مهما قالوا فاحفظوه واعملوا به وأما مثل أعمالهم فلا تعملوا لأنهم يقولون ولا يفعلون" (متّى: 23، 3)

24- المقصود أنّ الناس يدفعونَ المال لرجال الدين ليوصوا على (ليحجزوا) صلاة معينة تتلى لغايات معينة، مثلما يدفعون للمنشدين والمغنين.

لقد قيل هذا الكلام عن الفريسيين الذين كانوا يُطبّقون كل الأوامر الظاهرية للشريعة، لذا فالقول "مهما قالوا لكم فاحفظوه واعملوا به" يتعلق بأداء العبادات وإهمال أعمال الخير، وله معنى معاكس كلياً لما يريد الكنسيون إعطاءه له، مفسّرينه على أنه فقط أداء العبادات. العبادة الظاهرية وخدمة الرحمة والحق بالكاد تتعايشان؛ ففي معظم الحالات إحداهما تلغي الأخرى. هكذا كان الأمر لدى الفريسيين، وهكذا هي حال المسيحيين الكنسيين في الوقت الراهن.

إذا كان الإنسان قادراً على الخلاص من خلال الكفّارات والأسرار والصلاة فإنه لا يعود بحاجة إلى أعمال الخير.

لا يجوز الإيمان بالموعظة على الجبل وبرمز العقيدة [الطقوس– م.] في الآن ذاته. اختار الكنسيون الأخير، حيث تُدرَّس الطقوس وتُتلى الصلاة في الكنائس في حين أنّ الموعظة على الجبل مستثناة حتى من القراءة في الكنائس من قِبل الإنجيليين، إلى درجة أنّ رعايا الأبرشيات لا يسمعونها أبداً في الكنائس، ما عدا في الأيام التي تُقرأ فيها الأناجيل بالكامل. بل لا يمكن للأمر إلا أن يكون على هذا النحو؛ فالذين يؤمنون بإلهٍ شرير أرعن – لعن جنس البر، وضحّى بابنه، وقضى على قسمٍ من البشر بالعذاب الأبدي– لا يمكنهم الإيمان بإله المحبة. الإنسان الذي يؤمن بإله المسيح المنتظر مع مجد دينونة وتعذيب الأحياء والأموات لا يمكنه الإيمان بالمسيح الذي أمر بإدارة الخدّ الآخر للمسيء، وبعدم الإدانة، وبالمغفرة للأعداء ومحبتهم. الإنسان، الذي يؤمن بوحيانية العهد القديم وبقدسية داود الذي أمر بقتل الشيخ على الهاوية المميتة[25] لأنه أهانه، ولأنه لم يكن قادراً على قتله بنفسه حيث كان مقيّداً بقسمه؛ الإنسان المؤمن بشناعات من هذا القبيل، والتي يمتلئ بها العهد القديم، لا يمكنه الإيمان بالتشريع الأخلاقي للمسيح؛ الإنسان المؤمن بتعليم ووعظ الكنيسة حول توافق المسيحية مع الإعدامات والحروب لا يمكنه الإيمان بأخوة البشر أجمعين.

25– العهد القديم، ملوك الأول، (2، 8–9)، حيث يقول داود الملك: "وهوذا معك شِمعي بن جيرا البنياميني من بَحوريم، وهو لعنني لعنة شديدة يوم انطلقت من مَحَنايم، وقد نزل للقائي إلى الأردن، فحلفت له بالرب قائلاً: إني لا أميتك بالسيف. والآن فلا تُبرِّره لأنك أنت رجل حكيم، فاعلم ما تفعل به وأَحدِر شيبته بالدم إلى الهاوية."

أما الأمر الرئيس فهو أنّ الإنسان المؤمن بخلاص البشر من خلال إيمانهم بالكفّارات والأسرار لا يعود بإمكانه تكريس جهوده لتطبيق التعليم الأخلاقي للمسيح في الحياة.

الإنسان، الذي تُعلِّمه الكنيسة ذلك التعليم التجديفي بأنّ الإنسان لا يمكنه الخلاص من خلال سعيه الخاص، وأنّ هناك وسيلة أخرى، سوف يلجأ حتماً إلى تلك الوسيلة وليس إلى جهوده الخاصة التي يقنعونه أنّ الخطيئة تتكئ إليها. إنّ كل التعاليم الكنسية، بكفّاراتها وأسرارها، تنفي تعليم المسيح، ناهيكم عن التعليم اللاهوتي مع عبادة الأصنام الخاصة به. سوف يقولون ردّاً على ذلك: "لكنّ الشعب آمن دائماً على هذا النحو، وعلى هذا النحو هو يؤمن الآن. إنّ تاريخ الشعب الروسي برمّته يؤكّد ذلك، ولا ينبغي حرمان الشعب من تقاليده". في هذا التحديد بالذات يكمن الكذب. ففي وقتٍ ما كان الشعب يعتنق شيئاً مماثلاً لما تدعو إليه الكنيسة الآن، رغم أنه ليس مماثلاً له على الإطلاق؛ فالشعب كان لديه -عدا عن هذا التعصب الديني للأيقونات والمعابد والأضرحة بأكاليل الورد وأغصان أشجار البتولا- دائماً أيضاً فهم أخلاقي حياتي عميق للمسيحية، لم يكن له وجود قط في الكنيسة برمّتها، وصودف فقط في أفضل ممثّليها. لكنّ الشعب، رغم كل العوائق التي وضعتها في طريقه الدولة والكنيسة، تجاوز، في شخص أفضل ممثّليه، هذه الدرجة الفظّة للفهم منذ زمن بعيد، الأمر الذي يتجلّى من خلال الطوائف العقلانية القائمة بذاتها في كلّ مكان، التي تكتظّ بها روسيا الآن، والتي يكافحها الكنسيون بفشلٍ ذريع في الوقت الراهن. الشعب يسير قُدماً في وعي الجانب الأخلاقي والحياتي للمسيحية. وهنا تظهر الكنيسة، بموروثها الوثني البالي الراسخ، الذي لا أساس له، بصيغته المنجزة، لدفع الشعب ثانيةً إلى تلك الظلمة التي خرج منها بهذه القوة.

يقول القساوسة: "نحن لا نُعلِّم الشعب شيئاً جديداً، بل نُعلّمه فقط ما يؤمن هو به، ولكن بصيغة أكثر كمالاً." وهو ما كان سيفعله شخص يربط صوصاً يكبر لكي يحشره في البيضة التي خرج منها.

كثيراً ما أذهلتني هذه الملاحظة الكوميدية، فقط لو أنّ عواقبها لم تكن بهذا الهول، وهي كيف أنّ الناس، المتشابكين في حلقة واحدة، يكذبون على بعضهم بعضاً، ويعجزون عن الخروج من هذه الحلقة المسحورة.

السؤال الأول، الشكّ الأول، للإنسان الروسي الذي بدأ يفكّر هو السؤال المتعلق بالأيقونات، وخاصةً الأضرحة: هل صحيح أنها خالدة، وأنها تُحقّق المعجزات؟ مئات وآلاف الناس يطرحون على أنفسهم هذا السؤال، ويجدون صعوبة في حلّه، بصورة رئيسة لأنّ الأساقفة والمطارنة وجميع ذوي المناصب الرفيعة يلثمون الأضرحة والأيقونات التي تجترح المعجزات. اسألوا المطارنة وذوي المقامات الرفيعة عن سبب قيامهم بذلك، وسيقولون إنهم يفعلون ذلك لأجل الشعب، والشعب يلثمها لأنّ المطارنة وذوي المقامات الرفيعة يفعلون ذلك.

إنّ عمل الكنيسة الروسية، بغضّ النظر عن كل البريق الخارجي للعصرنة والعلمنة والروحانية الذي بدأ الآن أعضاؤها يستخدمونها في كتاباتهم ومقالاتهم ومجلاتهم وخطبهم الدينية، لا يكمن فقط في إبقاء الشعب في حالة عبادة الأوثان الفظّة والهمجية، كما هي حاله الآن، بل كذلك في تعزيز ونشر الخرافة والجاهلية الدينية، وفي الانتزاع من الشعب الإدراك الحياتي للمسيحية الذي يعيشه جنباً إلى جنب مع عبادة الأوثان.

أذكر أني كنت موجوداً في حانوت اسمه "بريّة أوبتينا" لبيع الكتب، يعود إلى دير، عندما كان رجل شيخ يختار كتباً دينية لحفيده المتعلّم. فدسّ له الراهب كتاباً يصف الأضرحة والأعياد والأيقونات والأسرار ...إلخ. سألت الشيخ ما إن كان لديه إنجيل؟ – لا. فقلت للراهب: "أعطه إنجيلاً باللغة الروسية". فقال الراهب: "هذا لا يناسبه".

هذا هو عمل كنيستنا باختصار.

قد يقول القارئ الأوروبي أو الأمريكي عن هذا الأمر: لكنّ هذا يحدث فقط في روسيا الهمجية. ورأي كهذا سيكون صحيحاً لكن فقط بقدر ما يتعلق الأمر بالحكومة التي تساعد الكنائس على إنجاز عملها المُخدِّر والمُفسِد في روسيا.

صحيح أنْ ليست هناك في أوروبا حكومة استبدادية إلى هذا الحدّ، وإلى هذه الدرجة متوافقة مع الكنيسة السائدة، لذا فإنّ مساهمة السلطة في إفساد الشعب في روسيا أقوى، لكن ليس صحيحاً أنّ الكنيسة الروسية، من حيث تأثيرها في الشعب، مختلفة عن أيّ كنيسة أخرى، بأيّ شيء كان.

الكنائس هي ذاتها في كلّ مكان، وإذا لم تكن هناك حكومة مذعنة للكنيسة الكاثوليكية أو الأنغليكانية أو اللوثرية فهذا بسبب عدم توفّر الرغبة في الاستفادة من حكومة كهذه.

الكنيسة ككنيسة، أياً كان نوعها -كاثوليكية أم أنغليكانية أم لوثرية أم أرثونكسية-، بما أنها كنيسة، لا يمكنها إلا أن تتطلّع إلى ما تصبو إليه الكنيسة الروسية، أي إلى حجب المعنى الحقيقي لتعليم المسيح، واستبدال تعليمها به، تعليمها الذي لا يفرض أي واجبات، ويمنع إمكانية فهم العمل الحقيقي لتعليم المسيح، والأهم هو أنه يبرّر وجود الكهنة الذين يعتاشون على حساب الشعب.

تُرى هل هو أمر مختلف ما فعلته وتفعله الكاثوليكية بمنعها قراءة الأناجيل، وبأمرها بعدم مناقشة موضوع الخضوع لرؤساء الكنائس والبابا المعصوم؟ تُرى هل تدعو الكاثوليكية إلى ما هو مختلف عما تدعو إليه الكنيسة الروسية؟ ذات الطقوس، ذات الأضرحة والمعجزات والأصنام والـ Notre – Dames، التي تجترح المعجزات، وذات المواكب. ذات الأفكار البالغة الغموض عن المسيحية في الكتب والخُطب، وإذا احتاج الأمر فتعزيز عبادة الأصنام ذاتها.

تُرى أليس الأمر ذاته يحدث، سواء في الكنيسة الأنغليكانية أم اللوثرية أم البروتستانتية بشتى أشكالها؟ ذات الطلب من الرعايا بخصوص الإيمان بالدوغمات التي عُبِّر عنها في القرن الرابع والفاقدة لأي معنى بالنسبة لبشر زماننا، وذات مطلب عبادة الأصنام، إنْ لم يكن السجود للأضرحة والأيقونات، فالسجود لأيام السبت ولحروف الكتاب المقدّس. ذات العمل الموجّه لحجب المتطلبات الحقيقية للمسيحية، واستبدالها بالظاهر غير المُلزم بشيء، وبالـ"cant"[26]، حسبما حدّد الإنكليز بصورة رائعة الواجب المفروض عليهم بشكل خاص.

هذا النشاط ملحوظ بشكل خاص بين البروتستانت لأنّ هذا المذهب ليست لديه ذرائع قديمة. ألا يحدث الأمر ذاته في الكالفينية الإصلاحية المُجدِّدة، وفي الإنجيلية التي وُلد فيها جيش الخلاص.

26- cant: تعني الرياء والنفاق، بالإنكليزية، وتشير كذلك إلى لغة خاصة بفئة معينة من الناس (كاللصوص مثلاً)، وهو ما يقصده تولستوي.

كما هي متماثلة مواقف كافة العقائد الكنسية في تعاملها مع تعليم المسيح، كذلك أساليبها متماثلة أيضاً. وإنّ مواقفها على نحوٍ بحيث لا يمكنها إلا أن تبذل كل ما في وسعها لحجب تعليم المسيح الذي تستغلّ اسمه.

إنّ عدم توافق كافة العقائد الكنسية مع تعليم المسيح على نحوٍ بحيث أنه لا حاجة لجهود مميزة لكشف عدم التوافق هذا للناس. وفي الواقع، يكفي فحسب تأمّل حال أي إنسان راشد، وليس المتعلّم فقط بل حتى أبسط إنسان في زماننا هذا، وقد راكم مفاهيم محمولة في الجو عن اللاهوت والفيزياء والكيمياء والكوسموغونيا [علم نشأة الكون] والتاريخ، عندما يتعامل بوعي، لأول مرة، مع ما لقّنوه إياه في طفولته، والذي رسّخته الكنائس لديه، مع اعتقاده بأنّ الله قد خلق العالم في ستة أيام، وأنّ النور سابق على الشمس، وأنّ نوح حشر الوحوش كلها في سفينته ...إلخ، وأنّ يسوع هو أيضاً الإله-الابن الذي خلق كل شيء قبل الزمان، وأنّ الله قد جاء إلى الأرض لأجل خطيئة آدم، وأنه قد قام ويجلس على يمين العرش الآن، وسيأتي في السحاب ليدين العالم، وهلمّ جرّا.

لكنّ هذه المبادئ برمّتها قد ابتدعها البشر في القرن الرابع، ولها معنى محدّد لأناس ذلك العصر، وليس لها أيّ معنى على الإطلاق لأناس عصرنا. يمكن لبشر عصرنا أن يُكرّروا هذه الأقوال بأفواههم لكنهم لا يستطيعون الإيمان بها لأنّ أقوال من قبيل أنّ الله يعيش في السماء، وأنّ السماء قد انفتحت وقال صوت من هناك إنّ المسيح قد بُعث وطار إلى مكانٍ ما في السماء، وإنه سوف يأتي مرة أخرى من مكانٍ ما على السحاب ...إلخ - ليس لها أيّ معنى بالنسبة لنا.

كان بمقدور إنسانٍ يعتقد أنّ السماء قبّة صلبة، هي المنتهى، أن يؤمن أو لا يؤمن بأنّ الله قد خلق السماء، وأنّ السماء قد انفتحت، وأنّ المسيح قد طار، لكن بالنسبة لنا ليس لهذه الكلمات أيّ معنى. يمكن لبشر زماننا فقط أنّ يؤمنوا بأنّ عليهم الإيمان بذلك، وهو ما يفعلونه، لكنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بما ليس له معنى بالنسبة إليهم.

أما إذا كان يجب أن يكون لهذه العبارات كلها معنى مجازي وجوهر أصلي؛ فإننا نعلم، أولاً، أنّ الكنسيين كلهم ليسوا متفقين على ذلك بل، على العكس، معظمهم يصرّ على فهم الكتاب المقدّس بالمعنى الصريح، ونعلم، ثانياً، أنّ هذه التأويلات شديدة التنوّع، وأنْ ما من دليلٍ عليها.

لكن حتى إذا رغب المرء في إجبار نفسه على تصديق تعاليم الكنائس كما تُدرَّس؛ فإنّ الانتشار العام للتعليم والأناجيل، واختلاط أناسٍ من مذاهب مختلفة، يُشكّل عائقاً كؤوداً آخر أمام ذلك. إذ يكفي فحسب أن يشتري إنسان زماننا إنجيلاً بثلاثة كوبيكات، ويقرأ الأقوال الواضحة، غير القابلة للتأويل، التي قالها المسيح للمرأة السامرية حين قال إنّ الآب ليس بحاجة إلى الساجدين في أورشليم أو في هذا الجبل أو ذاك بل إلى الساجدين بالروح والحقّ، أو الكلمات القائلة إنّ المسيحي لا يجب أن يُصلّي مثل الوثني في المعابد جهراً وإنما في السرّ، أي في خلوته، تكفي فقط قراءة هذه الكلمات حتى يقتنع المرء أنْ ليس هناك أي سلطان لأيٍّ من رعاة الكنائس الذين يسمّون أنفسهم بالمعلّمين، بما يتناقض مع تعليم المسيح، وأنّ ما يُعلّمنا إياه الكنسيون ليس هو المسيحية. بالنسبة لإنسان زماننا، وإن استمرّ بالإيمان بالمعجزات ولم يقرأ الأناجيل، وحدها مخالطة أناسٍ من مذاهب وأديان أخرى، الأمر الذي بات من السهولة بمكان في عصرنا، سوف ترغم الإنسان على الشكّ في حقّانية عقيدته. لكان حسناً لإنسانٍ لم يرَ اناساً يؤمنون بدينٍ مختلف عن دينه أن يُصدّق أنّ دينه هو الوحيد الحقّ، لكن يكفي لإنسانٍ ذي فكر أن يلتقي -كما يحدث الآن باستمرار- بأناسٍ أبرارٍ أو أشرار، سواء بسواء، من أديان مختلفة، يشجبون أديان بعضهم بعضاً، حتى يشكّ في العقيدة التي يعتنقها. في زماننا فقط إنسان جاهل تماماً، أو حيادي كلياً تجاه المسائل التي تسلط الأديان الضوء عليها، يمكنه البقاء ضمن العقيدة الكنسية.

فأي جهود تحتاج إليها الكنيسة، رغم كل هذه الظروف الهادمة للعقيدة، لكي تستمر ببناء الكنائس وإقامة الطقوس، وبالوعظ والتعليم، وبتشييع الناس، وخاصةً بتلقّي الأموال من أجل كل هؤلاء الأساقفة ورعاة الأبرشيات والمُموِّنين ورؤساء الممونين والمعمّدين والخوارنة والأساقفة ورؤساء الأسقفيات؟

هناك حاجة لجهود هائلة واستثنائية، والكنائس تبذل المزيد فالمزيد من هذه الجهود. عندنا، في روسيا (دوناً عن كل الآخرين)، يتّم استخدام عنف السلطة، الخاضعة للكنيسة، الفظّ والمباشر. الناس الذين يكفّون عن أداء الطقوس أو الذين يُصرّحون بذلك يُعاقبون أو يُحرمون من حقوقهم، أما الذين يتمسكون بصرامة بالأشكال الخارجية للعقيدة فتتم مكافأتهم ويُمنحون الحقوق.

هكذا تتصرّف الكنائس الأرثونكسية، لكن الكنائس كلها كذلك، دونما استثناء، تستخدم كافة الوسائل في هذا السبيل، والوسيلة الرئيسة من بينها هي التي باتت تُسمى الآن التخدير.

يتم استخدام كل الفنون، من فنّ العمارة إلى الشعر، للتأثير في نفوس الناس وتخديرهم، وهذا التأثير يجري دون توقف. وضرورة هذا التأثير المخدّر للناس واضحة بشكل خاص من أجل إيصالهم إلى حالة الخَدَر في عمل جيش الخلاص الذي يستخدم أساليب جديدة، لم نعتد عليها، كالأبواق والأناشيد والأعلام والملابس والمواكب والرقص والدموع والمسرحيات الدرامية.

لكنّ هذه الأساليب تفتننا فقط لأنها جديدة؛ تُرى أليست الأساليب القديمة للمعابد، بإضاءتها المميّزة وذهبها وبريقها وشموعها وجوقاتها وأورغنها وأجراسها وحبرياتها وخطبها البكائية ...إلخ، هي الشيء ذاته؟ ولكن مهما بلغت قوة تأثير هذا التخدير فإنّ عمل الكنيسة الرئيس لا يكمن في ذلك. العمل الرئيس والأشرّ للكنيسة هو الموجّه للكذب على الأطفال، أولئك الأطفال ذاتهم الذين قال عنهم المسيح: الويل لمن يضلّ أحد هؤلاء الصغار. منذ بدء يقظة وعي الطفل يبدأون بالكذب عليه، وبفوقية يُلقّنونه ما لا يؤمن به المُلقِّنون أنفسهم، ويواصلون التلقين إلى أن تنمو الكذبة مع طبيعة الطفل عن طريق الاعتياد. يكذبون على الطفل بحرص في أهم شأن من شؤون الحياة. وعندما تصبح الكذبة متآلفة مع حياته بحيث يغدو من الصعوبة الانفصال عنها، حينذاك ينفتح أمام الطفل عالم العِلم والواقع برمّته، والذي لا يعود بمقدوره، بأيّ شكلٍ من الأشكال، الجمع بين العالم وبين العقائد المُلقّنة له، تاركةً إياه لكي يتعامل بنفسه مع هذه التناقضات قدر استطاعته.

ولو أنّ المرء وضع نصب عينيه مهمة بلبلة إنسانٍ بحيث لا يعود قادراً، بعقله السليم، على الفكاك من عقيدتين متناقضتين مُلقّنتين له منذ الطفولة، لن يكون بمقدوره ابتداع ما هو أقدر ممّا يُمارَس على كل شابٍّ تمّت تربيته في ما يُسمّى مجتمعنا المسيحي.

ما تفعله الكنائس بالبشر مرعب، لكن إذا ما فكّرنا في وضعهم فإنّ أولئك الذين يُشكّلون مؤسسة الكنيسة لا يمكنهم التصرّف إلا على هذا النحو. فالكنائس تواجه

معضلة: الموعظة على الجبل أم مجمع نيقية؟ - إحداهما تنفي الأخرى؛ فإذا آمن الإنسان بالموعظة على الجبل حقاً فإنّ مجمع نيقية سيفقد، لا مناص، بالنسبة إليه، معناه وقيمته، ومعه الكنيسة وممثّلوها؛ وإذا آمن بمجمع نيقية، أي بالكنائس، أي بالذين يُسمّون أنفسهم ممثّليها، فلن يعود بحاجة إلى الموعظة على الجبل. لذا ليس بمقدور الكنائس إلاّ أن تستخدم كل الجهود الممكنة للتعتيم على معنى الموعظة على الجبل، ولاجتذاب الناس إليها. فقط بفضل عمل الكنائس الدؤوب في هذا المنحى استمرّ تأثير الكنائس حتى الوقت الراهن. أوقِف، ولو لأقصر فترة زمنية، تأثير الكنائس على حشود الناس وتخديرها للأولاد وكذبها عليهم، وسيفهم الناس تعليم المسيح. لذا فإنّ الكنائس لا توقف عملها الدؤوب وتخدير البالغين والكذب على الأولاد ولو للحظة واحدة. وعمل الكنيسة هذا، التي تُلقّن البشر فهماً باطلاً لتعليم المسيح، هو العائق أمام فهمه بالنسبة لمعظم البشر، مِمَّن يُسمّون المؤمنون.

IV

سأتحدّث الآن عن فهمٍ مزعومٍ آخر للمسيحية يعيق فهمها الحقّ،- عن الفهم العلمي.

الناس الكنسيون يعتبرون أنّ التصوّر الذي شكّلوه لأنفسهم عن المسيحية هو المسيحية، ويعتبرون هذا الفهم للمسيحية هو الفهم الوحيد الحقّ الذي لا ريب فيه.

أهل العِلم يعتبرون ما اعتنقته وتعتنقه مختلف الكنائس هو المسيحية، وإذ يفترضون أنّ هذه العقائد تحيط بمجمل معنى المسيحية، فإنهم يعتبرونها تعليماً دينياً ولّى زمانه.

لكي يغدو واضحاً مدى استحالة فهم التعليم المسيحي من هذا المنظور لا بدّ من إدراك المكانة التي كانت، وما زالت، تحتلها الأديان بشكل عام، بالفعل، والمسيحية بشكل خاص، في حياة البشرية، وإدراك المعنى الذي يعطيه العلم لها.

كما أنّ الإنسان الفرد ليس بمقدوره العيش دون أن يكون لديه تصوّر معيّن عن معنى حياته، ودائماً، لاشعورياً على الأغلب، يلائم تصرّفاته مع معنى حياته هذا المعطى له، كذلك تماماً لا يمكن ألاّ يكون لدى مجموع البشر، الذين يعيشون في ظروف متماثلة، تصوّر عن معنى حياتهم المشتركة، وعن النشاط النابع منه. وكما أن الفرد، حين يبلغ سنّ الرشد، لا بدّ له من أن يُغيّر مفهومه للحياة لأنّ الإنسان البالغ يرى معنى حياته في شيء مختلف عمّا يراه الطفل، كذلك تماماً مجموع البشر، الشعب، لا بدّ له، تبعاً لنضجه، من أن يغيّر مفهومه للحياة والنشاط النابع من هذا الفهم.

فيما يتعلق بهذا الأمر، يكمن الفرق بين الإنسان الفرد ومجمل البشرية في أنّه، في حين أنّ الإنسان الفرد، من أجل تحديد فِهم الحياة الذي يلائم المرحلة الجديدة للحياة، التي وصل إليها، وتحديد النشاط النابع من هذا الفهم، يستفيد من إرشادات الناس الذي عاشوا قبله، والذين سبق لهم أن عاشوا السنّ التي وصل إليها، لا يمكن أنّ تتوفّر للبشرية إرشادات كهذه لأنّ البشرية برمّتها تسير في طريق لم تختبرها من قبل، وما من أحدٍ تسأله عن كيفية وجوب فهم الحياة، وعن كيفية العمل في الظروف الجديدة التي بلغتها، والتي لم يعشها أحد من قبل على الإطلاق.

وكما أنّ إنساناً متزوجاً، لديه أبناء، لا يمكنه الاستمرار بفهم الحياة كما كان يفهمها عندما كان طفلاً، كذلك البشرية لم يعد بإمكانها - في ظلّ التغييرات المتنوعة المنجزة،

والكثافة السكانية، والاختلاط القائم بين مختلف الشعوب، وتكامل وسائل مصارعة الطبيعة، وتراكم المعرفة- الاستمرار بفهم الحياة كما في السابق، ولا بدّ من وضع فهم جديد للحياة، سينبع منه النشاط الملائم للوضع الجديد الذي وصلت، وتصل، البشرية إليه.

من أجل هذا المطلب تستجيب القدرة البشرية المميّزة على إفراد أناس يقدّمون معنىً جديداً لمجمل الحياة الإنسانية،- المعنى الذي ينبع من مجمل النشاط المختلف عمّا سبق. وإنّ وضع هذا الفهم الحياتي الملائم للبشرية في الظروف الجديدة التي وصلت إليها، والنشاط النابع منه، هو ما يُدعى **الدِّين**.

لذا فالدين، أولاً، ليس ظاهرة رافقت تطور البشرية في زمنٍ ما ثمّ ولّى زمانه -كما يعتقد العلم- بل هو ظاهرة تخلّلت دائماً حياة البشرية، وفي وقتنا الراهن تتخلّل حياة البشرية إلى درجة من الحتمية كما في أيّ زمانٍ آخر. ثانياً، الدين هو دائماً تحديد لنشاط المستقبل، وليس الماضي، لذا من الجليّ أنّ دراسة ظواهر الماضي لا يمكنها، بأيّ حالٍ من الأحوال، القبض على جوهر الدين.

إنّ جوهر أيّ تعليم ديني لا يكمن في الرغبة في التعبير الرمزي عن قوى الطبيعة، ولا في الخوف منها، ولا في الحاجة إلى المعجزات، ولا في الصيغ الخارجية لتجلياته [الطقوس- م.]، كما يعتقد أهل العلم. إذ إنّ جوهر الدين يكمن في قدرة البشر على الرؤيا النبوية، وعلى الإشارة إلى درب الحياة الذي يجب أن تسير فيه البشرية؛ يكمن في تحديد معنى مختلف عمّا سبق للحياة، والذي ينبع منه مجمل النشاط البشري المستقبلي، المختلف عمّا سبق.

إنّ خاصيّة التنبؤ بالدرب الذي على البشرية السير فيه يتمتع بها كلّ الناس بدرجة أو بأخرى، لكن دائماً، وفي كلّ العصور، كان هناك أناسٌ تجلّت فيهم هذه الميزة بقوة خاصّة، وقد عبّر هؤلاء الناس، بوضوح ودقة، عمّا كان يشعر به كافة البشر بشكل مبهم، ووضعوا فهماً جديداً للحياة، انبثق منه نشاط مختلف عمّا سبق لمئات وآلاف السنين.

وإننا نعلم ثلاثة مفهومات[27] كهذه للحياة: اثنان منها سبق للبشرية أن عاشتهما وتجاوزتهما، والثالث هو ما نعيشه الآن في المسيحية. هذه المفهومات ثلاثة، وفقط ثلاثة، ليس لأننا وحّدنا -حسب هوانا- مفهومات الحياة المختلفة في ثلاثة، وإنما لأنّ جذور أفعال كل البشر تعود دائماً إلى أحد هذه المفهومات الثلاثة للحياة، ولأننا لا نستطيع فهم الحياة إلاّ من خلال هذه الطرق الثلاثة.

مفهومات الحياة الثلاثة هي التالية: الأول شخصي أو بهيمي، والثاني مجتمعي أو وثني، والثالث كوني أو إلهي.

وفقاً للفهم الحياتي الأولى تنحصر حياة الإنسان في شخصه فقط، ويكمن هدف حياته في إشباع رغباته الشخصية. وتبعاً للفهم الحياتي الثاني لا تنحصر حياة الإنسان في شخصه فقط وإنما في مجموع وتعاقب الأشخاص، في القبيلة أو الأسرة أو السلالة أو الدولة، وغاية حياة الإنسان تنحصر في إشباع رغبات مجموع الأشخاص هذا. وبموجب الفهم الحياتي الثالث لا تتلخّص حياة الإنسان، لا في شخصه ولا في مجموع وتعاقب الأشخاص، وإنما في مبدأ ومنبع الحياة - في الله.

الهمجي يتعرّف الحياة فقط في نفسه، في رغباته الشخصية. خير حياته منحصر فيه وحده، والخير الأعظم بالنسبة إليه هو الإشباع الأتمّ لشهواته. محرك حياته هو اللذّة الشخصية. تكمن ديانته في توسّل رأفة الآلهة تجاه شخصه، وفي السجود لشخصيات الآلهة المصوَّرة التي تعيش فقط لأجل غاياته الشخصية. والإنسان الوثني، المجتمعي، لا يعود يتعرّف الحياة في شخصه فقط وإنما في مجموع الأشخاص- القبيلة، الأسرة، السلالة، الدولة- ويُضحّي بخيره الشخصي في سبيل هذا المجموع. محرك حياته هو الأقوال. تكمن ديانته في تمجيد رؤساء الاتحادات: الأسلاف، الأجداد، الملوك، وفي السجود للآلهة - الحُماة الحصريين لأسرته أو سلالته أو شعبه أو دولته[28].

27- الكلمة مشتقة من المصدر "فِهْم"، ووجدنا أن الأفضل استخدامها على هذا النحو بدلاً ن استخدام كلمة "منظور" أو "طريقة إدراك" أو غير ذلك، وبالروسية تُستخدم كاسم، لذا جمعناها جمعاً مؤنثاً سالماً، فهو الأنسب لموسيقى اللغة العربية، والمعنى واضح في السياق.

28- كون أنّ هذا الفهم الحياتي المجتمعي أو الوثني تتأسس عليه تشكيلات حياتية شديدة التنوع، كالحياة القبلية والأسرية والسّلالية والدولتية، وحتى الحياة الإنسانية المفترضة من قِبل الوضعيين الإيجابيين ، فإنّ

الإنسان ذو الفهم الحياتي الإلهي لا يعود يتعرّف الحياة في شخصه أو في مجموع الأشخاص (الأسرة أو السلالة أو الشعب أو الوطن أو الدولة) وإنما في منبع الحياة الأبدي الخالد – في الله. ومن أجل تنفيذ مشيئة الله يُضحّي بخيره الشخصي، وبالخير الأُسري والمجتمعي. محرّك حياته هو المحبة. وديانته هي السجود للمبدأ الحقّ لكلّ شيء– الله.

الحياة التاريخية للبشرية برمّتها ليست سوى انتقالٍ تدريجي من الفهم الحياتي الشخصي البهيمي إلى الفهم الحياتي المجتمعي، ومن الفهم الحياتي المجتمعي إلى الفهم الحياتي الإلهي. مجمل تاريخ الشعوب القديمة، الذي استمرّ آلاف السنين وانتهى بتاريخ روما، هو استبدال الفهم الحياتي البهيمي الشخصي بالفهم الحياتي المجتمعي الدولتي. ومجمل التاريخ منذ عهد روما الإمبراطورية وظهور المسيحية هو تاريخ استبدال الفهم الحياتي الدولتي بالإلهي، وهو التاريخ الذي نعيشه في الوقت الراهن.

هذا الفهم الحياتي الأخير، الذي يقوم عليه التعليم المسيحي، والذي يُوجّه حياتنا برمّتها، والكامن في أساس نشاطنا كله، العملي منه والعلمي، يدرسه أهل العلم المزعوم فقط عبر مؤشراته الخارجية، ويعتبرونه شيئاً بالياً ولا معنى له بالنسبة إلينا.

هذا التعليم –حسب رأي أهل العلم–، المنحصر فقط في جانبه الدوغمائي: في التعليم المتعلق بالثالوث والكفّارات والمعجزات والكنائس والأسرار ...إلخ، هو واحد فقط من عدد هائل من الأديان التي ظهرت في الإنسانية، والآن، بعد أن لعب دوره في التاريخ، سيقضي عليه نور العلم والتنوير الحقيقي.

يحدث ما يكون –في معظم الحالات– مصدراً لأشدّ الضلالات البشرية فظاظةً: أناسٌ يقفون على أدنى درجات الإدراك، حين يصادفون ظواهرَ من أعلى المستويات، بدلاً من بذل الجهد لفهمها، للارتقاء إلى مستوى النظر الذي ينبغي النظر إلى الموضوع

هذا لا يخرق وحدة هذا الفهم الحياتي. فأشكال الحياة المتنوعة هذه كلها مبنية على تصوّر واحد، وهو أنّ الحياة الشخصية ليست غايةً كافية للحياة، وأنّ بالإمكان العثور على معنى للحياة فقط في مجموع الأشخاص. – حاشية الكاتب.

منها، يُضيّقونها بما يتلاءم مع منظورهم الأدنى، وكلّما قلّ إدراكهم لما يتحدثون عنه كلّما تحدّثوا عنه بجرأة أكبر وبحسمٍ أكثر.

بالنسبة إلى معظم الناس العلماء، الذين يبحثون في التعليم الأخلاقي الحياتي للمسيح من منظور فهم حياتي مجتمعي أدنى، هذا التعليم ليس سوى جمع ركيك وغير محدّد للتنسك الهندي والتعليم الرواقي والأفلاطوني الجديد ولأحلامٍ يوتوبية ضد-اجتماعية، ليس له أيّ معنى جديّ بالنسبة لزماننا، ومجمل معناه ينحصر، بالنسبة إليهم، في ظواهره الخارجية: الكاثوليكية والبروتستانتية والدوغمات ومصارعة السلطة الدنيوية. بتحديدهم معنى المسيحية بموجب هذه الظواهر، هم مثل الصمّ الذين يحكمون على قيمة وجدارة الموسيقى من خلال حركة الموسيقيين.

من هذا ينتج أنّ كل هؤلاء الناس، بدءاً من كانط وشتراوس وسبنسر ورينان، دون أن يفهموا جوهر أقوال المسيح، دون أن يفهموا لماذا قالها، دون أن يفهموا حتى السؤال الذي تجيب عنه هذه الأقوال، وحتى دون أن يبذلوا أيّ جهد للنفاذ إلى معانيها، ينفون صراحةً، إذا كان مزاجهم عدوانياً، معقولية التعليم؛ أما إذا أرادوا التساهل معه فإنهم، من ذروة تعاظمهم، يقومون بتصويبه، مفترضين أنّ المسيح كان يريد أن يقول نفس ما يُفكّرون هم فيه لكنه لم يكن قادراً على القيام بذلك. إنهم يتعالون على تعليمه بحيث يُصحِّحون كلمات من يتحاور معهم، في معظم الحالات، حين يتحدّث هؤلاء الناس الواثقون من أنفسهم مع مَن يعتبرونه أدنى منهم: "أجل، أنت تريد، بالفعل، أن تقول كذا وكذا". وهذا التصويب يُصنع دائماً للانحطاط بالفهم الحياتي الإلهي السامي إلى الفهم الحياتي المجتمعي الأدنى.

يُقال عادةً إنّ التعليم الأخلاقي للمسيح جيد لكنه مبالَغ فيه، ولكي يكون جيداً حقاً يجب أن يُطرح منه ما لا لزوم له، ما لا يناسب نظام حياتنا. "التعليم الذي يتطلّب الكثير جداً مما هو غير قابل للتطبيق أسوأ من التعليم الذي يطلب من الناس ما هو ممكن، بحسب قدراتهم" - يُفكّر ويؤكّد العلماء، مُفسِّرو المسيحية، مُكرّرين ما سبق أن أكّده منذ زمن بعيد، ويؤكّده، وما كان لهم إلا أن يؤكّدوه فيما يتعلق بالتعليم المسيحي، أولئك الذين، إذ لم يفهموه، قاموا بصلب المعلِّم - اليهود.

يتبين في محاكمة علماء زماننا أنّ القانون اليهودي "سنٌّ بسنّ وعينٌ بعين"، الذي هو قانون الانتقام العادل المعروف للبشرية منذ 5000 سنة، أنسب من قانون المحبة الذي دعا إليه المسيح، قبل 1800 سنة، ليحلّ محل قانون العدالة ذاك. يتبيّن أنّ كل ما فعله الناس الذين فهموا تعليم المسيح بوضوح، وعاشوا بموجب ذلك الإدراك – كل ما فعله وقاله المسيحيون الحقيقيون، كل المسيحيين المتحمّسين، كل ما يُصلح العالم في الوقت الراهن، تحت مسمّى الاشتراكية والشيوعية– كل هذا مبالغة لا يجدر حتى الحديث عنها.

الناس، الذين ترعرعوا على المسيحية خلال 18 قرناً، ممثّلين في شخص الروّاد، العلماء، توصلّوا إلى قناعة مفادها أنّ التعليم المسيحي هو تعليم عن الدوغمات؛ أما التعليم الحياتي فهو غلط، مبالغة تخرق المتطلبات القانونية الحقيقية للأخلاقوية، المتطلبات الملائمة لطبيعة الإنسان، وأنّ تعليم العدالة، الذي نقضه المسيح وأحلّ محله تعليمه، أنسب لنا بكثير.

بالنسبة للعلماء تبدو وصية عدم مقاومة الشرّ بالعنف مبالغةً بل حتى تبدو جنوناً، ويعتقدون أنه إذا ما أُلغيت فسيكون الأمر أفضل، دون أن يلاحظوا أنهم لا يجادلون في تعليم المسيح على الإطلاق، وإنما في ما يتصورونه كذلك.

هم لا يلاحظون أنّ القول إنّ وصية عدم مقاومة الشرّ بالعنف، في تعليم المسيح، مبالغة يماثل القول إنّ تساوي أنصاف قطر الدائرة، في نظرية الدائرة، إنما هو مبالغة. والذين يفعلون ذلك يفعلون تماماً ما قد يفعله شخص، ليس لديه أي مفهوم حول ماهية الدائرة، حين يؤكّد أنّ المطلب بأن تكون كل نقاط الدائرة على مسافة متساوية من المركز إنما هو مبالغة. إنّ النُصح بإلغاء أو نسخ النظرية القائلة بتساوي أنصاف قطر الدائرة يعني عدم فهم ما هي الدائرة، والنُصح بإلغاء أو نسخ وصية عدم قاومة الشرّ بالعنف، في التعليم الحياتي المسيحي، يعني عدم فهم التعليم.

الذين يفعلون ذلك لا يفهمونه إطلاقاً بالفعل. هم لا يفهمون أنّ هذا التعليم هو عبارة عن فهم جديد للحياة يناسب الوضع الجديد الذي دخله البشر منذ 1800 سنة، وتحديد النشاط الجديد الذي ينبع منه. هم لا يُصدّقون أنّ المسيح كان يريد قول ما قال، أو يعتقدون أنّ المسيح قد قال ما قال في الموعظة على الجبل وفي لأماكن أخرى من باب المبالغة أو بسبب جنونه أو عدم نضجه.

[إنجيل متّى: 6، 25-34]

[25] فلهذا أقول لكم لا تهتموا لأنفسكم بما تأكلون، ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست النفس أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس؟ [26] انظروا إلى طيور السماء فإنها لا تزرع ولا تحصد ولا تَخْزُن في الأهراء وأبوكم السماوي يَقوتها. أفلستم أنتم أفضل منها؟ [27] ومن منكم إذا هَمَّ يقدر أن يزيد على قامته ذراعاً واحدة؟ [28] ولماذا تهتمون باللباس؟ اعتبروا زنابق الحقل كيف تنمو. إنها لا تتعب ولا تغزل [29] وأنا أقول لكم إنّ سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة منها. [30] فإذا كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم وفي غدٍ يُطرح في التنّور يُلبسه الله هكذا؛ أفلا يُلبسكم بالأحرى أنتم يا قليلي الإيمان؟ [31] فلا تهتّموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس [32] لأنّ هذا كله تطلبه الأمم، وأبوكم السماوي يعلم أنكم تحتاجون إلى هذا كلّه. [33] فاطلبوا أولاً ملكوت الله وبرّه وهذا كلّه يُزاد لكم. [34] فلا تهتموا بشأن الغد فالغد يهتمّ بشأنه. يكفي اليوم شره.

[إنجيل لوقا: 12، 33-34]

[33] بيعوا ما هو لكم وتصدّقوا. اجعلوا لكم أكياساً لا تبلى وكنزاً في السماوات لا ينفد حيث لا يقربه سارق ولا يفسده سوس [34] لأنه حيث يكون كنزكم هناك يكون قلبكم.

"بِع ما لك واتبعني... ومن لا يترك أباه وأمه وبنيه وإخوته وحقله وبيته لا يستطيع أن يكون تلميذاً لي... اكفر بنفسك، احمل صليبك كل يوم واتبعني... لئلا تكون مشيئتي بل مشيئتك؛ ليس ما أريد أنا بل ما تريد أنت، وليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت. لا تكمن حياة المرء في تنفيذ مشيئته هو بل في تنفيذ مشيئة الله".

كل هذه التمنيات تبدو للناس، الواقفين عند فهم حياتي أدنى، انعكاساً لنزوة مشبوبة ما ليست لها أي علاقة مباشرة بالحياة، في حين أنّ هذه المبادئ تنبع بقوة من الفهم المسيحي للحياة، كما ينبع مبدأ بذل الجهد في سبيل الشأن العام، ومبدأ التضحية بالنفس دفاعاً عن الوطن من الفهم المجتمعي للحياة.

كما يقول إنسان ذو فهم مجتمعي للحياة لإنسانٍ همجي: "استيقظ، ثب إلى رشدك! فحياة شخصيتك لا يمكن أن تكون حياةً حقّة لأنّها حياة بائسة وفانية. فقط حياة مجموع

وتعاقب الشخصيات: العشيرة، العائلة، السلالة، الدولة، تستمرّ وتحيا، لذا يجب على الإنسان التضحية بأنيته الشخصية في سبيل حياة العائلة أو الدولة"، كذلك تماماً يقول التعليم المسيحي لإنسان الفهم الحياتي المجتمعي: "تُبْ، تُب إلى رشدك، وإلا ستهلك. افهم أنْ ما من شيء يضمن هذه الحياة الجسدية، الفردية، الناشئة اليوم والهالكة غداً، وأنّ أيّ تدابير خارجية، أيّ بنيان لها ليس بمقدوره أن يمنحها الرسوخ والمعقولية. تُب إلى رشدك، وافهم أنّ الحياة التي تعيشها ليست حياةً حقيقية؛ فحياة العائلة، حياة المجتمع، حياة الدولة، لن تنقذك من الهلاك. الحياة الحقّة والعاقلة ممكنة للإنسان فقط بقدر مشاركته في منبع الحياة، الآب، حسب قدرته على إدغام حياته مع حياة الآب، وليس في حياة العائلة أو الدولة". هذا الفهم المسيحي للحياة يُرى، دون شكّ، في كل كلمة من كلمات الأناجيل. بالإمكان عدم الموافقة على هذا الفهم الحياتي، بالإمكان نفيه، بالإمكان إثبات عدم دقّته، عدم صحّته؛ لكن ليس بالإمكان الحكم على التعليم دون استيعاب الفهم الحياتي الذي ينبع منه، ناهيكم عن إمكانية الحكم على موضوع عالي المستوى من منظورٍ أدنى: الحكم على برج الأجراس من خلال النظر إلى أساساته. هذا ما يفعله أهل العلم في زماننا. وهم يفعلون ذلك لأنهم يعيشون الأضلولة ذاتها التي يعيشها الكنسيون، بأنّ لديهم مناهج لدراسة الموضوع، المناهج المسمّاة "العلمية"، يكفي فقط استخدامها حتى لا تعود هناك إمكانية للشك في حقّانية فهم الموضوع قيد الجدال.

إنّ امتلاكهم هذا بالتحديد لأدوات معرفية مزعومة معصومة عن الخطأ هو العائق الرئيس أمام فهم التعليم المسيحي لغير المؤمنين، الذي يُسمّون العلماء، الذين تنقاد لآرائهم الأكثرية الهائلة من غير المؤمنين، الذين يُسمّون المتعلّمين. ومن هذا الفهم المزعوم ينشأ كل ضلال أهل العلم حول التعليم المسيحي، وهناك غلطان غريبان بشكل خاص يعيقان، أكثر من أي شيء آخر، الفهم الصحيح للتعليم.

أحد هذين الغلطين هو أنّ التعليم الحياتي المسيحي غير قابل للتطبيق، لذا فهو ليس ضرورياً على الإطلاق، أي لا يجب اعتباره منهجاً، أو يجب أن يكون قابلاً للتكيّف، أن يُلطَّف إلى الحدود التي يصبح فيها تطبيقه ممكناً في مجتمعنا. الغلط لثاني هو أنّ التعليم المسيحي يعني محبة الله، لذا فإنّ عبادته مطلب مبهم، غامض، ليس فيه غرض محدّد للمحبة، لذا يجب استبداله بتعليمٍ أكثر دقّةً وأكثر فهماً عن محبة البشر وخدمة الإنسانية.

الغلط الأول المتعلّق بعدم قابلية التعليم للتطبيق يكمن في أنّ أناس الفهم الحياتي المجتمعي، دون أن يفهموا الوسيلة التي يهتدي بها أناس التعليم المسيحي، وإذ يعتبرون أنّ تعاليم التحقّق المسيحي تُقيّد الحياة، يعتقدون أنّ، ويقولون إنّ، اتّباع تعليم المسيح مستحيل لأنّ التطبيق الكلّي لمتطلبات هذا التعليم سوف يقضي على الحياة. ويقولون: "إذا ما طبّق الإنسان ما يدعو إليه المسيح فسيقضي على حياته، وإذا ما طبّقت البشرية كلها ذلك فسيكفّ الجنس البشري عن الوجود."

"من دون الاهتمام بالغد – بالمأكل والمشرب والملبس–؛ من دون الدفاع عن حياته؛ من دون مقاومة الشرّ بالعنف؛ من دون التضحية بالنفس في سبيل الآخرين، ومن خلال التزامه بالعفّة التامّة لا يمكن للإنسان وللجنس البشري أن يوجدا." – يعتقدون ويقولون. وهم محقّون تماماً إذا ما فُهمت تعاليم التحقّق، التي يقدّمها تعليم المسيح، على أنها قواعد يجب على الإنسان أن يطبّقها مثل التزامه بتطبيق قاعدة دفع الضرائب، والمشاركة في القضاء... الخ، في التعليم المجتمعي.

الغلط يكمن، بالتحديد، في عدم فهم أنّ تعليم المسيح يوجّه البشر بطريقة مختلفة عن الطرائق التي تُوجّه بها التعاليم القائمة على فهمٍ حياتيٍّ أدنى. فتعليم الفهم الحياتي المجتمعي يوجّه فقط عبر مطلب التطبيق الدقيق للقواعد والقوانين، بينما تعليم المسيح يوجّه الناس عبر هديهم إلى الكمال اللامتناهي للآب السماوي الذي يتوق إليه كل الناس فطرياً أيّاً كانت درجة عدم الكمال التي يقفون عليها.

يكمن سوء فهم الذين يحكمون على التعليم المسيحي من منظور الفهم المجتمعي في أنهم، مفترضين أنّ الكمال الذي يشير إليه المسيح يمكن بلوغه تماماً، يتساءلون (مثل سؤالهم عند تطبيق القوانين الاجتماعية): ماذا سيحدث بعد أن يتحقّق هذا كله؟ هذا الافتراض باطل لأنّ الكمال الذي يشير إليه المسيح كمال لامتناهٍ، وليس بالإمكان بلوغه أبداً؛ والمسيح، حين يعلّم ذلك، يقصد أنّ الكمال المطلق لا يمكن بلوغه أبداً لكنّ التوق إلى الكمال المطلق اللامتناهي سوف يضاعف باستمرار خير البشر، وأنّ هذا الخير – لهذا السبب– يمكن تكثيره بلا نهاية.

المسيح لا يُعلِّم ملائكةً بل بشرٌ يعيشون حياةً بهيمية، مُطوِّراً إياها. وكأنّ المسيح يضيف إلى القدرة الحركية الحيوانية هذه قدرة أخرى جديدة، قدرة استيعاء[29] الكمال الإلهي، مُوجِّهاً بذلك حركة الحياة عبر قوتين متساويتي التأثير.

إنّ افتراض أنّ الحياة البشرية سوف تسير في الاتجاه الذي أشار إليه المسيح يماثل افتراض أنّ المراكبي، إذ يمخر نهراً سريع الجريان مُوجِّهاً حركته مباشرةً عكس التيار تقريباً، سوف يسبح بهذا الاتّجاه. يُقرّ المسيح بوجود كِلَي وجهي متوازي الأضلاع، كِلتي القدرتين الأبديتين الخالدتين اللتين تتركّب منهما حياة الإنسان: قدرة الطبيعة البهيمية وقدرة إدرك بنوّته لله. دون أن يتحدث عن القدرة البهيمية التي تؤكّد نفسها بنفسها، والتي تبقى دائماً مساويةً لنفسها، ولا سلطان للإنسان عليها، المسيح يتحدث فقط عن القدرة الإلهية، داعياً الإنسان إلى أسمى إدراكٍ لها، إلى أسمى تحريرٍ لها ممّا يعيقها، وإيصالها إلى أعلى درجات القوة.

في هذا التحرّر، في زيادة هذه القدرة، تكمن حياة الإنسان الحقّة، حسب تعليم المسيح. الحياة الحقّة، حسب الشروط السابقة، كانت تكمن في تطبيق القانون؛ لكنها، بموجب تعليم المسيح، تكمن في المزيد من الاقتراب إلى الكمال الإلهي المشار إليه، والذي يدركه كل إنسان في ذاته؛ في المزيد فالمزيد من إدغام المرء ذاتَه في مشيئة الله، الإدغام الذي يتوق إليه الإنسان، والذي قضت عليه الحياة التي نعرفها.

الكمال الإلهي هو علامة الحياة الإنسانية؛ الكمال الذي تتوق وتقترب إليه دائماً، والذي يمكنها بلوغه فقط في الأبدية.

يبدو التعليم المسيحي نافياً لإمكانية الحياة فقط عندما يفهم البشر هَدَيَ المثال Ideal كقاعدة. فقط آنذاك تبدو المتطلّبات التي يُقدّمها المسيح مُهلكةً للحياة. على العكس، هذه المتطلبات هي الوحيدة التي تمنح الإمكانية لحياةٍ حقّة. ومن دون هذه المتطلبات لكانت الحياة الحقّة مستحيلة.

"يجب عدم طلب الكثير جداً، - يقول الناس عادةً عندما يناقشون متطلّبات التعليم المسيحي، - لا يجوز طلب عدم الاهتمام بالمستقبل -كما يرد في الإنجيل- لكن يلزم

---

[29]- هذه الكلمة ليس لها مقابل عربي لكن الأقرب إليها ما أوردناه، وتعني: استدماج التعليم حياتياً، هضمه واستيعابه. وقد استخدمنا كلمة استيعاء من المصدر "وعي".

فحسب عدم الانشغال به كثيراً؛ لا يجوز إعطاء الفقير كل شيء لكن يجب إعطاءه قسماً معلوماً ومحدّداً؛ لا يجوز التطلّع إلى العذرية لكن يجب تجنّب الطلاق؛ لا يجوز هَجْر الزوجة والأبناء ولكن يجب عدم التعلّق بهم كثيراً... وهلمّ جرّا". لكنّ هذا الكلام كالقول لإنسانٍ، يمخر نهراً سريع الجريان بعكس التيار، باستحالة عبور النهر بعكس التيار، وإنه، لكي يعبره، يجب أن يسبح بزورقه بالاتجاه الذي يريد الذهاب إليه.

يتميّز تعليم المسيح عن التعاليم السابقة بأنه لا يقود البشر وفق قواعد خارجية، وإنما بموجب الإدراك الداخلي لإمكانية بلوغ الكمال الإلهي. وما يوجد في نفس الإنسان ليست القواعد المتهاودة للعدالة والإحسان بل مثال الكمال الإلهي الكلي اللامتناهي. فقط التوق إلى هذا الكمال يحرف وجهة حياة الإنسان من الحالة البهيمية إلى الحالة الإلهية بقدر ما هي ممكنة في هذه الحياة.

لكي تصل إلى المكان الذي تريد عليك توجيه مسيرك أعلى بكثير، بكل ما أوتيت من قوة.

إنّ الحطّ من تطلّب الكمال لا يعني التقليل من إمكانية بلوغ الكمال فحسب بل يقضي على المثال ذاته. المثال الذي يؤثّر على البشر ليس مثالاً مبتدعاً من قِبل أحد بل هو مثالٌ محمولٌ في نفس كل إنسان. فقط مثال الكمال الكلي اللامتناهي هذا يؤثّر في البشر، ويدفعهم إلى العمل. الكمال القنوع يفقد قدرته على التأثير في نفوس البشر.

يتمتع تعليم المسيح بالقوة فقط عندما يتطلّب الكمال الكلي، أي مزج الجوهر الإلهي، الكائن في نفس كل إنسان، مع مشيئة الله – اتّحاد الابن بالآب. فقط هذا التحرير لابن الله، الكائن في كل إنسان، من ما هو بهيمي وتقريبه إلى الآب هو الحياة، وفق تعليم المسيح.

إنّ وجود البهيمي، البهيمي فقط، في الإنسان لا يعدّ حياةً إنسانية. والعيش فقط بموجب مشيئة الله وحدها كذلك لا يعدّ حياةً إنسانية. الحياة الإنسانية هي الحياة المركّبة من الحياة البهيمية والحياة الإلهية. وكلما اقتربت هذه الحياة المركّبة أكثر إلى الحياة الإلهية كلّما كانت فيها حياة أكثر.

الحياة، وفق التعليم المسيحي، هي التحرّك نحو الكمال الإلهي. ما من مقامٍ أدنى أو أعلى من المقامات الأخرى، تبعاً لهذا التعليم. فكل مقام إنما هو فقط درجة معينة، حيادية

بذاتها، نحو الكمال اللامدرَك، لذا فهو بحدّ ذاته لا يعدّ مستوى حياة أكثر أو أقل. تكمن زيادة الحياة، بموجب هذا التعليم، فقط في تسريع الارتقاء نحو الكمال. لذا فإنّ ارتقاء زكّا المبتلى والزانية والمجرم على الصليب نحو الكمال يعدّ مستوى حياتي أعلى من الإخلاص اللامتحرك للفرّيسي. لذا لا يمكن أن تكون هناك قواعد إلزامية التطبيق بالنسبة لهذا التعليم. الإنسان الواقف على درجة أدنى، إذ يرتقي نحو الكمال، يعيش حياةً أفضل وأكثر أخلاقيةً، ويطبّق التعليم أكثر من إنسانٍ يقف على درجة أخلاقية أعلى بكثير لكنه لا يرتقي نحو الكمال.

هذا هو معنى أنّ الخروف الضالّ أغلى عند الآب من غير الضالّ. الابن الضالّ، القطعة النقدية الضائعة والمعثور عليها ثانيةً أغلى من التي لم تضع. تطبيق التعليم يكمن في التحرّك من الذات إلى الله. ومن الجلي أنه، من أجل تطبيقٍ كهذا للتعليم، لا يمكن أن تكون هناك أي قواعد أو قوانين. إنّ أي درجة من درجات الكمال وأيّ درجة من درجات اللاكمال متساويتان في نظر هذا التعليم؛ وأيّ تطبيق للشرائع لا يعدّ تطبيقاً للتعليم لذا، بالنسبة لهذا التعليم، لا يمكن أن تكون هناك قواعد وقوانين ملزمة. من هذا الاختلاف الجذري لتعليم المسيح عن كافة التعاليم السابقة، القائمة على الفهم الحياتي المجتمعي، ينشأ الفرق بين الفرائض المجتمعية والفرائض المسيحية. معظم الفرائض المجتمعية فرائض إيجابية تأمر الناس بأفعال معينة تجعلهم أبراراً وأتقياء، أما الفرائض المسيحية (فريضة المحبة ليست فريضة بالمعنى الضيق للكلمة، بل هي جوهر التعليم ذاته)، الفرائض الخمس في الموعظة على الجبل كلها نواهٍ (سلبية)، وتُري فقط ما بات البشر قادرين على عدم القيام به عند مستوى معين لتطور البشرية. هذه الوصايا تبدو وكأنها نقاط علاّم على الدرب اللامتناهي للكمال الذي تسير البشرية نحوه، مستوى الكمال الممكن في مرحلة معينة من تطور البشرية.

في الموعظة على الجبل يُعبِّر المسيح عن المثال الأبدي الذي من فطرة البشر التوق إليه، وكذلك عن درجة الكمال التي بات بإمكان البشر بلوغها في زماننا.

يكمن المثال في أن لا يُكنُّ المرء الشرَّ لأحد، في عدم إساءة النية تجاه أحد، في محبة الجميع، أما الوصية التي تشير إلى الدرجة التي بإمكان المرء تماماً عدم النزول أدنى منها فتكمن في عدم إهانة البشر بالقول. وهذه هي الوصية الأولى.

المثال هو العفّة التامّة حتى في الأفكار، أما الفريضة، التي تشير إلى الحدّ الذي يمكن تماماً عدم النزول أدنى منه في بلوغ هذا المثال، فهي طهارة الحياة الزوجية، الامتناع عن الزنى. وهذه هي الوصية الثانية.

المثال هو عدم الاهتمام بالغد وعيش الساعة الراهنة؛ والفريضة، التي تشير إلى الحدّ الذي يمكن تماماً عدم النزول أدنى منه، هي عدم الحِلف، عدم إعطاء أية وعود مستقبلية للناس. وهذه هي الوصية الثالثة.

المثال هو عدم استخدام العنف من أجل أيّ غاية كانت على الإطلاق؛ والفريضة، التي تشير إلى الحدّ الذي يمكن تماماً عدم النزول أدنى منه، هي عدم الردّ على الشرّ بالشرّ، الصبر على الإساءة، إعطاء الرداء. وهذه هي الوصية الرابعة.

المثال هو محبة الأعداء الذين يكرهوننا؛ والفريضة، التي تشير إلى الحدّ الذي يمكن تماماً عدم النزول أدنى منه، هي عدم فعل الشرّ للأعداء، التحدث عنهم بالحسنى، عدم التمييز بينهم وبين مواطنينا.

كل هذه الوصايا إنما هي إشارات إلى ما في مقدورنا تماماً عدم القيام به على درب التطلّع إلى الكمال؛ إلى ما يجب علينا القيام به في الوقت الراهن؛ إلى ما يجب علينا نقله – شيئاً شيئاً– إلى حقل العادة، إلى مجال اللاوعي. لكنّ هذه الوصايا عبارة عن درجة واحدة فحسب من درجات التعليم التي لا تُحصى للاقتراب إلى الكمال، وهي ليست التعليم كله ولا تستنفده على الإطلاق.

على إثر هذه الوصايا يجب، وسوف، تتوالى وصايا أسمى فأسمى على درب الكمال الذي يشير إليه التعليم. لذا فإنّ من طبيعة التعليم المسيحي إشهار متطلّبات أعلى من الواردة في الوصايا، لكن قطعاً دون الاستخفاف بمتطلبات المثال ذاته أو بمتطلبات هذه الوصايا، كما يفعل الناس الذين يحكمون على التعليم المسيحي من منظور الفهم الحياتي المجتمعي.

هذه هي إحدى مغالطات العلماء فيما يتعلق بمعنى ومغزى تعليم المسيح. أما المغالطة الثانية، النابعة من هذا المصدر ذاته، فتكمن في مطلب محبة الله بمحبة وخدمة البشر – الإنسانية.

إنّ تعليم محبة الله وعبادته و(فقط بفضل هذه المحبة والعبادة) محبة القريب وخدمته يبدو للعلماء غامضاً ومبهماً وأهوائياً، وهم ينفون تماماً مطلب محبة وعبادة الله، مفترضين أنّ التعليم المتعلق بمحبة البشر، محبة الإنسانية، مفهومٌ أكثر بكثير، وأكثر رسوخاً وتجذراً.

أهل العلم يُعلّمون نظرياً أنّ الحياة الفطنة والخيّرة هي فقط حياة خدمة الإنسانية برمّتها، ويرون في هذا التعليم ذاته مغزى التعليم المسيحي، ويوحّدون بين هذا التعليم وبين التعليم المسيحي، ويبحثون عن تأكيد لتعليمهم هذا في التعليم المسيحي، مفترضين أنّ تعليمهم والتعليم المسيحي هما الشيء ذاته.

هذا الرأي خاطئ تماماً. التعليم المسيحي وتعليم الوضعيين الإيجابيين والشيوعيين وكل دعاة أخوة البشر العلمية، القائمة على منفعية هذه الأخوة، لا تتمتع بأي شيء مشترك مع المسيحية، وتختلف عنها، بشكل خاص، بأنّ للتعليم المسيحي أسس راسخة وواضحة في نفس الإنسان، أما تعليم محبة الإنسانية فهو ليس سوى استنتاج نظري باستخدام طريقة القياس والمقابلة.

التعليم المتعلق بمحبة الإنسانية فقط متأسس على الفهم الحياتي المجتمعي. وجوهر الفهم الحياتي المجتمعي يكمن في نقل معنى حياة الفرد إلى حياة مجموع الأفراد: العشيرة، العائلة، السلالة، الدولة. هذا النقل حدث ويحدث بسهولة وبصورة طبيعية، بأشكاله الأولى، في نقل المرء معنى الحياة من فرديته إلى العشيرة أو العائلة، أما النقل إلى السلالة أو الشعب فأكثر صعوبةً، ويحتاج تربيةً خاصة، في حين أنّ نقل الوعي إلى حقل الدولة هو الحدّ النهائي لهذا النقل.

كلّ الناس مفطورون على حبّ الذات، وكل إنسان يحب نفسه دونما حاجة إلى تشجيعه على ذلك، ويحبّ قبيلته التي تدعمه وتحميه، يحب زوجته- فرح الحياة وعونها، يحب أبناءه- سكينة وأمل الحياة، ووالديه اللذين منحاه الحياة والتربية - هذا طبيعي، وهذا الحب، رغم أنه ليس بقوة حب الذات، يُصادَف كثيراً جداً. محبة المرء لأبناء جلدته، لأجل نفسه واعتزازه، محبته لشعبه، رغم أنها ليست طبيعية إلى هذا الحدّ، يُعثَر عليها رغم ذلك. حبّ المرء لشعبه الذي يشاركه العشيرة واللغة والدين ما زال ممكناً، رغم أنّ هذا الشعور أبعد ما يكون عن القوة، ليس كحبّ الذات فحسب بل وحبّ الأسرة

والأسلاف؛ لكن حبّ دولة، مثل تركيا أو ألمانيا أو إنكلترة أو النمسا أو روسيا، بات مستحيلاً تقريباً، ورغم التربية الدؤوبة في هذا المنحى فهي افتراضية فحسب، ولا وجود لها فعلياً. في هذا المجموع تنتهي قدرة الإنسان على نقل إدراكه واختبار أيٍّ من المشاعر المباشرة في هذا الوهم. لكنّ الوضعيين الإيجابيين Positivists وكل دعاة الأخوة العلمية، دون أن يأخذوا بالاعتبار ضعف الشعور تبعاً لاتّساع الموضوع، يتابعون الجدال النظري في المنحى ذاته. فهم يقولون: "إذا كان مفيداً أكثر للشخص إزاحة وعيه ليشمل العشيرة والعائلة، ثم الشعب والدولة، فسيكون مفيداً أكثر إزاحة وعيه ليشمل الإنسانية برمّتها، وأنفع للجميع أن يعيش الناس لأجل الإنسانية كما يعيشون لأجل العائلة، ولأجل الدولة".

هذا ما ينتج نظرياً بالفعل. إنّ نقل الشخص لوعيه إلى العائلة، ومن العائلة إلى العشيرة فالشعب فالدولة، منطقي تماماً للبشر كذلك لتجنّب الصراعات والمصائب التي تنتج عن انقسام البشرية إلى شعوب ودول، وهو أكثر طبيعية من مجرّد نقل محبته إلى الإنسانية. يبدو هذا مطقياً أكثر، ونظرياً تتمّ الدعوة إلى ذلك دون ملاحظة أنّ الحبّ شعور يمكن امتلاكه لكن يستحيل تعليمه، وأنه -عدا عن ذلك- يجب أن يكون هناك غَرَض للمحبة، والإنسانية ليست مادة بل مجرّد وهم. القبيلة والأسرة، وحتى الدولة، لم يبتدعها البشر وإنما تشكّلت من تلقاء ذاتها مثلما أنّ جماعة النحل أو النمل موجودة فعلياً. الإنسان الذي يحبّ أسرته لأجل شخصيته البهيمية يعلم أنّه يحبّ آنّا، ماريا، إيفان، بطرس ...إلخ. الإنسان الذي يحب عشيرته ويفتخر بها يعلم أنه يحبّ جميع أفراد آل كذا وآل كذا. والذي يحب دولته يعلم أنه يحبّ فرنسا، يحبّ ضفة الراين والبيرينيه ومدينتها الرئيسة باريس وتاريخها ...الخ. لكن ما الشيء الذي يحبّه محبّ الإنسانية؟ هناك الدولة، هناك الأسرة، هناك المفهوم المجرّد: الإنسان، لكن الإنسانية، كمفهوم واقعي، لا وجود لها، ولا يمكن لها أن توجد.

الإنسانية؟ أين هي حدود الإنسانية؟ أين تنتهي وأين تبدأ؟ هل تنتهي بالإنسان الهمجي، بالأبله، بالسكّير، بالمجنون ضمناً؟ إذا أردنا رسم خط لتحديد الإنسانية، بحيث نستثني الممثلين الأدنى للجنس البشري، فأين سنرسم هذا الخط؟ هل سنستثني الزنوج كما يفعل الأمريكيون، والهنود كما يستثنيهم الإنكليز، واليهود كما يستثنيهم بعض الناس؟ أما

إذا أخذنا كل البشر دونما استثناء؛ فلماذا نأخذ البشر فقط، ولا نأخذ الحيوانات العليا التي الكثير منها أرقى من ممثلي الجنسي البشري الأدنى؟

نحن لا نعرف الإنسانية كشيء ما خارجي، لا نعرف حدودها. البشرية وهم، ومحبتها مستحيلة. بالفعل، لكان مفيداً جداً لو كان بمقدور البشر أن يحبّوا البشرية كما يحبون عائلاتهم؛ لكان مفيداً جداً -كما يحاكم الشيوعيون في هذا الموضوع- استبدال المنحى التنافسي للنشاط البشري بمنحىً تكافلي، أو الفردي بالكوني، حتى يغدو الكلّ للواحد والواحد للكلّ، لكن فقط لا توجد أي دوافع لذلك.

الوضعيون الإيجابيون والشيوعيون وكل دعاة الأخوة العلمية يدعون إلى توسيع المحبة التي يمتلكها البشر في أنفسهم تجاه عائلاتهم، تجاه الدولة، لتشمل البشرية كلها، ناسين أنّ المحبة، التي يبشّرون بها، هي محبة شخصية قادرة، إذا امتدت، على الامتداد وصولاً إلى الوطن الطبيعي، وتختفي كلياً عندما تلامس الدولة المصطنعة، كالنمسا وإنكلترة وتركيا، ولا يمكننا حتى تخيّلها عندما يتعلق الأمر بالإنسانية برمّتها -هذا الشيء المبهم تماماً.

"الإنسان يحب نفسه (حياته البهيمية)، يحب أسرته، يحب حتى وطنه؛ فلماذا لا يحب الإنسانية كذلك؟ كم كان الأمر ليكون جيداً. بالمناسبة، هذا ما تبشّر به المسيحية أيضاً". هكذا يعتقد دعاة الأخوة الوضعية والشيوعية والاشتراكية. لكان هذا جيداً حقاً، لكن لا يمكن لهذا أن يحدث أبداً لأنّ المحبة، القائمة على الفهم الحياتي الشخصي والمجتمعي، ليس بمقدورها الذهاب أبعد من محبة الدولة.

خطأ المحاكمة يكمن في أنّ الفهم الحياتي المجتمعي، الذي يقوم عليه حب الأسرة والوطن، مبني على حبّ الذات، وهذا الحبّ، عندما ينتقل من حبّ الذات إلى حبّ الأسرة، السلالة أو القوم أو الدولة، يضعف شيئاً فشيئاً، ويصل في الدولة إلى حدّه الأخير الذي ليس بمقدوره الذهاب أبعد منه.

لا شكّ في ضرورة توسيع حقل المحبّة لكنّ هذه الضرورة ذاتها لتوسيعه، في الواقع، يقضي على إمكانية الحبّ، ويبرهن على قصور المحبة الشخصية والمحبة الإنسانية.

وهنا يقترح دعاة الأخوة الوضعية والشيوعية والاشتراكية المحبة المسيحية، لمساعدة هذه المحبة الإنسانية التي تبدو عاجزة، لكن فقط من حيث تبعاتها وليس من أساسها: فهم يقترحون محبة الإنسانية فقط دون محبة الله. لكنّ محبّة كهذه ليست ممكنة، إذ لا يوجد أيّ دافع لها. المحبة المسيحية تنبع فقط من الفهم الحياتي المسيحي الذي بموجبه يكمن مغزى الحياة في محبة الله وعبادته.

من خلال مساره الطبيعي، من حبّ الذات فالأسرة فالسلالة فالشعب فالدولة، أوصل الفهم الحياتي المجتمعي البشر إلى إدراك ضرورة محبةٍ إنسانيةٍ لا حدود لها، مندغمة مع كل ما هو موجود، إلى شيءٍ لا يُحرّض في الإنسان أيّ شعور، أوصلهم إلى تناقضٍ ليس بالإمكان حلّه بوساطة الفهم الحياتي المجتمعي.

فقط التعليمِ المسيحي بمعناه الكلّي، إذ يمنح الحياة معنى جديداً، قادر على حلّه. تعترف المسيحية بمحبة المرء لنفسه ولأسرته ولشعبه وللإنسانية، وليست الإنسانية فقط بل وكلّ ما هو حيّ، كلّ ما هو موجود؛ تعترف بضرورة توسيع حقل المحبة بلاانتاهٍ؛ لكنّ غرَض هذه المحبة لا تجده خارج ذات الإنسان، في مجموع الأفراد: الأسرة أو العشيرة أو الدولة أو الإنسانية، في العالم الخارجي برمّته، وإنما في النفس، في ذات الإنسان، لكن الذات الإلهية التي جوهرها هو تلك المحبة ذاتها، التي تُوصل الشخصية البهيمية إلى ضرورة توسيعها حين تفرّ إذ تدرك هلاكها.

ما يميّز التعليم المسيحي عن التعاليم السابقة هو أنّ التعليم المجتمعي السابق كان يقول: عِشْ على النقيض من طبيعتك (قاصداً الطبيعة البهيمية فقط)، أَخْضِعها للقانون الخارجي للأسرة، للمجتمع، للدولة، بينما المسيحية تقول: عِش وفق طبيعتك (قاصدةً الطبيعة الإلهية)؛ لا تخضعها لأيّ شيء- لا تخضعها للطبيعة البهيمية لأيّ أحد، ولسوف تبلغ ما تصبو إليه، عبر إخضاع طبيعتك الخارجية للقانون الخارجي.

التعليم المسيحي يُعيد الإنسان إلى وعيه البدئي لذاته، لكن ليست ذاته الحيوانية وإنما ذاته الإلهية، ذاته كابنٍ للإله، للأب المحبوس في قشرةٍ حيوانية. وعبر إدراكه لذاته هذا ابناً للإله، الإدراك الذي طبيعته الرئيسة هي المحبة، يُلبّي كل متطلبات توسيع حقل المحبة الذي وصل إليه إنسان الفهم الحياتي المجتمعي. بالتالي، في ظلّ المزيد فالمزيد من توسيع حقل المحبّة من أجل خلاص الشخص كانت المحبة ضرورية، ووُجِّهت نحو

أشياء معينة: الذات، الأسرة، المجتمع، الإنسانية. في حالة التعليم المسيحي المحبة ليست ضرورة، ولا تُوجَّه نحو أيّ شيء، وإنما هي فطرة جوهرية لنفس الإنسان. الإنسان لا يحبّ لأنّ مصلحته تقتضي أن يحبّ ذلك الشيء أو أولئك الناس بل لأنّ المحبة هي جوهر نفسه، لأنه لا يستطيع إلاّ أن يحبّ.

التعليم المسيحي يهدي الإنسان إلى أنّ جوهر روحه هو المحبة، أنّ خيره لا يتحصّل من أنّه يحبّ هذا أو ذاك بل من محبته لمبتدأ كل شيء- الله الذي يدركه في ذاته محبةً، لذا سوف يحبّ كل الناس وكل شيء.

هذا هو الاختلاف الأساس بين التعليم المسيحي وبين تعليم الوضعيين الإيجابيين وكلّ منظّري الأخوة العالمية اللامسيحية.

هذان هما الغلطان الرئيسان فيما يتعلق بالتعليم المسيحي، واللذان تنبع منهما معظم الآراء الباطلة عنه. أحدهما هو أنّ تعليم المسيح يُعلّم البشر، مثل التعاليم السابقة، عن طريق القواعد التي على البشر اتّباعها، وأنّ هذه القواعد ليست قابلة للتطبيق؛ والآخر هو أنّ كلّ معنى المسيحية يكمن في التعليم المتعلّق بالتعايش المفيد للبشرية كأسرة واحدة، الأمر الذي من أجله، دون ذكر محبة الله، يلزم فقط اتّباع فقط قاعدة محبة الإنسانية.

إنّ الرأي الباطل لأهل العلم، بأنّ التعليم المتعلّق بالمعجزات يُعدّ جوهر التعليم المسيحي، وأنّ التعليم الحياتي المسيحي غير قابل للتطبيق، بالإضافة إلى سوء الفهم النابع من هذا الرأي الباطل، يُعدُّ سبباً آخر لعدم فهم المسيحية من قِبل بشر زماننا.

V

أسباب عدم فهم تعليم المسيح كثيرة. ويكمن السبب أيضاً في أنّ البشر يعتقدون أنّهم قد فهموا هذا التعليم عندما اعتبروه وسيلة خارقة قدّمها المسيح، كما يقول الكنسيون، أو، كما يفعل أهل العلم، أنهم قد فهموه عندما قاموا بدراسة قسمٍ من الظواهر الخارجية التي انعكس التعليم من خلالها. يكمن السبب في المغالطات المتعلّقة بعدم قابلية التعليم للتطبيق، وكذلك المتعلقة بوجوب استبداله بمذهب محبة الإنسانية. إلاّ أنّ السبب الرئيس، الذي ولّد كل هذه المغالطات، هو أنّ تعليم المسيح يُعدُّ تعليماً يمكن للمرء اعتناقه أو رفضه دون أن يغير حياته.

الذين اعتادوا النظام القائم للأشياء، ويحبونه، ويخشون تغييره، يحاولون فهم التعليم بأنه مجموعة من الكشوفات التي بالإمكان اعتناقها دون أن يغيّروا حياتهم، في حين أنّ تعليم المسيح ليس فقط تعليماً عن القواعد التي يجب على الإنسان اتِّباعها، بل هو تبيانٌ لمعنى جديد للحياة، يُحدِّد، في اختلاف كلّيّ عمّا سبقه، مجمل نشاط البشرية في المرحلة التي تعيشها.

الحياة الإنسانية تتحرك، تمرّ عبر أعمار، مثل حياة الإنسان الفرد، ولكلّ عمر فهم حياتي مناسب له، ولا بدّ من أن يستوعب البشر هذا الفهم الحياتي. الذين لا يستوعبون الفهم الحياتي الملائم بصورة واعية، يُقادون إليه دون وعيٍ منهم. ما يحدث مع تغيّر وجهات النظر في حياة الفرد يحدث كذلك مع تغيّر وجهات النظر في حياة الشعوب وحياة البشرية برمّتها. إذا استمرّ الإنسان المتزوّج بالانقياد للفهم الحياتي الطفولي فسوف تصبح حياته من الصعوبة بحيث يغدو مكرهاً على البحث عن فهم حياتي مختلف، وعن طيب خاطر سوف يستوعب الفهم الملائم لسنّه.

الأمر ذاته يحدث الآن في إنسانيتنا في ظلّ الانتقال، الذي نعايشه، من الفهم الحياتي الوثني إلى الفهم الحياتي المسيحي. سوف توصل الحياة ذاتها الإنسان الإجتماعي في زماننا إلى ضرورة التخلّي عن الفهم الوثني للحياة، غير الملائم لسنّ البشرية الحالي، وسيخضع لمتطلبات التعليم المسيحي الذي حقائقه، مهما بلغت من التحريف والتشويه، معروفة له رغم ذلك، والتي وحدها فقط تمثّل حلاً للتناقض الذي هو مبلبل فيه. إذا كانت

متطلبات التعليم المسيحي تبدو لإنسان الفهم الحياتي المجتمعي غريبةً، بل حتى خطيرة؛ فبالقدر ذاته تماماً كانت متطلبات المذهب الاجتماعي تبدو غريبةً ومبهمةً وخطيرةً للإنسان الهمجي في الأزمنة القديمة عندما لم يكن يفهمها، ولم يكن قادراً على استشراف نتائجها.

"ليس من الحكمة أن يضحّي المرء بسَكينته أو حياته – يقول الهمجي– للدفاع عن شيء غير مفهوم، غير ملموس، عرَضي: الأسرة، السلالة، الوطن، والأهم هو أنّ من الخطورة أن يضع المرء نفسه تحت تصرّف سلطة غريبة". لكن جاء وقت على الهمجي عندما، من جهة، فهم، وإن بصورة غامضة، معنى الحياة الجماعية، معنى محركها الرئيس، معنى المباركة أو الإدانة الاجتماعية– المجد؛ ومن جهة أخرى، عندما أصبحت آلام حياته الشخصية عظيمة بحيث لم يعد قادراً على الإيمان بحقّانية فهمه السابق للحياة، فاعتنق التعليم المجتمعي، عقيدة الدولة، وخضع له.

الأمر ذاته يحدث الآن مع الإنسان المجتمعي، الدولتي. "ليس من الحكمة – يقول الإنسان المجتمعي– أن يضحّي المرء بمصلحته، بأسرته، بوطنه من أجل تطبيق متطلبات قانونٍ سامٍ ما يطلب إليَّ التنكّر لأكثر المشاعر طبيعيةً وطيبةً، مشاعر المحبة تجاه ذاتي، تجاه أسرتي، تجاه موطني، تجاه وطني، والأهم هو أنّ من الخطورة رفض ضمان الحياة الذي يمنحني إياه النظام الدولتي". لكن سيأتي وقت يُجبره فيه، من جهةٍ، الإدراك المبهم في نفسه لقانون محبة الله والقريب الأسمى، ومن جهة أخرى، الآلام النابعة من تناقضات الحياة، على التخلي عن الفهم الحياتي المجتمعي، واستيعاء الفهم الحياتي المسيحي الجديد، المُعطى له، والذي يحلّ كلّ التناقضات لديه ويزيل آلام حياته. وقد حلّ هذا الوقت الآن.

نحن، الذين عشنا منذ آلاف السنين، يبدو لنا الانتقال من الفهم الحياتي البهيمي، الشخصي، إلى الفهم الحياتي المجتمعي، أنه كان ضرورياً وطبيعياً، بينما هذا الانتقال، الذي نعيشه في الوقت الراهن، خلال الـ1800 سنة الأخيرة، يبدو لنا تعسفياً وغير طبيعي وخطر. لكن هذا ما يبدو لنا وحسب، لأنّ ذاك قد أُنجز، وانتقل نشاطه إلى وعينا، بينما هذا الانتقال لمّا ينتهِ بعد، وعلينا القيام به بصورة واعية.

استوعى البشر الفهم الحياتي المجتمعي خلال قرون، ألفيات، وعبَر قوانين مختلفة، ودخل، في الوقت الراهن، بالنسبة للإنسانية، مجال التربية اللاواعية الموروثة، ومجال العادة؛ لذا يبدو لنا بدهياً. لكن قبل 5000 سنة كان يبدو للبشر غير طبيعي ومخيفاً بقدر ما يبدو لنا الآن التعليم المسيحي في معناه الحقيقي.

في الوقت الراهن، متطلبات التعليم المسيحي حول الأخوة الشاملة، دونما تمييز قومي، حول عدم المُلكية، حول عدم مقاومة الشرّ بالعنف، تبدو بمنتهى الغرابة، بل تبدو مستحيلة. لكن كذلك تماماً كانت تبدو، منذ آلاف السنين، في سحيق القدم، ليست المتطلبات الدولتية فحسب بل والعائلية كذلك، مثل: أن يُعيل الأب الأبناء، أن يُعيل الشبابُ العجائز، أن يُخلص الزوجان لبعضهما. وأكثر غرابةً، بل ولامعقوليةً، كانت تبدو المتطلبات الدولتية: أن يخضع المواطنون للسلطة القائمة، أن يدفعوا الضرائب، أن يذهبوا إلى الحرب دفاعاً عن الوطن ...الخ. تبدو لنا كل هذه المتطلّبات بسيطة ومفهومة وبدهية لا غموض فيها ولا حتى غرابة، لكن قبل خمسة أو ثلاثة آلاف عام كانت هذه المتطلبات تبدو غير ممكنة.

كان الفهم الحياتي المجتمعي الأساس الذي قامت عليه الأديان لأنه، عندما أُعلن للناس، بدا لهم غامضاً ومبهماً ومفارقاً للطبيعة كلياً. الآن، بعد أن عشنا هذا الطور من حياة البشرية، باتت مفهومة لنا الأسباب العقلانية لاتّحاد البشر في عائلات ومجتمعات ودول، لكن، في الأزمنة القديمة، قُدِّمت متطلّبات الاتّحاد هذه باسم الماورائي، وأُكِّدت بوساطته.

الديانات الأبوية ألّهت الأسرة والعشيرة والشعب؛ الديانات الدولتية ألّهت الملوك والدول. حتى في الوقت الراهن، معظم الناس الضعيفي التعليم، مثل فلّاحينا، الذي يُسمُّون القيصر الإله الأرضي، يخضعون للقوانين المجتمعية ليس تبعاً للإدراك العقلاني لضرورتها، ليس لأنهم يفهمون عقيدة الدولة، وإنما بموجب الشعور الديني.

على هذا النحو تماماً يُقدَّم، في الوقت الراهن، التعليم المسيحي لأناس العقيدة المجتمعية أو الوثنية على شكل دينٍ ماورائي، في حين أنه، في الواقع، ليس فيه أيّ شيء سرّاني أو باطني أو ماورائي، بل هو فحسب تعليم يتعلق بالحياة الملائمة لمستوى التطور المادي للبشرية، لمستوى نضج البشرية، ولهذا السبب لا مناص من الإيمان به.

سوف يأتي وقت، وقد أتى، تصبح فيه الأسس المسيحية للمساواة وأخوة البشر والمُلكية المشتركة وعدم مقاومة الشرّ بالعنف بذات البداهة والبساطة اللتين تبدو عليهما الآن أسس الحياة الأسرية والمجتمعية والدولتية.

ليس في مقدور الإنسان، ولا الإنسانية، العودة إلى الوراء في حركة التطور. وقد عاش البشر الفهم الحياتي المجتمعي، الأسري والدولتي، ويجب عليه السير قدماً واستيعاء الفهم الحياتي التالي. وهو ما يحدث الآن.

هذه الحركة تحدث في اتّجاهين: بوعي-لأسبابٍ روحية، وبلاوعي-لأسباب مادّية. كما أنّ من النادر جداً أن يغيّر الإنسان الفرد حياته تبعاً لتوجيهات العقل فقط، وغالباً، بغضّ النظر عن المغزى الجديد والغايات الجديدة التي يشير إليها العقل، يواصل عيش حياته السابقة، ويقوم بتغييرها فقط عندما تغدو حياته مناقضةً كلياً لوعيه، ومُعذَّبةً نتيجةً لذلك، كذلك تماماً البشرية، إذ تتعرّف، من خلال زعمائها الدينيين، إلى مغزى جديد للحياة، وإلى غايات جديدة عليها التطلّع إليها، فإنّ معظم البشر يستمرون، لفترة طويلة، حتى بعد الإدراك، بعيش الحياة السابقة، ويُقادون إلى اعتناق الفهم الحياتي الجديد فقط عبر إدراك استحالة مواصلة الحياة السابقة.

على الرغم من مقتضيات تغيير الحياة، المُدركة، والتي عبّر عنها القوّاد الدينيون، والمقبولة من قِبل الناس الأكثر عقلانيةً، فإنّ معظم البشر، رغم العلاقة الدينية التي تربطهم بهؤلاء القواد، أي إيمانهم بتعاليم هؤلاء القواد، يواصلون، في الحياة التي تزداد صعوبةً، الانقياد للتعليم السابق، كما قد يفعل شخص متزوّج، رغم أنه يعلم كيف ينبغي له العيش في سنّه، يستمرّ، بحكم العادة، وبسبب قلّة عقله، بعيش حياة الأولاد.

هذا ما يحدث عند انتقال البشرية من عمر إلى آخر، وهو العمر الذي نعيشه الآن. فقد تجاوزت الإنسانية سنّها المجتمعي، الدولتي، وبلغت سنّاً جديدة. وهي تعرف التعليم الذي يجب أن تُبنى عليه حياة هذا العمر الجديد لكنها، بسبب قوة العطالة، تستمر بالحفاظ على الأنماط السابقة للعيش. من عدم ملائمة الفهم الحياتي هذا للحياة العملية تتبع سلسلة من التناقضات والآلام التي تُسمّم حياتنا، وتدعو إلى تغييرها.

يكفي فحسب أن نقابل بين ممارسة الحياة وبين نظريتها لكي نشعر بالهلع أمام التناقض الصارخ بين ظروف حياتنا والوعي الذي نعيشه. حياتنا برمّتها عبارة عن

تناقضٍ متواصل بين ما نعرفه وبين ما نعتبره ضرورياً وواجباً. هذا التناقض موجود في كلّ شيء: في الحياة الاقتصادية والدولتية والدولية. نحن، كما لو أننا قد نسينا ما نعرف، نؤجّل لبعض الوقت ما نؤمن به (لا يمكننا إلاّ أن نؤمن لأنّ الإيمان هو الأساس الوحيد لحياتنا)، ونفعل كل شيء عكس ما يطلبه منا ضميرنا وعقلنا السليم.

نحن ننقاد في العلاقات الاقتصادية والدولية للأسس التي كانت صالحة للبشر قبل ثلاثة أو خمسة آلاف سنة، والتي تُناقض وعينا الراهن بشكل مباشر، وتناقض كذلك شروط الحياة التي نعيشها في الوقت الراهن.

كان جيداً للإنسان القديم العيش وسط انقسام البشر إلى عبيد وسادة عندما كانوا يُصدّقون أنّ هذا التقسيم هو من عند الله، وأنّ الأمر لا يمكن أن يكون على نحوٍ مغاير. لكن، هل تقسيم مماثل ممكن في زماننا؟

كان إنسان العالم القديم قادراً على عدّ أنّ له الحق في استغلال خيرات العالم على حساب الآخرين، مجبراً إياهم على التعذّب لأجيال لأنه كان يؤمن أنّ البشر يولدون من أجناسٍ مختلفة، سوداً وبيضاً، من ذرية حام ويافث. أعظم حكماء العالم، معلّمو البشرية، أفلاطون وأرسطو لم يبرّروا وجود العبيد فحسب بل وأثبتوا شرعية ذلك، بل حتى قبل ثلاثة قرون، الذي كتبوا عن المجتمع المستقبلي المتخيَّل، اليوطوبي، لم يكونوا قادرين على تصوّره دون عبيد.

القدماء، حتى في القرون الوسطى، كانوا يُصدّقون تماماً أنّ البشر ليسوا متساوين، أنّ البشر الحقيقيين هم الفرس فقط، اليونان فقط، الرومان فقط، الفرنسيون فقط، لكن لم يعد جائزاً لنا الإيمان بهذا. والناس، الذين يحتمون بالأرستقراطية والوطنية، لا يُصدّقون، ولا يمكنهم أن يُصدّقوا، ما يقولونه.

كلنا نعرف، ولا يمكننا إلا أن نعرف، حتى لو لم نسمع ولم نقرأ قط هذه الفكرة مُعبَّراً عنها بوضوح، ولم نعبّر عنها نحن أنفسنا، نحن، إذ نتشرّب هذا الوعي المسيحي المحمول على الهواء- كلنا، بكلّ جوارحنا، نعرف، ولا يمكننا إلا أن نعرف تلك الحقيقة الأساسية للدين المسيحي، بأننا جميعاً أبناء أبٍ واحد، الجميع، أينما كنا نعيش، وأيّاً كانت اللغة التي نتكلمها، الجميع إخوة، ونخضع فقط لقانون المحبة، نخضع لأبينا المشترك الكامن في قلوبنا.

سواء كان الإنسان ليبرالياً متعلّماً من أي لونٍ كان، سواء كان فيلسوفاً من أيّ مذهب كان، سواء كان عالماً، اقتصادياً، من أيّة مدرسة كانت، سواء كان أمياً، وحتى متديناً بأيّ دينٍ كان- كل الناس في زماننا يعلمون أنّ لكلّ البشر الحقوق ذاتها في الحياة وفي خيرات العالم، وأنّه لا يوجد أناسٌ أفضل أو أسوأ من الآخرين؛ لأنّ البشر كلهم متساوون. كلّ الناس يعرفون ذلك معرفةً يقينية لا شكّ فيها بكلّ جوارحهم، وبدلاً من ذلك الإنسان ليس فقط لا يرى من حوله انقسام كلّ البشر إلى طائفتين: إحداهما كادحة مضطَّهدة محتاجة ومعذَّبة، والأخرى متبطِّلة متضطّهِدة مترفة ولاهية- إنه لا يرى ذلك فحسب بل - شاء أم أبى- يشارك، من هذه الجهة أو تلك، في انقسام البشر هذا الذي يرفضه وعيه، وليس في مقدوره إلاّ أن يعاني من إدراك هذا التناقض، ومن المشاركة فيه.

سواء كان سيّداً أم عبداً، لا يمكن لإنسان زماننا إلاّ أن يشعر بالتناقض المؤلم المستمرّ بين وعيه والواقع وبين الواقع والآلام النابعة عنه.

الجمهور الكادح، معظم البشر، إذ يعاني الكدح المستمرّ الذي يبتلع حياته كلها، اللامجدي والميئوس منه، ويعاني الحرمان، يتعذّب من إدراك التناقض الصارخ، أكثر من أيّ شيء آخر، بين ما هو كائن وما يجب أن يكون وفقاً لما يدعو إليه ذات الذين وضعوه في هذا الوضع، ويتركونه فيه.

يعلم الكادحون أنهم عبيد، ويهلكون في الفاقة والظلمة لكي يخدموا شهوات الأقلية التي تبقيهم في العبودية. يعلمون ذلك ويقولونه، وهذا الإدراك لا يفاقم آلامهم فحسب بل يشكّل جوهر آلامهم.

العبد القديم كان يعلم أنه عبد بطبيعته، وعامِلنا، إذ يشعر بنفسه عبداً، يعلم أنْ ليس عليه أن يكون عبداً لذا يختبر عذابات *تانتالوس*[30]، متمنياً دائماً، دون أن يحصل على، ليس فقط ما يمكن أن يكون بل وما يجب أن يكون. بالنسبة إلى الطبقات الكادحة، الآلام،

30- Tantalus: ابن زيوس وبلوتو وزوج ديوني ووالد بيلوبس ونيوبي، وملك ليديا. تقول الأسطورة أنّ بانداروس سرق كلباً ذهبياً وأعطاه لتانتالوس فجاء هرمس إليه وطلب منه الحيوان فأنكر وجوده. وقد اقترف الكثير من الآثام وأفشى أسرار الآلهة فعاقبته بأن علّقت حجراً فوق رأسه يوشك أن يسقط عليه في أية لحظة، وحبسته في هاديس وسط المياه، وفوق رأسه فاكهة تشتهيها نفسه، ولكنها بعيدة عن متناوله.

التي تحدث من جرّاء التناقض بين ما هو كائن وما يجب أن يكون، تتضاعف عشرات المرات عبر الحسد والكراهية النابعان من هذا الإدراك.

العامل في زماننا، وإن كان عمله أسهل بكثير من عمل العبد في قديم الزمان، وإن حصّل يوم عملٍ من ثماني ساعات وأجراً مقداره ثلاثة دولارات في اليوم، لن تنتهي معاناته لأنه، إذ يصنع أشياءَ لا نفع له فيها، إذ يعمل ليس لنفسه وحسب رغبته وإنما بسبب الحاجة، لأجل نزوات المترفين والمتبطّلين من الناس بشكل عام، لأجل مكاسب شخصٍ غنيٍّ واحد، صاحب معمل أو مصنع، بشكل خاص، يعلم أنّ هذا كله يحدث في العالم الذي لا يعترف فحسب بالمبدأ العلمي القائل إنّ العمل ثروة، وإنّ استغلال جهود الآخرين ظلم وغير مشروع، وإذ تُعذّبه القوانين، وإنما في العالم الذي يُبشَّر فيه بتعليم المسيح الذي، بموجبه، كلنا إخوة، وحيث جدارة وفضل الإنسان يكمنان فقط في خدمة القريب، لا في استغلاله.

إنه يعلم هذا كلّه، ولا يمكنه ألاّ يعاني بحزن من جرّاء هذا التناقض الصارخ كلّه بين ما يجب أن يكون وما هو كائن. "بحسب كافة المعطيات، وبحسب كل ما أعرفه، وكل ما يُبشِّرون به – يقول العامل لنفسه- كان يجب أن أكون حرّاً، مساوياً لكلّ الناس الآخرين، لكلّ الناس، لكني عبد، أنا مُذَلّ ومكروه". وهو أيضاً يكره، ويبحث عن وسائل للخلاص من وضعه، وليخلع العدو الجاثم على ظهره، ثم ليجلس هو على ظهر عدوّه. يقولون: "العمال ليسوا محقّين في أنهم يريدون الجلوس مكان الرأسماليين، الفقراء مكان الأغنياء". هذا غير صحيح: ما كان العمال والفقراء ليكونوا محقّين لو أنهم أرادوا ذلك في عالمٍ يُعترَف فيه بأنّ الله هو الذي قدّر العبيد والسادة، الأغنياء والفقراء؛ لكنهم يريدون هذا في العالم الذي يُعترَف فيه بالتعليم الإنجيلي الذي أول مبادئه هو بنوّة البشر لله، وبالتالي أخوّة البشر وتساويهم. ومهما حاول البشر لا يمكن حجب أنّ أحد أول شروط الحياة المسيحية هو المحبة، بالأفعال لا بالأقوال.

أما الشخص المنتمي إلى ما يسمّى الطبقة المثقفة فإنه يعيش تناقضاً أكبر. إذ إنّ أيّ إنسانٍ كهذا لا بدّ أن يؤمن بشيء، إذا لم يكن يؤمن بأخوّة البشر فبالإنسية Humanism، وإن ليس بالإنسية فبالعدالة، وإن ليس بالعدالة فبالعلم، وهو، إضافةً إلى

هذا، يعلم أنّ حياته برمّتها قائمة على شروطٍ تناقض هذا كله، تناقض كلّ مبادئ المسيحية والإنسية والعدالة والعلم.

إنّه يعلم أنّ كلّ العادات المغروسة فيه، والتي فقدانها سيكون عذاباً له، يمكن إشباعها فقط من خلال عمل العمال المضطهَدين المضني، المهلك غالباً، أي عبر الخرق الجليّ الفظّ لمبادئ المسيحية والإنسية والعِلموية (أقصد: الاقتصاد السياسي) التي يعتنقها. فهو يعتنق مبادئ الأخوّة والإنسية والعدالة والعلموية، ولا يعيش فقط بحيث أنْ لا بدّ له من اضطهاد العمال الذي يرفضه بل وبحيث أنّ حياته برمّتها عبارة عن انتفاع من هذا الاستغلال، ولا يعيش على هذا النحو فقط بل ويوجّه نشاطه للحفاظ على مجرى الأمور هذا، في تناقضٍ صريح مع كل ما يؤمن به.

كلّنا إخوة، غير أنّ أخي (أو أختي) يجلب (أو تجلب) لي الإبريق كلّ صباح. كلّنا إخوة، وكلّ صباح لا بدّ لي من لفافة تبغ أو سُكّر أو مرآة وغيرها من هذه الأشياء التي فقدَ، ويفقد، إخواني وأخواتي، المساوون لي، صحّتهم لكي يصنعوها، وأنا أنتفع بهذه المواد، بل حتى أطالب بها. كلّنا إخوة، وأنا أعتاش من كوني أعمل في مصرف أو متجر أو حانوت لكي أجعل كلّ السلع، اللازمة لإخوتي، أغلى ثمناً. كلّنا إخوة، وأنا أعتاش من أنّي أتلقّى راتبي لكي أُدين لصاً أو مومساً، وأحكم عليهما وأعدمهما، واللذان وجودهما سببه مجمل نظام حياتي، واللذان أعرف، أنا نفسي، أنْ لا يجب إعدامهما، وإنما يجب إصلاحهما. كلّنا إخوة، وأنا أتلقّى راتبي لقاء جبايتي الضرائب من العمال الفقراء لاستخدامها من أجل ترف الأغنياء والمتبطّلين. كلّنا إخوة، وأنا أتلقّى راتبي لقاء دعوتي البشر إلى دينٍ مسيحيٍّ مزعوم، أنا نفسي لا أؤمن به، يحرمهم إمكانية تعرّف المسيحية الحقّ. أتلقّى راتبي، كقسٍّ أو أسقفٍ، لكوني أكذب على الناس في الأمر الأكثر أهميةً بالنسبة إليهم. كلّنا إخوة لكنّي أقدّم مؤلّفاتي التربوية أو الطبية أو الأدبية للفقراء فقط مقابل المال. كلّنا إخوة، وأنا أتلقّى راتبي لقاء أنّي أتجهّز للقتل وأصنع الأسلحة والبارود، وأبني القلاع. إنّ حياة طبقتنا الراقية عبارة عن تناقضٍ فاضح، وهي تزداد إيلاماً كلما ازداد وعي الإنسان رهافةً.

ليس بمقدور الإنسان المرهف الوجدان إلاّ أن يعاني إن كان يعيش حياةً كهذه. الوسيلة الوحيدة، بالنسبة إليه، للخلاص من هذه المعاناة تكمن في قمع وجدانه، لكن حتى لو تمكّن هؤلاء الناس من قمع وجدانهم، فليس بمقدورهم إخماد خوفهم.

الناس غير المرهفين، قامعو وجدانهم، من الطبقات المضطهِدة العليا، إذا لم يكونوا يعانون من جرّاء ضمائرهم، فإنهم يعانون من جرّاء الخوف والكراهية. ولا يمكن لهم إلاّ أن يعانوا، فهم يعلمون بتلك الكراهية تجاههم الموجودة، ولا يمكنها إلاّ أن توجد، لدى الطبقات العاملة؛ يعلمون أنّ العمّال يعلمون أنّهم مخدوعون ومعنَّفون، وأنّهم بدأوا يُنظِّمون أنفسهم لكي يطرحوا الاضطهاد عن أنفسهم، ويُجازوا المضطهِدين. الطبقات العليا ترى النقابات والإضرابات والأول من أيار، وتشعر بالكارثة التي تتهدّدها، وهذا الخوف يُسمِّم حياتها. إنها تشعر بالكارثة التي تكاد تحيق بها، والخوف، الذي تشعر به، يتحوّل إلى مشاعر دفاعٍ عن النفس وإلى مشاعر كراهية. هي تعلم أنها، هي ذاتها، سوف تهلك إذا ما تراخت لحظةً واحدة في صراعها مع العبيد الذين تضطهدهم، لأنّ العبيد ساخطون، وهذا السخط يتفاقم مع كلّ يومٍ من الاضطهاد. ليس بإمكان المضطهِدين الكفّ عن الاضطهاد وإن أرادوا ذلك؛ فهم يعلمون أنهم، هم أنفسهم، سيهلكون ليس فقط إذا كفّوا عن الاضطهاد، بل حتى إن تراخوا فيه. وهم يفعلون هذا، رغم انشغالهم المزعوم برفاهية العامل، بيوم العمل ذي الثماني ساعات، بمنع تشغيل الأطفال والنساء، برواتب التقاعد والمكافآت. هذا كلّه كذب؛ أو الانشغال بأن يكون العبد قادراً على العمل لكنّ العبد يبقى عبداً، والسيد، غير القادر على العيش من دون العبد، أقلّ استعداداً لتحريره أكثر من أيّ وقتٍ كان.

الطبقات الحاكمة، من حيث معاملتها العمال، تتواجد في وضع الجاثم على صدر خصمه، ويمسك به دون أن يتركه ليس لأنه لا يريد تركه بل لأنه يعلم أنه سوف يُذبَح فوراً ما إن يُخلي سبيل المطروح أرضاً لأنّ المطروح أرضاً، الساخط، يحمل سكيناً في يده. وبالتالي، سواء كانت مرهفة الحسّ أم لا، لا يمكن لطبقاتنا الغنية التنعّم بالخيرات التي سرقتها من الفقراء، كما كان يفعل القدماء الذين كانوا مؤمنين بحقّهم في هذا. إذ إنّ حياتها بأكملها وممتلكاتها كلّها مُسمَّمة بوخزات الضمير وبالخوف. هذا التناقض الاقتصادي أكثر غرابةً من التناقض الدولتي.

يتربّى كلّ الناس على عادة الإذعان لقوانين الدولة، قبل أيّ شيء آخر. حياة بشر زماننا بأكملها محدَّدة بقوانين الدولة. الإنسان يتزوّج ويُطلّق ويربّي أبناءه وحتى يعتنق ديناً (في كثيرٍ من الدول)، طبقاً للقانون. فما هو هذا القانون الذي يُحدّد حياة البشر برمّتها؟ هل يؤمن البشر بهذا القانون حقاً؟ على الإطلاق. في معظم الحالات لا يؤمن بشر زماننا بعدالة هذا القانون، ويزدرونه، ورغم ذلك يذعنون له. كان أمراً جيداً للبشر القدماء تطبيق قوانينهم؛ فقد كانوا يؤمنون، يؤمنون تماماً، بأنّ قانونهم (إذ كانت معظمها دينية) هو القانون الوحيد الحقّ الذي على البشر جميعاً الخضوع له. لكن ماذا عنّا؟ فنحن نعلم، ولا يمكننا ألاّ نعلم، أنّ قانون دولتنا ليس القانون الأبدي الوحيد، وأنه قانون واحد فحسب من قوانين كثيرة لدولٍ مختلفة، ناقصة بصورةٍ متماثلة، غالباً باطلة وجائرة بشكل واضح، تتمّ مناقشتها من كافة جوانبها في الصحف. كان حسناً لليهودي الخضوع لشريعته عندما لم يكن لديه شكّ في أنّ الله هو الذي كتبها بيديه، أو للروماني عندما كان يعتقد أنّ الربّة[31] إيجيريا هي التي كتبتها، أو حتى عندما كانوا يعتقدون أنّ الملوك، الذين يسنّون القوانين، مصطفون من قِبل الآلهة؛ أو حتى أنّ المجالس التشريعية لديها الرغبة والقدرة على إيجاد أفضل القوانين. لكن نحن نعلم كيف تُسنُّ القوانين؛ فجميعنا كنّا خلف الكواليس، ونعلم أنّ القوانين ليست سوى نتاجٍ للجشع والكذب وصراع الأحزاب- نعلم أنْ ليس فيها، ولا يمكن أن يكون فيها، عدالة حقيقية. لذا لا يمكن لبشر زماننا أن يصدّقوا أنّ الخضوع للقوانين المدنية أو الدولتية يمكنه أن يلبّي المتطلبات العاقلة للطبيعة البشرية. يعلم البشر، منذ زمنٍ بعيد، أنّ ليس من الحصافة الخضوع للقانون الذي قد يكون هناك شكّ في حقّانيته، لذا لا يمكنهم إلاّ أن يتعذّبوا إذ يخضعون لقانونٍ لا يعترفون بحصافته وضرورته.

لا يمكن للإنسان إلاّ أن يعاني عندما تكون حياته محدَّدة مسبقاً بقوانين يجب عليه الإذعان لها تحت طائلة العقاب، والتي ليس فقط لا يؤمن بحصافتها وعدالتها بل وغالباً ما يدرك بوضوح جورها وقسوتها ولاطبيعيتها. ندرك عدم ضرورة الضرائب والرسوم الجمركية، ولكن يجب أن ندفعها؛ ندرك عدم جدوى الإنفاق على حراسة البلاط والكثير

31- "تيمفا" باليونانية القديمة، وتعني المصدر والمنبع، والـ"تيمفات" هنّ ربات الطبيعة والخصوبة.

من موظفي الحكومة، ندرك العقيدة الكنسية الضارّة وعلينا دعم هذه المؤسسات؛ ندرك قسوة ولاوجدانية العقوبات التي تُوقِعها المحاكم وعلينا المشاركة فيها؛ ندرك عدم عدالة وضرر توزيع مُلكية الأراضي الزراعية وعلينا الإذعان لذلك؛ لا نقرّ بضرورة الجيوش والحروب وعلينا حمل أعباء مهولة للإنفاق على الجيوش وخوض الحروب، وهلمّ جرّا.

لكن حتى هذا التناقض لا يُذكَر مقارنةً بالتناقض الماثل في الوقت الراهن أمام البشر في العلاقات الدولية، والذي، تحت طائلة موت الحصافة الإنسانية والحياة البشرية، يحتاج إلى حلّ. إنه التناقض بين الإدراك المسيحي والحرب.

نحن، الشعوب المسيحية كافّة، الذين نعيش حياةً روحانيةً واحدة، بحيث أنّ أية فكرة مثمرة، حين تنبثق في أحد أطراف الدنيا وتُبلَّغ مباشرةً للبشرية المسيحية برمّتها، تثير مشاعر الفرح والاعتزاز لدينا بغضّ النظر عن جنسيتها؛ نحن الذين لا نحبّ مفكّري ومُحسني وشعراء وعلماء الشعوب الأخرى وحسب؛ نحن الذين نفخر بمأثرة *داميان*[32] وكأنها مأثرتنا الشخصية؛ نحن الذين ببساطة نحبّ أناس الجنسيات الأخرى: الفرنسيين، الألمان، الأمريكيين، الإنكليز، الذين لا نحترم مزاياهم فحسب بل ونفرح حين نلتقيهم، ونبتسم لهم بسرور، لا يمكننا ليس فقط عدّ محاربة هؤلاء الناس مأثرةً بل وليس بمقدورنا التفكير، دون هلع، بأنه قد ينشأ بين هؤلاء الناس وبيننا خلاف لا يمكن حلّه إلاّ من خلال القتل المتبادل،- جميعنا مدعوون إلى المشاركة في المذبحة التي لا بدّ لها من أن تحدث، إن لم يكن اليوم فغداً.

كان حسناً لليهودي، أو اليوناني أو الروماني، ليس فقط الدفاع عن استقلال شعبه عن طريق القتل بل وإخضاع الشعوب الأخرى عن طريق القتل عندما كان يؤمن إيماناً راسخاً أنّ شعبه هو الشعب الوحيد الحقيقي والجيّد والخيّر والمحبوب من قِبل الله، وأنّ الشعوب الأخرى فيلستيون[33] وبرابرة. كان يمكن حتى لبشر القرون الوسطى تصديق ذلك، وكان يمكن لبشر أواخر القرن الماضي، مطلع القرن الحالي، تصديق ذلك. لكن

32- لعلّه الطبيب العربي المسيحي دميانوس الذي عُذِّب وضُربت عنقه بالسيف من قِبل الحاكم لوكيوس، في القرن الثالث الميلادي.

33- الفيلستيون هم قراصنة البحر الأبيض المتوسط، وكانوا يغزون شواطئه الشرقية، ومنهم أخذت فلسطين اسمها.

نحن، ومهما تحرّشوا بنا، لم يعد بمقدورنا تصديق ذلك، وهذا التناقض، بالنسبة لبشر زماننا، من الهول بحيث بات العيش دون حلّه مستحيلاً.

"إننا نعيش في عصرٍ مليء بالتناقضات،- يكتب في بحثه العلمي بروفيسور القانون الدولي الكونت كوماروفسكي- ففي مطبوعات كافة الدول يتمّ دائماً إبراز التطلّع العام إلى السلام، وإلى ضرورته للشعوب كافّة. بالمعنى ذاته يتحدّث ممثّلو الحكومات، سواء كأفراد أم كأعضاء رسميين، في الخطب البرلمانية والمباحثات الدبلوماسية، وحتى في الاتفاقيات المتبادلة. غير أنّ الحكومات، في الوقت ذاته، تضاعف، عاماً بعد عام، القوة الحربية للدول وتفرض ضرائب جديدة وتراكم الديون تاركةً للأجيال القادمة واجب تحمّل أخطاء السياسة الراهنة الحمقاء. يا للتناقض الصارخ بين الأقوال والأفعال!"

"طبعاً، تشير الحكومات، لتبرير هذه الإجراءات، إلى الطابع الدفاعي الحصري لكل هذه النفقات وهذا التسلّح لكن، رغم ذلك، يبقى غير مفهوم لكلّ شخص مهتم من أين يمكن توقّع الهجوم عندما تسعى كلّ الدول العظمى في سياساتها إلى الدفاع فقط. بالفعل، يبدو الأمر وكأنّ كلّ دولة عظمى تتوقّع هجوم الدول العظمى الأخرى عليها في أيّ لحظة، وتبعات ذلك هي: عدم الثقة الشامل، وسعي خارق من قِبل الحكومات للتفوق على قدرات الدول العظمى الأخرى. إنّ التنافس على هذا النحو يفاقم، من تلقاء ذاته، خطر الحرب، إذ ليس بمقدور الشعوب تحمّل التسلّح المتزايد لأمدٍ طويل، وعاجلاً أو آجلاً سوف تُفضّل الحرب على كلّ خسائر الوضع الراهن وعلى التهديد المستمرّ. وبالتالي، ستكون أدنى ذريعة كافية لإشعال نار حربٍ شاملة في أوروبا برمّتها. ليس من الصواب الاعتقاد بأنّ أزمة كهذه يمكنها إشفاؤنا من الكوارث السياسية والاقتصادية الضاغطة. فخبرة الحروب، التي خضناها في السنوات الأخيرة، تعلّمنا أنّ كلّ حرب فاقمت وحسب معاداة الشعوب لبعضها بعضاً، وزادت من عبء وعدم تحمّل ضغط العسكرة، وجعلت وضع أوروبا السياسي- الاقتصادي كارثياً ومبلبلاً أكثر".

"أوروبا المعاصرة تجنّد جيشاً نشطاً على أهبّة الاستعداد قوامه 9 ملايين شخص - يكتب إنريكو فيرّي- بالإضافة إلى جيش احتياط تعداد 15 مليوناً، منفقةً على ذلك أربعة مليارات فرنك سنوياً. ومن خلال تسلّحها أكثر فأكثر هي تشلّ مصادر الرخاء المجتمعي والفردي، ويمكن بسهولة تشبيهها بشخصٍ يحكم على نفسه بفقر الدمّ لكي يتزوّد بالسلاح

مُهدراً، بالإضافة إلى ذلك، قواه ذاتها لكي يستخدم تلك الأسلحة التي يحتاط منها، والتي يسقط تحت ثقلها في نهاية المطاف".

الشيء ذاته يقوله *تشارلز* بوت في الخطاب الذي ألقاه في لندن في جمعية *إصلاح وتشريع قانون الشعوب*، في 26 حزيران عام 1887. مشيراً إلى رقم التسعة ملايين ونيّف ذاته للجيش النظامي والسبعة عشر مليوناً لجيش الاحتياط، وإلى النفقات الهائلة التي تنفقها الحكومات لتموين هذه الجيوش، وعلى التسلّح، يقول: "هذه الأرقام تشكّل جزءاً ضئيلاً فقط من الثمن الفعلي لأنّ، عدا عن هذه النفقات المعلومة من الميزانية العسكرية للشعوب، علينا الأخذ بالحسبان كذلك خسائر المجتمع الهائلة نتيجة حرمانه من هذا العدد الهائل من الناس الأكثر قوةً الذين تفقدهم الصناعة وشتى الأعمال الأخرى، وكذلك المبالغ الضخمة التي تُنفق على التجهيزات الحربية التي لا نفع فيها على الإطلاق. العاقبة الحتمية لهذا الإنفاق على الحرب، وعلى الإعدادات للحرب، هي مديونية الدولة التي تزداد باستمرار. القسم الأكبر من ديون دول أوروبا كان بسبب الحرب، وقد بلغت محصلتها العامة 4 مليار جنيه إسترليني، أو 40 مليار روبل، وهذه الديون تزداد عاماً بعد عام".

كوماروفسكي ذاك نفسه يقول في موضعٍ آخر: "إننا نعيش في زمنٍ عصيب. في كل مكان تُسمع الشكاوى من ركود التجارة والصناعة، ومن الوضع الاقتصادي السيئ عموماً، ويُشار إلى الظروف القاسية لمعيشة الطبقات العاملة، وإلى الفقر الشامل للجماهير. لكن، رغم هذا، الحكومات، في نزوعها للحفاظ على استقلالها، تصل إلى أقصى حدود اللامعقول. في كلّ مكان يتمّ ابتداع ضرائب ورسوم جديدة، والاضطهاد المالي للشعوب لا يعرف حدوداً. إذا ما نظرنا إلى ميزانيات الدول الأوروبية خلال المائة سنة الأخيرة، فقبل أيّ شيء آخر سيذهلنا نموها المتصاعد والمتسارع بصورة دائمة. ما تفسير هذه الظاهرة غير العادية التي تهدّدنا جميعاً بالإفلاس الحتمي عاجلاً أو آجلاً؟

مما لا جدال فيه أنّ هذا يحدث بسبب النفقات التي تستدعيها إعاشة القوات التي تبتلع ثلث، بل حتى نصف، ميزانيات الدول الأوروبية كلّها. المحزن أكثر هو أنه لا تُرى نهاية لازدياد هذه الميزانية ولا لافتقار الجماهير. ما الاشتراكية إن لم تكن احتجاجاً على

هذا الوضع غير الطبيعي إلى أقصى حدّ، والذي يعيشه معظم سكان هذا الجزء من العالم".

"نحن نُفلس - فريدريك باسّي Fredric Passy في الكلمة التي ألقاها في مؤتمر السلام الشامل الأخير (عام 1890) في لندن،- نحن نخسر أموالنا لكي تتوفّر لنا إمكانية المشاركة في مذابح المستقبل المجنونة، أو لتسديد الديون التي تركتها لنا مذابح الماضي الإجرامية المجنونة. نحن نموت من الجوع لكي نكون قادرين على القتل".

ثم يتحدث عن وجهة نظر فرنسا حول هذا الموضوع فيقول: "نؤمن أنّ الوقت قد حان، بعد 100 سنة على اكتشاف حقوق الإنسان والمواطن، للاعتراف بحقوق الشعوب والتخلّي، مرة وإلى الأبد، عن كافة أعمال الكذب والعنف التي، باسم المنجزات، هي في حقيقتها جرائم حقيقية في حقّ الإنسانية، والتي، لكي لا يعترف بها الملوك المتغطرسون والشعوب المتكبّرة، يقلّلون من قوة الذين ينتصرون عليهم".

"التربية الدينية في بلدنا تثير دهشتي، - يقول "سير" ويلفريد لوسون Sir Wilfrid Lawson في ذلك المؤتمر ذاته- يذهب الولد إلى مدرسة الأحد، ويُعلِّمونه: أيها الولد الحبيب، يجب أن تحبّ الأعداء. إذا ضربك رفيقك فلا يجب أن تردّ عليه بالمثل بل عليك أن تحاول إصلاحه بالمحبة. حسناً. يذهب الولد إلى مدرسة الأحد حتى سنّ 14-15 سنة ثم يرسله الأصدقاء إلى الخدمة العسكرية، فماذا سوف يفعل في الخدمة العسكرية؟ ليس حبّ العدو بالطبع بل، على العكس، ما إن تصل يده إليه حتى يطعنه بالحربة. هذا هو مجمل التعليم الديني في هذا البلد. لا أعتقد أنّ هذه هي الوسيلة الأفضل لتطبيق أوامر الدين. أعتقد أن محبة العدو إذا كانت جيدة للولد، فهي جيدة للإنسان الراشد كذلك".

ثمّ يضيف: "في مصر هناك 28 مليون مسلّح لحسم الخلافات عبر قتل بعضهم بعضاً بدلاً من الحوار. هذه هي وسيلة حسم المسائل التي تستخدمها الشعوب المسيحية. ناهيكم عن أنّ هذه الوسيلة باهظة التكاليف لأنّ شعوب أوروبا - وفق حسابات اطّلعت عليها- أنفقت، منذ عام 1872، مبلغاً لا يُصدَّق بلغ 15 مليار روبل من أجل إعداد وحسم الخلافات عن طريق قتلها بعضها بعضاً. لذا يبدو لي، في ظلّ مجريات الأمور

هذه، وجوب القبول بإحدى حالتين: إما أنّ المسيحية قد أخفقت (is a failure) وإما أنّ الذين تتطّعوا لتفسيرها قد فسّروها بصورة غير موفّقة".

ويقول السيد ويلسون Mr. I. Sowet Wilson: "إلى أن يتم نزع سلاح مدرّعاتنا الحربية وتسريح جيوشنا، حتى ذلك الحين لا يحقّ لنا تسمية أنفسنا أمّة مسيحية".

في الحوار الناشئ بمناسبة مسألة الإلزامية الوصية المعارضة لمشاركة القساوسة المسيحيين في الحرب قال السيد ج. د. بارتليت، بهذا الصدد: "إذا كنتُ أفهم الكتب المقدّسة، ولو بمقدار ضئيل، فإنّي أؤكّد أنّ البشر يتلاعبون بالمسيحية إذا كانوا يتجاهلون مسألة الحرب، أي يسكتون عنها. غير إنّي قد عشت حياةً طويلة، وبالكاد سمعت من قساوستنا وصية السلام الشامل. قبل عشرين سنة، في غرفة استقبال أمام أربعين شخصاً، قلتُ إنّ الحرب لا تتوافق مع المسيحية؛ فنظروا إليّ كما لو إلى متعصبٍ مخبول. كانت فكرة إمكانية العيش دون حروب تُعدُّ ضعفاً وجنوناً لا يُغتفران".

بالمعنى ذاته تحدّث القسّ الكاثوليكي (رئيس دير ديفورنا): "أحد أول فروض القانون الأزلي المدوّن في ضمير كلّ البشر – يقول رئيس دير ديفورنا– هو تحريم سلب المرء حياة قريبه، سفك الدماء (دون سببٍ كافٍ إن لم ترغمه الضرورة على ذلك). إنه من الفروض المغروسة في قلب الإنسان أعمق من الفروض الأخرى كلّها... لكن ما إن يتعلق الأمر بالحرب، أي بسفك سيول من الدماء البشرية، حتى لا يعود بشر زماننا يعيرون بالاً للسبب الكافي. الذين يشاركون في الحروب، لا يعودون يسألون أنفسهم ما إن كان لديهم أيّ تبرير لهذه الجرائم المميتة التي لا تُحصى؛ ما إن كانت عادلة أم لا؛ ما إن كانت مشروعة أم لا؛ ما إن كانت مبرَّرة أم إجرامية؛ ما إن كانوا يخرقون أم لا القانون الرئيسي الذي يُحرِّم القتل (دون سببٍ مشروع). ضمائرهم تصمت... لقد كفّت الحرب عن أن تكون قضية متوقّفة على الأخلاق. بالنسبة للمقاتلين، في الجهود والمخاطر التي يتكبّدونها، ما من سعادة أكبر من النصر، وما من مرارة أشدّ من الهزيمة. لا تقولوا لي إنهم يخدمون الوطن؛ فمنذ زمنٍ بعيد ردّ عليكم عبقريّ عظيم بكلمات صارت قولاً مأثوراً: "دعوا العدالة جانباً؛ ما الدولة إن لم تكن عصبة كبيرة من المجرمين؟ أليست عصبة المجرمين دويلة صغيرة يا تُرى؟ فلعصبة المجرمين كذلك قوانينها. وحتى هناك يقاتلون من أجل الغنائم، بل وفي سبيل الشرف..."

"إنّ غاية هذه الهيئة (الحديث يتعلق بالمحكمة الدولية) هي أن تكفّ الشعوب الأوربية عن أن تكون شعوب لصوصٍ وجيوش -عصابات قطّاع طرق، ويجب إضافة- قطاع طرق ولصوص. أجل، جيوشنا حشود عبيدٍ يخضعون لحاكمٍ أو وزيرٍ واحد أو اثنين يتحكّمان بهم دون أدنى شعور بالمسؤولية كما نعلم جميعاً..."

"يتميّز العبد بأنه شيء، بأنه أداة بيد سيّده، وليس إنساناً. وهكذا هم الجنود والضباط والجنرالات الذين يذهبون إلى الموت والقتل وفق مشيئة الحاكم أو الحكّام. العبودية الحربية موجودة، وهي أسوأ العبوديات، خاصةً في الوقت الراهن، حيث عن طريق الخدمة الإلزامية تضع النير في رقاب الأحرار والأقوياء من بشر الأمم لكي تجعل منهم أدوات للقتل، جلاّدين، لحّامي اللحم البشري، إذ فقط من أجل ذلك يتمّ تجنيدهم وتدريبهم..."

"الحكّام، اثنان أو ثلاثة، يجلسون في مكاتبهم ويتآمرون سرّاً، دون بروتوكولات، دون شفافية، وبالتالي دون مسؤولية، ويرسلون الناس إلى المذبحة".

"الاحتجاجات على التسلح، الثقيل العبء على الشعب، لم تبدأ في زماننا - يقول سينوري ي. غ. مونيتا- استمعوا إلى ما كتبه مونتيسكيو في زمانه: "فرنسا (بالإمكان استبدالها بـ"أوروبا" في الوقت الراهن) سوف تهلك بسبب المحاربين. لقد انتشر مرض جديد في أوروبا. وقد وصل هذا المرض إلى الملوك، ويحيجهم إلى امتلاك عدد غير محتمل من القوات. هذا المرض معدٍ بالتأكيد، مُعدٍ لأنه ما إن تزيد إحدى الدول عديد قواتها حتى تفعل للدول الأخرى كلّها الشيء ذاته. وبالتالي لن ينتج شيء عن هذا سوى الهلاك الشامل".

"كل الحكومات تقتني من القوات ما يمكنها أن تقتني إذا ما تعرّضت شعوبها لخطر الإبادة، والبشر يسمّون حالة توتّر الكلّ ضدّ الكلّ سلاماً. ولهذا أوروبا مفلسة إلى درجة أنّ الأفراد لو كان وضعهم مثل وضع الحكومات لما وجد أكثر الناس ثراءً ما يعتاشون عليه. نحن فقراء رغم امتلاكنا ثروةَ وتجارة العالم برمّته".

"لقد كُتب هذا قبل 150 سنة تقريباً. الصورة تبدو ذاتها في الوقت الراهن. لقد تغيّر شيء واحد فقط- شكل الحكم. في زمن مونتسكيو كانوا يقولون إنّ سبب اقتناء جيوش

كبيرة يكمن في السلطة اللامحدودة للملوك الذين يتقاتلون على أمل زيادة مُلكياتهم الخاصة، والحصول على المجد عن طريق الانتصارات".

آنذاك كانوا يقولون: "آخ، لو أنّ الشعوب كانت قادرة على انتخاب الذين يحقّ لهم أن يحرموا الحكومات من الجنود والأموال لكانت حلّت نهاية السياسة الحربية". في الوقت الراهن، في أوروبا كلها تقريباً هناك حكومات منتخبة، ورغم ذلك تزداد النفقات الحربية، والتحضيرات للحرب، بنسب مخيفة".

"جليٌّ أنّ جنون المتسلّطين قد انتقل إلى الطبقات الحاكمة. في الوقت الراهن، لم يعودوا يقتتلون لأنّ أحد الملوك قد قلّل الأدب مع عشيقة ملك آخر، كما حدث في زمن لويس الرابع عشر، وإنما، عبر تصعيد مشاعر الجدارة القومية والوطنية المبجّلة والطبيعية، وتحريض الرأي العام لأحد الشعوب ضد آخر، يصلون، في نهاية المطاف، إلى أن يغدو كافياً لأن يُقال – رغم أنّ الأنباء لم تكن صحيحة– "إنّ مبعوث دولتكم لم يستقبله رئيس دولة أخرى" حتى تندلع حربٌ أشدّ هولاً ودماراً من كلّ الحروب التي حدثت يوماً. في الوقت الراهن تمتلك أوروبا جنوداً أكثر من أزمنة الحروب النابليونية العظيمة. جميع المواطنين في قارّتنا، باستثناء قلّة قليلة، مجبرين على قضاء بضع سنوات في الثّكنات. تُبنى القلاع والترسانات والسفن، تُنتَج الأسلحة دون توقّف، وسرعان ما تُستبدل بغيرها لأنّ العلم، الذي كان يجب أن يوجَّه لخير الإنسانية، يساعد، للأسف، على التدمير، ويبتكر وسائل أحدث فأحدث لقتل عدد كبير من الناس في أقصر مدة زمنية".

"ومن أجل امتلاك هذا العدد من الجنود، وللقيام بهذه التحضيرات الضخمة للقتل، يتمّ إنفاق الملايين كلّ عام، أي مبالغ كافية لتربية الشعب وإنجاز أضخم الأعمال لأجل المنفعة الاجتماعية، والتي يمكن لها تقديم الإمكانية لحلّ القضايا الخلافية بودّ".

"لهذا السبب تعيش أوروبا هذا الوضع، رغم انتصاراتنا العلمية كلّها، في ذات الوضع الذي عاشته في أسوأ أزمنة القرون الوسطى الوحشية. الجميع يشتكون من أنّ الوضع الذي ليس حرباً وليس سلماً كذلك، والجميع يتمنّون الخروج منه. رؤساء الحكومات يؤكّدون أنهم جميعاً يريدون السلام، وتجري بينهم منافسة حول مَنْ منهم سيُصدر البيان الأفضل والأكثر سلميةً. لكن في ذات اليوم، أو الذي يليه، يقدّمون اقتراحاً

إلى المجلس التشريعي حول زيادة التسلّح، ويقولون إنهم يتّخذون احتياطات كهذه من أجل ضمان السلام بالتحديد".

لكنّ هذا السلام ليس السلام الذي نحبّ. والشعوب لا يخدعها ذلك. السلام الحقيقي يقوم على الثقة المتبادلة في حين أنّ التسلّح الهائل يُظهر عدم ثقة جلياً ولامتناهياً، إن لم يكن يُظهر عداوة خفية بين الدول. ماذا يمكننا أن نقول عن شخصٍ، إذ يرغب في إظهار مشاعر الصداقة تجاه جاره يدعوه إلى بحث المسائل الماثلة أمامهما وبيده مسدس محشو؟"

"هذا التناقض الصارخ بين إعلانات محبّة السلام وبين السياسات العسكرية للحكومات هو ما يرغب كلّ المواطنين الصالحين في التخلّص منه بأيّ وسيلة كانت".

يُدهشهم أنّ في أوروبا ينتحر 60 ألف شخص كلّ عام، وهي الانتحارات المعروفة فقط، المسجّلة فقط، دون الأخذ بالحسبان روسيا وتركيا؛ لكن ينبغي عدم الاندهاش من أنّ الانتحارات المرتكبة كثيرة إلى هذا الحدّ، بل يجب الاندهاش من أنها بهذه القلّة. أيّ شخص في زماننا، إذا ما تعمّقنا في التناقض بين وعيه وحياته، يعيش أشدّ حالات اليأس. وبغض النظر عن كافة التناقضات الأخرى بين الحياة والوعي، والتي حياة إنسان زماننا مليئة بها، يكفي هذا التناقض الأخير، بين حالة الحرب، التي تعيشها أوروبا، وبين عقيدته المسيحية لكي يصل الإنسان إلى اليأس، ولكي يرتاب في عقلانية الطبيعة البشرية، وليكفّ عن العيش في هذا العالم المجنون والوحشي. هذا التناقض - الحربي، الذي هو زبدة كلّ التناقضات الأخرى- من الهول بحيث يمكنك العيش، مشاركاً فيه، فقط إذا توقّفت عن التفكير فيه، فقط إذا كنت قادراً على تناسيه.

نحن المسيحيون جميعاً لسنا فقط ندَين بالمحبة تجاه بعضنا بعضاً، بل نعيش بالفعل حياةً مشتركة واحدة، لحياتنا نبضٌ مشترك، ونحن نساعد بعضنا بعضاً، ونتعلّم من بعضنا بعضاً، ونقترب بمحبة معاً أكثر فأكثر إلى الفرح المتبادل. في هذا التقارب يكمن مغزى الحياة برمّته، وغداً رئيس حكومة غافل ما سيقول حماقةً ما، وسيردّ عليه آخر بمثلها، وأنا سأذهب، مُعرِّضاً نفسي للقتل، أو لأقتل أناساً ليس فقط لم يفعلوا بي شيئاً، بل وأحبّهم. وهذا الوضع ليس بعيداً بل هو الوضع الذي نتجهّز له جميعاً، وهذا الحدث ليس محتملاً فحسب بل حتميٌّ كذلك.

يكفي أن يعي المرء هذا بوضوح حتى يفقد عقله أو يطلق النار على نفسه. وهو ما يحدث، خاصةً في صفوف العسكر. يكفي وحسب أن يثوب المرء إلى رشده للحظة واحدة حتى يصل إلى حتمية خاتمةٍ كهذه. فقط هذا يفسِّر التوتر المخيف الذي بموجبه ينزع بشر زماننا إلى تخدير أنفسهم بالنبيذ والتبغ والأفيون ولعب الورق وقراءة الصحف والسفر والعروض المسرحية والتسليات. هذه الأشياء كلها تنتَج كأمورٍ جادّة وهامّة. وهي أشياء هامّة حقاً. فلولا كلّ وسائل التعتيم على البصيرة هذه لأطلق نصف البشر النار على أنفسهم فوراً لأنّ العيش على النقيض من العقلانية لهو وضع غير قابل للتحمّل. وهذا هو الوضع الذي يعيشه بشر زماننا كلّهم. كلّ بشر زماننا يعيشون تناقضاً صارخاً مستمرّاً بين الوعي والحياة. هذه التناقضات تتجلّى في العلاقات الاقتصادية والدولية، لكنها تتجلّى بحدّة أكثر في وعي أناس شريعةِ أخوة البشر المسيحية، في حتمية أن يكون كلٌّ منهم مستعداً للعدوان، للقتل، أن يكون كلٌّ منهم مسيحياً ومجالداً في الآن ذاته، – الحتمية التي يفرضها التجنيد الإجباري على كلّ البشر.

VI

إنّ حلّ التناقض بين الوعي والحياة ممكن بطريقتين: إما تغيير الحياة وإما تغيير الوعي. والمفروض أن لا يكون هناك شكّ في أيهما يجب أن يقع عليه الاختيار. فالإنسان قادر على الكفّ عن القيام بما يعتبره سيئاً لكنه ليس قادراً على الكفّ عن اعتبار ما هو سيئ سيئاً.

كذلك تماماً البشرية برمّتها. يمكنها الكفّ عن القيام بما تعتبره سيئاً لكنها لا تستطيع ليس تغيير فحسب بل وكبح، ولو مؤقتاً، إدراك ما هو سيئ، وبالتالي يجب ألاّ يكون موجوداً، وهذا الوعي يزداد وضوحاً وانتشاراً أكثر فأكثر. المفروض أنّ الاختيار بين تغيير الحياة وتغيير الوعي يجب أن يكون واضحاً ولا شكّ فيه. بالتالي، المفروض أنْ لا مناص أمام الإنسانية المسيحية في زماننا من نبذ أنماط الحياة الوثنية المُدانة من قِبلها، وبناء حياتها على الأسس المسيحية التي تقرّ بها.

ولكان هذا قد حدث لولا قانون قوة العطالة، الثابت في حياة البشر والشعوب بقدر ثباته في الأجسام غير الحية، والذي يتجلّى بالنسبة للبشر في قانون علم النفس، كما يتجلّى بهذا الوضوح في الإنجيل من خلال الكلمات التالية: "وأحبّ الناس الظلّمة أكثر من النّور لأنّ أعمالهم كانت شريرة." (يوحنا: 3، 19). فحوى هذا القانون هو أنّ معظم البشر لا يتفكّرون لكي يعرفوا الحقّ وإنما لكي يقنعوا أنفسهم أنّهم على حقّ، وأنّ الحياة التي يعيشونها، والتي تلذّ لهم واعتادوا عليها، هي الحياة التي تتطابق والحقّ.

كانت العبودية تناقض كلّ المبادئ الأخلاقية التي كان يدعو إليها أفلاطون وأرسطو غير أنّ لا هذا ولا ذاك رأيا ذلك لأنّ إلغاء العبودية كان سيهدم مجمل الحياة التي كانا يعيشانها. والأمر ذاته يحدث في عالمنا.

وإنّ انقسام البشر إلى طبقتين، مثله مثل عنف الدولة والعنف الحربي، يناقض كلّ المبادئ الأخلاقية التي يعيش عالمنا بموجبها، ورغم ذلك، الناس المتعلّمون، القدوة، في زماننا كأنهم لا يرون ذلك.

معظم، إن لم يكن كلّ، الناس المتعلّمين في زماننا يحرصون، لاشعورياً، على المحافظة على فهم الحياة المجتمعي السابق، الذي يبرّر أوضاعهم، وعلى إخفاء تهافته

عن أنفسهم وعن الناس، والأهم منع استيعاء الفهم الحياتي المسيحي الذي يهدم مجمل بنيان الحياة الراهنة. إنهم يطمحون إلى الحفاظ على النُظم القائمة على الفهم الحياتي المجتمعي، لكنهم لا يؤمنون به لأنّه بات بالياً ولم يعد بالإمكان الإيمان به.

الأدبيات كلّها –الفلسفية والسياسية والآداب الرفيعة– في زماننا تثير الاستغراب في هذا الخصوص. يا لغنى الأفكار والأشكال والألوان، يا لسعة العلم والفصاحة ووفرة الأفكار، وبالمقابل ليس فقط يا لانعدام المضمون الجادّ بل ويا للخوف أمام أيّ دقّة للأفكار وتعبيراتها، يا للمواربات والاستعارات والنّكات والمفاهيم الشاملة العامّة، لكن ما من شيء بسيط وواضح يتعلّق بالأمر، أي بسؤال الحياة.

ناهيكم عن الأمور العبثية الطريفة التي تُكتب وتُقال. تُكتب وتُقال أيضاً، بصورة مباشرة، أشياء شنيعة وهمجية. تُكتب وتُقال، بأدقّ الطرق، أفكارٌ تعيد البشر إلى الوحشية البدائية، والتي لا تُعيد البشر إلى الحياة الوثنية وإنما إلى الحياة البهيمية التي كنّا نعيشها قبل 5000 سنة.

ولا يمكن أن يكون الأمر على نحوٍ آخر. فالبشر، إذ ينكرون الفهم الحياتي المسيحي الذي يهدم النظام المعتاد، لا يمكنهم إلاّ أن يتقهقروا إلى الفهم الحياتي الوثني، وإلى التعاليم المبنية عليه. في زماننا لا يُبشَّر بالوطنية فقط بل وبالأرستقراطية، كما كان يُبشّر بها قبل 2000 سنة، لكن بأبيقوريةٍ وبهيميةٍ بمنتهى الفظاظة، مع فارق واحد فقط هو أنّ الذين كانوا يبشّرون بها كانوا يؤمنون بما يبشّرون به، أما الآن فالدعاة أنفسهم لا يؤمنون بما يقولونه، ولا يمكنهم الإيمان به لأنّ ما يبشّرون به لم يعد له معنى. لا يجوز البقاء في الخلف. ومن الغريب والمخيف القول إنّ الناس المتعلّمين في زماننا، الروّاد من حيث محاكماتهم العقلية الدقيقة، في الحقيقة يجرّون المجتمع إلى الوراء، ليس إلى الحالة الوثنية وإنما إلى الحالة الوحشية البدائية.

لا يُرى هذا التوجّه لنشاط الناس الروّاد في زماننا كما يُرى في تعاملهم مع الظاهرة التي تعكس، بشكل مركّز، كلّ تهافت فهم الحياة المجتمعي،– تجاه الحرب، تجاه التسلّح الشامل والخدمة العسكرية الإلزامية العامة.

إنّ عدم دقّة، إن لم يكن سوء نيّة، تعامل المثقفين في زماننا مع هذه الظاهرة تثير الذهول. التعامل معها في مجتمعنا المتعلّم يتمّ بثلاث طرق: بعضهم ينظر إلى هذه

الظاهرة كشيءٍ عرضيٍّ نشأ من جرّاء وضع سياسيٍّ خاصّ لأوروبا، ويعتبرها قابلة للتصحيح دون تغيير مجمل البنيان الداخلي لحياة الشعوب، من خلال إجراءات دبلوماسية دولية خارجية. وآخرون ينظرون إلى هذه الظاهرة كشيءٍ مرعب، عنيف، لكنه محتوم ومستعصٍ مثل المرض أو الموت. فريقٌ ثالث، بهدوء وبدم بارد، يعتبر الحرب ظاهرة ضرورية وخيّرة وبالتالي مرغوبة.

ينظر البشر إلى الموضوع بأشكال مختلفة، لكنّ هؤلاء وأولئك والفريق الثالث يُجادلون في الحرب كما لو أنّه حدثٌ مستقلّ تماماً عن إرادة البشر الذين يخوضونها، لذا فهم لا يسمحون حتى بطرح السؤال البديهي الذي يخطر لأيّ إنسان بسيط: "هل أنا بحاجة إلى المشاركة فيها؟" في رأي كلّ هؤلاء الناس لا وجود حتى لسؤالٍ من هذا القبيل، وأيّ شخص، كيفما نظر إلى الحرب، يجب عليه شخصياً، فيما يتعلق بهذا الأمر، أن يخضع بعبودية لأوامر السلطة.

تعامُل الأولين، الذين يرون الخلاص من الحروب في الإجراءات الدبلوماسية الدولية، يتجلّى، بصورة رائعة، في نتائج مؤتمر السلام الأخير في لندن، وفي مقالات ورسائل كتّاب بارزين حول الحرب.

نتائج المؤتمر هي التالية: بعد تجميع آراء العلماء، شخصياً أو كتابياً، من شتّى أنحاء العالم، المؤتمر، مبتدئاً بالصلاة في الكاتدرائية ومختتماً بالغداء على أعواد الثقاب، على امتداد خمسة أيام استمع إلى الخطابات وتوصّل إلى القرارات التالية:

1- أعرب المؤتمر عن رأيه بأنّ النتيجة المباشرة لأخوّة البشر يجب أن تكون حتماً تآخي الشعوب التي تعترف بمصالح كلّ شعبٍ على حدة بصورة متماثلة.

2- أقرّ المؤتمر أنّ المسيحية عامل من عوامل التقدّم الأخلاقي والسياسي للبشرية، لذا ذكّر وعّاظ الأناجيل والشخصيات الأخرى التي تمارس التربية الدينية بضرورة نشر مبادئ السلام والمحبة بين البشر. **ولأجل هذه الغاية حدّد المؤتمر الأحد الثالث من كلّ كانون أول**، في هذا اليوم يجب المناداة، بشكل خاص، بمبادئ السلام.

3- أعرب المؤتمر عن رجائه بأن يقوم كلّ معلّمي التاريخ بلفت أنظار الشبيبة إلى الشرّ المرعب الذي سبّبته الحرب دائماً للإنسانية، وإلى حقيقة أنّ الحروب، في معظم الحالات، اندلعت لأسبابٍ تافهةٍ جداً.

4- أدان المؤتمر التدريب العسكري في المدارس، على شكل تمارين رياضية بدنية، واقترح استبدال السرايا العسكرية، القائمة في الوقت الراهن، بسرايا خلاص. ثمّ أعرب المؤتمر عن تمنّيه على لجان الامتحانات، التي وظيفتها وضع الأسئلة للتلاميذ، ضرورة توجيه عقول التلاميذ نحو مبادئ السلام.

5- أعرب المؤتمر عن قناعته بأنّ عقيدة حقوق الإنسان تتطلّب حماية استقلال وحرية الشعوب البدائية والضعيفة من الظلم والعدوان، وحماية هذه الشعوب من الرذائل المنتشرة بكثرة بين الشعوب المسمّاة بالمتحضّرة. حسب رأي المؤتمر، من أجل هذه الغاية يجب على الشعوب العمل معاً. كما أعرب المؤتمر عن تعاطفه القلبي مع اختتام أعمال مؤتمر مناهضة العبودية، المنعقد منذ فترة قريبة في بروكسل، والذي أخذ على عاتقه تحسين معيشة البدائيين الأفارقة.

6- أعرب المؤتمر عن قناعته بأنّ -حيث أنّ الخرافات والمنقولات الحربية ما زالت متجذّرة بعمق لدى بعض الشعوب، وحيث أنّ كافة الخطابات الحربية، التي تُلقى في المجالس التشريعية من قِبل بعض قُوّاد الرأي العام، والتي تمتلئ بها وسائل الإعلام، والتي غالباً ما تكون أسباباً غير مباشرة للحروب- المرجو هو نشر شهادات دقيقة عن العلاقات بين الشعوب. ولهذه الغاية اقترح المؤتمر تأسيس جريدة دولية تكون قادرة على تلبية المطلب المعروض أعلاه.

7- اقترح المؤتمر على الهيئة أن تنصح أعضاءها بالدفاع، في كلّ الحالات الممكنة، عن مشاريع توحيد المكاييل والمقاييس والنقد وتعريفة البريد والبرق ...إلخ، الأمر الذي يساعد على توحيد الشعوب، بصورة فعلية، في المناحي التجارية والصناعية والعلمية.

8- نظراً للتأثير الأخلاقي والاجتماعي اللامحدود للنساء، يطلب إليهنّ المؤتمر إبداء دعمهنّ لكلّ ما يساعد على السلام وإلاّ فستقع عليهنّ، إلى حدٍّ كبير، مسؤولية تبعات استمرار الوضع الحربي الراهن.

9- أعرب المؤتمر عن أمله في أن تجتمع جمعيات الإصلاحات المالية وما شاكلها من جمعيات في أوروبا وأميريكا لمناقشة إجراءات إقامة علاقات تجارية عادلة بين الدول من خلال إلغاء الرسوم الجمركية. كما أعرب عن أنّ كلّ الشعوب المتحضّرة

تتمنّى السلام وترجو، بفارغ الصبر، توقّف التسلّح العام. هذا التسلّح، الذي يتمّ لغايات دفاعية كما يُقال، يُنتج الشرور بدوره لأنه يعزّز عدم الثقة، وهو، في الوقت ذاته، سبب الخلل الاقتصادي الشامل الذي يعيق التصدّي، في ظلّ الظروف الملائمة، لقضايا العمل والفقر التي كانت يجب أن تحتلّ المرتبة الأولى من حيث الأولوية.

10- أقرّ المؤتمر أنّ نزع السلاح الشامل هو أفضل ضمانة للسلام والخطوة الأولى للارتياح العام، ولحلّ المسائل التي تُقسّم الدول في الوقت الراهن، وأعرب عن أمله بانعقاد مؤتمر، في القريب العاجل، لكلّ ممثّلي الدول الأوربية لمناقشة الإجراءات القادرة على الوصول إلى نزعٍ شاملٍ للسلاح بصورة تدريجية.

11- بالأخذ بالحسبان أنّ تراخي أي دولة قد يمنع عقد المؤتمر المذكور أعلاه، رأى المؤتمر أنّ الدولة التي تُقرّر أولاً تسريح قسمٍ كبير من جيشها سوف تقدّم خدمة بالغة الأهمية لأوروبا وللإنسانية، حيث أنها، بعملها هذا، سترغم الدول الأخرى - تحت ضغط الرأي العام- على أن تحذو حذوها. وبتصرّفها هذا هي، دون شك، لا تضعف بل تُعزّز الشروط الطبيعية لحماية بلادها.

12- نظراً إلى أنّ مسألة نزع السلاح، مثلها مثل قضية السلام عموماً، تتوقّف بدرجة كبيرة على الرأي العام، طالب المؤتمر جمعيات السلام، وكذلك كلّ أنصار السلام، بالعمل على الدعاية لها، خاصةً أثناء الانتخابات البرلمانية من أجل إقناع الناخبين بمنح أصواتهم للمرشّحين الذين يدخل ضمن برنامج عملهم إقامة السلام ونزع السلاح وتأسيس المجلس التحكيمي.

13- هنّأ المؤتمر أصدقاء السلام بالقرار الذي اتّخذه المؤتمر الدولي في أميريكا (واشنطن، نيسان) والذي اعتبر أنّ المجلس التحكيمي الإلزامي أمرٌ مرغوبٌ فيه في كلّ النزاعات والخلافات أيّاً كان منشؤها، فيما عدا نقاط الخلاف التي قد تهدّد استقلال إحدى الدول المعنية.

14- يلفت المؤتمر انتباه جميع رجالات الدولة الأوربيين والأمريكيين إلى هذا القرار، ويأمل أن يتمّ، في القريب العاجل، توقيع اتفاقيات من هذا القبيل من قِبل بقية الأمم لتجنّب كافة النزاعات في المستقبل، وفي الوقت ذاته لكي تقتدي بها الدول الأخرى.

15- أعرب المؤتمر عن ارتياحه لمناسبة موافقة مجلس الشيوخ الإسباني (16 حزيران) على مشروع القانون الذي يسمح للحكومة بالمطالبة بإقرار الاتفاقيات الموضوعة بمساعدة المجلس التحكيمي لحلّ كلّ المسائل الخلافية باستثناء التي تمسّ باستقلال الدول أو بإداراتها الداخلية.

أعرب المؤتمر كذلك عن ارتياحه بمناسبة اتّخاذ قرار ذي مضمون مماثل من قِبل البرلمان النرويجي والبرلمان الإيطالي خلال الشهر الحالي.

16- قرّر المؤتمر التوجّه رسمياً إلى الجمعيات السياسية والدينية والتجارية الرئيسة، وإلى نقابات العمال، برجاء أن تطلب هذه الجمعيات إلى حكوماتها اتّخاذ الإجراءات الضرورية لإنشاء لجنة خاصة تدخل في مهامها حلّ الخلافات الدولية من أجل تجنّب الحروب.

17- نظراً لأنّ: 1) الغاية التي تسعى إليها كلّ جمعيات السلام هي إقامة نظام حقوقي بين الشعوب، ولأنّ 2) نزع السلاح عن طريق الاتفاقيات الدولية يعدّ خطوة نحو هذا النظام الحقوقي، ونحو تقليل عدد البلدان التي الحرب فيها محتملة، - اقترح المؤتمر توسيع نطاق نزع السلاح، وأعرب عن أمله في بقاء كلّ اتفاقيات نزع السلاح، القائمة في الوقت الراهن، وأن يتمّ، في حال الحاجة إلى ذلك، إتمامها في المستقبل بحيث يشتمل الحياد كافة الدول، أو للتخلّص من الترسانات التي تشكّل خطراً على شتى أشكال الحياد، أكثر منه على الأمن. وأن يتم عقد اتفاقيات جديدة (تبعاً لرغبة الشعوب) من أجل تحييد بقية الدول.

18- اقترحت هيئة المؤتمر: 1) أن يتم تحديد أوقات عقد مؤتمرات السلام اللاحقة إما قبل انعقاد المؤتمر الدولي السنوي مباشرةً، أو بعده انعقاده مباشرةً، وفي ذات المدينة؛ 2) أن تؤجّل مسألة الشعار العالمي للسلام إلى أجلٍ غير مسمّى.

وأن تُتَّخَذ القرارات التالية:

1) الإعراب عن الارتياح بمناسبة الاقتراح الرسمي من طرف الكنيسة المشيخانية في الولايات المتحدة على رؤساء الطوائف الدينية المسيحية بأن تجتمع لإجراء نقاش مشترك حول الإجراءات التي يمكن لها أن تؤدّي إلى استبدال المجلس التحكيمي بالحروب.

2) الإعراب باسم المؤتمر عن الإجلال العميق لذكرى أفريل سافّي، المحامي الإيطالي الكبير، عضو اللجنة الدولية للسّلم والحرية.

3) أن تُسلَّم تقارير هذا المؤتمر، التي وقّع عليها الرئيس، قدر الإمكان، لرؤساء الدول المتحضّرة من قِبل وفودٍ ذات نفوذ.

4) أن تكون الهيئة التنظيمية مخوّلة بإجراء التصحيحات اللازمة للوثائق والقرارات المتّخذة هنا.

5) اتّخاذ القرارات التالية: أ) التعبير عن الامتنان لرؤساء كلّ جلسات المؤتمر؛ ب) التعبير عن الامتنان لرئيس وسكرتيريي وأعضاء الهيئة الإدارية للمؤتمر؛ ج) التعبير عن الامتنان لأعضاء مختلف أقسام المجلس؛ د) التعبير عن الشكر للمشرّع سكوت هولاّند، والدكتور ريفين توماس ومورغان هيبّون على الكلمات التي ألقوها قبل افتتاح المؤتمر، والرجاء نسخ هذه الكلمات لطباعتها ونشرها، وكذلك لرئيس كاتدرائية القديس بولس، سيتي تيمبل، ورئيس كنيسة الشكر ستامفورد غيل، للسماح باستخدام هذه المباني من أجل غاياتٍ مجتمعية؛ هـ) توجيه رسالة شكر لسموّ الملكة على سماحها بزيارة قلعة ويندزور؛ و) وكذلك التعبير عن الامتنان للورد- العمدة السيد باسمور إدواردز وزوجته والأصدقاء الآخرين الذين أظهروا كرم الضيافة لأعضاء المؤتمر.

19- أعرب المؤتمر عن شكره للعليّ القدير على الوئام الرائع الذي ساد جلسات المؤتمر، التي شارك فيها عدد كبير من الرجال والنساء من مختلف القوميات والأديان من أجل العمل المشترك المتكاتف، وعلى انتهاء أعمال المؤتمر بنجاح.

كما أعرب المؤتمر عن إيمانه الراسخ واللامتزعزع بالانتصار النهائي للسلام وللمبادئ التي تمّ إقرارها في هذه الجلسات.

الفكرة الأساسية للمؤتمر هي أنّه لا بدّ، أولاً، من نشر، بكافة السبل وبين جميع الناس، قناعة مفادها أنّ الحرب ليست مفيدة للبشر على الإطلاق وأنّ السلام خيرٌ كبير، ثانياً، التأثير على الحكومات، من خلال إقناعها بأفضلية المحكمة الدولية على الحروب، ولهذا فإنّ نزع السلاح مفيد وضروري. من أجل تحقيق الهدف الأول يتوجّه المؤتمر إلى مدرّسي التاريخ، وإلى النساء ورجال الدين برجاء تعليم الناس، كل ثالث أحد من

شهر كانون الأول، شرور الحرب وخيرات السلام؛ ولتحقيق الهدف الثاني يتوجّه المؤتمر إلى الحكومات مقترحاً عليها نزع السلاح واستبدال التحكيم بالحروب.

تعليم الناس شرّ الحرب وخير السلام! لكنّ الناس يعلمون أنّ الحرب شرّ وأنّ السلام خير إلى درجة أن أفضل تحية يتبادلها الناس، منذ أن عرفناهم، هي "السلام عليكم"، فما الذي يمكن تعليمهم إياه؟ ليس المسيحيين فقط بل والوثنيون كلهم يعلمون، منذ آلاف السنين، أنّ الحرب شرّ والسلام خير. بالتالي لن يقوم وعّاظ الأناجيل بتعليم شرّ الحرب وخير السلام في كلّ ثالث أحد من كانون الأول، إنما هو عبثٌ تماماً.

لا يمكن للمسيحي إلاّ أن يبشّر بهذا دائماً، وفي كلّ أيام حياته. أما إذا كان المسيحيون ودعاة المسيحية لا يقومون بذلك فلا بدّ أن تكون هناك أسباب لذلك. وما دامت هذه الأسباب قائمة فلن يكون هناك تأثير لأية نصائح. وتقديم النصائح للحكومات، بأن تقوم بتسريح الجيوش واستبدالها بالمحكمة الدولية، سيكون لها تأثير أقلّ. الحكومات أيضاً تعلم جيداً مدى صعوبة ووطأة جمع القوات والإنفاق عليها، ورغم أنها تبذل جهوداً مخيفة لتجنيد القوات والإنفاق عليها، فجليٌّ أنّها لا تستطيع أن تتصرّف بطريقة مختلفة، وتوصيات المؤتمر لا يمكنها تغيير ذلك. لكنّ العلماء لا يريدون إطلاقاً رؤية هذا، ويأملون إيجاد تدابير تقوم بموجبها الحكومات، التي تصنع الحروب، بتقييد أنفسها بأنفسها.

"هل بالإمكان تجنّب الحرب؟ - يكتب أحد العلماء. - الجميع متّفقون على أنّ الحرب إذا ما اندلعت في أوروبا فستكون عواقبها مشابهة لاجتياح البرابرة العظيم. في حال نشوب حرب في المستقبل فستكون القضية قضية وجود أقوام برمّتها، لذا سوف تكون دموية، يائسة، ضروس".

"هذا الإدراك، بالإضافة إلى وسائل التدمير المرعبة التي بحوزة العلم الحديث، هو ما يؤخّر لحظة إعلان الحرب، ويُحافظ على مجرى الأمور الحالي المؤقّت، والتي كان بإمكانها الاستمرار إلى أجلٍ غير مسمّى لولا النفقات المرعبة التي تُنهك الشعوب الأوروبية، وتُهدّد بإيصال الشعوب إلى كوارثَ ليست أقل من التي تنتج عن الحروب".

"أناسٌ من مختلف البلدان، مذهولين من هذه الفكرة، يبحثون عن سبلٍ لإيقاف الحروب التي تتهدّدهم أو، على الأقل، التخفيف من عواقبها المخيفة".

"هذه هي المسائل المقرَّر طرحها في المؤتمر المزمع عقده في روما قريباً، من خلال نشر منشورات تتعلّق بنزع السلاح".

"لسوء الحظّ، لا شكّ في أنّ منع الحروب بشكلّ تام، في ظلّ النظام الحالي لمعظم الدول الأوروبية، المتنافرة عن بعضها بعضاً والمنقادة لمصالح مختلفة، هو حلم سيكون من الخطر أن يخبو. غير أنّ بعض القوانين والقرارات العقلانية المقبولة من قِبل الجميع، في ظلّ هذه المبارزات بين الشعوب، يمكنها التخفيف من أهوال الحرب إلى حدٍّ كبير".

"إنها مثاليةُ المراهنةَ على نزع السلاح، المستحيل تقريباً، نتيجةً لأفكار ذات طبيعة شعبوية، يفهمها قرّاؤنا. (قد يعني هذا أنّ فرنسا لا يجوز لها نزع سلاحها قبل أن تأخذ بثأرها). الرأي العام ليس مهيئاً للقبول بخطط نزع السلاح، عدا عن أنّ العلاقات الدولية ليست على نحوٍ بحيث يكون بالإمكان القبول بها".

"نزع السلاح الذي يطلبه شعبٌ ما من شعبٍ آخر يعادل إعلان الحرب".

"لكن، رغم ذلك، يمكن القبول بأنّ تبادل وجهات النظر بين الشعوب المعنية سوف يساعد، إلى حدّ معين، على عقد اتفاقية دولية، وسيتيح المجال لتقليل، إلى حدٍّ كبير، النفقات الحربية التي تُثقل، في الوقت الراهن، على كاهل الشعوب الأوروبية، على حساب حلّ المسائل الاجتماعية التي تشعر بضرورتها كل دولة على حدة مُعرِّضةً نفسها لخطر نشوب حرب داخلية من خلال سعيها لتلافي حربٍ خارجية".

"بالإمكان، على الأقلّ، العمل على خفض الإنفاق الحربي الهائل، اللازم في ظلّ النظام العسكري الراهن، الذي هدفه الاستيلاء على ممتلكات الخصم خلال أربعٍ وعشرين ساعة، وخوض المعركة الحاسمة بعد أسبوع من إعلان الحرب!"

يجب العمل بحيث لا تكون الدول قادرة على مهاجمة بعضها بعضاً والاستيلاء على أراضي الآخرين خلال أربعٍ وعشرين ساعة.

هذه الفكرة العملية أعرب عنها مكسيم دو كامب Maxime du camp، وخاتمة المقال توجز ذلك.

اقتراح مكسيم دو كامب هو التالي:

"1) يجب عقد مؤتمر دبلوماسي سنوياً". "2) يجب ألاّ تُعلَن أية حرب قبل مرور شهرين على الحدث الذي قد يستدعيها". (تكمن الصعوبة هنا في تحديد الـ Incident الذي قد يستدعي الحرب، حيث أنّ عند أيّ إعلانٍ للحرب Incidents كهذه تكون كثيرة جداً، ويجب تقرير اعتباراً من أيّها يجب حساب الشهرين). "3) يجب عدم إعلان الحرب قبل أن تُصوِّت عليها الشعوب التي تتجهّز لها". "4) يجب عدم بدء العمليات الحربية إلاّ بعد مرور شهر على إعلان الحرب".

"**يجب عدم البدء بالحرب... يجب... وإلخ**". ومن سيفعل بحيث **لا يكون بمقدور** الحرب أن تبدأ؟ من يستطيع إجبار الناس على القيام بهذا العمل أو ذاك؟ من **سيرغم** دولة عظمى على انتظار المدة المقرّرة؟ الدول الأخرى كلها. لكنّ الدول الأخرى كلها دول عظمى مثلها بالضبط، ويجب تهدئتها ووضعها عند حدّها و**إرغامها**. من سيرغمها؟ وكيف؟ الرأي العام. لكن إذا كان هناك رأي عام قادر على إرغام دولة عظمى على انتظار المدة المقرّرة فذلك الرأي العام سيكون قادراً على إرغام الدولة العظمى على عدم بدء الحرب نهائياً. لكنهم يردّون على ذلك بإمكانية تحقيق توازن قوى (Ponderation des forces) بحيث تكبح الدول العظمى نفسها بنفسها. لكنّ هذا المطلب مطلوب الآن أيضاً. إنّه الحلف المقدّس الذي كان، إنها عصبة الأمم... وهكذا دواليك.

لكن ماذا إذا وافق الجميع، يردّون على ذلك. لكن إذا وافق الجميع فلن تقع الحرب، ولا حاجة إلى المحاكم العليا، ولا إلى المجلس التحكيمي، ولا الوساطة.

"سوف يحلّ المجلس التحكيمي والوساطة محلّ الحرب. سوف تُحلّ القضايا عن طريق مجلس تحكيمي، فقد حُلّت مسألة "آلاباما" عن طريق مجلس تحكيمي، واقترح البابا حلّ مسألة جزر كارولاينا من خلال مجلس تحكيمي. سويسرة وبلجيكا والدنمارك وهولندة - كلّها أعلنت أنها تُفضّل قرار المجلس التحكيمي على الحرب. ويبدو أنّ موناكو أيضاً قد أعربت عن رغبتها في ذلك. المؤسف أنّ ألمانيا وروسيا والنمسا وفرنسا لم تعلن الشيء ذاته حتى الآن".

مذهلةٌ قدرة البشر على الكذب على أنفسهم حين يكونون بحاجة إلى الكذب على أنفسهم: الحكومات ستوافق على حلّ خلافاتها عن طريق مجلس تحكيمي، لذا ستقوم

بتسريح جيوشها. الخلافات بين روسيا وبولونيا، بين إنكلترة وإيرلندة، بين النمسا والتشيك، بين تركيا والسلاف، الخلافات بين فرنسا وألمانيا سوف تُحلّ عبر اتفاقٍ طوعي.

لكنّ هذا كأن يُطلب إلى التجار والمصرفيين عدم بيع أيّ شيء أعلى من سعر الشراء، وتوزيع الثروة دون ربح، والتخلّص تبعاً لذلك من الأموال التي لا يحتاجون إليها. لكنّ التجارة والعمل المصرفي يقومان على البيع بسعر أعلى من سعر الشراء، وبالتالي فالطلب أن لا يبيعوا بسعرٍ أعلى من سعر الشراء والتخلّص من المال يعادل الطلب إليهم القضاء على أنفسهم. والأمر ذاته مع الحكومات. الطلب إلى الحكومات عدم استخدام العنف، وحلّ الخلافات بصورة عادلة، يعني الطلب إلى الحكومات القضاء على أنفسها كحكومات؛ ولن توافق أيّ حكومة على ذلك.

أهل العلم يجتمعون في جمعيات (جمعيات كهذه كثيرة، تزيد على المائة)، يجتمعون في مؤتمرات (عُقدت مؤتمرات كهذه في باريس ولندن منذ فترة قريبة، وسينعقد مؤتمر في روما الآن)، يُلقون الكلمات، يتناولون الغداء، يتحدّثون، يُصدرون المجلاّت المكرّسة لهذه الغاية، ويُبرهنون فيها كلّها أنّ توتّر الشعوب، المرغمة على الانفاق على ملايين الجنود، قد بلغ حدوده القصوى، وأنّ هذا التسلّح يناقض كلّ أهداف وخصوصيات وأمنيات الشعوب كافة، وأنّه إذا كُتبت أوراقٌ كثيرة وقيلت كلمات كثيرة فيمكن إقناع البشر بألاّ تكون لديهم مصالح متعارضة، وحينها لن تعدو هناك حروب.

عندما كنتُ صغيراً أقنعوني بأنّه للإمساك بالطير يجب ذرّ الملح على ذيله. فخرجت للإمساك بالطيور وحينها أدركت فوراً أنني لكي أكون قادراً على ذرّ الملح على ذيل الطير يجب أن أكون قادراً على الإمساك به أولاً، وأدركت أنهم قد سخروا مني.

الشيء ذاته يجب أن يفهمه الناس الذين يقرأون المقالات والكتب عن المجلس التحكيمي ونزع السلاح.

إذا كان بالإمكان ذرّ الملح على ذيل الطير؛ فهذا يعني أنه لا يطير، ويسهل الإمساك به. أما إذا كان للطير جناحان، وهو لا يريد أن يُمسك به؛ فلن يتيح المجال لأن يُذرّ الملح على ذيله لأنّ الطير من صفاته الطيران. كذلك تماماً الحكومة، ليس من صفاتها الخضوع بل الإخضاع. والحكومة لا تكون حكومةً بقدر ما تكون قادرة على الإخضاع

وليس الخضوع، لذا فهي دائماً تتطلّع إلى ذلك، ولا يمكنها التخلّي عن سلطتها طوعاً، والجيش هو الذي يمنحها هذه السلطة، لذا فهي لن تتخلى أبداً عن الجيش وعن استخدامه في الحرب.

يكمن الخطأ في أنّ المحامين المتعلّمين، كاذبين على أنفسهم وعلى الآخرين، يؤكّدون في كتبهم أنّ الحكومة ليست ما هي عليه،- مجموعة من الناس القاهرين، وإنما هم، حسبما يستنتج العلم، يُمثّلون مجموع المواطنين. وقد أقنع العلماءُ الآخرين، وهم أنفسهم كانوا يُصدّقون، وكثيراً ما كان يبدو لهم بصورة جدية، أنّ العدالة قد تكون إلزامية للحكومات. لكنّ التاريخ، بدءاً من كسرى وصولاً إلى نابليون وبسمارك، يُظهر أنّ الحكومة، في جوهرها، دائماً هي قوة مخلّة بالعدالة، كما يجب عليها أن تكون ليس إلاّ. لا يمكن للعدل أن يكون إلزامياً للشخص أو للناس الذين يهيمنون على أناسٍ مخدوعين ومدرَّبين على العنف- الجنود، الذين بوساطتهم يتحكّمون بالآخرين. لذا لا يمكن للحكومات الموافقة على خفض عدد هؤلاء الناس المدرَّبين الخاضعين لها، والذين يُشكلّون قوتها كلها ومعناها.

هكذا يتعامل بعض العلماء مع هذا التناقض الذي يسحق عالمنا، وهذه هي سبل حلّهم له. قولوا لهؤلاء الناس إنّ المسألة تكمن فقط في التعامل الشخصي لكلّ إنسان مع السؤال الأخلاقي والديني، الماثل أمام الجميع، حول شرعية أو عدم شرعية المشاركة في الخدمة العسكرية الإلزامية، وهؤلاء العلماء سيهزّون أكتافهم فحسب، ولن يعطوكم جواباً أو اهتماماً حتى. فحلّ المسألة بالنسبة إليهم يتمثّل في إلقاء الخُطب وكتابة الكتب وانتخاب الرؤساء ونواب الرؤساء وأمناء السرّ، والاجتماع والتحدّث، في هذه المدينة أو تلك. في رأيهم، عن طريق هذه الأحاديث والكتابات ستكفّ الحكومات عن تجنيد الجنود الذين هم عماد قوتها كلّها، وستصغي إلى خطبهم وتسرّح جنودها لتبقى بلا حماية، ليس أمام جيرانها فقط بل وأمام رعاياها أيضاً؛ كقطاع طرق أوثقوا أناساً عزّلاً لكي ينهبوهم ثم راحوا يصغون إلى أقوالهم عن الألم الذي تُسبّبه الحبال لمشدودي الوثاق، فقاموا فوراً بحلّ وثاقهم.

لكن هناك أناسٌ يُصدّقون ذلك، وينشغلون بمؤتمرات السلام، ويُلقون الخطابات، ويكتبون الكتيبات، والحكومات، بالطبع، تُعرب عن تعاطفها مع هذا، وتدّعي أنها تؤيّده،

تماماً كما تدّعي أنها تؤيّد صحوة المجتمع في حين أنّ معظم الحكومات تعيش بفضل سُكْر الشعب؛ تماماً كما تدّعي أنها تؤيّد التعليم في حين أنّ قوّتها تقوم فقط على الجهل؛ تماماً كما تدّعي أنها تؤيّد حرية الدستور في حين أنّ قوّتها تقوم فقط على انعدام الحرية؛ تدّعي أنّها تعمل على تحسين معيشة العمّال في حين أنّ وجودها قائم على اضطهاد العامل؛ تدّعي أنها تؤيّد المسيحية في حين أنّ المسيحية تهدم كلّ أشكال السلطة.

وليكون بالإمكان القيام بذلك فقد تمّ، منذ زمنٍ بعيد، ابتداع انشغالات بالصحو من السُكْر ليس بمقدورها منع السُكْر؛ انشغالات بالتعليم ليست فقط لا تقضي على الجهل بل تُعزّزه فحسب؛ انشغالات بالحرية والدستور لا تمنع الاستبداد؛ انشغالات بالعمال لا تُحرّرهم من العبودية؛ كما ابتدعت مسيحيةً لا تهدم الحكومة بل تُساندها.

الآن أُضيفَ انشغالٌ آخر بالسلام. بالذات الحكومات، الملوك الذي يسافرون برفقة الوزراء لكي يُقرّروا تبعاً لإرادتهم وحدها مسألة: في هذا العام أم في الذي يليه يجب البدء بقتل الملايين؟ هؤلاء الملوك يعلمون جيداً أنّ الأحاديث حول السلام لن تمنعهم من إرسال الملايين إلى المذبحة حين يعنُّ لهم ذلك. بل إنّ الملوك يستمعون إلى هذه الأحاديث بسرور، ويُشجّعون عليها، ويشاركون فيها.

هذا كلّه ليس فقط لا يضرّ بالحكومات وإنما هو مفيد لها، لأنها تُبعد أنظار الناس عن السؤال الأكثر أهميةً وإلحاحاً: هل يجب على كل فرد، يُستدعى إلى الجندية، الذهاب أم عدم الذهاب لأداء الخدمة العسكرية الإلزامية؟ "سوف يقوم السلام قريباً بفضل الاتحادات والمؤتمرات، عن طريق الكتيبات والمنشورات، لكن في الوقت الراهن ارتدوا الملابس العسكرية وكونوا مستعدين لاضطهاد وتعذيب أنفسكم من أجل مصلحتنا"– تقول الحكومات. والعلماء، عاقدو المؤتمرات وكتّاب المقالات، موافقون كلياً على هذا.

هذا هو أحد أشكال التعامل الأنفع للحكومات، وبالتالي الأكثر تشجيعاً من قِبل كافة الحكومات. الشكل الآخر للتعامل هو التعامل المأساوي لأناسٍ يقرّون أنّ التعارض بين توق البشر إلى المحبة والسلام وبين حتمية الحرب مرعب، لكنهم يُقرّون أنّ هذا هو قدر الإنسان. معظم هؤلاء الناس مرهفون وموهبون، يرون ويدركون كلّ رعب وجنون وقسوة الحرب لكنهم، بسبب انحرافٍ غريب في الفكر، لا يرون ولا يبحثون عن أيّ

مخرجٍ من هذا الوضع، ويُمتّعون أنظارهم بوضع الإنسانية الميئوس منه وهم يَحكّون جراحهم.

إليكم نموذج رائع عن هذا التعامل مع الحرب للكاتب الفرنسي الرائع موباسان. ناظراً من يخته إلى تدرّب الجنود الفرنسيين وإطلاقهم النار، تخطر له الأفكار التالية:

"الحرب! يكفي أن تخطر لي هذه الكلمة حتى ينتابني الشعور بالخوف والخَدَر، كما لو أنّهم يُحدّثونني عن السِّحر ومحاكم التفتيش، كما لو أنّهم يُحدّثونني عن أمرٍ بعيد، منتهٍ، مقرف، شنيع، مناقض للطبيعة".

"عندما يُحدّثوننا عن آكلي لحوم البشر نبتسم بتكبّر، شاعرين بتفوّقنا على هؤلاء المتوحشين. لكن من هم المتوحشون؟ من هم المتوحشّون الحقيقيون؟ هل الذين يقتلون لكي يأكلوا المغلوبين أم الذين يقتلون لكي يقتلوا، فقط لكي يقتلوا؟"

"ها هم الجنود يركضون ويطلقون النار في الحقل تبعاً للأوامر؛ جميعهم مُقدَّرون للموت مثل قطيعٍ من الأغنام التي يسوقها اللّحام عبر النهر. جميعهم سوف يسقطون في مكانٍ ما في ساحة القتال برؤوسٍ مقطوعة أو بصدورٍ حطّمها الرصاص. وكلهم شباب كان بمقدورهم أن يعملوا ويُنتجوا ويكونوا مفيدين".

"آباؤهم الشيوخ المساكين، أمهاتم اللواتي أحببنهم وعشقنهم طوال عشرين عاماً، كما يمكن فقط للأمهات أن يحببنَ، سيتمّ إعلامهم بعد ستة أشهر أو سنة ربما أنّ ابنهم الأكبر، الذي ربّوه بكلّ هذا الجهد، بكل هذه النفقات، بكلّ هذا الحبّ، أنّ ابنهم هذا قد فجّرته قنبلة، أو داسته خيولٌ مرّت فوقه، ألقوه في حفرة مثل كلبٍ نافق. وهي سوف تسأل: لماذا قتلوا ولدي العزيز- أملي، فخري، حياتي؟ لا أحد يعلم. أجل، لماذا؟"

"الحرب! القتال! الطعان! قتل البشر! أجل، في عصرنا، بتنوّرنا وعلومنا وفلسفتنا، يتمّ إنشاء مدارس خاصة يُعلَّم فيها القتل، القتل من بعيد، المؤكَّد، قتل الكثير من الناس معاً، قتل أناسٍ بؤساء مساكين لا ذنب لهم على الإطلاق، عائلين، قتلهم دون أيّة محاكمة". "**والأشدّ إثارةً للذهول هو أنّ الشعب لا ينتفض ضدّ الحكومات، سواء في النظام الملكي أم الجمهوري. الأكثر إثارةً للذهول هو أنّ المجتمع لا يتمرّد عند ذكر كلمة "حرب"**".

"أجل، من الواضح أننا سنعيش دوماً وفق العادات القديمة المرعبة والخرافات الإجرامية والمفاهيم الدموية لأسلافنا. جليٌّ أننا سنبقى وحوشاً، كما كنّا من قبل، ننقاد لغرائزنا فقط".

"هيهات أن يستطيع أحد، باستثناء فيكتور هوغو، أن ينادي بالحرية والحق دون أن يتعرّض للعقاب".

"لقد بدأوا يُسمّون القوة عنفاً ويحاكمونها، - يقول هو. - الحرب تُستدعى إلى المحكمة. التنوير، بموجب شكوى الجنس البشري، يرفع دعوى إلى القضاء ويُقدِّم قرار الاتّهام ضدّ كلّ الغزاة وقوّاد الجيوش".

"بدأ الناس يدركون أنّ تقليل الجريمة لا يمكن أن يتمّ عبر جريمة أكبر؛ أنّ القتل إذا كان جريمة فإنّ قتل الكثيرين لا يمكن أن يكون عاملاً مخفّفاً؛ أنه إذا كانت السرقة شائنة فلا يمكن للاحتلال أن يكون أبداً موضوعاً للمجد".

"فلنعلن هذه الحقيقة التي لا شكّ فيها. فلنشنّع على الحرب". "غضبٌ عبثيّ، - يواصل موباسان،- سُخطُ شاعرٍ. الحرب محترمة ومبجّلة الآن أكثر من أيّ وقتٍ كان. الفنّان البارع في هذا المجال، القاتل العبقري، السيد فون مولتكه ردّ يوماً على ممثّلي جمعيةٍ للسلام بالكلمات المخيفة التالية: الحرب مقدّسة وأمرٌ إلهيّ، الحرب من قوانين العالم المقدّسة، هي تُحافظ على كلّ المشاعر العظيمة والفاضلة لدى البشر: الشرف، النزاهة، الفضيلة، الشجاعة. فقط بفضل الحرب لا ينحطّ البشر إلى المادية الأشدّ فظاظةً".

"يُجمَع قطيعٌ مكوّن من 400 ألف شخص، يسيرون دون راحة ليلاً نهاراً، دون أن يفكّروا في أيّ شيء، دون أن يدرسوا أيّ شيء، دون أن يتعلّموا أي شيء، دون أن يقرأوا أيّ شيء، دون أن يجلبوا نفعاً لأحد، يتسكّعون في أماكن قذرة، يبيتون في القذارة، يعيشون في حالة خدار دائم كالأنعام، ينهبون المدن، يحرقون القرى، يدمّرون الشعوب، وحين يلتقون بتجمّعٍ من اللحم البشري مثلهم، ينقضّون عليه، فيسفكون أنهاراً من الدماء، ويفرشون الأرض بأجسادٍ مهشّمةٍ ممزوجةٍ بالدماء والقذارة، ويفقدون أيديهم وأرجلهم، وتُهشَّم رؤوسهم، ودون أي نفعٍ لأحد يموتون في مكانٍ ما على الحدود، في

الوقت الذي آباؤهم العجائز وزوجاتهم وأبناؤهم يموتون فيه من الجوع. - ألاّ يُدعى هذا انحطاطاً إلى المادية الأشدّ فظاظةً".

"المقاتلون هم الكارثة الرئيسة على العالم. إننا نصارع الطبيعة والجهل لكي نحسّن كينونتنا المثيرة للشفقة ولو قليلاً. يكرّس العلماء جهود حياتهم كلها لإيجاد وسيلة لتلطيف مصير إخوانهم. ومن خلال عملهم الدؤوب، واكتشافاتهم الواحد تلو الآخر، يُغنُون العقل الإنساني، يوسّعون حقل العلم، يقدّمون، كل يوم، معارف جديدة، وكلّ يوم يزيدون رفاهية ورخاء وقدرات الشعب".

"وفجأةً تندلع الحرب. فيدمّر الجنرالات، خلال ستة أشهر، كل ما صنعه العمل والصبر والعبقرية. وهذا كلّه لا يُسمّى انحطاطاً إلى المادية الأشدّ فظاظةً".

"كلّنا شهدناها، الحرب. كلّنا شاهدنا كيف أصبح البشر وحوشاً من جديد، كيف يقتلون -كالمخبولين- من أجل المتعة، من جرّاء الخوف، من أجل البطولة، ولكي يُثنى عليهم. رأينا كيف، وقد تبرّأوا من مفاهيم القانون والحقّ، يطلقون النار على أناسٍ أبرياء مقيّدين على الطريق بدوا مثيرين للريبة فقط لأنهم كانوا خائفين. رأينا كيف يقتلون كلاباً مقيّدة قرب أبواب أصحاب البيوت فقط لكي يجرّبوا مسدساً جديداً. رأينا كيف يطلقون النار على أبقارٍ جاثمةٍ في الحقل دون أيّ داعٍ، فقط من أجل اللهو. وهذا لا يُسمّى انحطاطاً إلى المادية الأشدّ قبحاً".

"دخول بلدٍ، وذبح إنسانٍ يدافع عن بيته لأنه يرتدي قميصاً ولا يعتمر "سيدارة" عسكرية على رأسه، حرق بيوت مساكينٍ ليس لديهم ما يأكلونه، تحطيم وسرقة أثاثهم، احتساء النبيذ من أقبية الآخرين، اغتصاب النساء في الشوارع، إحراق بارود بملايين الفرنكات وترك الدمار والمرض خلفهم، - وهذا لا يُسمّى الانحطاط إلى المادية الأشدّ فظاظةً".

"ماذا فعل المحاربون في نهاية المطاف، ما هي مآثرهم؟ لا شيء. ماذا اخترعوا؟ المدافع والأسلحة. هذا كلّ شيء".

"ما الذي تركته لنا اليونان؟ الكتب وتماثيل الرخام. هل هي عظيمة لأنها انتصرت أم من جرّاء ما أنتجته؟ لم تمنع هجمات الفرس الإغريقَ من الانحطاط إلى المادية الأشدّ

فظاظةً. لم تنقذ هجمات البرابرة روما ولم تبعثها من جديد! ماذا، هل واصل نابليون الأول التطور العقلي العظيم الذي بدأه فلاسفة أواخر القرن الماضي؟"

"كلا، ما دامت الحكومات تمنح نفسها الحقّ بإرسال الشعوب إلى حتفها، فلا شيء يثير الدهشة في أن تمنح الشعوب نفسها الحقّ بإرسال حكوماتها إلى الموت".

"إنها تدافع عن نفسها، وهي على حقّ. لا أحد يملك الحقّ في قيادة الآخرين. قيادة الآخرين ممكنة فقط من أجل خير الذين تقودهم. والذي يقود ملزم بتجنّب الحرب، كما أنّ قبطان السفينة ملزم بتجنّب الكارثة".

"حين يكون القبطان مذنباً في غرق سفينته يُحاكَم ويُدان إذا ما تبيّن أنه مذنب في عدم الحذر أو حتى عدم الأهلية".

"فلماذا لا تُحاكَم الحكومات كذلك بعد كلّ حربٍ تشنّها؟ يكفي أن يدرك الشعب أنه إذا **ما حاكم السلطات، التي تقودهم إلى الموت، إذا ما رفضت [الشعوب] الذهاب إلى الموت دونما داعٍ، إذا ما استخدمت الأسلحة المعطاة إليها ضدّ الذين أعطوها إياها،- إذا ما حدث هذا يوماً فسوف تموت الحرب**".

"لكنّ هذا لن يحدث أبداً". الكاتب يرى هنا هول الحرب، يرى أنّ سببها يكمن في أنّ الحكومات، كاذبةً على الناس، ترغمهم على الذهاب لكي يقتلوا أو يُقتَلوا دون أي حاجة لهم إليها، حتى أنه يرى أنّ الذين تتشكّل منهم الجيوش قادرون على توجيه أسلحتهم إلى الحكومات ومحاسبتها. لكنّ الكاتب يعتقد أنّ هذا لن يحدث أبداً، وأنه - لهذا السبب- لا يوجد مخرج من هذا الوضع. وهو يرى أنّ الحرب مرعبة لكنه يعتقد أنْ لا مناص منها، وأنّ طلب الحكومات إلى الناس بالذهاب إلى الجندية لا مفرّ منه، كالموت، وأنه بما أنّ الحكومات ستطلب ذلك دائماً فستكون هناك حروب دائماً.

هكذا يكتب كاتب موهوب، صادق النية، وُهِب القدرة على التغلغل إلى جوهر الموضوع الذي هو جوهر الموهبة الشعرية. إنه يعرض أمامنا كلّ قسوة التناقض بين وعي البشر ونشاطهم و، دون أن يحلّه، يُقرّ بمأساويته دون أن يقترح، ودون أن يرى، مخرجاً من هذا الوضع. حيث يقول:

"لماذا القيام بأيّ شيء والشروع به؟ وهل يمكن حبّ الناس في هذه الأزمنة الكدرة في حين أنّ الغدَّ تهديد محضّ؟ كل ما بدأنا به، كلّ أفكارنا اليانعة، كلّ الأمور المنوي القيام بها، حتى أضأل خير يمكننا القيام به،- ألن تكنّس هذا كلّه عاصفةٌ تتهيّأ للهبوب؟"

"الأرض ترتجّ تحت الأقدام في كلّ مكان، والسحابة المتجمّعة لن تفوّتنا".

"أجل، إذا كانت الثورة، التي تثير هلعنا، وحدها مرعبة. بما أني لستُ قادراً على التفكير في مجتمعٍ مبنيّ بصورة مثيرة للقرف أكثر من مجتمعنا؛ فإني لستُ خائفاً من البنيان الجديد الذي سيحلّ محلّه. إذا أصبحت حالي أسوأ بسبب التغيير فسوف يعزّيني أنّ جلاّدي اليوم كانوا ضحايا الأمس. لكنتُ احتملتُ الأسوأ، في انتظار الأفضل. لكن ليس هذا الخطر البعيد هو الذي يخيفني،- فأنا أرى الآن خطراً آخرَ، أكثر قرباً، أشدّ قسوةً، لأنه ليس بالإمكان تبريره على الإطلاق، لأنه لا يمكن أن ينتج عنه أيّ خير. كلّ يوم يقدّر الناس أنّ الحرب ستقع غداً، وكلّ يوماً يغدو هذا الاحتمال أكثر حتميةً".

"يرفض الفكر تصديق احتمالية الكارثة التي تتمثّل في نهاية القرن نتيجةً لتقدّم عصرنا، ويجب الاعتياد على التصديق".

"على امتداد عشرين سنة وكل قدرات المعرفة تُستهلك لاختراع وسائل التدمير، وقريباً ستكون بضع قذائف مدفعية كافية لإبادة جيشٍ بأكمله. لا يتمّ، كما في السابق، تسليح بضعة آلاف من المساكين الذين اشتُريت دماؤهم بالمال، بل تتسلّح، من رأسها حتى أخمص قدميها، شعوبٌ برمّتها، تحتشد لقطع رقاب بعضها بعضاً".

"بدايةً، يسرقون وقت هؤلاء الناس -حين يأخذونهم إلى الجندية- لكي يتأكّدوا بعد ذلك من سرقة حياتهم. من أجل إعدادهم للمذبحة يُلهبون الكراهية لديهم عبر إقناعهم أنهم مكروهون. والناس الودعاء الطيبون يقعون في الفخّ، وسرعان ما تنقضّ، بقسوة الوحوش المفترسة، حشود المواطنين المسالمين على بعضها بعضاً، مذعنةً لأوامر حمقاء. والله يعلم أنّ كلّ ذلك يحدث بسبب اصطدام تافه على الحدود أو بسبب حسابات تجارية استعمارية".

"وسيذهبون، مثل الأغنام، إلى المجزرة، دون أن يعلموا إلى أين، وهم يعلمون أنهم سوف يتركون زوجاتهم، أنّ أبناءهم سيجوعون، وسيذهبون باحتفالية، لكن سكرى بالأقوال الرنّانة التي ستدوّي في أسماعهم. **وسيذهبون دونما اعتراض، خانعين**

مستكينين، دون أن يعلموا ودون أن يدركوا أنهم قوة، أنّ السلطة ستصبح في أيديهم فقط لو أرادوا ذلك، لو كان بمقدورهم فقط أن يتّفقوا وأن يُحكِّموا العقل السليم والأخوّة بدلاً من حيل الدبلوماسيين الهمجية".

"وهم مخدوعون إلى درجة أنهم يُصدّقون أنّ المذبحة، قتل الناس، واجب، وسيسألون الله مباركة رغباتهم الدموية. وسيذهبون، وهم يدوسون الحقول التي زرعوها بأنفسهم، لحرق المدن التي بنوها بأنفسهم؛ سيذهبون وهم يصرخون صرخات الحماس، بفرح، بمصاحبة موسيقى النصر. والأبناء سوف يشيّدون نُصباً تذكاريةً للذين قتلوا آباءهم أكثر من الآخرين".

"يتوقّف مصير جيلٍ بأكمله على اللحظة التي يعطي فيها سياسيٌّ متجهّم ما الإشارة التي بموجبها ينقضّون على بعضهم بعضاً".

"جميعنا نعلم أنّ الأفضل بيننا سوف يُذبَح، وأنّ أعمالنا سوف تُدمَّر في مهدها".

"**تعلم أننا سنرتجف من الغضب، وأن ليس بمقدورنا فعل شيء.** نحن معتقلون في شراك مختلف المناصب والأوراق ذات الترويسات التي تمزيقها أمر بالغ الصعوبة".

"**إننا خاضعون لسلطة القوانين التي صنعناها بأنفسنا لكي نحمي أنفسنا، والتي تضطهدنا".**

"**لقد كففنا عن أن نكون بشراً وصرنا أشياءَ - مُلكاً لشيء مختلق ندعوه الدولة، والتي تستعبد كلاً منّا باسم إرادة الجميع، في حين أنّ الجميع، كلاً على حدة، يريدون تماماً عكس ما يرغمون على القيام به...**"

"وسيكون أمراً حسناً لو توقّف الأمر عند جيلٍ واحد. لكنّ القضية أكثر أهميةً بكثير. كلّ هؤلاء الناس الشكّائين الصارخين، كلّ محبّي الرفعة، الذين يستغلّون مخاوف الجمهور الحمقاء، كل الفقراء بالروح المخدوعين برنين الكلمات، ألهبوا كراهية الشعب إلى درجة أنّ حروب الغد سوف تقرّر مصير شعبٍ برمّته. سيكون على المهزوم أن يختفي، وستتشكل أوروبا جديدة على أسسٍ بمنتهى القسوة والدموية، أوروبا مُهانة من قِبَل جرائم كهذه إلى درجة أنها لا تستطيع إلا أن تكون أسوأ، أكثر شرّاً وهمجيةً وعنفاً".

"وبالتالي، تشعر أنّ فوق الجميع يخيّم يأسٌ مرعب. نحن نُدفَع إلى زقاقٍ مسدود والأسلحة موجّهة إلينا من كافة الجهات. إننا نعمل مثل بحّارةٍ على مركبٍ يغرق.

ابتهاجنا هو ابتهاج المحكوم بالإعدام الذي يسمحون له باختيار الطعام الذي يريد قبل إعدامه بربع ساعة. الرعب يُخدِّر الفكر لدينا، وفوق هذا علينا أن نحسب، من خلال خُطب الوزراء وأقوال الملوك، وإدراك كنه أقوال الدبلوماسيين التي تملأ الصحف، علينا أن نحسب متى بالتحديد سيتمَ ذبحنا: في هذه السنة أم في التي تليها".

"هيهات أن يُعثَر في التاريخ على عصر كانت الحياة فيه أقل ضماناً وأكثر امتلاءً برعبٍ ثقيل الوطء من عصرنا".

يشير الكاتب إلى أنّ القوة تكمن في أيدي الذين يُهلكون أنفسهم بأنفسهم، في أيدي الأفراد الذين تتشكّل منهم الحشود. ويشير إلى أنّ منبع الشرّ كله يكمن في الدولة. المفروض أن يكون واضحاً أن التناقض بين الوعي والحياة قد بلغ حدّاً يستحيل الذهاب أبعد منه، وأنّ أوان حلّ هذا التناقض قد حان.

لكنّ الكاتب لا يفكّر على هذا النحو. إنه يرى في هذا مأساوية الحياة الإنسانية، وبعد أن يُظهر هول هذا الوضع كلّه يصل إلى نتيجة مفادها أنّ الحياة الإنسانية يجب أن تجري في هذا الرعب.

هذه هي طريقة التعامل الثانية تجاه الحرب من قِبل أناسٍ يرون فيها الهلاك والمأساة.

طريقة التعامل الثالثة هي تعامل الذين فقدوا ضمائرهم، وبالتالي يفتقرون إلى العقل السليم والمشاعر الإنسانية.

إلى هؤلاء ينتمي مولتكه، الذي أورد موباسان مجادلته، ومعظم المحاربين الذين تربّوا على هذه الخرافة العنيفة، ويعتاشون عليها، وبالتالي المقتنعين بسذاجة غالباً أنّ الحرب ليست أمراً لا مناص منه بل ولا بدّ منه، بل حتى أنها مفيدة. بالإضافة إلى هؤلاء، على هذا المنوال يُجادل كذلك غير المحاربين، المُسمّون العلماء، الناس المتعلّمون المثقفون.

إليكم ماذا كتب الأكاديمي البارز دوسيه ردّاً على سؤال المحرّر عن نظرته إلى الحرب:

"سيدي الكريم! إذا سألتَ أكثر الناس محبةً للسلام من الأكاديميين ما إن كان مؤيّداً للحرب أم لا فجوابه جاهز سلفاً: لسوء الحظّ - سيدي الكريم- أنت نفسك تعتبر الأفكار المحبة للسلام حلماً يُلهم مواطنينا السُّمحاء في الوقت الراهن".

"منذ أن جئت إلى الدنيا حدث كثيراً أن سمعت من الكثير من الناس السخط على عادة الاقتتال العالمي المرعبة هذه. يقرّ الجميع أنّها شرّ، ويندبون، ولكن ما السبيل للقضاء عليها؟ جرت محاولات كثيرة للقضاء على الاقتتال: يبدو الأمر بالغ السهولة! لكنه ليس كذلك! كلّ المساعي لبلوغ هذه الغاية لم تُجدِ ولن تجدي أبداً".

"مهما جرى الحديث ضدّ الحرب وضدّ الاقتتال في كلّ مؤتمرات السلام؛ فسيبقى أبداً أسمى من كل الوساطات وكلّ الاتفاقياتٰ وكلّ الشرائع **شرف الإنسان** الذي يتطلب المبارزة دائماً، و**مصالح الشعوب** التي تتطلب الحرب دائماً".

"غير أني أتمنى من كل قلبي أن يُوفَّق مؤتمر السلام العالمي في مهمته البالغة الصعوبة والبالغة الإجلال".

"كن واثقاً... الخ".

"ك. دوسيه"

إذا كان شرف البشر يتطلب أن يقتتلوا، وإذا كانت مصالح الشعوب تتطلّب أن تجتاح وتدمّر بعضها بعضاً؛ فإنّ محاولات إيقاف الحروب جديرة بالابتسام فحسب.

وعلى هذا النحو كذلك رأي إنسانٍ معروف آخر هو جوليو كلاريتي:

"سيدي الكريم، - يكتب هو،- بالنسبة للإنسان العاقل هناك رأي واحد فقط فيما يتعلّق بمسألة السّلم والحرب. لقد خُلقت البشرية لكي تعيش، ولكي تعيش بحرية، ولتحقيق وتحسين مصيرها ووضعها عن طريق العلم السّلمي. الاتفاق الشامل، الذي يسعى ويدعو إليه المؤتمر العالمي للسلام، قد يكون حلماً رائعاً فحسب لكنه، في جميع الأحوال، الحلم الأروع. يحلم الإنسان دائماً برؤية أرض المستقبل المسكونة، وأنّ المحصول سوف ينمو دون أن يخشى قنابل العربات المدفعية".

"لكن... أجل لكن!.. ما دام الفلاسفة والصالحون لا يقودون العالم؛ فإنّ سعادة رؤية جنودنا وهم يحمون حدودنا ووطننا، وأسلحتهم المسدّدة بشكل صحيح، تُعدُّ بالنسبة إلينا الضمانة الأفضل لهذا العالم، وستبقى أمراً محبوباً جداً بالنسبة إلينا جميعاً".

"السلام يصنعه فقط الأقوياء والحاسمون".

"كونوا على ثقة... إلخ".

"ج. كلاريتي"

الفكرة هي أنّ الكلام لا يزعج الشخص الذي ليست لديه نيّة للقيام بأي شيء على الإطلاق. لكن عندما يحين أوان العمل، فيجب الاقتتال.

وهاكم رأي، حول معنى الحرب، أعرب عنه منذ فترة قريبة الروائي الأشهر في أوروبا إميل زولا:

"أعتبر الحرب ضرورةً حتمية لا مناص منها بالنسبة إلينا نظراً لارتباطها الوثيق بالطبيعة البشرية وبالكون برمّته. أتمنى لو كان بالإمكان تأجيل الحرب أطول فترة ممكنة. لكن لا بدّ أن تحين لحظة نُرغم فيها جميعاً على القتال. أنا أتحدث، في اللحظة الراهنة، من وجهة النظر الإنسانية العامة، ولستُ ألمّح على الإطلاق إلى خلافنا مع ألمانيا. أقول إنّ الحرب ضرورية ومفيدة، حيث أنها تُعدُّ أحد شروط وجود الإنسانية. إننا نلتقي الحرب في كلّ مكان، ليس فقط بين القبائل والشعوب بل كذلك في الحياة الزوجية والخاصّة. إنها أحد أهمّ عناصر التقدّم، وكلّ خطوة خطتها البشرية إلى الأمام رافقها سفك الدماء".

"جرى الحديث، وما زال جارياً حتى الآن، عن نزع السلاح، لكنّ نزع السلاح ليس ممكناً بأي وسيلة كانت. وحتى إذا كان ممكناً؛ فحتى في تلك الحالة يجب علينا رفضه. فقط الشعب المسلّح يُعدُّ شعباً جبّاراً وعظيماً. أنا مقتنع بأنّ نزع السلاح العالمي الشامل سيجرّ خلفه شيئاً من قبيل الانحطاط الأخلاقي الذي سينعكس عجزاً عاماً يعيق تقدّم البشرية الناجح. لقد تمتّعت الشعوب المحاربة دائماً بالقدرة على الازدهار. لقد جرّ فنّ الحرب خلفه تطور الفنون الأخرى كلها. والتاريخ يشهد على ذلك. في أثينا وروما لم تبلغ التجارة والصناعة والأدب أبداً مستوىً متطوراً كما حدث حين هيمنت هاتان المدينتان على العالم المعروف آنذاك بقوة السلاح. وإذا أردنا إعطاء مثال من الأزمنة

الأقرب إلينا، فلنتذكّر عهد لويس الرابع عشر. إنّ حروب هذا الملك العظيم ليست فقط لم تؤخّر تقدّم الفنون والعلوم بل، على العكس، ساعدت على نجاحها وتقدّمها".

الحرب أمرٌ مفيد! لكن الأفضل، من هذه الناحية، هو رأي الأكثر نبوغاً بين الكتّاب أصحاب هذه الميول، الأكاديمي فوغيويه. إليكم ما كتبه عن معرضٍ عند زيارته القسم الحربي:

"في الساحة المخصصة للمعوقين، وسط المنازل المهجورة والكولونيالية فقط بناء "البازار" البهيّ يتمتّع بالنمط الأشدّ صرامةً؛ ممثّلو سكّان الكرة الأرضية هؤلاء جميعهم يجاورون قصر الحرب. إنه تناقض رائع بالنسبة للبلاغة الإنسانية التي لا تترك مناسبةً دون أن تندب تقرباً كهذه، وتؤكّد أنّ هذا الـــ "ceci tuera cela"[34]، أنّ اتّحاد الشعوب عن طريق العلم والعمل سوف ينتصر على الغرائز الحربية. لن نزعج مداعبتها للأمل الباطل الخيالي في عصرٍ ذهبيٍّ إذا ما تحقّق فسرعان ما سيغدو عصراً للقذارة. التاريخ برمّته يعلّمنا أنّ الدماء ضرورية من أجل التعجيل بوحدة الشعوب وتعزيزها".

"لقد رسّخت العلوم الطبيعية في زماننا قانوناً خفياً، اكتشفه جوزيف دي ميستر عبر عبقريته الملهمة وتفكّره في الدوغمات البدئية، حيث رأى كيف يُكفّر العالم عن سقوطاته الموروثة عبر التضحيات؛ وأنّ العلوم تُظهر لنا كيف يتحسّن العالم عن طريق الصراع والانتقاء العنفي؛ وهذا تأكيدٌ ذو حدّين لذلك المرسوم ذاته المحرَّر بعبارات مختلفة. هذا الإثبات ليس مستساغاً بالطبع لكنّ قوانين العالم لم توضع لكي تُرضينا بل وُضعت من أجل تكاملنا. فلنتسلق قصر الحرب المحتوم والضروري هذا وستتوفّر لنا فرصة ملاحظة كيف تعيد الغريزة الأشدّ عناداً بين غرائزنا تنظيم ذاتها، دون أن تفقد شيئاً من قوّتها، مستجيبةً لمختلف متطلبات اللحظات التاريخية".

بالتحديد فكرة إثبات ضرورة الحرب، الموجودة في تعبيرين –حسب رأيه– لمفكّرين عظيمين هما ميستر وداروين، تعجب فوغيويه إلى درجة أنه يكرّرها ثانيةً.

34– قول من رواية فيكتور هوغو "أحدب نوتردام" عن طباعة الكتب التي تقضي على العمران. "تولستوي"

"سيدي الكريم! إنك تسألني رأيي حول نجاح المؤتمر العالمي للسلام. أنا كذلك أؤمن، مثل دراوين، بأنّ الصراع العنفي هو قانون الطبيعة الذي تنقاد له الكائنات جميعها".

"أؤمن، مثل يوسف ميستر، أنّ هذا القانون إلهيّ: اسمان مختلفان للشيء ذاته. إذا، خلافاً للمتوقّع، تمكّن أيّ جزيء من جزيئات الإنسانية، لنقُل الغرب المتحضّر برمّته، من إيقاف عمل هذا القانون؛ فإنّ الشعوب الأخرى، الأكثر بدائيةً، ستستخدمه ضدنا. وستفعل ذلك بنجاح، حيث أنّ الثقة بالسلام -لستُ أقول "السلام" بالذات، وإنما "الثقة التامة بالسلام"- ستثير لدى البشر الاشمئزاز، وستؤدّي إلى انحطاطٍ أشدّ تدميراً من الحرب المخيفة ذاتها. فيما يتعلق بالحرب، أرى أنّه يجب أن يُصنَع لهذا القانون الجنائي ما يجب أن يُصنع للقوانين الجنائية الأخرى كلها كذلك: تخفيفها، العمل على أن تبدو غير ضرورية، واستخدامها بصورة أندر قدر الإمكان. لكنّ التاريخ برمّته يُعلّمنا أنّه لا يجوز إبطال هذه القوانين ما دام هناك في الأرض شخصان وخبز ومال، وبينهما امرأة".

"سيسعدني كثيراً أن يُثبت لي المؤتمر العكس. لكني أشكّ في أن يكون قادراً على دحض التاريخ وقانون الطبيعة وقانون الله".

"كونوا على ثقة... وإلخ".

"إ. م. فوغيويه"

المغزى هو أنّ التاريخ يُظهر، وكذلك طبيعة الإنسان وقانون الله، لنا أنه ما دام هناك شخصان وبينهما خبز ومال وامرأة؛ فستبقى الحرب قائمة. أي أنّ أيّ تقدّم لن يقود البشر إلى الارتقاء من الفهم الحياتي الهمجي الذي يستحيل، بموجبه، تقاسم الخبز والمال "المال جيّد جداً هنا" والمرأة دون اقتتال.

الناس، غريبي الأطوار، الذين يجتمعون في المؤتمرات، ويلقون الكلمات حول كيفية الإمساك بالطير عبر ذرّ الملح على ذيله رغم أنه لا يمكنهم ألاّ يعلموا أنْ ليس بالإمكان القيام بذلك، يثيرون الدهشة، أولئك الذين، مثل موباسان ورود وكثيرين غيرهما، يرون بجلاء كلّ أهوال الحرب، كل التناقض الناتج عن أنّ البشر لا يفعلون اللازم والنافع والواجب، يندبون – في هذه الأثناء- مأساوية الحياة، ولا يرون أنّ كلّ هذه المأساة ستتوقّف ما إن يكفّ البشر عن مناقشة ما ليسوا بحاجة إلى مناقشته، ويتوقفوا عن القيام

بما يسبّب لهم الألم والانزعاج والاشمئزاز. هؤلاء الناس يثيرون الدهشة لكنّ أناس فوغيويه وغيره، والذين يدينون بقانون التطور، ولا يعتبرون الحرب حتميةً فحس ومفيدة وبالتالي مرغوبة؛- هؤلاء الناس مخيفون، مرعبون بفسادهم الأخلاقي. على الأقلّ يقولون إنهم يكرهون الشرّ ويحبّون الخير، لكنّ هؤلاء يعترفون صراح وجود الخير والشرّ.

كلّ الأقوال حول إمكانية إحلال السلام محلّ الحرب الأبدية عبارة عن ثر عاطفية ضارّة. هناك قانون التطور الذي ينتج بموجبه أني يجب أن أعيش وأتد بشكل أحمق؛ فما العمل؟ أنا شخص متعلّم وأعرف قانون التطور لذا سأتصرّف سيئ. "فلندخل قصر الحرب إذاً". "En trons au palais de la guerre" هناك التطور لذا ليس هناك ما هو سيئ وما هو حسن، وعلى المرء أن يعيش من أجل الشخصية فقط، تاركاً لقانون التطور القيام بالباقي. هذا هو التعبير الأخير الرفيعة، بالإضافة إلى تعتيم الوعي الذي تنشغل به الشرائح المثقفة في زماننا.

أمنية الطبقات المثقّفة هي العمل، كيفما كان، على بلوغ عقائدها الحبيبة و القائمة عليها أقصى الحدود. إنها تكذب، تخدع نفسها والآخرين بأحنق الأشكال لكي تُعتم على الوعي وتقمعه بشتى الوسائل. بدلاً من أن تغيّر حياتها بما يتناس الوعي تحاول، بشتى السبل، التعتيم على الوعي وإسكاته. لكنّ النور ينير حتّ الظلمة، وقد بدأ ينير في زماننا كذلك على هذا النحو.

VII

المتعلّمون من الطبقات العليا يحاولون إسكات وعي- الوعي الذي يتجلّى أكثر فأكثر- ضرورة تغيير نظام الحياة الحالي لكنّ الحياة، التي تواصل تعقّدها وتطوّرها في المنحى السابق، وعبر تعزيز تناقض البشر ومعاناتهم، تصل بهم إلى الحدّ الأخير الذي لا يجوز الذهاب أبعد منه. وهذا الحدّ الأخير الذي ينبغي عدم تجاوزه هو الخدمة العسكرية الإلزامية.

من المعتاد الاعتقاد أنّ الخدمة العسكرية الإلزامية، والتسلّح المتصاعد المرتبط بها، والضرائب وديون الدول المتزايدة لدى الشعوب كافةً نتيجةً لذلك، هي ظاهرة عرَضية ناشئة عن وضع سياسي ما في أوروبا، ويمكن تجاوزها كذلك عن طريق إجراءات سياسية معينة دون تغيير نظام الحياة الدلخلي.

هذا خاطئ تماماً. الخدمة العسكرية الإلزامية ليست سوى التناقض الداخلي الكامن في الفهم الحياتي المجتمعي، وقد وصل حدوده القصوى، الذي يتجلّى للعيان عند درجة معينة للتطور المادي.

بموجب الفهم الحياتي المجتمعي يُفترض أنّه بما أنّ مغزى الحياة يكمن في مجموع الأفرادْ؛ فإنّ الأفراد أنفسهم يضحّون طوعاً بمصالحهم في سبيل مصلحة الجماعة. هكذا كانت الحال، وما زالت بالفعل، في ظلّ الأشكال المعروفة للجماعة، في الأسرة أو العشيرة، ناهيكم عن الأشكال السابقة، كالقوم أو حتى الدولة البطريركية. نتيجةً للتقليد، المنقول عبر التربية والمعزّز بالتلقين الديني، مزج الأفراد، بشكل طوعي، مصالحهم بمصالح الجماعة، وضحّوا بها في سبيل المصلحة العامة. لكنّ كلما ازداد تعقيد المجتمعات، كلّما أصبحت أكبر، وخاصةً كلّما اتّحد الأفراد في مجتمعات أكبر بسبب الاحتلالات، كلّما تطلّع الأفراد لتحقيق أهدافهم الخاصة على حساب المصلحة العامة، وكلّما ازدادت الحاجة إلى استخدام السلطة، أي العنف، لقمع الأفراد الذين لا يذعنون للسلطة.

المدافعون عن الفهم الحياتي المجتمعي يحاولون عادةً المزج بين مفهوم السلطة، أي العنف، وبين مفهوم التأثير الديني، لكنّ هذا المزج مستحيل كلياً.

التأثير الديني هو ذلك التأثير في الإنسان الذي بنتيجته تتغيّر رغبات الإنسان ذاتها لكي تتلاءم مع ما يُطلَب إليه. الإنسان، الخاضع لتأثير الدين، يتصرّف وفقَ رغباته، أما السلطة، حسبما تُفهَم هذه الكلمة عادةً، فهي وسيلة لإرغام الإنسان على التصرّف على النقيض من رغباته. الإنسان، الخاضع للسلطة، لا يتصرّف على هواه بل كما ترغمه السلطة. وإرغام الإنسان على القيام بما لا يريد، ومنعه عن القيام بما يريد، ممكن فقط عبر العنف الجسدي، أو عبر تخويفه منه، أي حرمانه من الحرية، أو ضربه أو تشويهه أو تهديده بهذه الأفعال التي يسهل القيام بها. هذا هو، وكان دائماً، جوهر السلطة.

رغم الجهود المستمرة التي يبذلها المتواجدون في السلطة لإخفاء ذلك، وإعطاء معنى آخر للسلطة، السلطة تعني شدّ وثاق الإنسان بالحبال، بسلسلة يُقيَد إليها ويُجرّ، أو تعني السوط الذي يُجلد به، أو السكين، أو الساطور، الذي تُقطَع به يديه أو رجليه أو أنفه أو أذنيه أو رأسه،- السلطة تعني استخدام هذه الأدوات أو التهديد بها. هكذا كانت الحال في ظلّ نيرون وجنكيزخان، وهكذا هي الحال الآن أيضاً، في ظلّ حكم أكثر الحكومات ليبراليةً، في الجمهوريتين الأمريكية الفرنسية. إذا كان الناس يطيعون هذه السلطة ففقط لأنهم يخشون أنّ هذه الأعمال سوف تمارَس في حقّهم في حال عدم طاعتهم إياها. كل القرارات الحكومية، دفع الضرائب، أداء الأعمال الاجتماعية، الإخضاع عبر إنزال العقاب، الاضطهاد، الغرامات... إلخ، التي تبدو أنّ البشر يطيعونها بمحض إرادتهم، إنما هي قائمة على العنف الجسدي أو التهديد به.

أساس السلطة هو العنف الجسدي. وإنّ إمكانية ممارسة العنف الجسدي على الناس يمنحها، قبل أيّ شيء آخر، تنظيم أناسٍ مسلّحين، والذي بموجبه يعمل كلّ الناس المسلّحين معاً، خاضعين لإرادةٍ واحدة. مجموعات الناس المسلّحين هذه، الخاضعة لإرادة واحدة، هي التي يتشكّل منها الجيش. وقد بُنيت السلطة دائماً، وما زالت قائمة، على الجيش. دائماً تكون السلطة في أيدي الذين يسيطرون على الجيش، وكلّ المتسلّطين دائماً – بدءاً من القياصرة الرومان وصولاً إلى الأباطرة الروس والألمان- ينشغلون بالجيوش أكثر من أيّ شيء آخر؛ يتملّقون فقط الجيوش، عارفين أنّ الجيش إذا كان معهم فالسلطة ستكون في أيديهم.

تشكيل الجيش هذا، وزيادة عدد أفراده، الضروري للحفاظ على السلطة، أدخل إلى الفهم الحياتي المجتمعي مبدأه المفسد. إنّ غاية السلطة ومبرّر وجودها يكمنان في قمع الناس الذين يريدون تحقيق مصالحهم على حساب مصلحة الجماعة. لكن سواء حازوا السلطة عبر تشكيل الجيوش أم بالوراثة أم عبر الانتخاب، الناس، الذين يستولون على السلطة عن طريق الجيوش، لا يتميّزون في شيء عن الآخرين، وبالتالي، وبما أنّ بإمكانهم القيام بذلك، هم أشدّ نزوعاً، من الآخرين جميعاً، إلى إخضاع المصلحة العامة لمصلحتهم. ورغم أنّ الناس قد ابتكروا الكثير من الوسائل لحرمان القائمين على رأس السلطة من إمكانية إخضاع المصلحة العامة لمصلحتهم، أو لنقل السلطة إلى أناسٍ نزيهين، حتى الآن لم يتمّ إيجاد الوسائل، لا لهذا ولا لذاك.

كلّ الوسائل المستخدمة - المباركة الإلهية أو الاختيار أو التوريث أو التصويت أو الانتخابات والمجالس والبرلمانات ومجالس الشيوخ- تَبيّن، ويتبيّن، أنّ هذه الإجراءات ليست فعّالة. يعلم الجميع أنّ هذه الوسائل ليست فقط لن تحقّق غاية تسليم السلطة لأناسٍ نزيهين فحسب بل ولن تمنع سوء استخدامها. على العكس، يعلم الجميع أنّ الناس المتواجدين في السلطة - سواء كانوا أباطرة أم وزراء أم رؤساء شرطة أم رجال شرطة- دائماً، لأنهم يحوزون السلطة، يصبحون أكثر نزوعاً إلى انعدام الأخلاق، أي استغلال المصلحة العامة لمصالحهم الخاصة، من الذين لا سلطة لهم، كما يجب أن يكون الأمر.

الفهم الحياتي المجتمعي كان مبرّراً فقط عندما كان البشر جميعاً يضحّون، بشكل طوعي، بمصالحهم في سبيل المصلحة العامة؛ لكن ما إن ظهر أناسٌ لا يضحّون بمصالحهم بمحض إرادتهم حتى ظهرت الحاجة إلى السلطة، أي العنف، لقمع هؤلاء الأشخاص. على هذا النحو دخلت إلى الفهم الحياتي المجتمعي، وإلى النظام المبني على أساسه، السلطة المفسدة لمبدئه، أي عنف بعض الناس تجاه بعضهم الآخر.

لكي تحقق سلطة بعض الناس غايتها الكائنة في قمع الناس، الذين يتطلّعون إلى تحقيق غاياتهم الشخصية على حساب المصلحة العامة، كان لا بدّ من أن تكون السلطة في أيدي أناسٍ نزيهين، كما كان الصينيون يعتقدون أوكما كان يعتقد المؤمنون بقدسية

المَسْح [بالزيت= التطويب. م.] في القرون الوسطى، وفي الوقت الراهن كذلك. فقط في هذه الشروط يحصل النظام الاجتماعي على مبرّر لوجوده.

لكن بما أنّ هذا لا وجود له، بل، على العكس، حيث الذين يحوزون السلطة لا يتمتعون بالقدسية بالتحديد بسبب حيازتهم السلطة، فلم يعد النظام الاجتماعي، المبني على السلطة، قادراً على امتلاك تبرير لوجود.

حتى إذا كان هناك زمان، كان مستوى الأخلاق فيه متدنّياً وكان هناك ميل عام لدى البشر لممارسة العنف تجاه بعضهم بعضاً، كان فيه وجود السلطة، القامعة لهذا العنف، مفيداً، أي أنّ عنف الدولة كان أقلّ من عنف الأفراد تجاه بعضهم بعضاً؛ فمن المستحيل عدم رؤية أنّ أفضلية وجود الدولة على عدم وجودها لا يمكنها أن تكون دائمة. فكلّما قلّ نزوع الأفراد إلى العنف كلّما ضعفت الأخلاق أكثر، وكلّما فسدت السلطة أكثر بسبب عدم وضع حدود لها، كلّما قلّت هذه الأفضلية أكثر فأكثر. في تحول العلاقة هذا بين التطور الأخلاقي للجماهير وبين فساد الحكومات يكمن مجمل تاريخ الألفيتين الأخيرتين.

في أبسط أشكاله، جرى الأمر على النحو التالي: عاش الناس قبائلَ، أسراً، أقواماً، وكانوا يعادون ويقهرون ويغزون ويقتلون بعضهم بعضاً. وقد جرى هذا العنف بمقاييس صغيرة وكبيرة: صارعَ الفردُ الفردَ، والقبيلةُ القبيلةَ، والأسرةُ الأسرةَ، والقومُ القومَ، والشعبُ الشعبَ. هيمنت الجماعات الكبيرة الأقوى على الأضعف، وكلّما أصبحت جماعة البشر أكبر وأقوى كلّما جرت فيها صراعات داخلية أقلّ، وبدت استمرارية حياة الجماعة مضمونة أكثر. حيث يعادي أفراد القبيلة أو الأسرة، المتّحدون في جماعة واحدة، بعضهم بعضاً بدرجة أقلّ، والقبيلة والأسرة لا تموتان، مثل الفرد، بل تستمرّ بالوجود، يبدو الصراع بين أفراد الدولة الواحدة، الخاضعين لسلطةٍ واحدة، أكثر ضعفاً، وتبدو حياة الدولة مكفولة أكثر. هذه الاتحادات في جماعات أكبر فأكبر لم تحدث لأنّ البشر أدركوا أنّ هذه الاتحادات أنفع لهم، كما يرد في الأنشودة الرعوية المتعلقة بدعوة الــ"وَرَنغ"[35]، بل حدث نتيجةً للنمو الطبيعي من جهة، وللصراع والاحتلال من جهة أخرى.

35– الورنغ: قبيلة اسكندنافية قديمة.

بعد الاحتلال توقف سلطة المحتلّ الاقتتال الداخلي بالفعل، والفهم الحياتي المجتمعي يحصل على تبرير له. لكنّ هذا التبرير مؤقّت فحسب. الاقتتال الداخلي يتوقف فقط بقدر زيادة ضغط السلطة على الأشخاص الذين كانوا أعداء من قبل. عنف الصراع الداخلي، الذي قضت السلطة عليه، يتولّد في السلطة ذاتها. السلطة موجودة في أيدي أناسٍ يشبهون الجميع، أي الذين هم دائماً أو غالباً مستعدون للتضحية بالصالح العام من أجل مصلحتهم الشخصية، مع فارقٍ واحد فقط هو أنه لا توجد قوى معارضة مكافئة لقوة هؤلاء الناس، وهم معرّضون لتأثير السلطة الذي يفسد كلّ شيء. وبالتالي؛ فإنّ شرّ العنف، المنقول إلى أيدي السلطة، يزداد دائماً أكثر فأكثر ويغدو، بمرور الوقت، أكبر من الشرّ الذي يُفترَض أن تقضي عليه، في حين أنّ الميل إلى العنف، لدى أفراد المجتمع، يضعف أكثر فأكثر، وتغدو الحاجة إلى عنف السلطة أقلّ فأقلّ.

إنّ سلطة الدولة، حتى لو كانت تقضي على العنف الداخلي، تحمل دائماً إلى حياة الناس أشكالاً جديدةً للعنف الذي يزداد أكثر فأكثر دائماً بقدر استمراريته وتقويته.

بالتالي، رغم أنّ عنف السلطة ملحوظ بشكل أقلّ، في الدولة، من عنف أفراد المجتمع تجاه بعضهم بعضاً، حيث أنه لا يتجلى عبر الصراع وإنما عبر الإذعان، فإنّ العنف موجود، وغالباً بدرجة أقوى مما سبق. ولا يمكن للأمر إلاّ أن يكون على هذا النحو لأنّ، عدا عن أنّ حيازة السلطة تُفسد البشر، حسابات العنفيين، أو حتى نزعاتهم اللاشعورية، تكمن في إيصال الخاضعين للعنف إلى أقصى الضعف لأنّ المقهور كلّما كان أضعف كلّما تطلّب جهداً أقلّ لقمعه.

لذا يزداد العنف تجاه المقهور دائماً إلى الحدّ الأخير الذي يمكن بلوغه دون قتل الدجاجة التي تبيض ذهباً. أما إذا كانت الدجاجة لا تبيض، كالهنود الأمريكيين والزنوج، فتُقتَل، بغضّ النظر عن احتجاجات الأخيار الصادقة على أعمالٍ كهذه.

الدليل الأفضل على ذلك هو وضع الطبقات العاملة في زماننا، التي هي، في حقيقتها، عبارة عن أناسٍ مستكينين. فرغم كلّ محاولات الطبقات العليا لتحسين أوضاع العمّال؛ فإنّ عمال العالم جميعهم خاضعون لقانونٍ حديديٍّ ثابت، والذي بموجبه يمتلكون فقط ما يلزمهم ليبقوا على قيد الحياة مدفوعين بحاجتهم إلى العمل، وليكونوا قادرين على العمل من أجل أرباب عملهم، أي محتلّيهم.

هكذا كانت الحال دائماً. دائماً بقدر ما تستمر السلطة وتكبر فإنها تفقد فوائدها بالنسبة للخاضعين لها، وتزداد مضارّها.

هكذا كانت الحال وما زالت بغضّ النظر عن أشكال الحكم التي عاشت الشعوب في ظلّها. يكمن الفرق فقط في أنّ السلطة، في شكلها الاستبدادي، تنحصر في أيدي عددٍ قليل من القاهرين، ويكون شكل العنف أكثر حدّةً؛ بينما في الممالك والجمهوريات الدستورية، كما في أمريكا وفرنسا، تتوزّع السلطة بين عددٍ كبير من القاهرين، وتتجلّى بأشكال أقلّ حدةً؛ لكنّ العنف، الذي وفقاً له يكون ضرر السلطة أكثر من نفعها، وسيرورته التي توصل المقهورين إلى أقصى حدود العنف، إلى الحدّ الذي يمكن إيصالهم إليه من أجل مصلحة القاهرين، هو دائماً ذاته. هكذا كان وما زال وضع جميع المقهورين لكنهم لم يكونوا يعلمون ذلك حتى الآن، وفي معظم الحالات كانوا بسذاجة يصدّقون أنّ الحكومات قد وجدت لصالحهم؛ وأنهم سيهلكون لولا الحكومات؛ وأنّ فكرة قدرة البشر على العيش دون حكومات إنما هي هرطقة يجب حتى عدم التلفّظ بها؛ وأنّ هذه الفكرة – لسببٍ ما – هي من تعاليم الأنارخية المخيفة التي تشتمل على شتى الأهوال.

آمن الناس بما هو مثبت تماماً وبالتالي لا يحتاج إلى إثبات؛ آمنوا أنّ الشعوب كلها، بما أنها قد تطورت حتى الآن ضمن صيغة الدولة فإنّ هذه الصيغة سوف تبقى إلى الأبد الشرط الضروري لتطور الإنسانية.

على هذا المنوال استمرّت الحال مئات، بل آلاف، السنين، والحكومات، أي الناس الموجودين في السلطة، حرصت، وتحرص أكثر الآن، على إبقاء الشعوب في هذا الضلال.

هكذا كانت الحال في ظلّ الأباطرة الرومان، وهكذا هي في الوقت الراهن. رغم أنّ فكرة عدم فائدة، بل حتى ضرر، عنف الدولة تلج وعي البشر أكثر فأكثر؛ فإنّ هذا الوضع كان سيستمر إلى الأبد لو لم تكن الحكومات مضطرّة إلى زيادة القوات للحفاظ على سلطتها.

يُعتقَد عادةً أنّ الحكومات تعزّز الجيوش للدفاع عن الدولة من الدول الأخرى، ويتمّ تناسي أنّ الحكومات بحاجة إلى الجيوش، قبل أيّ شيء آخر، لحماية نفسها من الذين تقمعهم، ومن رعاياها المستعبَدين.

كان هذا ضرورياً دائماً، وهو يصبح ضرورياً أكثر فأكثر بسبب التعلّم المتنامي للشعوب، وبفضل تعزّز التواصل بين الناس داخل القومية الواحدة، ومن مختلف القوميات، وبات ضرورياً، بشكل خاص في الوقت الراهن، بسبب الحركات الشيوعية والاشتراكية والأنارخية والعمالية بشكل عام. الحكومات تشعر بهذا، وتضاعف قوتها الرئيسة– الجيش النظامي[36].

من فترة قريبة، في الرايخستاغ الألماني، ردّاً على سؤال حول سبب الحاجة إلى المال لزيادة رواتب ضباط الصف، صرّح المستشار الألماني صراحةً أنّ هناك حاجة إلى ضبط صف موثوقين للصراع ضدّ الاشتراكية. لقد قال كابريفي على مسمعٍ من الجميع ما يعلمه الجميع، رغم أنه يُحجَب بحرص عن الشعوب؛ فقد تحدّث عن سبب تأجير الحرس السويسري والاسكتلندي أنفسهم للملوك الفرنسيين وللباباوات؛ وتحدّث عن سبب نقل روسيا المجنّدينَ من الأقاليم بحيث تُكمّل الأفواج الرابضة في المركز، ونقلها جنوداً من وسط روسيا لكي يكملّوا أفواج الأقاليم. فحوى كلام كابريفي، المترجم إلى لغة بسيطة، هو أنّ الأموال ليست لازمة لصدّ أعداء الخارج، وإنما لرشوة ضباط الصف ليكونوا مستعدين للعمل ضدّ الشعب الكادح المسحوق.

لقد قال كابريفي، عن غير قصد، ما يعلمه الجميع، وإذا لم يكونوا يعلمون فهم يشعرون، وبالتحديد إنّ نظام الحياة القائم هو على النحو الذي عليه ليس لأنّ من الطبيعي

36– كون أنّ هناك سوء استخدام للسلطة في أمريكا رغم قلّة عديد الجيش؛ فإنّ هذا لا يدحض، بل يؤكّد، هذا المبدأ. هناك قوات أقلّ في أمريكا مما في الدول الأخرى، لذا ليس هناك لضطهاد أقلّ، في أيّ مكان آخر، للطبقات المسحوقة مما في أمريكا، ولا يُتنبّأ بقرب القضاء على سوء استخدام السلطة وعلى الحكومة ذاتها كما في أمريكا. لكن في أمريكا، في الآونة الأخيرة، بحكم تعزّز وحدة العمال، باتت تُسمع أكثر فأكثر الأصوات المطالبة بزيادة عدد القوات، رغم عدم وجود أيّ هجوم خارجي يهدّد أمريكا. الطبقات الحاكمة العليا تعلم أنّ خمسين ألف جندي لن يعودوا كافين قريباً، وتشعر، دون الاتّكال على جيش بينكرتون، أنّ ضمانة مواقعها تكمن فقط في تعزيز القوات. –تولستوي.

أن يكون كذلك، ليس لأنّ الشعب يريده أن يكون على هذا النحو، بل لأنّ عنف الحكومات -الجيش بصفّ ضباطه وجنرالاته الذين تمّت رشوتهم- يبقيه على ما هو عليه.

إذا كان العامل لا يمتلك أرضاً، وليست لديه الإمكانية لممارسة الحقّ الأكثر بداهةً لأيّ إنسان في أن يستنبت من الأرض ما يقتات عليه هو وعائلته؛ فهذا ليس لأنّ الشعب يريد ذلك بل لأنّ بعض الناس، الملاّكين، قد مُنحوا الحقّ في السماح أو عدم السماح للعمال بذلك. وهذا النظام المناقض للطبيعة يرتكز إلى القوات. إذا كانت الثروة الهائلة، التي يُراكمها العمّال، ليست للجميع وإنما لأشخاصٍ معينين؛ إذا كانت السلطة تجبي الضرائب من العمال وتستخدم هذه الأموال في ما يراه بعض الناس ضرورياً؛ إذا كانت إضرابات العمال تُقمع بينما إضرابات الرأسماليين تُشجَّع؛ إذا كان يحقّ لبعض الناس اختيار سُبُل تعليم وتربية الأطفال تربية دينية ومدنية؛ إذا كان يحقّ لبعض الناس سنّ القوانين التي يجب على الجميع الخضوع لها، والتصرّف بممتلكات البشر وحياتهم؛- فإنّ هذا كله يحدث ليس لأنّ الشعب يريد ذلك، أو لأنّ من الطبيعي أن يكون الأمر كذلك، بل لأنّ الحكومات والطبقات الحاكمة تريد ذلك لأجل مصالحها، وهي تحقق ذلك من خلال ممارسة العنف على أجساد البشر.

وأيّ إنسان إذا لم يكن يعلم هذا بعد فسوف يعلم به عند أيّ محاولة للتمرد أو لتغيير مجرى الأمور. لذا فالجيش ضروري، قبل أيّ شيءٍ آخر، للحكومة والفئات الحاكمة للمحافظة على مجرى الأمور هذا، الذي ليس فقط ليس نابعاً من حاجات الشعب بل غالباً ما يكون ضدّها، والمفيد فقط للحكومات والفئات الحاكمة.

الجيوش ضرورية لكلّ الحكومات، أكثر من أيّ شيء، للإبقاء على طاعة رعاياها ولاستغلال جهودهم. لكنّ الحكومة ليست بمفردها؛ فإلى جوارها هناك حكومة أخرى، كذلك أيضاً تستغلّ رعاياها عن طريق العنف، وهي مستعدة دائماً لانتزاع جهود الرعايا، الذين تمّ تحويلهم إلى عبيد، من السلطة الأخرى. لذا فإنّ كلّ الحكومات لا تحتاج إلى الجيوش فقط للاستخدام الداخلي بل ولحماية غنائمها من المفترسين الجيران. نتيجةً لذلك كل الدول تنتهي مكرهةً إلى ضرورة زيادة قواتها في مواجهة بعضها بعضاً. وزيادة القوات أمر مُعدٍ -كما لاحظ مونتيسكيو قبل 150 سنة. إنّ أي زيادة للقوات في دولة ما،

والموجّهة ضدّ رعاياها، تشكّل خطراً على جيرانها وتستدعي زيادتها في الدول المجاورة كذلك.

لم تنمُ الجيوش إلى الملايين التي نمت إليها في الوقت الراهن فقط لأنّ الدول مُهدَّدة من قِبل الدول المجاورة لها بل حدث هذا، قبل أيّ شيء آخر، من أجل قمع كافة محاولات التمرّد من قِبل الرعايا. فقد جرت زيادة عدد القوات لسببين في الآن ذاته، أحدهما يستدعي الآخر: الجيوش لازمة ضدّ أعداء الداخل، وكذلك لكي تدافع الحكومة عن وضعها في مواجهة الجيران. أحدهما يشترط الآخر. استبداد الحكومة دائماً يزداد تبعاً لزيادة عدد القوات ولنجاحاتها الداخلية، وعدوانية الحكومات تزداد تبعاً لقوة الاستبداد الداخلي.

نتيجةً لهذا، الحكومات الأوروبية، معزّزةً جيوشها أكثر فأكثر في مواجهة بعضها بعضاً، وصلت إلى ضرورةٍ لا مفرّ منا - الخدمة العسكرية الإلزامية؛ فالخدمة العسكرية الإلزامية كانت الوسيلة للحصول على المزيد من الجنود بأقلّ التكاليف. كانت ألمانيا أول من حدست هذا. وما إن فعلت إحدى الدول ذلك حتى تحوّل جميع المواطنين إلى جنود لمساندة كلّ المظالم التي تمارس في حقّهم، بحيث أصبح جميع المواطنين مضطهِدي أنفسهم بأنفسهم.

الخدمة العسكرية الإلزامية كانت ضرورة منطقية لا بدّ منها كان من المستحيل عدم الوصول إليها لكنها، إضافةً إلى ذلك، كانت التعبير الأخير للتناقض الداخلي للفهم الحياتي المجتمعي، الناشئ في وقتٍ أصبح فيه العنف ضرورياً لاستمراره. وقد تجلّى هذا التناقض في الخدمة العسكرية الإلزامية. بالفعل: إذ إنّ مغزى الفهم الحياتي المجتمعي يكمن في أنّ الإنسان، حين أدرك قسوة صراع الأفراد فيما بينهم وهلاك الفرد ذاته، نقل مغزى حياته إلى مجموع الأفراد. في ظلّ الخدمة العسكرية الإلزامية ينتج أنّ البشر، الذين يحتملون كلّ التضحيات المطلوبة منهم لتجنّب قسوة الصراع وهشاشة الحياة، بعد كلّ تضحياتم التي تكبّدوها يتمّ استدعاؤهم ثانيةً إلى المخاطر التي اعتقدوا أنهم قد تخلّصوا منها، فضلاً عن أنّ ذلك المجموع- الدولة، التي من أجلها تخلّى الأفراد عن مصالحهم، مُعرّضٌ أيضاً لذات المخاطر والهلاك الذي كان الفرد مُعرّضاً له من قبل.

كان على الحكومات أن تجنّب البشر قسوة صراع الأفراد وتخلق لديهم الثقة في رسوخ نظام الحياة الدولتية لكنها، بدلاً من ذلك، تضع على عاتق الأفراد حتمية ذلك الصراع ذاته ناقلةً إياه فحسب من الصراع مع الأفراد الأقربين إلى الصراع مع أفراد الدول الأخرى، وتُبقي على ذات خطر هلاك الأفراد والدولة في الآن ذاته.

إنّ إنشاء الخدمة العسكرية الإلزامية يشبه ما قد يحدث لإنسانٍ يستند إلى بيتٍ ينهار: تميل الجدران إلى الداخل فتُقام الدعائم؛ يلتوي السقف فتُقام المزيد من الدعائم؛ تتقوّس الألواح بين الدعائم فتُضاف دعائم أخرى؛ حتى يصل الأمر بالبيت إلى أن يغدو غير قابلٍ للعيش فيه رغم أن الأعمدة تحمله.

كذلك الأمر فيما يتعلق بالخدمة العسكرية الإلزامية. الخدمة العسكرية الإلزامية تدمّر كلّ مكاسب الحياة الاجتماعية التي يجب أن تحافظ عليها.

تكمن منافع الحياة الاجتماعية في حماية الممتلكات والجهود، والعمل على تحسين الحياة الجماعية، لكنّ الخدمة العسكرية الإلزامية تقضي على هذا كلّه.

الضرائب، التي تُجبى من الشعب للتجهّز للحرب، تبتلع نصيباً كبيراً من نتاج العمل الذي يجب على الجيش حمايته.

انقطاع كلّ الرجال عن مجرى الحياة المعتاد يُخلّ بإمكانية العمل ذاته.

تهديد الحرب، الجاهزة للاندلاع في أيّ لحظة، يجعل كلّ تحسينات الحياة الاجتماعية غير مفيدة ولا جدوى منها.

إذا كان يُقال للإنسان من قبل إنه إذا لم يخضع لسلطة الدولة فسيتعرّض لهجمات الأشرار، أعداء الداخل والخارج، وسيكون مجبراً على قتالهم بنفسه، وسيتعرّض للقتل، لذا من المفيد له تحمّل بعض الحرمانات لكي يجنّب نفسه هذه الكوارث؛ فإنّ الإنسان كان قادراً على تصديق ذلك لأنّ التضحيات التي كان يقدّمها للدولة كانت تضحيات شخصية وتمنحه الأمل بحياةٍ هادئة في دولة غير قابلة للهلاك، والتي كان يتحمّل تضحياته في سبيلها. لكن الآن، حيث لم تتضاعف التضحيات عشرة أضعاف فحسب بل وحيث لا وجود للمنافع التي وُعِد بها، من الطبيعي أن يفكّر الإنسان بأنّ خضوعه للسلطة لا نفع له فيه على الإطلاق.

لكنّ المعنى الحتمي للخدمة العسكرية الإلزامية لا يكمن في هذا فقط بل وفي تجلّي التناقض الكامن في الفهم الحياتي المجتمعي. التجلّي الرئيس لهذا التناقض يكمن في أنّ أيّ مواطن، إذ يصبح جندياً في ظلّ الخدمة العسكرية الإلزامية، يغدو حامياً لنظام الدولة، ومشاركاً في كلّ ما تفعله الدولة، مما لا يقرّ بشرعيته.

تؤكّد الحكومات أنّ الجيوش ضرورية، بصورة رئيسة، للدفاع الخارجي، لكنّ هذا غير صحيح. هي تحتاج إليها، قبل أي شيء آخر، ضدّ رعاياها. وأيّ إنسان، يؤدّي الخدمة العسكرية، يغدو، تلقائياً، مشاركاً في كلّ عنف الدولة تجاه رعاياها. للاقتناع بأنّ أيّ شخص، يؤدّي الخدمة العسكرية، يغدو شريكاً للدولة في أعمالها، التي لا يقرّ بها وليس بمقدوره الإقرار بها، يكفي أن يتذكّر المرء ما يحدث في أوروبا برمّتها بدعوى استقرار الشعوب وخيرها، والذي منفّذه دائماً هي الجيوش. كلّ الاقتتالات الداخلية على العروش وبين الأحزاب، كلّ الإعدامات التي ترافق الفتن، كلّ قمع الانتفاضات، كل استخدامات القوة العسكرية لتفريق حشود الجماهير وقمع الإضرابات، كل "بلطجة الضرائب، كل جور توزيع ملكية الأرض، كل القيود على العمل،- هذا كله يُصنَع إن لم يكن بواسطة الجيوش مباشرةً فبواسطة الشرطة التي تساندها الجيوش. من يؤدّي الخدمة العسكرية الإلزامية يغدو شريكاً في جميع هذه الأعمال التي يرتاب فيها في بعض الأحيان، والتي تناقض وجدانه صراحةً في كثير من الحالات.

لا يريد الناس التخلّي عن الأرض التي استصلحوها عبر أجيال؛ لا يريد الناس أن يعادي بعضهم بعضاً كما تطلب إليهم الحكومات؛ لا يريد الناس دفع الضرائب التي يُطلب إليهم دفعها؛ لا يريد الناس الإقرار بإلزامية القوانين، التي لم يضعوها هم، لهم؛ لا يريد الناس أن يُحرموا من الجنسية؛- وأنا، إذ أؤدّي الخدمة العسكرية، يجب أن أذهب وأقتل هؤلاء الناس. لا يمكنني، كشريكٍ في هذه الأعمال، إلاّ أن أسأل نفسي ما إن كانت هذه الأعمال جيدة أم سيئة، وما إن كان ينبغي لي المساعدة على القيام بها.

بالنسبة إلى الحكومات، الخدمة العسكرية الإلزامية هي الحدّ الأخير للعنف الضروري للحفاظ على النظام بأكمله؛ أما بالنسبة إلى الرعايا فهي الحدّ الأخير لإمكانية الطاعة. إنها حجر أساس القلعة، الذي يسند الجدران، والذي انتشاله سيجعل البناء بأكمله ينهار.

لقد حان الوقت الذي فيه سوء استخدام الحكومات المتزايد للسلطة، والصراع فيما بينها، لا يتطلّب من الرعايا تضحيات مادية فقط بل وأخلاقية كذلك، بحيث بات على كل إنسان أن يتفكّر ويتساءل: هل يمكنني تقديم التضحيات؟ ولماذا يجب أن أقدّم هذه التضحيات؟ هذه التضحيات تُطلب من أجل الدولة. من أجل الدولة يُطلب إليّ التخلّي عن كل ما هو عزيز على الإنسان: الطمأنينة، الأسرة، الأمان، الكرامة الإنسانية. فما هي هذه الدولة التي من أجلها تُطلب هذه التضحيات المخيفة؟ ولماذا هي لازمة وضرورية إلى هذا الحدّ؟

"الدولة – يقولون لنا– ضرورية حتماً لأنّ، أولاً، لولا الدولة لما كنّا جميعاً محميين من عنف وهجمات الأشرار؛ ثانياً، لولا الدولة لكنّا جميعاً متوحّشين، ولما كانت لدينا مؤسسات دينية وتعليمية وتربوية وتجارية وإعلامية وغيرها من المؤسسات الاجتماعية؛ ثالثاً، لذا، لولا الدولة لكنّا معرَّضين للاستعباد من قِبل الشعوب المجاورة".

يقولون لنا: "لولا الدولة لكنّا معرَّضين لعنف وهجمات الأشرار في وطننا".

لكن من هم هؤلاء الأشرار من بيننا الذين تحمينا الدولة وجيشها من عنفهم وهجماتهم؟ إذا كان هناك أناسٌ كهؤلاء قبل ثلاثة أو أربعة قرون عندما كان البشر يفتخرون بفنونهم الحربية وتسلّحهم، عندما كان قتل الناس يعتبر شجاعةً، فلم يعد هناك من وجود لهؤلاء الناس في الوقت الراهن، وجميع الناس في زماننا لا يستخدمون ولا يحملون الأسلحة، وجميعهم، معتنقين قاعدة محبة الإنسان والرأفة بالأقربين، يتمنّون ما نتمنّاه نحن كذلك،– فقط إمكانية العيش بهدوء وسلام. وبالتالي لم يعد هناك مغتصبون محدّدون يمكن للدولة حمايتنا منهم. أما إذا كان المقصود بالناس، الذين تحمينا الدولة منهم، المجرمين الذين يرتكبون الجرائم؛ فإننا نعلم أنّ هؤلاء ليسوا كائنات مختلفة، كوحوشٍ مفترسةٍ بين أغنام، بل هم بشرٌ مثلنا جميعاً، وكذلك تماماً لا يحبّون ارتكاب الجرائم، تماماً مثل الذين يُجرمون في حقهم. في الوقت الراهن، نعلم أنّ التهديدات والعقوبات لا يمكنها تقليل عدد هؤلاء الناس، وأنّ ما يقلّله فقط تغيير البيئة والتأثير الأخلاقي في الناس. بالتالي؛ فإنّ تبرير ضرورة عنف الدولة عبر حماية الناس من المغتصبين، إذا كان له أساس قبل ثلاثة أو أربعة قرون، فليس له أيّ أساس في الوقت الراهن. الآن يمكن، بالحري، قول العكس: بالتحديد، إنّ عمل الحكومات بأساليبها

العنيفة، المتخلّفة عن التطور الأخلاقي العام، العقوبات، السجون، الأشغال الشاقة، المشانق، المقاصل، هي التي تجعل الشعوب أكثر فظاظةً من أن تجعلها أكثر لطفاً، وبالتالي، هي التي تزيد عدد الغاصبين، ولا تقلّل منهم.

يقولون أيضاً: "لولا الدولة لما كانت هناك كل تلك المؤسسات التربوية والتعليمية والدينية والإعلامية وغيرها. لولا الدولة لما استطاع البشر إنشاء المؤسسات اللازمة لكافة الأعمال".

لكن كان بالإمكان أن يكون لهذه الحجة أساس قبل بضعة قرون فحسب أيضاً. إذا كان البشر، في وقتٍ من الأوقات، مشتتين بحيث كانت وسائل التواصل وتناقل الأفكار قليلة، ولم يكونوا قادرين على التباحث في، والاتفاق على، أيّ من الأعمال المشتركة، أكانت تجارية أم اقتصاديةً أم تعليمية، دون وجود الدولة كمركز، فلم يعد هذا التشتت موجوداً الآن. إنّ اتّساع نطاق تطور وسائل التواصل ونقل الأفكار لم يجعل بشر زماننا قادرين على تشكيل الجمعيات والمجالس والشركات والهيئات والمؤسسات العلمية والاقتصادية والسياسية من دون الحكومات فحسب بل الحكومات بالأحرى، في معظم الحالات، هي التي تعيق تحقيق هذه الأهداف بدلاً من أن تساعد على تحقيقها.

منذ أواخر القرن الماضي، لم تشجّع الحكومات أيّاً من خطوات البشرية إلى الأمام بل أعاقتها فحسب. هذا ما حدث مع الخلاص من العقاب الجسدي والتعذيب والعبودية؛ ومع تشريع حرية النشر والاجتماع. في وقتنا هذا، سلطة الدولة والحكومات ليست فقط لا تساعد على، بل تعيق صراحةً، كل الأعمال التي يبتكر البشر، عن طريقها، لأنفسهم أنماطاً جديدةً للحياة. إنّ حلّ قضايا العمال والفلاحين والقضايا الدينية والسياسية ليس فقط لا يُشجَّع بل ويُعاق بشكل مباشر من قِبل سلطة الدولة.

"لولا الدول والحكومات لتمّ استعباد الشعوب من قِبل جيرانها". بالكاد هناك حاجة للاعتراض على هذه الحجة؛ فهي تناقض ذاتها بذاتها.

الحكومات -كما يقولون لنا - ضرورية مع جيوشها لحمايتنا من الدول المجاورة التي قد تستعبدنا. لكنّ جميع الحكومات تقول هذا الكلام عن بعضها بعضاً، فضلاً عن أنّنا نعلم أنّ الشعوب الأوروبية كلها تعتنق مبادئ الحرية والإخاء ذاتها، لذا هي ليست بحاجة إلى حماية نفسها من بعضها بعضاً. أما إذا كان الحديث يتعلّق بالحماية من

الهمجيين؛ فمن أجل ذلك يكفي 0.001 من الجنود المجنّدين في الوقت الحالي. بالتالي، النتيجة على العكس مما يُقال: سلطة الدولة ليست فقط لا تحمي من خطر هجوم الجيران بل، على العكس، هي التي تنتج هذا الخطر.

بالتالي، لا يمكن إلاّ أن يكون واضحاً لأيّ إنسان، موضوع أمام ضرورة التفكير، من خلال الخدمة العسكرية، في معنى الدولة التي يُطلب إليه التضحية بطمأنينته وأمنه وحياته من أجلها، أنه لا يوجد أيّ مبرّر لتضحياتٍ كهذه في زماننا.

فضلاً عن أنّ أيّ إنسان، حين يُحاكِم نظرياً، لا يمكنه ألاّ يرى أنّ التضحيات، التي تطلبها منه الدولة، ليس لها أيّ مبرّر على الإطلاق؛ بل حتى حين يُحاكِم عملياً، أي حين يكابد كلّ الظروف القاسية التي تضع الدولة الإنسانَ فيها، لا يمكنه ألاّ يرى أنّ تنفيذ أوامر الدولة وأداءه الخدمة العسكرية، بالنسبة إليه في معظم الحالات، ليس أنفع له من رفض أدائها. إذا كان معظم الناس يفضّلون الخضوع على عدم الخضوع فهذا لا يحدث نتيجةً لموازنةٍ واعية بين المنفعة والضرر بل لأنّ الناس يُجذبون إلى الخضوع من خلال التخدير الذي يتعرّضون له في هذه الأثناء. بخضوعهم يذعن البشر فحسب للأوامر التي تُعطى لهم دون أن يناقشوها ودون أن يُعملوا إرادتهم؛ بينما من أجل عدم الخضوع هناك حاجة إلى محاكمةٍ وجهدٍ ذاتيين، الأمر الذي ليس أيّ إنسان مؤهّل له. أما إذا استثنينا المعنى الأخلاقي للخضوع وعدم الخضوع، وأخذنا المنافع فقط بنظر الاعتبار، فبشكل عام عدم الخضوع أنفع دائماً من الخضوع.

أياً كنتُ، إنساناً موسَراً من الطبقات المضطهِدة أم من العمال المضطهَدين، في كلتي الحالتين أضرار عدم الخضوع أقلّ من أضرار الخضوع، ومنافع عدم الخضوع أكبر من منافع الخضوع.

إذا كنتُ أنتمي إلى الأقلية المضطهِدة؛ فإنّ مضارّ عدم الخضوع لأوامر الحكومة سوف تكمن في أنهم سيحاكمونني، كرافضٍ لتنفيذ أوامر الحكومة، وفي أحسن الأحوال ستتمّ تبرئتي أو، كما يفعلون لدينا بالمينونيين، سيجبرونني على قضاء مدة الخدمة في عملٍ غير عسكري؛ وفي أسوأ الأحوال سيحكمون عليّ بالنفي أو السجن لعامين أو ثلاثة (أنا أتحدّث بموجب أمثلة حدثت في روسيا) أو ربما لفترة اعتقال أطول، أو ربما حتى يقومون بإعدامي رغم أنّ احتمال عقوبةٍ كهذه ضعيفٌ جداً.

هذه هي مضارّ عدم الخضوع. أما مضارّ الخضوع فسوف تكمن في ما يلي: في أحسن الأحوال لن يرسلوني لقتل الناس، ولن يعرّضوني أنا نفسي للتعذيب والموت، بل فقط سيقومون بتجنيدي في العبودية العسكرية: سيلبسوني ملابس مضحكة، سيقسو عليّ كلّ من هو أعلى مني رتبةً، بدءاً من وكيل العريف وصولاً إلى الفيلدمارشال، سيرغموني على التمايل بجسدي كما يريدون، وبعد إبقائي في الخدمة من عامٍ إلى خمسة أعوام، يجب أن أكون مستعداً للحضور، في أيّ لحظة، لمدة عشر سنوات، لتنفيذ هذه الأعمال كلها. بينما في أسوأ الأحوال، بالإضافة إلى كل ظروف العبودية السابقة، سيقومون بإرسالي إلى الحرب، حيث سأضطر إلى قتل أناسٍ لم يفعلوا لي شيئاً من أبناء الشعوب الأخرى، حيث أنا نفسي قد أُطعَن أو أُقتَل، وقد أجد نفسي في مكانٍ ما، كما حدث في سيفاستوبل وكما يحدث في الحروب كلها، حيث يتمّ إرسال الناس إلى موتٍ محقّق، والعذاب الأكبر هو أنهم قد يرسلونني لقتال مواطنيٍّ وسيكون عليّ قتل إخواني في سبيل مصالح الملوك أو الحكومات الغريبة عني تماماً. هذه هي المضارّ المقارنة.

أما المنافع المقارنة للخضوع وعدم الخضوع فهي التالية: بالنسبة لغير الرافض سوف تكمن المنافع في أنه، متعرّضاً لشتّى أشكال الإذلال ومنفّذاً شتى الأعمال القاسية التي تُطلب منه، ربما، في حال لم يُقتل، يتلقّى أوسمةً جميلةً، ذهبيةً، مزخرفةً تزيّن ملابس المهرّجين المضحكة التي يرتديها، وقد يغدو، في أحسن الأحوال، آمراً لمئات الآلاف من أمثاله الذين جُعلوا بهائم مثله، وأن يُدعى فيلدمارشالاً، ويحصل على الكثير من المال. أما مكاسب الرافض فسوف تكمن في أنه سيحافظ على كرامته الإنسانية، ويحصل على احترام الناس الطيبين، والأكثر أهميةً هو أنه سيعلم دون شكّ أنّه يقوم بما أمر به الله، وبالتالي لا شكّ في أنه يُحسن إلى الناس.

هذه هي منافع ومضارّ كلتي الحالتين بالنسبة إلى شخصٍ من الطبقات الغنية، بالنسبة إلى مضطهِد؛ أما بالنسبة إلى إنسانٍ من الطبقة العاملة البائسة فالمنافع والمضارّ هي ذاتها مع زيادة كبيرة للمضارّ. المضارّ بالنسبة إلى إنسانٍ من الطبقة العاملة، غير رافضٍ أداءَ الخدمة العسكرية، ستكمن أيضاً في أنه، إذ يلتحق بالخدمة العسكرية، سوف يعزّز، عبر مشاركته وما تبدو موافقته، الاضطهاد الذي هو نفسه يعانيه.

لكن ليس إدراك مدى ضرورة وفائدة الدولة للناس الذين يتمّ استدعاؤهم إلى الخدمة العسكرية لمساندتها، وبدرجة أقلّ إدراك منافع ومضارّ - بالنسبة لكلّ شخص على حدة- طاعة أو عدم طاعة أوامر الحكومة، هو الذي يحلّ مسألة ضرورة وجود الدولة أو فنائها. ما يحسم هذه المسألة هو الوعي الديني الراسخ والحازم لدى كلّ إنسان على حدة وضميره، والذي تمثُل، تلقائياً، أمامه مسألة وجود أو عدم وجود الدولة.

VIII

يُقال غالباً إنّه إذا كانت المسيحية هي الحقّ فكان يجب أن يعتنقها البشر جميعاً حين ظهرت، وكان عليها أن تغيّر حياة البشر آنذاك، وتجعلها أفضل. لكنّ هذا القول يماثل قول إنّ البذرة يجب أن تُنتش وتُزهر مباشرةً بعد غرسها.

التعليم المسيحي ليس تشريعاً مفروضاً بالقوة بحيث يغيّر حياة البشر فوراً. المسيحية عبارة عن فهمٍ مختلفٍ، جديدٍ، أسمى للحياة. ومفهومٌ جديدٌ لا يمكن فرضه وإنما يمكن فقط هضمه بحرية.

الهضم الحرّ لفهمٍ حياتيٍّ جديد ممكنٌ فقط بطريقتين: روحية- داخلية، وخِبرتية- خارجية.

بعض الناس -الأقليّة- يتبيّنون، فوراً ومباشرةً وبحسٍّ نبوئيّ، حقّانية التعليم، فيُسلِمون له ويُطبّقونه. آخرون -الأكثرية- فقط عبر دربٍ طويلٍ من الأخطاء والخبرات والآلام يتوصلّون إلى إدراك حقّانية التعليم وضرورة هضمه.

وقد توصلّ معظم سكّان العالم المسيحي الآن إلى هذه الضرورة لهضم التعليم عن طريق الخبرة الخارجية.

يخطر في البال أحياناً: لماذا كانت هناك حاجة إلى تحريف المسيحية، الذي يُعيق، أكثر من أيّ شيءٍ آخر في الوقت الراهن، اعتناق المسيحية بمعناها الحقّ؟ غير أنّ هذا التحريف للمسيحية، الذي أوصل البشر إلى الحال التي هم عليها الآن، كان شرطاً ضرورياً ليكون بمقدور معظم البشر اعتناق المسيحية بمعناها الحقّ.

لو أنّ المسيحية قُدِّمَت للبشر بشكلها الحقّ، وليس المحرّف، لما اعتنقها معظم البشر، ولظلّت غريبةً على هؤلاء الناس كما هي غريبة الآن على شعوب آسيا. عبر اعتناقها، بشكلها المحرّف، تعرّضت الشعوب التي اعتنقتها لتأثيرها الأكيد رغم بطئه، وعبر طريقٍ طويلةٍ من الخبرة والأخطاء، والآلام الناتجة عنها، توصلّت الآن إلى ضرورة هضمها بمعناها الحقّ.

إنّ تحريف المسيحية، واعتناقها بشكلها المحرّف من قِبل معظم البشر، كان ضرورياً كما أنّ من الضروري أن تُخفى البذرة في الأرض لبعض الوقت لكي تنبت.

التعليم المسيحي هو تعليم الحقيقة بالإضافة إلى النبوّة.

قبل ألفٍ وثمانمائة عام كشف التعليم المسيحي للبشر الحقيقة حول كيفية وجوب عيشهم، وتنبّأ، إضافةً إلى ذلك، بشكل حياة البشرية إذا لم يعش البشر على هذا النحو، واستمروا بالعيش وفق الأسس التي عاشوا وفقها من قبل، وكيف ستكون إذا ما قبلوا بالتعليم المسيحي وقاموا بتطبيقه في حياتهم.

مُعلِّماً، في الموعظة على الجبل، التعليم الذي يجب أن يوجّه حياة البشر، قال المسيح: "فكلُّ من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أُشبِّهه برجلٍ عاقلٍ بنى بيته على الصخر؛ فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبّت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط لأنه كان مؤسَّساً على الصخر. وكلّ من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها يُشبَّه برجلٍ جاهلٍ بنى بيته على الرمل؛ فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبّت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط، وكان سقوطه عظيماً!" (متّى: 7، 24-27). وهاهي النبوءة تتحقّق بعد ثمانية عشر قرناً. من جرّاء عدم اتّباعهم تعليم المسيح بشكل عام، وعدم اتّباعهم تجلّيه في الحياة الاجتماعية عبر عدم مقاومة الشرّ، وصل البشر، بصورة تلقائية، إلى حالة حتمية الهلاك التي وعد المسيح بها الذين لا يتّبعون تعليمه.

يعتقد البشر غالباً أنّ مسألة مقاومة أو عدم مقاومة الشرّ بالعنف إنما هي مسألة مختلقة يمكن تجاوزها، في حين أنّها قضية الحياة ذاتها، والماثلة أمام البشر جميعاً، وأمام كلّ إنسانٍ ذي فكر، وتتطلّب حلاً لا مناص منه. هذا السؤال، بالنسبة للبشر في حياتهم الاجتماعية منذ أن وعظ به التعليم المسيحي، هو ذات السؤال بالنسبة للرحّالة عن الطريق التي يجب أن يسلكها حين تتفرّع الطريق التي كان يسير فيها. لا بدّ من السير، ولا يجوز القول: لن أفكّر، وسأسير كما كنت أسير من قبل. كانت هناك طريق واحدة، وهناك اثنتان الآن، ويستحيل السير كما في السابق، ولا بدّ من اختيار إحدى الطريقين.

كذلك بالضبط، منذ أن عرف البشر تعليم المسيح، لم يعد جائزاً القول: سأعيش كما كنت أعيش من قبل دون حلّ المسألة المتعلّقة بمقاومة أو عدم مقاومة الشرّ بالعنف. يجب حتماً عند نشوء أيّ صراع حلّ السؤال التالي: هل يجب عليّ مقاومة أم عدم مقاومة ما أعتبره شرّاً بالعنف؟

لقد نشأ السؤال حول مقاومة أو عدم مقاومة الشرّ بالعنف عندما نشب أول صراع بين البشر، إذ إنّ أيّ صراع ليس سوى مقاومة ما يعتبره كلٌّ من المتصارعين شرّاً بالعنف. لكنّ البشر قبل المسيح لم يكونوا يرون أنّ مقاومة، عن طريق العنف، ما يعتبره المرء شرّاً فقط لأنّه هو يعتبر شرّاً ما يعتبره الآخر خيراً، إنما هو إحدى طرق حسم الصراع، وأنّ هناك طريقة ثانية تكمن في عدم مقاومة الشرّ بالعنف على الإطلاق.

قبل تعليم المسيح كان البشر يتصوّرون أنّ هناك طريقة واحدة لحلّ الصراع، وذلك عن طريق مقاومة الشرّ بالعنف، وكانوا يتصرّفون على هذا النحو بحيث أنّ كلاًّ من المتصارعين كان يحاول، في هذه الأثناء، أن يقنع نفسه والآخرين أنّ ما يعتبره شرّاً هو بالفعل شرٌّ مطلق.

لذا راح البشر، منذ سحيق القدم، يبتكرون تعاريف للشرّ تكون ملزمةً للجميع. وتبعاً لتعاريف الشرّ هذه، الملزمة للجميع، سُنَّت التشريعات التي اعتُقِد أنها متلقّاة بطرق خارقة من قِبل أناسٍ، أو جوامعِ بشرٍ، نُسبت إليهم صفة العصمة. لقد استخدم البشر العنف ضدّ الآخرين، وأقنعوا أنفسم والآخرين بأنهم إنما يستخدمون هذا العنف ضدّ الشرّ الذي يُقرّه الجميع شرّاً.

وقد استُخدمت هذه الوسيلة منذ سحيق القِدم، وخاصةً من قِبل الذين استولوا على السلطة، ولزمنٍ طويل لم يكن البشر يرون لاعقلانية هذه الوسيلة.

لكن كلّما امتدت العمر بالبشر أكثر، وكلّما غدت علاقاتهم معقّدة أكثر، كلّما اتّضح أكثر أنّ مقاومة ما يعتبره المرء شرّاً بالعنف جنونٌ، وأنّ الصراع نتيجةً لذلك لا يصبح أقلّ، وأنّ أيّاً من تعاريف البشر لا يمكنها أن تجعل ما يعتبره الناس شرّاً، بحيث يُعتبَر كذلك من قِبل الآخرين أيضاً.

لكن في زمن ظهور المسيحية، في المكان الذي ظهرت فيه، في الإمبراطورية الرومانية، بالنسبة لعددٍ كبير من الناس كان قد أصبح واضحاً أنّ ما يعتبره نيرون وكاليغولا الشرّ الذي يجب مقاومته بالعنف لا يمكن أن يعتبره الآخرون شرّاً. حتى آنذاك كان البشر قد بدأوا يدركون أنّ قوانين البشر، المقدَّمة على أنها قوانين إلهية، إنما هي مكتوبة من قِبل البشر، وأنّ البشر لا يمكنهم أن يكونوا معصومين مهما اكتسوا بعظمةٍ خارجية، وأنّ البشر الخطّائين لا يصبحون معصومين من جرّاء أنهم يجتمعون ويُسمّون

مجلسَ شيوخٍ أو غيرها من المسمّيات. حتى آنذاك كان الكثيرون يشعرون بهذا ويدركونه. وآنذاك بشّر المسيح بتعليمه الذي لا ينحصر فقط في عدم مقاومة الشرّ بالعنف، وإنما هو تعليمٌ يتعلق بفهمٍ جديد للحياة، والذي جزءٌ منه، أو بالحري تطبيقه في الحياة الاجتماعية، كان التعليم المتعلّق بوسيلة القضاء على الصراع بين البشر جميعاً، ليس عبر إرغام قسمٍ من البشر على الإذعان، دونما صراع، لما تفرضه عليه شخصيات معينة ذات نفوذ، وإنما من خلال عدم استخدام العنف من قِبل أيٍّ كان، وخاصةً السلطات، ضدّ أيٍّ كان، في أيّ حالٍ من الأحوال.

اعتنق هذا التعليم آنذاك عدد قليل جداً من التلاميذ، في حين أنّ معظم البشر، خاصةً كلّ الذين كانوا يتسلّطون على الناس، والذين، بعد اعتناقهم المسيحية بالاسم فقط، احتفظوا لأنفسهم بقاعدة مقاومة ما يعتبرونه شرّاً بالعنف. هكذا جرت الأمور في ظلّ الأباطرة الرومان والبيزنطيين، وهكذا استمرّت الحال لاحقاً أيضاً.

إن تهافت مبدأ التحديد الموثوق لماهية الشرّ، ومقاومته بالعنف، بات جليّاً في القرون الأولى للمسيحية، وبات جلّياً أكثر عند تفكّك الإمبراطورية الرومانية إلى دولٍ كثيرةٍ متساوية الحقوق، في ظلّ العداوة فيما بينها، وأثناء الصراعات الداخلية الجارية داخل الدول.

لكنّ البشر لم يكونوا جاهزين بعد لقبول الحلّ الذي قدّمه المسيح، والطريقة القديمة لتحديد الشرّ الذي يجب مقاومته من خلال سنّ قوانين مُلزمة للجميع، ويتمّ تطبيقها بالقوة، ظلّت قائمة. الذي يقرّر ما الذي يجب عدّه شرّاً، وما الذي يجب مقاومته بالعنف، كان البابا أو الإمبراطور أو الملك أو مجلس المنتخَبين أو مجموع الشعب. لكن سواء في الحكومة أم خارجها كان هناك دائماً أناسٌ لا يعترفون بإلزامية القرارات التي تُقدَّم على أنّها أوامر الله، ولا قرارات الناس الموسومين بالقداسة، ولا قرارات المؤسسات التي من واجبها تمثيل إرادة الشعب؛ والناس الذين كانوا يعدّون خيراً ما تعتبره السلطات شرّاً، ناضلوا ضدّ السلطات بذات العنف الذي كان يُستَخدم ضدهم.

الناس، الموسومين بالقداسة، كانوا يعتبرون شرّاً ما يعتبره الناس الذين يجسّدون (والمؤسسات التي تجسّد) السلطة الدنيوية خيراً، وبالعكس، وازدادت حدّة الصراع أكثر فأكثر. وكلّما تمسّك البشر أكثر بهذه الوسيلة لحسم الصراع كلّما اتّضح أكثر أنّ هذه

الوسيلة ليست صالحة لأنه ليس هناك، ولا يمكن أن يكون هناك، تحديدٌ خارجيٌ للشرّ يقرّه الجميع. لا وجود لتعريفٍ كهذا للشرّ، ولا يمكن له أن يوجد. وبلغ الأمر بالبشر أنهم لم يكفّوا عن تصديق إمكانية العثور على هذا التعريف المشترك والمُلزم للجميع فحسب بل وكفّوا حتى عن الاعتقاد بضرورة وضع تعريفٍ كهذا. ووصل الأمر إلى أنّ الحائزين السلطة كفّوا عن إثبات ما يعتبرونه شرّاً بل صاروا يقولون صراحةً إنهم يعتبرون شرّاً ما لا يعجبهم، والناس، الخاضعين للسلطة، أصبحوا يطيعونها ليس لأنهم يُصدّقون أنّ تعريف الشرّ، الذي تعطيه السلطة له، صحيح بل فقط لأنهم كانوا عاجزين عن عدم الطاعة. إنّ ضمّ نيس إلى فرنسا، ولوتارغينيا إلى ألمانيا، وتشيكيا إلى النمسك؛ وتقسيم بولونيا؛ وخضوع إيرلندة والهند للإدارة الإنكليزية؛ وقتال الصينيين وقتل الأفارقة؛ وتشريد الأمريكيين للصينيين، واضطهاد الروس لليهود؛ وانتفاع الملاّكين من الأرض التي لا يزرعونها، واستغلال الرأسماليين لنتاج جهود الآخرين؛ لا يحدث هذا كله لأنّه خيرٌ وضروريٌ ومفيدٌ للبشر، وأنّ مقاومة هذا هو شرّ، بل فقط لأنّ الذين يحوزون السلطة يريدون أن يكون الأمر على هذا النحو. وقد صُنِع ما يُصنَع الآن أيضاً: بعض الناس يمارسون العنف ليس لأنهم يعتبرون -كما كان يُعتقَد فيما مضى- أنّ العنف يُمارَس عليهم لتخليصهم من الشرّ ولخيرهم، وإنما فقط لأنهم غير قادرين على الخلاص من العنف.

إذا ما كان الإنسان الروماني، القروسطي، إنساننا الروسي كما أذكره منذ خمسين سنة، كان مقتنعاً قناعةً لا شكّ فيها أنّ عنف السلطة القائم ضرورة لا بدّ منها لتخليصه من الشرّ، وأنّ الضرائب وابتزاز المال ونظام الرقّ والسجون الجَلد والسياط والأشغال الشاقة والإعدامات والجيوش والحروب يجب أن تكون موجودة؛ فيندر، في الوقت الراهن، أن تجد شخصاً ليس فقط يُصدّق أنّ كلّ العنف الممارَس يُخلِّص أحداً من أيِّ شرٍّ كان بل ولا يرى بوضوح أنّ معظم العنف الذي يتعرّض له، والذي يشارك في قسمٍ منه، هو بحدّ ذاته شرٌّ كبير لا جدوى منه.

ما من إنسانٍ لا يرى، في الوقت الراهن، ليس فقط لاجدوى بل وعبثية جباية الضرائب من الشعب الكادح من أجل إثراء الموظفين المتبطّلين، أو لاجدوى إنزال العقاب بأناسٍ مفسَدين وضعفاء، كنفيهم إلى مكانٍ ما، أو حبسهم في السجون حيث، إذ

يعيشون عيشةً مكفولةً ومتبطّلةً، يزدادون فحسب فساداً وضعفاً، أو ليس فقط لاجدوى وعبثية، وإنما صراحةً جنون وقسوة، الاستعدادات الحربية والحروب التي تُدمِّر وتُهلك الشعب، والتي ليس لها أيّ تفسير أو تبرير، ورغم ذلك فإنّ أعمال العنف هذه تستمرّ وحتى تُدعَم من قِبل ذات الناس الذين يرون لاجدواها وعبثيتها وقسوتها، ويعانون من جرّائها.

فإذا كان الإنسان الغني المتبطّل والإنسان العامل الأميّ، كلاهما كانا مقتنعين، قبل خمسين سنة، أنّ وضع التبطّل الأبدي لبعضهم والكدح الأبدي لآخرين مقدَّرٌ من قِبل الله ذاته؛ ففي الوقت الراهن، وليس في أوروبا فقط بل وفي روسيا بفضل انتقال السكّان وانتشار القراءة والكتابة والطباعة، يصعب العثور بين الأغنياء والفقراء على إنسانٍ لا يساوره الشكّ، من هذه الناحية أو تلك، في عدالة هذا النظام. لا يعلم الأغنياء فقط أنهم مذنبون لكونهم أغنياء، ويحاولون التكفير عن ذنبهم من خلال تقديم التضحيات في سبيل العلم والفنّ، كما كان الناس فيما مضى يُكفّرون عن ذنوبهم عبر تقديم الأضاحي للكنيسة، بل حتى النصف الأكبر من الشعب الكادح بات يدرك الآن صراحةً أنّ النظام القائم باطل ويجب القضاء عليه أو تغييره. بعض الناس، الذين هم بالملايين لدينا في روسيا، ممّن يُسمّونهم الطوائفيين، يعتبرون هذا النظام باطلاً ويجب القضاء عليه بناءً على تعليم الإنجيل المفهوم بجوهره الحقيقي؛ آخرون يعتبرونه باطلاً بناءً على النظرية الاشتراكية أو الشيوعية أو الأنارخية المتغلغلة، في الوقت الحالي، إلى أدنى شرائح الشعب الكادح.

لم يعد العنف يرتكز الآن على كونه ضرورياً بل فقط على كونه موجوداً منذ زمنٍ بعيد، وهو منظَّم من قِبل الذين هو مفيد لهم، أي الحكومات والطبقات الحاكمة، بحيث أنّ الناس الخاضعين لسلطتهم يعجزون عن الإفلات من قبضته.

الحكومات في زماننا -كلّ الحكومات، الأشدّ استبداداً بينها والليبرالية كذلك- أصبحت على نحوٍ بحيث أسماها غيرتسن بحقّ "جنكيزخانات مع تلغراف"، أي منظمات عنف لا ترتكز على شيء سوى التعسّف الأشدّ قسوةً، بالإضافة إلى استغلالها كافة الوسائل، التي ابتكرها العلم من أجل النشاط الجماعي السلمي لأناسٍ أحرارٍ متساوي الحقوق، لاستعباد البشر.واضطهادهم.

لم تعد الحكومات والطبقات الحاكمة ترتكز الآن على الحقّ، ولا حتى على ما يشبه العدالة، وإنما على تنظيمٍ بمنتهى الحذاقة، بواسطة منجزات العلم، البشر جميعاً بموجبه أسرى حلقة العنف التي لا توجد أيّ إمكانية للإفلات منها. هذه الحلقة مكوّنة الآن من أربع وسائل للتأثيرِ في الناس. وهذه الوسائل كلها مترابطة فيما بينها، وكلٌّ منها تسند الأخرى كحلقات السلسلة.

الوسيلة الأولى هي وسيلة الترهيب، الأقدم بين الوسائل. تكمن هذه الوسيلة في إظهار نظام الدولة القائم (أيّاً كان شكله، سواء كان جمهورياً حرّاً أم استبدادياً بمنتهى الوحشية) كشيءٍ ما مقدّس ثابت، لذا فهو يُنزل أقسى أشكال التعذيب بأيّ محاولة لتغييره. وكما استُخدمت هذه الوسيلة من قبل، هي تُستخدم الآن بثبات في كلّ مكان توجد فيه حكومة: في روسيا ضدّ من يُسمَّون العدميين، في أمريكا ضد الأنارخيين، في فرنسا ضدّ الإمبرياليين والكومونيين والأنارخيين. سكك الحديد، البرق، الهاتف، التصوير، وطريقة عزل الناس، دون قتلهم، في زنزانات انفرادية حيث يهلكون في خفيةٍ عن الناس ويتمّ نسيانهم، وابتكارات أحدث كثيرة غيرها، تستخدمها الحكومات بكثافة، والتي تمنحها قدرة كبيرة إلى درجة أنّ السلطة، إذا وقعت في أيدي أناسٍ محدّدين، وتعمل، بدأب، الشرطة، السرية والعلنية، والإدارة وشتى أنواع المدّعين العامّين، والسجّانون والجلاّدون، لا تعود هناك أي إمكانية لتقويض الحكومة مهما بلغ جنونها وقسوتها.

الوسيلة الثانية هي الرشوة. وتكمن في انتزاع الثروة من العمال الكادحين عن طريق الضرائب، وتوزيعها على الموظفين الذي يجب عليهم، لقاء هذه المكافأة، الحفاظ على استرقاق الشعب وتعزيزه.

الموظفون المرتشون هؤلاء، من أعلى وزير إلى أدنى كاتب في دائرة، الذين يشكّلون شبكة لا تنفصم من أناسٍ تربط بينهم ذات المصلحة في الاعتياش من عمل الشعب، والذين يزدادون غنىً كلّما رضخوا أكثر لإرادة الحكومات، دائماً وفي كلّ مكان، دون أن يتورّعوا عن استخدام أية وسيلة كانت، وفي جميع المجالات، ينودون، بالقول والفعل، عن عنف الحكومة، الذي تقوم رفاهيتهم عليه.

الوسيلة الثالثة لا يمكنني تسميتها إلا تخدير الشعب. وتكمن هذه الوسيلة في كبح التطور الروحي للناس، وفي إبقائهم، بشتى أشكال الإيهام، ضمن فهمٍ للحياة تجاوزته البشرية، والذي تقوم عليه سلطة الدولة. هذا التخدير، في الوقت الراهن، منظّم بمنتهى التعقيد، وإذ يبدأ تأثيره في الناس منذ سنّ الطفولة، فإنه يستمرّ حتى مماتهم. يبدأ هذا التخدير منذ السنين الأولى في المدارس الإلزامية المؤسَّسة خصيصاً لهذه الغاية، والتي يُلقِّنون فيها الأطفال نظرةً إلى العالم كانت ملائمة لأسلافهم، وتناقض صراحةً الوعي المعاصر للبشرية. في البلدان التي هناك دين للدولة، يُدرِّسون الأولاد خرافات المناهج التعليمية الكنسية السخيفة، مع الإشارة إلى ضرورة طاعة السلطات؛ وفي الدولة الجمهورية يُعلِّمونهم خرافة الوطنية المتوحشة وذات الإلزامية الساذجة بطاعة الحكومات. في سنوات النضج يستمر تخدير الناس هذا عبر تعزيز كلتي الخرافتين: الدينية والوطنية. حيث تُعزَّز الخرافة الدينية عبر إقامة –بالأموال المأخوذة من الشعب– المعابد والمواكب والتماثيل والاحتفالات، وعن طريق الرسومات والموسيقى والعمارة والروائح العطرية التي تُخدِّر الشعب، والأهم عبر امتلاك إكليروس مهمّته تجهيل الناس وإبقاءهم في حالة الخِدار الدائم، من خلال تصوّراته وعبادته الغيورة ومواعظه وتدخّله في حياة الناس الخاصة –عند الولادات والزيجات والوفيات. أما خرافة الوطنية فيتمّ تعزيزها عبر إقامة –بالأموال المأخوذة من الشعب– الحكومات والطبقات الحاكمة الاحتفالات الاجتماعية والعروض المسرحية والتماثيل والأعياد التي تستميل الناس إلى إقرار القيمة الاستثنائية لشعبهم فقط، وعظمة دولتهم وحكّامهم فقط، وإلى عدم ودّ، بل حتى كُره، الشعوب الأخرى. مقابل ذلك تمنع الحكومات الاستبدادية صراحةً طباعة الكتب ونشرها وإلقاء الكلمات التي تُنوِّر الشعب، وتقوم بنفي وسجن كلّ الناس القادرين على إيقاظ الشعب من عماه، فضلاً عن أنّ جميع الحكومات، دون استثناء، تحجب عن الشعب كلّ ما هو قادر على تحريره، وتُشجّع كل ما يُفسده؛ ككل الكتابات التي تُبقي الشعب رهن خرافاته الدينية والوطنية المتوحشة، وشتى أشكال التسليات الحسية، كالاستعراضات والسيرك والمسارح، وكذلك كافة أشكال التخدير البدني، كالتبغ والفودكا، التي تشكّل العائد الرئيس للدولة؛ بل تُشجّع حتى الدعارة التي لا تُقرّها معظم الحكومات فحسب بل وتنظّمها كذلك. هذه هي الوسيلة الثالثة.

الوسيلة الرابعة تكمن في أن يتمّ، بوساطة الوسائل الثلاثة السابقة، عزل قسم من الناس، من بين كلّ الناس المقموعين والمخدّرين على هذا النحو، من أجل تعريض هؤلاء الناس لوسائل قوية بصورة خاصة من التخدير والوحشية، وجعلهم أدوات معدومة الإرادة لاستخدامهم في كلّ الأعمال العنيفة والوحشية التي تحتاج الحكومات إليها.

يتمّ الوصول إلى هذا التخدير والتوحيش من خلال أخذ هؤلاء الناس في سنٍّ صغيرة حيث لم تتشكّل بعد لدى هؤلاء الناس مفاهيم أخلاقية واضحة وراسخة، وبعد عزلهم عن كلّ شروط الحياة الإنسانية الطبيعية: البيت، الأسرة، الموطن، العمل العقلاني، يحبسونهم معاً في ثُكنات، ويُلبسونهم معاطفَ خاصة، ويجبرونهم على القيام بحركات معينة، بمصاحبة الصرخات والطبول والموسيقا وأدواتٍ لمّاعةٍ مبتكرةٍ لهذا الغرض، وبهذه الطريقة يوصلونهم إلى حالة من التخدير يكفّون فيها عن أن يكونوا بشراً، ويصبحون آلاتٍ سخيفةً، مذعنةً للشخص المخدِّر. وهؤلاء الشباب المخدَّرون، الأقوياء جسدياً (الآن، في ظلّ الخدمة العسكرية الإلزامية، يأخذون كل الشباب) والمدجّجين بأدوات القتل، والمذعنين دائماً لسلطة الحكومات، والمستعدين لممارسة شتّى أشكال العنف تبعاً لأوامرها، هم الذين يشكّلون الوسيلة الرابعة والرئيسة لاستعباد البشر.

بهذه الوسيلة تُغلَق حلقة العنف. الترهيب، الرشوة، التخدير- هذا كله يصل بالناس إلى الجندية: والجنود يمنحون السلطة الإمكانية لإعدام الناس ونهبهم (لشراء ذمم الموظفين بهذه الأموال) وتخديرهم وتجنيدهم في الجندية التي تمنح السلطة القدرة على القيام بهذا كله.

لقد أُغلقت الحلقة، ولا توجد أيّ إمكانية للإفلات منها بالقوة. إذا كان بعض الناس يؤكّدون أنّ التحرّر من العنف أو حتى إضعافه ممكن أن يحدث من خلال قيام بعض الناس المضطهَدين بتقويض الحكومة المضطهِدة بالقوة واستبدالها بحكومة جديدة بحيث لا تعود هناك حاجة إلى هذا العنف اللازم لاستعباد البشر، وإذا كان بعض الناس يحاولون القيام بذلك؛ فإنّ هؤلاء الناس يخدعون أنفسهم والآخرين فحسب، وهم بهذا لا يُحسِّنون وضع البشر بل يجعلونه أسوأ فحسب. إنّ نشاط هؤلاء الناس يقوّي وحسب استبداد السلطة. إنّ محاولات هؤلاء الناس للتحرّر تقدّم فحسب للحكومات حجةً لتعزيز سلطتها، وتحرّضها على تعزيزها.

حتى إذا افترضنا أنّ الحكومة، نتيجةً لظروف خاصة ليست في صالحها كما حدث في فرنسا عام 1987، تمّ تقويضها بالقوة وانتقلت السلطة إلى أيادٍ أخرى؛ فإنّ هذه السلطة الجديدة لن تكون أبداً أقلّ قمعيةً من السابقة بل، على العكس، عبر دفاعها عن نفسها من أعدائها الحانقين الذين أسقطتهم، ستكون أشدّ استبداداً وقسوةً من التي سبقتها، كما يحدث في كلّ الثورات.

إذا كان الاشتراكيون والشيوعيون يعتبرون نظام المجتمع الرأسمالي الفردي شرّاً؛ فالأنارخيون يعتبرون السلطة ذاتها شرّاً، أي المَلَكيين والرأسماليين الذين يعتبرون، بدورهم، النظام الاشتراكي والشيوعي والأنارخية شرّاً؛ وجميع هذه الأحزاب ليست لديها أيّ وسيلة لتوحيد البشر سوى العنف. أيّاً كان الحزب الغالب؛ فمن أجل تسيير الحياة حسب نُظُمه، وكذلك للاحتفاظ بالسلطة، سيتوجّب عليه ليس فقط استخدام كلّ وسائل العنف الموجودة بل وابتكار وسائل جديدة. سيغدو أناس آخرون مستعبِدين، وسيُحيجون البشر إلى عنفٍ واستعبادٍ جديدين، لكنهما لن يكونا ذاتهما بل أشدّ قسوةً لأنّ كراهية الناس لبعضهم ستغدو أقوى من جرّاء الصراع، فضلاً عن أنّه سيتمّ تعزيز وابتكار وسائل جديدة للاستعباد.

هكذا جرت الأمور بعد كلّ الثورات وكلّ محاولات الثورة وكلّ المؤامرات وكلّ تغييرٍ للسلطة بالعنف. إنّ أيّ صراع يقوّي وحسب وسائل الاستعباد لدى أولئك الموجودين في السلطة في الوقت الراهن.

إنّ وضع بشر عالمنا المسيحي، وخاصةً مثالياتهم الأكثر شيوعاً، يُثبت هذا بشكل دامغ.

بقي الآن حقل واحد فقط لنشاط البشر لم تهيمن عليه السلطة بعد؛- الحقل الأُسري الاقتصادي، حقل الحياة الخاصة والعمل الخاص. وهذا الحقل الآن، بفضل نضال الشيوعيين والرأسماليين، تستولي عليه الحكومات شيئاً فشيئاً، بحيث أنّ عمل الناس ومستراحهم وسكناهم ولباسهم وطعامهم، إذا ما تحقّقت أمنيات الإصلاحيين، سوف تحدّدها وتقرّرها الحكومات.

إنّ مسار حياة الشعوب المسيحية الطويل، الممتد 1800 سنة، برمّته قد أوصلهم ثانيةً، بشكل حتمي، إلى ضرورة حلّ مسألة اعتناق أو عدم اعتناق تعليم المسيح، وإلى

ضرورة حلّ السؤال النابع منه لأجل الحياة المجتمعية، والمتعلّق بمقاومة أو عدم مقاومة الشرّ بالعنف، لكن مع فارق أنّ البشر كان بإمكانهم، فيما مضى، قبول أو عدم قبول الحلّ الذي قدّمه المسيح، أما الآن فصار لا بدّ من هذا الحلّ لأنه الوحيد الذي يُخلِّصهم من وضع العبودية الذي أوقعوا أنفسهم بأنفسهم في شراكه.

لكن ليست كارثية وضع البشر وحدها أوصلتهم إلى هذه الحتمية. فإلى جانب البرهان الذي يؤكّد تهافت البنيان الوثني سار كذلك برهان يؤكّد حقّانية التعليم المسيحي.

ليس عبثاً أنّ أفضل الناس في البشرية المسيحية برمّتها، طوال ثمانية عشر قرناً، بعد إدراكهم حقائق التعليم بطريقةٍ باطنية روحانية، شهدوا لصالحها أمام الناس رغم شتّى التهديدات والحرمانات والمصائب والعذابات. أفضل البشر هؤلاء طبعوا حقّانية التعليم باستشهادهم وبلّغوه للجماهير.

لم تلج المسيحية وعي البشر فقط عبر إثبات استحالة استمرار الحياة الوثنية بل كذلك عبر تبسيط وتوضيح، والتحرير من، الخرافات الممتزجة بها، ومن خلال انتشارها بين كافة فئات الشعب.

ثمانية عشر قرناً من اعتناق المسيحية لم تذهب سدىً بالنسبة إلى الذين اعتنقوها، ولو ظاهرياً. هذه القرون الثمانية عشر لم تجعل الناس، المستمرين بالعيش حياةً وثنيةً لا تناسب عمر الإنسانية، يرون بوضوح كارثية الوضع الذي هم فيه فحسب بل وأن يؤمنوا من أعماقهم (وهم أحياء فقط لأنهم مؤمنين) أنّ الخلاص من هذا الوضع يكمن فقط في تطبيق التعليم المسيحي بمعناه الحقّ. كيف ومتى سوف يتحقّق هذه الخلاص؟ الناس جميعاً لديهم اعتقادات مختلفة في هذا الخصوص، تبعاً لتطورهم العقلي والخرافات الشائعة في محيطهم، لكنّ البشر جميعاً في عالمنا يقرّون أنّ الخلاص يكمن في تطبيق التعليم. بعض المؤمنين، الذين يعتبرون التعليم المسيحي إلهياً، يعتقدون أنّ الخلاص سوف يحلّ عندما يؤمن البشر جميعاً بالمسيح ويغدو يوم القيامة قريباً؛ آخرون، كذلك يعترفون بألوهية تعليم المسيح، يعتقدون أنّ الخلاص سيحدث من خلال الكنيسة التي، بخضوع الناس جميعاً لها، سوف تغرس فيهم الفضائل المسيحية وتعيد بناء حياتهم. فريق ثالث، ممّن لا يعترفون بالمسيح إلهاً، يعتقد أنّ خلاص البشر سيجري عبر تقدّم بطيء تدريجي تحل بموجبه، شيئاً فشيئاً، مبادئ الحرية والمساواة والإخاء، أي مبادئ

المسيحية، محلّ مبادئ الحياة الوثنية؛ فريقٌ رابع؛ ممّن يدعون إلى إعادة بناء المجتمع، يعتقد أنّ الخلاص سوف يحدث عندما، عبر انقلابٍ عنفيٍّ، يضطرّ البشر إلى جماعية المُلكية، وإلى الخلاص من الحكومات، وإلى العمل الجماعي وليس الفردي، أي إلى تحقيق أحد جوانب التعليم المسيحي. بطريقة أو بأخرى، كلّ البشر في زماننا، في وعيهم، لا يستنكرون فحسب نظام الحياة الوثني البالي القائم بل ويقرّون، دون أن يعلموا ذلك غالباً، ويعتبرون أنفسهم أعداءَ للمسيحية، أنّ خلاصنا يكمن فقط في تطبيق التعليم المسيحي أو جزءٍ منه، بمعناهِ الحقّ، في الحياة.

لا يمكن للمسيحية أن تتحقّق مباشرةً بالنسبة إلى معظم البشر، كما قال معلّمها، وإنما يجب أن تنمو كما تنمو الشجرة الضخمة من البذرة الضئيلة. وقد نمت، وهي تنمو الآن، إن لم يكن بالفعل ففي وعي بشر زماننا.

في الوقت الراهن، لا تدرك المسيحية بمعناه الحقّ فقط قلّة قليلة من الناس، ممّن فهموها باطنياً دائماً، بل كذلك كلّ تلك الأكثرية الهائلة من البشر الذين يبدون، من حيث حياتهم الاجتماعية، بعيدين جداً عن المسيحية.

انظروا إلى الحياة الخاصة للأفراد، استمعوا إلى تقييمات أعمال الناس عندما يُحاكمون أعمال بعضهم بعضاً، استمعوا ليس فقط إلى الخُطب والأقوال العلنية بل وإلى النصائح التي يقدّمها الآباء والمربّون لربائبهم، وسترون مدى قرب حياة البشر، الدولتية والمجتمعية، المرتبطة بالعنف، من تحقيق الحقائق المسيحية في الحياة الخاصة، وكيف أنّ الجميع يعتبرون الفضائل المسيحية حسنةً للجميع دونما استثناء ودونما جدال؛ وكيف تُعتبر الرذائل المناقضة للمسيحية سيئة من قِبل الجميع وبالنسبة للجميع، دونما استثناء ودونما جدال. أفضل الناس هم الذين يكرّسون حياتهم، بنكران ذات، لخدمة الإنسانية، ويُضحّون بأنفسهم في سبيلها، والأسوأ هم الأنانيون الذين يستغلّون مصائب أقربيهم من أجل مصالحهم الخاصة.

إذا كان البشر يعتقدون أنّ المسيحية لم تمسّ ببعض المثاليات غير المسيحية، كالقوة والشجاعة والغنى؛ فإنّ هذه المثاليات قد ولّى زمانها، ولا يتشاطرها الجميع، ولا يعتبر البشر أنها الأفضل. في حين أنّ الجميع متّفقون على أنّ المثاليات المسيحية فقط تُعتبر ضروريةً مقارنةً بالمثاليات الأخرى كلها.

إنّ وضع عالمنا المسيحي، إذا ما نظرنا إليه من خارجه، بقسوته وبعبودية البشر فيه، مرعب بالفعل. أما إذا نظرنا إليه من ناحية تطور وعيه؛ فالمشهد مختلف كلياً.

شرّ حياتنا برمّته يبدو موجوداً فقط لأنه ارتُكب منذ زمنٍ بعيد، والناس الذين يرتكبونه لم يتسنّ لهم، ولم يتعلموا، بعد الكفّ عن القيام به، لكنهم جميعاً يتمنّون عدم ارتكابه.

هذا الشرّ كلّه موجودٌ لسببٍ آخر يبدو مستقلاً عن وعي البشر.

مهما بدا هذا غريباً ومتناقضاً، كلّ بشر زماننا يكرهون مجرى الأمور الذي هم أنفسهم يُبقون عليه.

يتحدّث ماكس مولّر عن دهشة هنديٍّ اعتنق المسيحية، والذي، بعد استيعابه جوهر المسيحية، سافر إلى أوروبا ورأى كيف يعيش المسيحيون. هذا الإنسان لم يتمكنّ من الثواب إلى رشده من جرّاء دهشته أمام الواقع المناقض كلياً لما كان يتوقّعه وسط الشعوب المسيحية.

إذا كان لا يُدهشنا التناقض القائم بين عقائدنا ومعتقداتنا وأفعالنا؛ فهذا يحدث فقط لأنّ المؤثّرات، التي تحجب هذا التناقض عن البشر، تؤثّر فينا أيضاً. يكفي فحسب أن ننظر إلى حياتنا من منظور ذلك الهندي الذي فهم المسيحية بمعناها الحقّ، دون أيّ ارتدادات وتكييفات، وإلى تلك الوحشيات الهمجية التي تمتلئ بها حياتنا، حتى نشعر بالرعب أمام التناقضات التي نعيشها دون أن نلاحظها غالباً. يكفي فقط تذكّر الإعدادات للحروب، القنابل المتشظّية، الرصاصات المفضّضة، الطوربيدات- ووسام الصليب الأحمر، وبناء الزنزانات الانفرادية وخبرات الإعدام بالكهرباء- والاهتمام برفاهية السجناء، وأعمال الأغنياء الخيرية- وحياتهم التي تخلق الفقراء الذين يُحسنون إليهم. وهذه التناقضات لا تحدث، كما قد يبدو، من جرّاء أنّ البشر يتظاهرون بأنهم مسيحيون في حين أنهم وثنيون بل، على العكس، لأنّ البشر يعيبهم شيء ما، أو أنّ هناك قوة تمنعهم من أن يكونوا بالكيفية التي يشعرون أنفسهم بها في وعيهم، وكما يريدون أن يكونوا بالفعل. بشر زماننا لا يتصنّعون بأنهم يكرهون الاضطهاد واللامساواة وتمايز البشر وشتّى أشكال القسوة، ليس تجاه البشر فقط بل وتجاه الحيوان كذلك،- إنهم بالفعل يكرهون هذا كلّه لكنهم لا

يعرفون كيفية الخلاص منه، أو لا يحسمون أمرهم للتخلّي عمّا يسند هذا كلّه، وما يبدو لهم ضرورياً.

بالفعل، اسألوا أيّ إنسان في زماننا على حدة ما يلي: هل يعتبره أمراً محموداً، بل ومحترماً، أن يعمل، ليحصل لقاء ذلك على راتب لا يُقاس بعمله، في جباية الضرائب من الشعب -الفقير غالباً- لكي يبني بهذه الأموال المدافع والطوربيدات وأدوات القتل لكي نستخدمها ضدّ أناسٍ نتمنّى غالباً أن نعيش معهم في سلام، والذين يتمنّون الشيء ذاته فيما يتعلّق بنا؛ أو أن يكرّس حياته -ثانيةً من أجل الراتب- لبناء أدوات القتل هذه، أو أن يتجهّز هو ذاته للقتل، ويعدّ الآخرين لذلك؟ واسألوه ما إن كان محموداً ومحترماً للإنسان، وما إن كان ملائماً للمسيحي إلقاء القبض -أيضاً لقاء المال- على أناسٍ أشقياء ضالّين ثملين، أمّيين غالباً، لأنهم يستولون على ممتلكات الغير، أقلّ بكثير مما نستولي عليه نحن، ولأنهم لا يقتلون بالطريقة التي اعتدنا نحن القتل بها، ووضعهم في السجون وتعذيبهم وقتلهم بسبب ذلك؟ وهل هو محمودٌ ومحترمٌ أن يقوم الإنسان المسيحي -مرة أخرى لقاء المال- بترويج خرافات سخيفة وضارّة محلّ المسيحية بين الشعب، بشكل مقصود؟ هل يجدر بالإنسان أن ينتزع من قريبه، لأجل شهوته، ما هو ضروريٌّ له لتلبية حاجاته الأولية، كما يفعل الملاّكون الكبار؛ أو تحمّل ما يفوق طاقته من جهدٍ مُهلكٍ للحياة لزيادة ثروته، كما يفعل التجار؟ وأيّ شخص على حدة، خاصةً إذا كان واحدهم يتحدث عن الآخر، سيقول: لا. ومع ذلك، ذلك الشخص نفسه، الذي يرى كلّ شناعة هذه الأفعال، من تلقاء ذاته، دون أن يرغمه أحد على ذلك، بل أحياناً حتى دون أيّ مكسبٍ ماليٍّ أو راتب، بشكل طوعيّ، بدافعٍ من غرورٍ طفوليّ، لقاء مِصلالٍ من الخزف أو وشاحٍ من الحرير أو شريطٍ من القصب، ممّا يُتاح له ارتداؤه، يذهب طوعاً إلى الخدمة العسكرية، أو يصبح محقّقاً أو قاضياً أو وزيراً أو شرطياً أو رجل دينٍ أو قندلفتاً، أو يتسنّم وظيفةً يكون مضطراً فيها إلى القيام بكلّ هذه الأعمال التي لا يمكنه ألاّ يعرف مدى خزيها وشناعتها.

أعرف أنّ كثيرين من هؤلاء الناس سيؤكّدون، بثقة بالنفس، أنهم لا يعتبرون وظيفتهم مشروعة فحسب بل وضرورية، وسيقولون، دفاعاً عن أنفسهم، إنّ السلطات من عند الله، وإنّ الوظائف الحكومية ضرورية من أجل خير الإنسانية؛ سيقولون إنّ الغنى لا

يتعارض مع المسيحية، وإنه قد قيل للشاب المسيحي أن يهب أملاكه فقط إذا كان يريد أن يكون كاملاً، وإنّ توزّع الثروة والتجارة القائم الآن يجب أن يكون على هذا النحو، وإنه مفيدٌ للجميع، وهلمّ جرّا. لكن مهما حاولوا أن يكذبوا على أنفسهم وعلى الآخرين، يعلم هؤلاء الناس جميعهم أنّ ما يقومون به يناقض كلّ ما يؤمنون به، مما يعيشون باسمه، وفي أعماقهم، حين يبقون بمفردهم مع ضمائرهم، يخزيهم ويُعذّبهم تذكّر ما يفعلونه، خاصةً إذا ما بُيِّنت لهم شناعة عملهم. ليس بمقدور إنسان زماننا، سواء كان مؤمناً أم غير مؤمنٍ بألوهية المسيح، ألاّ يعلم، أكان ملكاً أم وزيراً أم محافظاً أم شرطياً، أنّ مشاركته في بيع البقرة الأخيرة لعائلةٍ فقيرة من أجل دفع هذا المال لصنع المدافع أو لدفع رواتب ومهمّات الموظفين المترفين المتبطّلين الضارّين؛ أو المشاركة في سجن معيل أسرةً، نحن أفسدناه، وتشريد أسرته؛ أو المشاركة في غنائم الحروب ومجازرها؛ أو تلقين خرافات عبادة الأصنام الوحشية محلّ المسيحية؛ أو إنهاك إنسانٍ، لا يمتلك أرضاً، بالعمل في الأرض حتى مغيب الشمس؛ أو خصم ثمن أداةٍ عُطبت عن غير قصد من عاملٍ في مصنع؛ أو أخذ ضعف ثمن مادةٍ من فقير فقط لأنه بحاجة ماسّة إليها؛- ليس بمقدور أيّ إنسان في زماننا ألاّ يعلم أنّ هذه الأعمال كلّها سيئة ومخزية، وأنه لا يجب القيام بها. وجميعهم يعلمون هذا؛ يعلمون أنّ ما يفعلونه سيئ، وأنهم ما كانوا، لقاء أيّ شيء كان، ليفعلوا ذلك لو كانوا قادرين على مجابهة القوى التي، معميةً إياهم عن مدى إجرامية أفعالهم، تدفعهم إلى القيام بها.

لا تُرى بهذا الوضوح المدهش درجة التناقض، التي بلغتها حياة بشر زماننا، كما تُرى في الظاهرة التي تشكّل التعبير الأخير للعنف وأداته،- الخدمة العسكرية الإلزامية. إذ فقط لأنّ وضع التسلّح العام والخدمة العسكرية، الذي حلّ خطوة تلو الخطوة، غير ملحوظ، ولأنّ الحكومات، للإبقاء عليه، تستخدم كلّ الوسائل التي تحت تصرّفها، كالترهيب والرشوة والتخدير والعنف، لسنا نرى التناقض الصارخ بين هذا الوضع وبين المشاعر والأفكار المسيحية التي يعيها بشر زماننا بالفعل.

لقد اعتدنا هذا التناقض إلى درجة لم نعد نرى فيها كلّ عبثية ولاأخلاقية الأفعال المرعبة، ليس فقط أفعال الذين يختارون، برغبتهم، مهنة القتل كشيءٍ جديرٍ بالإجلال، بل كذلك أفعال أولئك الناس التعساء الذين يوافقون على أداء الخدمة العسكرية أو الذين،

في البلدان التي الخدمة العسكرية ليست إلزامية فيها، يؤجّرون أنفسهم طوعاً كجنودٍ وللتجهّز للقتل. إذ كلّ هؤلاء الناس، سواء كانوا مسيحيين أم يعتنقون المذهب الإنساني أو الليبرالي، يعلمون أنهم، عبر قيامهم بهذه الأعمال، يصبحون شركاء فيها، وفي حالة الخدمة العسكرية الطوعية يصبحون مرتكبي جرائم عنيفة لا معنى ولا غاية لها، ورغم ذلك يرتكبونها.

لكن عدا عن ذلك، في ألمانيا، هناك حيث نشأت الخدمة العسكرية الإلزامية، قال كابريفي ما كان يُحجَب بعناية من قبل، فقد قال إنّ الجنود لن يتوجّب عليهم قتل الغرباء فقط بل كذلك أهاليهم، أولئك الكادحين أنفسهم الذين جاء معظم الجنود من بينهم. وهذا الاعتراف لم يفتح أعين الناس، لم يفزعهم. وبعد هذا، كما في السابق، يستمرون بالذهاب، كالأغنام، إلى القيادة العامة، ويُذعنون لكلّ ما يُطلَب منهم.

لكن حتى هذا غيضٌ من فيض: منذ فترة قريبة، أوضح الإمبراطور الألماني، بدقّة أكبر، مهمة المقاتل ورسالته، مُكبِراً وشاكراً ومكافئاً جندياً على أنه قتل سجيناً أعزلاً حاول الفرار. من خلال شكره ومكافأته شخصاً على تصرّفٍ يعتبره حتى الناس، الذين يقفون على أدنى درجات الأخلاق، الأكثر دناءةً وخسّةً، أظهر ويلهلم أنّ الواجب الرئيس، والأكثر تقديراً من قِبل السلطات، للجندي يكمن في أن يكون جلاّداً، وليس جلاّداً محترفاً يقتل فقط المجرمين المحكومين بالإعدام بل جلاّداً لكلّ الأبرياء الذين يأمره القوّاد بقتلهم.

لكن حتى هذا غيضٌ من فيض: ففي عام 1891، ويلهلم هذا ذاته، enfant terrible [الولد المُحرج] لسلطة الدولة، الذي يقول ما يفكّر الآخرون فيه، أثناء حديثه إلى بعض الجنود، قال علناً الكلمات التالية، التي نشرتها آلاف الصحف في اليوم التالي:

"أيها الجنود! لقد أقسمتم لي، باعتباري هيكل الله وخادمه، يمين الولاء. ما زلتم صغار السنّ لتفهموا المعنى الحقيقي لكلّ ما قيل هنا، ليكن اهتماماً منصبّاً دائماً، قبل أيّ شيءٍ آخر، على اتّباع التعليمات والأوامر التي تُعطى لكم. لقد أقسمتم لي يمين الولاء، وهذا يعني أنكم جنودي الآن، يعني أنكم **قد أودعتموني أنفسكم، بالروح والجسد.** بالنسبة إليكم هناك عدوٌّ واحدٌ فقط، وبالتحديد عدوّي. في ظلّ المكائد الاشتراكية الحالية

قد يحدث أن آمركم بإطلاق النار على أقاربكم، على إخوانكم، بل حتى على آبائكم -لا سمح الله- وحينذاك يجب عليكم تنفيذ أوامري دونما اعتراض".

هذا الشخص يُفصح عمّا يعرفه كلّ الحكّام الأذكياء، لكنهم يخفونه بعناية. فهو يقول، بصريح العبارة، إنّ الذين يخدمون في الجيش إنما يخدمونه هو، ويخدمون مصلحته هو، ويجب أن يكونوا مستعدين، من أجل مصلحته، لقتل إخوانهم وآبائهم.

إنّه يعبّر، صراحةً وبأقسى الكلمات، عن كلّ هول الجريمة التي يتمّ إعداد الذين يلتحقون بالجندية لها، عن كلّ مستنقع الإذلال الذي ينتهون إليه إذ يَعدون بالطاعة. إنه، كمخدّرٍ جريء، يختبر درجة تخدُّر المخدَّر: يضع على جسده حديدةً مُحمّاة، الجسد يَنشّ ويحترق لكن المنوَّم لا يستيقظ.

هذا الإنسان المريض، المثير للشفقة، المغترّ بالسلطة، يهين، بأقواله، كل ما قد يكون مقدّساً لدى إنسان زماننا، والمسيحيون والليبراليون المثقفون، بشر زماننا كلّهم، ليس فقط لا تزعجهم هذه الإهانة بل حتى لا يلاحظونها. يتعرّض الناس للاختبار الأخير، الأقصى، بأشدّ الأشكال فظاظةً وحدّةً. والبشر، كما لو أنهم لا يلاحظون أنه اختبار لهم، وأنّ عليهم أن يختاروا. كأنما ليس لهم أيّ خيار، وأنّ هناك فقط طريق الخضوع العبودي. المفروض أنّ هذه الأقوال المجنونة، المهينة لكلّ ما يعتبره إنسان زماننا مقدّساً، كانت يجب أن تزعج الناس لكنّ شيئاً من هذا لم يحدث. كلّ شباب أوروبا برمّتها يخضعون، عاماً تلو الآخر، لهذا الاختبار، ولقاء امتيازات بمنتهى الضآلة يكفرون جميعاً بكلّ ما يمكنه أن يكون مقدّساً لدى الإنسان؛ الجميع يُعربون عن استعدادهم لقتل إخوانهم، بل حتى آبائهم، بموجب أمر أوّل إنسانٍ ضالٌ يرتدي زيّاً جميلاً مخاطاً بخيوطٍ ذهبية، وفقط يسألون عن الذي يجب قتله ومتى. وهم مستعدّون.

لكن حتى لدى أيّ إنسان همجي هناك شيء ما مقدّس هو مستعدٌّ للمعاناة في سبيله على أن يتخلى عنه. فأين هذا الشيء المقدّس لدى إنسان زماننا؟ يُقال له: كن عبداً لي لأستعبدك عبوديةً سيتوجّب عليك فيها قتل حتى أبيك الحقيقي، وهو -غالباً يكون متعلّماً درس العلوم كلها في الجامعة- يضع النير في رقبته باستكانة. يُلبسونه ملابس المهرّجين، ويأمرونه بأن يقفز ويتمايل وينحني ويقتل، وهو يفعل هذا كله بإذعان. وحين

يُسرّحونه يعود، كمن انتفض من النوم، إلى حياته السابقة، ويستمرّ بالتحدث عن كرامة الإنسان وعن الحرية والمساواة والإخاء.

"فما العمل، إذاً، -غالباً ما يسأل الناس بعدم فهم صادق.- لو أنّ الجميع رفضوا أداء الخدمة العسكرية فعندها، أجل. أما أن أعاني بمفردي دون أن أُقدّم نفعاً لأحد بهذا!!"

وبالفعل، لا يجب على إنسان الفهم الحياتي مجتمعي رفض أداء الخدمة. فخيره الشخصي هو مغزى حياته. بالنسبة إليه شخصياً، الأفضل أن يخضع، وهو يخضع.

مهما فعلوا به، مهما عذّبوه، مهما أهانوه، سوف يخضع لأنه بمفرده ليس قادراً على فعل شيء، ليست لديه مبادئ يمكنه من أجلها مواجهة العنف بمفرده. والذين يحكمون الناس لن يسمحوا لهم أبداً بأن يتّحدوا. يُقال غالباً إنّ اختراع أدوات القتل الحربية المخيفة سوف يقضي على الحرب؛- الحرب ستقضي على نفسها بنفسها. هذا غير صحيح. فكلّما ازدادت وسائل قتل البشر كلما ازدادت وسائل إخضاع بشر الفهم الحياتي المجتمعي. حتى إذا قتلوا منهم الآلاف، الملايين، وفجّروهم مِزقاً، فإنّ بعضهم -رغم ذلك-، كبهائم سخيفة، سيذهبون إلى المسلخ لأنهم يُساقون بالسياط؛ وسيذهب آخرون لأنه يُسمح لهم، بالمقابل، بارتداء شرائط وأوشحة، بل حتى أنهم يفتخرون بها.

وهنا، مع هؤلاء الناس المخدَّرين إلى درجة أنهم يَعِدون بقتل آبائهم، يتحدّث الناشطون الاجتماعيون-المحافظون والليبراليون والاشتراكيون والأنارخيون- عن كيفية بناء مجتمع رشيد وأخلاقي. أيّ مجتمعٍ رشيد وأخلاقي يمكن بناؤه من أناسٍ كهؤلاء؟ كما أنّ ليس بالإمكان بناء بيت من جذوع الأشجار العفنة والمعوجّة كذلك ليس بالإمكان بناء مجتمع رشيد وأخلاقي من هؤلاء الناس. من هؤلاء الناس يمكن فقط تشكيل قطيع من الأغنام يُقاد بصيحات وسياط الرعاة. وهكذا هي الحال.

وها هم أناسٌ، مسيحيون بالاسم فقط، يَدينون، من جهة، بالحرية والمساواة والإخاء، ومن جهة أخرى، هم مستعدون، باسم الحرية، لخضوعٍ بمنتهى العبودية والإذلال، وباسم المساواة هم مستعدون لتقسيم الناس، بمنتهى الحدّة والسخف، وفقط من حيث العلامات

الخارجية، إلى أغنياء وفقراء، إلى حلفاء وأعداء، وباسم الإخاء هم مستعدون لقتل هؤلاء الإخوة[37].

لقد بلغت تناقضات الوعي، وبالتالي بؤس الحياة، حدّها الأخير الذي ليس بالإمكان الذهاب أبعد منه. الحياة، المبنية على مبادئ العنف، بلغت حدّ إلغاء الأسس ذاتها التي تأسست باسمها. إنّ نظام المجتمع، القائم على مبادئ العنف، النظام الذي يهدف إلى ضمان المصلحة الشخصية والأسرية والاجتماعية، قد أوصل الناس إلى إلغاء هذه المصالح والقضاء عليها نهائياً.

لقد تحقّق القسم الأول للنبوءة على البشر وأحفادهم الذين لم يعتنقوا التعليم، وقد وصل أحفادهم الآن إلى حتمية اختبار عدالة القسم الثاني.

37- كون أنه لا توجد بعد لدى بعض الشعوب، كالإنكليز والأمريكيين، خدمة عسكرية إلزامية (رغم أنه قد بدأت تُسمع أصوات لصالحها)، بل هناك توظيف واستئجار للجنود، فإنّ هذا لا يغيّر شيئاً من حالة عبودية المواطنين في علاقتهم بالحكومة. هنا يجب على كل شخص أن يذهب بنفسه لكي يقتل أو يُقتل، وهناك يجب على كل شخص تأجير نفسه أو استئجار القتلة. – تولستوي.

IX

مازالت حال الشعوب المسيحية، في وقتنا الراهن، بذات القسوة التي كانت عليها في أزمنة الوثنية. بل غدت في كثيرٍ من الجوانب، خاصةً في استعباد البشر، أشدّ قسوةً مما كانت عليه في أزمنة الوثنية. لكن بين حالتي البشر في ذلك الوقت وفي زماننا هناك الفارق ذاته الكائن للنبات بين أيام الخريف الأخيرة وأيام الربيع الأولى. في فصل الخريف، الهمود الخارجي يستدعي حالة الاضمحلال الداخلي؛ بينما في الربيع، الهمود الخارجي يتواجد في تناقضٍ بمنتهى الحدّة مع الانبعاث الداخلي والانتقال إلى شكلٍ جديدٍ للحياة. والأمر هو ذاته بالنسبة للعلاقة بين الحياة الوثنية السابقة والحياة الحالية. التطابق ظاهريٌّ فقط: الحالة الداخلية للبشر في أزمنة الوثنية وفي زماننا مختلفة كلياً.

آنذاك كانت حالة قسوة البشر وعبوديتهم متوافقة تماماً مع وعي البشر الداخلي، وكل خطوة إلى الأمام كانت تعزّز هذا التوافق. في الوقت الراهن، حالة القسوة والعبودية تناقض كلياً الوعي المسيحي للبشر، وكل خطوة إلى الأمام تعزّز هذا التناقض فحسب.

هناك آلام تبدو غير ضرورية وغير مفيدة. هناك ما يشبه المخاض. كل شيء بات جاهزاً من أجل حياةٍ جديدة، لكن هذه الحياة لمّا تتجلَّ بعد.

يبدو أنْ لا مخرج من هذا الوضع. ولكان ظلّ هكذا لو لم تُعطَ للإنسان، وبالتالي للبشر جميعاً، إمكانية فهمٍ مختلفٍ أسمى للحياة، يُحرِّره فوراً من القيود التي تبدو أنها تقيّده بشكل لا انفصام له. وهكذا هو فهم الحياة المسيحي الذي هُدِي الإنسان إليه قبل 1800 سنة.

يكفي أن يستدمج الإنسان هذا الفهم الحياتي حتى تتفكك، من تلقاء ذاتها، تلك السلاسل التي بدت أنها تقيّده قيداً لا ينفصم، وليشعر بنفسه حراً تماماً، كالحرية التي يشعر بها طيرٌ في مكان مسيَّج ما إن يفرد جناحيه.

يجري حديث عن تحرير الكنيسة المسيحية من الدولة، عن إعطاء أو عدم إعطاء الحرية للمسيحيين. في هذه الأفكار والعبارات هناك مغالطات غريبة. فالحرية لا تُعطى للمسيحي أو لغير المسيحي ولا تُنتزع منه. الحرية هي صفة المسيحي التي لا يمكن نزعها عنه. أما إذا كان الحديث يتعلق بمنح الحرية للمسيحيين أو انتزاعها منهم؛ فمن

الواضح أنّ الحديث لا يتعلق بالمسيحيين الفعليين وإنما بأناسٍ يُسمّون أنفسهم مسيحيين. لا يستطيع المسيحي إلاّ أن يكون حراً لأنّ أحداً، أو شيئاً، لا يستطيع منعه، أو حتى إعاقته، عن بلوغ الهدف الذي وضعه لنفسه.

يكفي أن يفهم المرء حياته كما تُعلِّم المسيحية فهمها، أي أن يفهم أنّ حياته مُلكه، أن يفهم أنه -لهذا السبب- يجب أن يطبّق ليس قانونه الشخصي، قانون الأسرة أو الدولة، بل قانون الذي خلقه، القانون الذي لا يقيّده شيء، حتى لا يشعر بنفسه حراً تماماً من كافة سلطات البشر فحسب بل ويكفّ عن رؤية أنّ هذه السلطات قادرة على تقييد أيٍّ كان.

يكفي أن يفهم الإنسان أنّ هدف حياته هو تطبيق قانون الله، وأن يستبدل هذا القانون بكافة القوانين الأخرى ويخضع له، حتى يُفقد هذا القانون، من خلال هذا الخضوع ذاته، في عينيه كلّ إلزامية وتقييد قوانين البشر، وليُقرّ بقانون المحبة، الكامن في نفوس البشر جميعاً، والذي أخرجه المسيح إلى مجال الوعي، قائداً وحيداً لحياته ولحياة الناس الآخرين.

قد يتعرّض المسيحي للعنف، قد يُحرَم الحرية الجسدية، قد يكون عبد شهواته (فاعل الخطيئة عبدٌ للخطيئة)، لكن لا يمكنه ألاّ يكون حراً بمعنى أن يُرغَم، بسبب خطرٍ ما أو تهديدٍ خارجيٍّ ما، على القيام بعملٍ يناقض وعيه.

لا يمكن إرغامه على ذلك لأنّ وسائل القهر المستخدمة ضدّ بشر الفهم الحياتي المجتمعي، كالحرمانات والعذابات التي تُمارَس بالعنف، ليست لها أيّ قدرة إرغامية بالنسبة إليه. الحرمانات والعذابات، التي تنتزع من بشر الفهم الحياتي المجتمعي الخير الذي يعيشون من أجله، ليست عاجزة فحسب عن التعدّي على خير المسيحي، الكامن في إدراكه تطبيق مشيئة الله، بل هي تقوّيه عندما تحلّ به لقاء تطبيقه هذه المشيئة.

وبالتالي؛ فالمسيحي، بطاعته القانون الإلهي الداخلي فقط، ليس فقط لا يستطيع تنفيذ أوامر القانون الخارجي عندما تخالف قانون المحبة الإلهي الذي بات يعيه، كما يحدث مع أوامر السلطات، فحسب بل ولا يمكنه كذلك الإقرار بواجب طاعة أيٍّ كان، أو أيّ شيء كان، لا يمكنه الاعتراف بما يُسمّى الموالاة. بالنسبة للمسيحي التعهد بالولاء لأيّ حكومة كانت -العمل الذي هو أساس الحياة الدولتية- هو خروجٌ صريح من المسيحية،

لأنّ الإنسان، الذي يتعهّد مسبقاً بالخضوع دون قيدٍ أو شرط للقوانين التي يضعها وسيضعها البشر، بتعهّده هذا يخرج، بمنتهى الوضوح، من المسيحية التي تكمن في أن يخضع، في كل حالات الحياة، فقط لقانون المحبة الإلهي الذي يعيه في ذاته.

كان بالإمكان، في ظلّ العقيدة الوثنية، التعهّد بتنفيذ إرادة السلطات الدنيوية دون خرق مشيئة الله التي كان يُظنُّ أنها تكمن في الختان والسبت ومواقيت الصلاة والامتناع عن تناول أطعمة معينة ...الخ، إحداهما لم تكن تعارض الأخرى. لكن ألا يتميّز الدين المسيحي عن الوثني بأنه لا يطلب من الإنسان القيام بأعمالٍ خارجيةٍ معينة، وإنما بكونه يضع الإنسان في علاقة مختلفة عمّا سبق مع الناس، الذين قد يقومون بتصرفاتٍ بمنتهى التنوّع، والتي ليس بالإمكان تحديدها مسبقاً، لذا فالمسيحي ليس فقط لا يمكنه الوعد بتنفيذ إرادة شخصٍ آخر، أيّاً كان، دون أن يعلم ما الذي قد يطلبه منه هذا الشخص، لا يمكنه الخضوع لقوانين البشر المتغيّرة، بل كذلك لا يمكنه التعهّد بالقيام بشيءٍ محدّد في وقتٍ معين أو الامتناع عن القيام بشيءٍ محدّد في وقتٍ معيّن، لأنه لا يستطيع أن يعرف ماذا ومتى قد يطلب منه قانون المحبة المسيحي، الذي طاعته هو مغزى حياته. المسيحي، إذ يتعهّد مسبقاً بتنفيذ قوانين البشر دون قيدٍ أو شرط، يعلن، بتعهّده هذا، أنّ قانون الله لم يعد يشكّل بالنسبة إليه القانون الوحيد لحياته.

أن يعد المسيحي بطاعة البشر أو الخضوع لقوانين البشر، هو كأن يعد عاملٌ، استخدمه صاحب بيت، بتنفيذ كل ما يأمره به الآخرون بالإضافة إلى صاحب البيت. لا يمكن خدمة سيدين. المسيحي يتحرّر من سلطة البشر عبر إقراره بخضوعه فقط لسلطة الله الذي يعي قانونه، الذي كشفه له المسيح، في نفسه ويخضع له فقط.

وهذا التحرّر لا يتمّ عن طريق الصراع، ليس من خلال هدم الأشكال القائمة للحياة، بل فقط عبر تغيير فهم الحياة. يتمّ التحرّر نتيجةً، أولاً، لأنْ يعتبر المسيحي قانون المحبة، الذي كشفه له معلّمه، كافياً تماماً للتعامل بين البشر، وبالتالي يعتبر شتّى أشكال العنف فائضةً وغير قانونية، ثانياً، لأنّ الحرمانات والعذابات، والتهديدات بالحرمان والعذاب، التي من خلالها يتمّ إيصال الإنسان المجتمعيّ إلى حتمية الخضوع، بالنسبة للمسيحي، في ظلّ فهمه المختلف للحياة، ليست سوى شروطٍ لا مفرّ منها للوجود، والتي، دون أن يقاومها بالعنف، يتحمّلها صابراً، كالمرض والجوع وشتّى المصائب

الأخرى، لكن التي لا يمكنها أبداً أن توجّه أفعاله. موجّه أفعال المسيحي هو فقط المبدأ الإلهي الكامن فيه، والذي ليس بمقدور شيء كبحه أو توجيهه.

يسلك المسيحي بموجب كلمة النبوّة التي تعود لمعلّمه: "لا يخاصم ولا يصيح، ولا يسمع أحدٌ في الشوارع صوته. قصبةً مرضوضةً لا يقصف، وفتيلةً مدخِّنةً لا يُطفئ، حتى يُرجع الحقّ إلى النصرة." (متّى: 12، 19-20)

المسيحيّ لا يخاصم أحداً، لا يهاجم أحداً، لا يستخدم العنف ضدّ أحد؛ بل على العكس، يصبر على العنف دون اعتراض، لكن بتعامله هذا مع العنف لا يتحرّر هو فقط بل ويحرّر العالم من شتى أشكال السلطة الخارجية.

"وتعرفون الحقّ، والحقّ يحرّركم" (يوحنا: 8، 32). إذا كان هناك شكّ في أنّ المسيحيّة حقّ، فإنّ تلك الحريّة الكلية، التي ليس بمقدور شيء تقييدها، والتي يختبرها الإنسان ما إن يستدمج في ذاته الفهم الحياتي المسيحي، هي البرهان الذي لا شكّ فيه على حقّانيته.

البشر، في وضعهم الراهن، كخليّة نحلٍ مُعلَّقة بغصن. حالة النحل على الغصن مؤقّتة ولا بدّ من أن تتغيّر. فهي يجب أن تنهض وتجد لنفسها مسكناً جديداً. كلّ نحلة من النحلات تعرف ذلك وتتمنّى أن تغيّر وضعها ووضع الأخريات كذلك. وكلّها لا تستطيع الطيران فجأة لأنّ إحداها معلّقة بالأخرى وتعيقها عن الانفصال عن جماعة النحل، لذا تبقى جميعها معلّقة. يبدو للنحل أنْ لا مخرج من هذا الوضع، كما يبدو الأمر للناس البسطاء المبلبلين في شَرَك العقيدة المجتمعية. لكن ما كان ليكون هناك مخرج لو أنّ كلّ نحلة من النحلات لم تكن كائناً حيّاً مستقلاً وُهِب أُجنحةً. وما كان ليكون هناك مخرج للبشر لو أنّ كلّ واحد منهم لم يكن كائناً حيّاً مستقلاً وُهب القدرة على استيعاب الفهم الحياتي المسيحي.

لو أنّ كلّ نحلة، قادرة على الطيران، لم تطر لما تحركت الأخريات أيضاً، ولما غيّرت جماعة النحل وضعها أبداً. ولو أنّ الإنسان، الذي استوعب الفهم الحياتي المسيحي، لم يبدأ، دون انتظار الآخرين، بالعيش وفق هذا الفهم، لما تغيّرت حاله أبداً. وكما أنه يكفي أن تفرد إحدى النحلات أجنحتها، فتنهض وتطير، لتتبعها ثانيةٌ فثالثةٌ فعاشرةٌ، حتى تصبح الكومة المعلّقة اللامتحرّكة جماعةَ نحلٍ تطير بحريّة، كذلك تماماً

يكفي أن يفهم إنسانٌ واحدٌ الحياة كما تعلِّمه المسيحيةُ أن يفهم، ويبدأ بالعيش على هذا النحو، فيفعل آخر مثله، فثالث، فعاشر، حتى تنهار الحلقة السحرية للحياة المجتمعية التي بدا أنْ لا نخرج منها.

لكنّ الناس يعتقدون أنّ تحرير جميع البشر بهذه الطريقة بطيءٌ جداً، وأنه يجب إيجاد واستخدام وسيلة أخرى يمكن بوساطتها تحرير المجتمع فوراً. هذا يشبه كما لو أن النحلات، الراغبة بالنهوض والطيران، وجدت أنها ستنتظر طويلاً إذا ما انتظرت حتى تطير جماعة النحل كلها كنحلةٍ واحدة، وأنها يجب أن تجد وسيلة لا تحتاج إلى أن تفتح كل نحلة على حدة أجنحتها وتطير، بحيث تطير جماعة النحل كلها إلى حيث تريد. لكنّ هذا مستحيل: إذا لم تفتح النحلة الأولى، فالثانية، فالثالثة، فالنحلة المئة، أجنحتها، ولم تطر، فلن تطير جماعة النحل، ولن تعثر على حياةٍ جديدة. مادام كل شخص على حدة لم يستدمج الفهم الحياتي المسيحي، ولم يعش وفقاً له، فلن يُحلّ تناقض حياة البشر، ولن يتكوّن نمطٌ جديدٌ للحياة.

إحدى الظواهر المثيرة للذهول لزماننا هي دعوة العبودية التي لا تنشرها بين الجماهير فقط الحكومات، التي هي بحاجة إليها، بل كذلك أولئك الذين يعتبرون أنفسهم أنصار الحريّة، ممّن يبشّرون بالنظرية الاشتراكية.

يروّج هؤلاء الناس أنّ تحسين الحياة، وتحقيق التوافق بين الواقع والوعي، لا يحدث نتيجة لجهود الأفراد الخاصة بل سيحدث، تلقائياً، نتيجة إعادة بناء عنفية معينة للمجتمع من قبل أحدهم. يدعون إلى أنّ البشر ليس عليهم الذهاب بأقدامهم إلى حيث يريدون، وإلى حيث يلزمهم الذهاب إليه، وإنّما ستتحرّك الأرض من تحتهم بحيث يصلون إلى حيث يجب دون أن يسيروا بأقدامهم. لذا ليس عليهم أن يوجّهوا مساعيهم للذهاب إلى حيث يجب قدر استطاعتهم بل لإقامة هذه الأرضية المتخيّلة وهم وقوفٌ في أماكنهم.

من الناحية الاقتصادية يُروَّج لنظريةٍ مفادها أنّ الأسوأ هو الأفضل، كلّما رُوكم رأس المال أكثر، وبالتالي ازداد اضطهاد العمّال، كلّما بات التحرّر أقرب، وبالتالي فإنّ أيّ سعي شخصيّ من قبل الإنسان للتحرّر من ضغط رأس المال بلا فائدة، وفي المنحى الدولتي يُروَّج أنّه كلّما أصبحت سلطة الدولة أكبر، والتي -حسب هذه النظرية- سوف تهيمن على حقل الحياة الخاصّة الذي لم تهيمن عليه حتى الآن؛ فهذا أفضل، لذا يجب

استدعاء تدخّل السلطة في الحياة الخاصّة، وفي المنحيين السياسي والدولي يروّج أنّ زيادة وسائل التدمير، زيادة عدد الجيوش، سوف يؤدي إلى ضرورة نزع السلاح عن طريق المؤتمرات والوساطات... الخ. والمثير للذهول أنّ البشر من البلادة بحيث يُصدّقون هذه النظريات رغم أنّ مسار الحياة برمّته، كل خطوة إلى الأمام، يفضح عدم صحّتها.

البشر يعانون من الاضطهاد، ولخلاصهم من هذا الاضطهاد ينصحهم الناس بابتكار وسائل عامّة لتحسين هذا الوضع؛ والتي سوف تطبّقها السلطات، في حين أنّهم أنفسهم سيستمرّون بالخضوع للسلطات. وجليٌّ أن نتيجةً لذلك سوف تزداد قوة السلطة أكثر فأكثر، وبالتالي سيزداد الاضطهاد.

ما من أضلولة تبعد البشر عن الغاية التي يتطلّعون إليها كهذه الأضلولة بالذات. البشر، لبلوغ الهدف الذي وضعوه لأنفسهم، يفعلون شتى الأعمال الأشدّ تنوّعاً باستثناء العمل، البسيط والمباشر، الجدير بكلٍّ منهم. يبتكرُ البشر أشدّ الطرق مكراً لتغيير الوضع الذي يسحقهم لكنهم لا يفكّرون بالوسيلة الأبسط، وهي أن يكفّ كلّ منهم عن القيام بما يخلق هذا الوضع.

أخبروني بحادثةٍ جرت مع عسكريٍّ جسور، والذي، بعد وصوله إلى قريةٍ تمرّد فلاّحوها، حيث تمّ استدعاء القوّات، أخذ على عاتقه قمع التمرّد لوحده، بقراره الخاصّ، على طريقة نيكولاي الأول. حيث أمر بإحضار بضعة أحمال من القضبان، وبعد أن جمّع كلّ الرجال في طاحونةٍ، دخل معهم وأغلق الباب وراءه، ثمّ أفزعهم بصرخاته في البداية بحيث أنّهم، مطيعين إيّاه، بدأوا يضربون بعضهم بعضاً تبعاً لأمره. وهكذا راحوا يضربون بعضهم بعضاً إلى أن وُجِد شخصٌ أبله لم يستجب لأمره وصرخ برفاقه ليتوقّفوا عن ضرب بعضهم. فقط حينها توقّف الضرب، وفرّ العسكريّ من الطاحونة. نصيحة الأبله هذه بالتحديد لا يستطيع الناس المجتمعيون العمل بها، ويضربون أنفسهم دونما توقّف، ويعلّمون الناس هذا الضرب الذاتي باعتباره القول الفصل للحكمة البشريّة.

بالفعل، هل بالإمكان تصوّر مثال عن كيفيّة جلد الناس لأنفسهم أكثر إثارةً للدهشة من الإذعان الذي بموجبه ينفّذ بشر زماننا الواجبات الملقاة على عاتقهم، والتي تؤدّي بهم إلى العبودية، وخاصّة الخدمة العسكريّة. جليٌّ أنّ البشر يستعبدون أنفسهم بأنفسهم،

ويعانون من جرّاء هذه العبوديّة، ويصدّقون أنّ هذا ما يجب، وأنّ هذا لا يعيق على الإطلاق تحرّر البشر، الذي يُجهَّز في مكانٍ ما، بغضّ النظر عن العبوديّة التي تتعاظم أكثر فأكثر.

في الواقع، يعيش إنسان زماننا -أيّاً كان (لستُ أتحدّث عن المسيحي الحقيقي بل عن إنسان زماننا البسيط) أكان متعلِّماً أم غير متعلِّم، متديّناً أم غير متديّن، غنياً أم فقيراً، متزوّجاً أم أعزباً- يعيش هذا الإنسان، قائماً بعمله أم لاهياً بملاهيه، مستفيداً من ثمار عمله أم مستغلاً جهود الآخرين لنفسه ولأقربائه، كارهاً، كالناس الآخرين جميعاً، شتى أشكال القيود والحرمان والعداوة والعذاب، يعيش هذا الإنسان بطمأنينة؛ وفجأة يأتي إليه أناسٌ ويقولون له: أوّلاً، تعهّد وأقسم لنا بأنّك ستذعن لنا بعبوديّة في كلّ ما نأمرك به، وستعتبر حقيقةً لا ريب فيها كلّ ما نبتكره ونقرّه ونسمّيه قانوناً، وتخضع له؛ ثانياً، أعطنا قسماً من نتاج عملك، ونحن سوف نستخدم هذا المال لإبقائك في العبودية ولمنعك بالعنف من مواجهة سلطتنا؛ ثالثاً: انتخب ورشّح نفسك شريكاً للحكومة، واعلم أنّ الإدارة سوف تتمّ بغضّ النظر تماماً عن الخطب الغبية التي ستلقيها أنت ولأمثالك، ولأنّ الأمور سوف تدار وفق إرادتنا، وفق إرادة الذين يهيمنون على الجيش؛ رابعاً، تعال في وقتٍ محدَّدٍ إلى المحكمة، وشارك في جميع الأعمال القاسية التي لا معنى لها، التي سنمارسها في حقّ المضلَّلين والمفسدين من قِبلنا، كالاعتقالات والنفيّ والسجن الانفرادي والإعدامات. خامساً، وأخيراً، فوق هذا كلّه، بغضّ النظر عن علاقات الصداقة التي تربطك بأناسٍ من شعوبٍ أخرى، كن مستعداً دائماً، حين نأمرك بذلك، بأن تعتبر الناس الذين نشير إليهم أعداءً لك، وساهم شخصياً، أو استأجر من ينوب عنك، لتدمير ونهب وقتل رجالهم ونسائهم وأطفالهم وشيوخهم، وربما أبناء عشيرتك، ووالديك إذا احتجنا ذلك.

يُفترض أنّ أيّ إنسان غير مخدَّر في زماننا يمكنه الردّ على هذه الطلبات.

"ولماذا قد أفعل هذا كلّه -يُفترض أن يقول أيّ إنسان سليم القلب- لماذا سأتعهّد بطاعة كل ما يأمرني به ساليسبيري اليوم، غلاوستون غداً، بولانجيه اليوم، وغداً هيئة من أمثال بولانجيه، بطرس الثالث اليوم، وغداً كاترينا، وبعد غد بوغاتشوف، الملك الباقاري المجنون اليوم، وغداً ويلهلم؟ لماذا يجب أن أعدهم بذلك، وأنا أعرف أنهم

حمقى تافهون، أو لا أعرفهم على الإطلاق؟ لماذا يجب أن أدفع لهم ثمار جهدي كضرائب، وأنا أعرف أنّ هذا المال يُستخدم لشراء الموظفين وبناء السجون والكنائس والجيوش، في أعمالٍ سيئة ولاستعبادي، لماذا سأجلد نفسي بنفسي؟ لماذا سأذهب، مضيّعاً وقتي ومغمضاً طرْفي لأمنح القاهرين ما يشبه المشروعية، للمشاركة في الانتخابات، ولتظاهر بأني أشارك في الحكم، في حين أني أعلم جيداً أنّ إدارة الدولة في أيدي الذين يهيمنون على الجيش؟ لماذا قد ألتحق بالقضاء للمشاركة في تعذيب الناس وقتلهم لكونهم ضلّوا سواء السبيل، وأنا أعلم، إذا كنتُ مسيحياً، أنّ قانون الانتقام قد حلّ محلّه قانون المحبّة، وإذا كنتُ مثقفاً، فأعلم أنّ العقوبات لا تجعل الناس الذين يتعرّضون لها أفضل بل أسوأ؟ والأهم، لماذا، لكي يكون مفتاح معبد أورشليم بحوزة هذا المطران أو ذاك، أو ليحكم بلغاريا هذا الأمير الألماني أو ذاك، أولمنح حقوق صيد الفقمة للتجار الإنكليز لا الأمريكيين، عليّ أن أعتبر أناسَ شعبِ مجاورٍ أعداءً، والذين عشت معهم حتى الآن وأتمنى أن أعيش بمحبّة ووئام، فأستأجر جنوداً أو أذهب بنفسي لقتلهم وتدميرهم، وأعرّض نفسي لهجماتهم؟ والأهم، لماذا قد أساهم شخصيّاً، أو عبر الاستئجار، بالقوة العسكرية في استعباد وقتل آبائي وإخواني؟ لماذا قد أجلد نفسي بنفسي؟ لست بحاجة إلى هذا كلّه، كلّ هذا يضرّ بي، وهذا كلّه لاأخلاقيّ، دنيء وشنيع من كافة جوانبه. فلماذا يجب أن أقوم به؟ إذا كنتم تقولون لي إنّ أحدهم سيسيء إليّ لولا هذا، فأولاً، لستُ أتوقّع ما هو أسوأ من السوء الذي قد تسبّبونه لي إذا ما أطعتكم؛ ثانياً، واضحٌ لي تماماً أنّنا إذا لم نعذّب أنفسنا بأنفسنا فلن يعذّبنا أحد، إذ السلطة هي الملوك والوزراء والموظفون بأقلامهم، الذين لا يمكنهم إرغامي على شيء، مثل ذلك العسكري مع الرجال، لن يسوقني الملوك والموظفون، أصحاب الأقلام، بالقوة، إلى القضاء والسجن والإعدام، بل سيسوقني أناسٌ حالهم كحالي. وهم كذلك لا يفيدهم بل يضرّهم ويزعجهم أن يكونو جلاّدين، مثلي، وبالتالي، الاحتمال الأكبر أني إذا فتحت أعينهم فهم ليس فقط لن يمارسوا العنف ضدّي بل سيفعلون ما أفعله. ثالثاً، حتى إذا حدث وتوجّب عليّ أن أعاني من جرّاء ذلك، فحتى في هذه الحال أنفع لي أن أُنفى أو أُسجن، دفاعاً عن العقل السليم والخير، اللذين لا بدّ أن ينتصرا، إن لم يكن اليوم أو غداً فقريباً جداً، من أن أعاني في سبيل الحماقة والشرّ اللذين سيهلكان، إن لم يكن اليوم فغداً. لذا، حتى

في هذه الحالة، الأنفع لي أن أخاطر بأن أُنفى أو أُسجن أو حتى أُعدم من أن أعيش – وأنا المذنب في ذلك– حياتي كلها عبداً لأناسٍ سيئين، حيث قد يدمّرني عدوان عدوٍّ، فيعذّبني أو يقتلني بغباء، وأنا أدافع عن مدفعيةٍ أو عن قطعة أرضٍ لا حاجة لأحدٍ بها، أو عن خرقةٍ غبيّةٍ تُسمّى عَلَماً. لا أريدُ أن أسوط نفسي بنفسي. ما من شيءٍ يدفعني للقيام بذلك. افعلوا أنتم ذلك إذا كنتم تريدون، لكن أنا – لن أفعل.

يُفترض أن أبسط محاكمة أو حساب، وليس الحسّ الديني أو الأخلاقي فقط، يجب أن تجعل كلّ الناس في زماننا يردّون ويتصرّفون على هذا النحو. لكن لا: يرى أهل الفهم الحياتي المجتمعي أنّهم لا يجب أن يتصرّفوا على هذا النحو، بل حتى أنّ هذا ضارّ ببلوغ هدف تحرير البشر من العبودية، وأنّه يجب على الناس الاستمرار بجلد بعضهم بعضاً، مثل أولئك الرجال المتمرّدين، مُطمئنين أنفسنا بأنّ كوننا نثرثر في المجالس والاجتماعات، ونشكّل نقابات العمّال، ونتنزّه في الشوارع في الأول من أيّار، ونتآمر ونحرّض سرّاً على الحكومة التي تجلدنا، فهذا يجعلنا نستعبد أنفسنا أكثر فأكثر، الأمر الذي سرعان ما سيحرّرنا.

ما من شيءٍ يعيق تحرّر البشر بقدر هذه الأضلولة المثيرة للذهول. بدلاً من أن يبذل كلّ إنسان جهده لتحرير نفسه، لتغيير فهمه للحياة، يبحث البشر عن وسيلة خارجية جماعية للتحرّر، وهم بهذا يستعبدون أنفسهم أكثر فأكثر.

هذا يشبه تأكيد الناس بأنّه، من أجل إضرام النار، يجب ليس إشعال الحطب وإنّما وضع الحطب بطريقة معينة.

غير أنّ كون تحرّر البشر جميعاً سيحدث بالتحديد عبر تحرّر الأفراد يغدو جليّاً أكثر فأكثر في الآونة الأخيرة. إنّ تحرّر الأفراد، ذوي الفهم الحياتي المسيحي، من عبودية الدولة، التحرّر الذي كان ظاهرةً نادرةً وغير ملحوظةٍ، بات يهدّد سلطة الدولة في الآونة الأخيرة.

إذا كان يحدث، في الأزمنة القديمة، في عصر روما والعصور الوسطى، أن يرفض المسيحي، ملتزماً بدينه، المشاركة في الأضحيات، ويرفض السجود للأباطرة والآلهة، أو للأيقونات في العصور الوسطى، ويرفض الاعتراف بالسلطة البابويّة، فإنّ حالات الرفض هذه كانت، أولاً، عرَضية: كان الإنسان يوضع أمام حتمية الالتزام بعقيدته، وقد

يعيش حياته دون أن يوضَع أمام هذه الحتمية. أما الآن فجميع البشر دون استثناء تُمتحن عقيدتهم. كلّ الناس في زماننا يوضعون أمام إما حتمية المشاركة في قسوة الحياة الوثنية وإما تقويضها. ثانياً، في تلك الأزمنة كانت حالات رفض السجود للآلهة والأيقونات والبابا تكاد لا تُذكر بالنسبة للدولة: سواء سجد الناس أم لم يسجدوا للآلهة أوللأيقونات أو للبابا، فإن الدولة كانت تبقى بذات القوّة. أما الآن فإن حالات رفض تنفيذ الأوامر اللامسيحية للحكومات تقتلع سلطة الدولة من جذورها لأنّ سلطة الدولة برمّتها إنّما ترتكز على تنفيذ هذه الأوامر اللامسيحية.

لقد قاد مسار الحياة الناس البسطاء إلى وضعٍ يجب عليهم فيه، للمحافظة على مواقعهم، أن يطلبوا من الناس جميعاً القيام بأعمال لا يمكن للذين يعتنقون المسيحية الحقّ القيام بها. لذا، في زماننا، أيّ التزام بالمسيحية الحقّ من قبل شخصٍ فردٍ يقوّض سلطة الدولة من جذورها، ولا بدّ من أن يجرّ خلفه تحرّر الجميع.

ما مدى أهميّة ظواهر كهذه، كرفض بضع عشرات من المخبولين -كما يدعونهم- الذين يرفضون أداء يمين الولاء للسلطة، يرفضون دفع الضرائب، يرفضون الالتحاق بالقضاء وأداء الخدمة العسكرية؟ هؤلاء الناس سوف يُعاقبون ويُعزلون، والحياة ستمضي كسابق عهدها. لا يبدو أنّ هناك أيّ أهميّة لهذه الظواهر، غير أنّ هذه الظواهر بالتحديد تقوّض، أكثر من أيّ شيءٍ آخر، سلطة الدولة وتعِد بتحرّر البشر. إنّها تلك النحلات المنفردة التي تبدأ بالانفصال عن جماعة النحل والطيران من حولها بانتظار ما لا يمكنه أن يتأخّر- لحاق الجماعة كلّها بها. والحكومات تعلم ذلك وتخشى هذه الظواهر أكثر من خوفها من جميع الاشتراكيين والشيوعيين والأنارخيين الانقلابيين، بديناميتهم وقنابلهم.

يحلُّ عهدٌ جديد؛ بموجب القانون العام والنظام المؤسَّس يُطلب من الرعايا جميعاً أداء يمين الولاء للحكومة الجديدة. يتمّ إصدار أمر عام. يُدعى الجميع إلى الكاتدرائية لأداء اليمين. فجأةً شخصٌ في بيرم، آخر في تولا، ثالث في موسكو، رابع في كالوغا، يعلنون أنّهم يرفضون أداء اليمين، وجميعهم يفسِّرون رفضهم، دون تواطؤ فيما بينهم، تفسيراً واحداً، بأنّ القسَم ممنوع بموجب الشريعة المسيحية، لكن حتى إذا لم يكن القسَم ممنوعاً فإنّهم، حسب روحيّة التشريع المسيحي، لا يمكنهم التعهّد بالقيام بتلك الأفعال السيئة التي

تطلب الحكومة منهم القيام بها، مثلاً: الإبلاغ عن كلّ الذين يُخلّون بمصالح السلطة، الدفاع عن السلطة والسلاح في أيديهم أو غزو أعدائها. فيتمُّ استدعاؤهم إلى الضبّاط والمحقِّقين والقساوسة والولاة، فيُعذّبون ويُحقَّق معهم ويُهدَّدون ويُعاقبون لكنّهم يصرّون على قرارهم ولا يُقسِمون. وبين الملايين الذين أقسموا هناك عشرات لم يُقسموا. فيسألونهم:

– كيف لم تقسم؟

– ببساطة، لم أقسم.

– وماذا، لم يفعلوا بك شيئاً؟

– لا شيء.

رعايا الدولة جميعهم مُلزمون بدفع الضرائب، والجميع يدفعنها، لكنّ شخصاً واحداً في خاركوف، وآخر في تفير، وثالث في سمارة، يرفضون دفع الضرائب، وكلّهم يقولون القول ذاته، وكأنّهم متواطئون. يقول أحدهم إنّه سيدفع فقط إذا أخبروه أين سيذهب المال المُنتزَع منه. ويقول إنه سيدفع، من تلقاء ذاته، أكثر ممّا يُطلب إذا كانت لأعمال الخير، أما إذا كانت لأعمال الشرّ فلن يدفع طواعيةً أيّ شيء لأنّه، حسب قانون المسيح الذي يتّبعه، لا يمكنه المساهمة في الأعمال الشريرة. الكلام ذاته، وإن بكلماتٍ أخرى، يقوله الآخرون، ولا يدفعون الضرائب طوعاً. بالنسبة للذين لديهم ما يؤخذ منهم تُنتزع منهم ممتلكاتهم بالقوة، أما الذين ليس لديهم ما يؤخذ منهم فيدعونهم وشأنهم.

– ماذا، لم تدفع الضريبة؟

– لم أدفع.

– وماذا، لا شيء؟

– لا شيء.

نُظِّمت بطاقات هويّة. كلّ من يغادر مكان إقامته يجب أن يحصل على واحدة ويدفع رسوماً لقاءها. فجأةً، في أماكن مختلفة، يظهر أناسٌ يقولون إنه لا لزوم للحصول على بطاقات هويّة، وإنّه لا يجب الإقرار بالتابعية لدولة قائمة على العنف، وهؤلاء الناس لا يأخذون بطاقات هوية، ولا يدفعون رسوماً لقاءها. ومرّةً أخرى ليس بالإمكان إرغام

هؤلاء الناس على تنفيذ المطلوب. يُحبَسون ثمّ يُطلق سراحهم ثانيةً، والناس يعيشون دون بطاقات هويّة.

جميع الفلاحين يجب أن ينفذوا مهمات "سوتسكي" و"ديساتكي"[38] البوليسية وغيرها. فجأةً، في خاركوف يرفض فلاحٌ تنفيذ هذه المهمة، مفسّراً رفضه بأنه، تبعاً للشريعة المسيحية التي يتّبعها، لا يمكنه شدّ وثاق أحد أو سجنه أو نقله من مكانٍ آخر. يُعلِن الشيء ذاته فلاح في تفير، في تامبوف. فيشتمون الفلاحين، يضربونهم، يودعونهم السجن، لكنّهم يتشبثّون بقرارهم ولا يفعلون ما يتعارض وعقيدتهم. ثمّ يكفّون عن اختيارهم للسوتسكي، ومرّة أخرى لا شيء.

كلّ المواطنين يجب أن يشاركوا في القضاء كمحلّفين. فجأةً، أكثر الناس اختلافاً: سائقو عربات، أساتذة جامعيون، تجّار، فلاحون، نبلاء، كما لو أنهم متواطئون، يرفضون تنفيذ هذه الواجبات، وليس للأسباب المسمّاة شرعية، وإنّما لأنّ المحكمة - حسب قناعتهم- شيء غير قانوني، غير مسيحي، ولا يجب أن يكون لها وجود. يُغرَّم هؤلاء الناس، ويحرصون على عدم إتاحة المجال لهم للإدلاء علناً بأسباب رفضهم، يستبدلونهم بآخرين. على هذا النحو تماماً يتمّ التصرّف مع الذين يرفضون التواجد في المحاكم كشهود. وثانيةً لا يفعلون بهم شيئاً.

كلّ الذين يبلغون الحادية والعشرين يجب أن يسحبوا القرعة. فجأةً شابٌ في موسكو، آخر في تفير، ثالث في خاركوف، رابع في كييف، كما لو أنّهم متفقون مسبقاً، يحضرون إلى الإدارة ويعلنون أنّهم لن يُقسِموا ولن يخدموا لأنّهم مسيحيون. إليكم تفاصيل إحدى حالات الرفض التي أعرفها جيداً، منذ أن أصبحت حالات الرفض تتكرّر. في جميع الحالات تكرّرت التفاصيل ذاتها تقريباً. شابٌ، متوسط التعليم، يعلن عن رفضه أداء الخدمة في "دوما" موسكو. لا يعيرون لأقواله أيّ اهتمام، ويطلبون منه لفظ كلمات القَسَم كالآخرين. فيرفض ويشير إلى موضوعٍ معين في الإنجيل يحرِّم القسم. لا يعيرون حججه اهتماماً، ويأمرونه بتنفيذ الأمر، لكنّه لا ينفّذه. حينها يفترضون أنّه طوائفي، لذا

38- اشتقاق من "مائة" و"عشرة". كان على الفلاحين جميعاً في روسيا القيصرية العمل كشرطة في الريف مجاناً وبالإكراه لمدة مائة يوم أو عشرة أيام.

فهو لا يفهم المسيحية بشكل صحيح، أي ليس كما يفهمها القساوسة الذين تدفع لهم الدولة. فيرسلون الشابّ مخفوراً إلى القساوسة ليقوموا بوعظه. يبدأ القساوسة بوعظ الشابّ لكن جليٌّ أنّ حججهم بأن يتنكّر للمسيح لأجل المسيح لا تؤثّر في الشابّ، فيعيدونه إلى الجيش ثانيةً، معلنين أنّه غير قابل للإصلاح. يستمرّ الشابّ بعدم أداء القسم ويرفض صراحةً تنفيذ الواجبات العسكرية. لم يسبق للقانون أن شهد حالة كهذه. السماح برفض تنفيذ أوامر القيادة غير جائز، لكن لا يجوز كذلك المساواة بينه وبين حالة عدم طاعة بسيطة. من خلال التباحث فيما بينهم تقرّر السلطات العسكرية التخلّص من الشابّ الصعب المِراس، واعتباره ثورياً، وإرساله مخفوراً إلى إدارة الشرطة السرية. رجال الشرطة والدَرَك يحقّقون مع الشابّ لكنّ أقواله كلّها لا تناسب أيّاً من الجرائم التي من اختصاصهم، ولا توجد أيّ إمكانية لاتّهامه لا بالأعمال الثورية ولا بالمؤامرات، حيث يعلن أنّه لا يريد تدمير شيء بل، على العكس، يرفض شتى أشكال العنف، ولا يخفي شيئاً، ويتحيّن الفرصة ليقول ويفعل ما يقوله ويفعله بمنتهى العلنية. والدرك، بغضّ النظر عن عدم وجود قانون يخوّلهم إدانته، مثلهم مثل رجال الدين، إذ لا يجدون أيّ مبرّر لإدانة الشابّ، يعيدونه إلى الجيش ثانيةً. مرّة أخرى تجتمع القيادات وتقرّر قبول الشاب، رغم أنّه لم يؤدّي اليمين، وعدّه جندياً. فيُلبسونه ويُدرجون اسمه ويُرسلونه مخفوراً إلى مكان تمركز القوّات. في موقع الجيش، قائد القطعة العسكرية، التي يلتحق بها، مرّة أخرى يطلب من الشابّ أداء الواجبات العسكرية، وهو يرفض الإذعان ثانيةً، وأمام الجنود الآخرين يقول سبب رفضه، حيث يقول إنّه لا يستطيع -كمسيحي- التجهّز للقتل الذي تُحرِّمه شريعة موسى.

يحدث الأمر في إحدى مدن الأقاليم. الحادثة تسترعي اهتمام، بل حتى تعاطف، ليس المحايدين فقط بل والضباط كذلك، لذا لا يقرّر القوّاد استخدام الإجراء الانضباطي المعتاد لقاء رفض الطاعة. غير أنّهم، ولحفظ ماء الوجه، يودعون الشابّ السجن، ويكتبون للقيادة العسكرية العليا سائلين إيّاها: ما العمل؟ من وجهة النظر الرسمية، رفض أداء الخدمة العسكرية، التي يخدم فيها القيصر ذاته والتي تباركها الكنيسة، يعد جنوناً، ولهذا يكتبون من بطرسبرغ أنّ الشاب، بما أنّه ليس بكامل قواه العقلية فيجب إرساله، دون اللجوء إلى إجراءات قاسية في حقّه، لفحص صحّته النفسية، ولمعالجته في مشفى

المجانين. فيقومون بإرساله على أمل أنّه سيبقى هناك، كما حدث قبل عشر سنوات مع شابّ آخر في تفير رفض أداء الخدمة العسكرية، والذي عذّبوه في مشفى المجانين إلى أن خضع. لكن حتى هذا لا يخلّص القيادة العسكرية من هذا الشابّ المزعج. الأطباء يفحصونه، يثير اهتمامهم، وبالطبع، إذ لا يجدون لديه أيّ مؤشرات للمرض النفسي، يعيدونه ثانيةً إلى الجيش. فيقبلونه، ويتظاهرون بأنّهم قد نسوا رفضه ودوافعه، يعرضون عليه الذهاب إلى التدريب، فيرفض ثانيةً، أمام الجنود الآخرين، ويعلن سبب رفضه. هذا الأمر يسترعي أكثر فأكثر اهتمام الجنود، وسكان المدينة كذلك. مرّةً أخرى يكتبون إلى بطرسبرغ ومن هناك يصدر قرار بنقل الشابّ من القوّات الرابضة في الأقاليم إلى أماكن القوّات فيها في حالة استنفار قتالي، حيث يمكن إطلاق النار من جرّاء رفض الإذعان وحيث يمكن لهذا الأمر أن يحدث دون أن يلاحظه أحد لأنّ في هذا المكان القصيّ هناك قلّة قليلة من الروس والمسيحين ومعظم السكان مسلمون ومن جنسيات مختلفة. وهو ما يفعلونه. يلحقون الشابّ بالقوّات الرابضة في إقليم ماوراء بحر قزوين، ويرسلونه مع المجرمين إلى آمرٍ معروفٍ بصرامته وقسوته. خلال هذا الوقت كلّه، أثناء كلّ عمليات النقل هذه من مكان إلى آخر، يعاملون الشابّ بفظاظة، يبقونه في البرد والجوع والقذارة، وبشكل عام يجعلون حياته معذّبة بشتى الطرق. لكنّ هذه العذابات كلّها لا تجبره على تغيير قراره. في مقاطعة ما وراء بحر قزوين، حيث يأمرونه ثانية بتولّي الحراسة مسلحاً، يرفض مرّةً أخرى تنفيذ الأمر. وهو لا يرفض الذهاب والوقوف قرب كومٍ من الحشائش، حيث يرسلونه، بل يرفض حمل السلاح، معلناً أنّه لن يستخدم العنف ضدّ أيٍّ كان، في أيّ حالٍ من الأحوال. هذا كلّه يحدث في حضور الجنود الآخرين. لا يجوز ترك رفضٍ كهذا دون عقاب، فيحاكمون الشابّ على خرق الانضباط. تجري المحاكمة ويُحكم على الشابّ بالسجن في سجن عسكري لمدة سنتين. ويرسلونه، مرّةً أخرى، مخفوراً، مع المجرمين، إلى القفقاس، وهناك يودعونه السجن، حيث يقع تحت سلطة السجّان التي لا رقيب عليها. هناك يعذّبونه عاماً ونصف، ورغم ذلك لا يغيّر قراره بعدم حمل السلاح، ويشرح لكلّ الذين يحدث أن يختلط بهم سبب عدم قيامه بذلك، وفي نهاية السنة الثانية، يخلون سبيله قبل انتهاء مدّة محكوميته، عادّين فترة سجنه على

أنّها خدمة، الأمر الذي يتعارض مع القانون، راغبين فقط في التخلّص منه بأسرع وقت ممكن.

كهذا الشابّ تماماً، كما لو أنّهم متواطئون، يتصرّف كذلك أناسٌ آخرون في مختلف أنحاء روسيا، وفي هذه الحالات كلّها تتصرّف السلطة بوجلٍ وارتباكٍ وسريّة. يتمّ إرسال بعضٍ من هؤلاء الناس إلى مشافي المجانين، آخرون يلحقونهم بالأعمال المكتبية وينقلونهم للخدمة في سيبيريا، يرسلون بعضهم لحراسة الغابات، يسجنون بعضهم، ويغرّمون بعضهم. والآن هناك بعضٌ من هؤلاء الرافضين في السجون ليس لأنّهم ينكرون شرعية أفعال الحكومة بل لعدم تنفيذهم أوامر شخصية للقيادة. فعلى سبيل المثال، منذ فترة قريبة، تمّ تغريم ضابط احتياط، لم يقدّم أدلّة عن مكان تواجده وأعلن أنّه لا يريد الاستمرار بالخدمة العسكرية، لقاء عدم تنفيذه أوامر السلطة، بثلاثين روبلاً، والتي كذلك رفض دفعها طوعاً. على هذا النحو أيضاً تمّ سجن بعض الفلاحين والجنود، رفضوا المشاركة في التدريب وحمل السلاح، بسبب امتناعهم وعدم إذعانهم.

وإنّ حالات رفض تنفيذ أوامر الدولة، المناقضة للمسيحية، وخاصةً رفض أداء الخدمة العسكرية، لا تحدث، في الآونة الأخيرة، في روسيا وحدها، بل في كلّ مكان. فعلى سبيل المثال، لدي علمٌ أنّ أناساً في صربيا، من أتباع طائفةٍ تدعى طائفة "النازاريين" دائماً يرفضون أداء الخدمة العسكرية، والحكومة النمساوية تحاربهم، دون جدوى، منذ عدة سنوات، مُعرّضةً إيّاهم للسجن. وقد بلغت حالات الرفض هذه، عام 1885، 130 حالة. أعلم أنّ في سويسرة، عام 1980، كان هناك أناسٌ معتقلين في قلعة "شيلون" بسبب رفضهم أداء الخدمة العسكرية، ولم يغيّروا قرارهم رغم العقوبة. وكانت هناك حالات رفض كهذه في السويد، وكذلك تماماً أُودع الرافضون السجن، وقد أخفت الحكومة بعناية هذه الحالات عن الشعب. كانت هناك حالات رفض كهذه في بروسيا. أعلم أنّ ضابط صف حرس أعلن، عام 1891، في برلين، للقيادة أنّه، باعتباره مسيحياً، لن يواصل الخدمة، ورغم كلّ التعذيب والترهيب والعقاب ظلّ على موقفه. في فرنسا، في جنوبها، نشأت في الآونة الأخيرة طائفة تدعى "الهنشيين" (Hinschists)، (هذه الشواهد مأخوذةٍ من "Peace Herold" تموز، 1891)، يرفض أعضاؤها، بناءً على العقيدة المسيحية، أداء الخدمة العسكرية، وفي البداية تمّ تعيينهم في المشافي لكنهم

الآن، بسبب ازدياد أعدادهم، يتعرّضون للعقاب على عصيانهم لكنّهم، رغم ذلك، يرفضون حمل السلاح.

الاشتراكيون والشيوعيون والأنارخيون، بقنابلهم وعصياناتهم وثوراتهم، بالكاد تخشاهم الحكومات مقارنةً بهؤلاء الناس المُبعثَرين، من مختلف البلدان، الذين يعلنون عن رفضهم بناءً على ذات التعليم المعروف للجميع. إنّ أيّ حكومة تعرف كيف، وبِمَ، تدافع عن نفسها في مواجهة الثوريين، ولديها وسائل لذلك، لذا هي لا تخشى هؤلاء الأعداء الخارجيين. لكن ماذا يمكن أن تفعل ضدّ أولئك الذين يفضحون عدم فائدة وعدم لزوم وضرّر شتى الحكومات ولا يقاتلونها، بل فقط لا يحتاجون إليها، وهم في غنى عنها، وبالتالي لا يريدون المشاركة فيها.

الثوريون يقولون: "نظام الدولة له هذه المساوئ أو تلك، يجب إسقاطه واستبداله بهذا أو ذاك." بينما المسيحي يقول: "لا أعرف شيئاً عن نظام الدولة، عن مدى جودته أو رداءته، ولا رغبة لي في إسقاطه، بالتحديد لأني لا أعلم ما إن كان جيداً أو سيئاً، لكني، لهذا السبب بالذات أيضاً، لا رغبة لي في مساندته. ولستُ فقط لا أريد ذلك بل ولا أستطيع لأنّ ما يُطلب منّي يناقض ضميري."

وكلّ إلزامات الدولة تناقض ضمير المسيحي: القَسَم والضرائب والمحاكم والجيش. وعلى هذه الإلزامات بالذات ترتكز سلطة الدولة برمّتها.

الأعداء الثوريون يحاربون السلطة من خارجها، أما المسيحية فهي لا تحارب على الإطلاق لكنها تهدم كلّ أسس السلطة من داخلها.

وسط الشعب الروسي، الذي لم تتوقّف لديه قطّ معارضة المسيحية للدولة، خاصة منذ عهد بطرس الأول، وسط الشعب الروسي الذي نظام حياته على نحوٍ بحيث أنّ الناس يهاجرون جماعاتٍ إلى تركيا، إلى الصين، إلى القِفار، وليس فقط لا يحتاجون الحكومة بل وينظرون دائماً إليها كعبءٍ لا لزوم له ويحتملونها كبلاءٍ وحسب، سواء كانت تركيةً أم روسيةً أو صينيةً، وسط الشعب الروسي، في الآونة الأخيرة، بدأت تظهر أكثر فأكثر حالات تحرّر مسيحي واعٍ لأفرادٍ من الخضوع للحكومة. وهذه الظواهر تخيف الحكومة بشكل خاص، في الوقت الراهن، لكون رافضي الطاعة غالباً لا ينتمون إلى الشرائح المسمّاة الفقيرة والأُميّة بل هم أناسٌ ذوو تعليمٍ متوسطٍ وعالٍ،

ولكون هؤلاء الناس لا يفسّرون رفضهم بعقائد غامضة خارقة ما، كما كان يحدث فيما مضى، ولا ينسبونه إلى خرافات وأصوليات دينية ما، كما يفعل الآن الذين يضرمون النار في أنفسهم، بل يقدّمون أبسط الحقائق وأجلاها، والتي يدركها ويقرّ بها الجميع، أسباباً لرفضهم.

على سبيل المثال، يرفضون دفع الضرائب طوعاً لأنّ الضرائب تُستخدم في أعمال العنف: رواتب القوّاد والعسكر، بناء السجون والقلاع والمدافع، وهم، كمسيحيين، يتعبرون المشاركة في هذه الأعمال عملاً آثماً ولاأخلاقياً. الذين يرفضون أداء اليمين يرفضون ذلك لأنّ التعهّد بطاعة السلطات، أي طاعة أناسٍ يمارسون العنف، يناقض جوهر التعليم المسيحي؛ يرفضون أداء اليمين في المحاكم لأنّ الإنجيل يحرّم القَسَم بشكل صريح. يرفضون الوظائف الشُرطية لأنّ في هذه الوظائف سيتوجّب عليهم استخدام العنف ضدّ إخوانهم وتعذيبهم، ولا يمكن للمسيحي القيام بذلك. يرفضون العمل في المحاكم لأنهم يعتبرون شتى الأحكام تنفيذاً لقانون الانتقام الذي يناقض قانون المغفرة والمحبة المسيحي. يرفضون أيّ مشاركة في الإعدادات الحربية وفي الجيش لأنهم لا يريدون، ولا يستطيعون، أن يكونوا جلادين، ولا يريدون إعداد أنفسهم ليصبحوا جلادين.

حجج هذه الامتناعات كلّها على نحوٍ بحيث مهما بلغ استبداد السلطات لا يمكنها المعاقبة عليها علناً. للمعاقبة على هذه الامتناعات يجب على الحكومات الكفر –دون رجعة– بالعقل والخير في الوقت الذي تؤكّد فيه للناس أنّها تحكم فقط باسم العقل والخير.

ماذا بإمكان الحكومات أن تفعل ضدّ هؤلاء الناس؟ في الواقع، بإمكان الحكومات أن تضرب وتُعذِّب وتعتقل وترسل إلى الأشغال الشاقّة المؤبّدة كلّ أعدائها الراغبين في إسقاطها بالعنف؛ يمكنها أن تغمر نصف الناس الذين تحتاجهم بالذهب، وتشتريهم؛ يمكنها إخضاع ملايين المسلّحين المستعدين لقتل جميع أعداء الحكومات. لكن، ماذا يمكنها أن تفعل ضدّ أناسٍ لا يريدون تدمير أو إقامة أيّ شيء، ويريدون فقط، لأجل أنفسهم، ولأجل حياتهم، ألاّ يفعلوا أيّ شيءٍ يناقض التشريع المسيحي، ولهذا يرفضون أداء الواجبات الأكثر اشتراكاً بين الحكومات، وبالتالي الأكثر ضرورةً لها؟

لو كانوا ثوريين يدعون إلى العنف والقتل، ويمارسون هذه الأعمال، لكانت مواجهتهم سهلة؛ لكانت تمّت رشوة قسمٍ منهم وخداع قسم وإرهاب قسم، والذين ليس بالإمكان رشوتهم أو خداعهم أو إرهابهم لكانوا عُدّوا مجرمين، أعداءَ الشعب، وأُعدموا أو سُجنوا، ولكانت الجماهير باركت عمل السلطة. لو كانوا متطرّفين دينيين يُبشِّرون بعقيدةٍ ما لكان بالإمكان، بفضل تلك الخرافات الباطلة ذاتها التي يخلطونها بعقيدتهم، دحض حتى العقيدة الحقيقة التي يعتنقونها. لكن، ما العمل مع أناسٍ لا يدعون إلى الثورة، ولا يبشِّرون بدوغماتٍ دينيّة محدَّدة، وإنّما، فقط لأنّهم لا يريدون الإساءة إلى أحد، يرفضون أن أداء القسَم ودفع الضرائب والمشاركة في القضاء وأداء الخدمة العسكرية– الواجبات التي يقوم عليها مجمل نظام الدولة؟ ما العمل مع أناسٍ كهؤلاء؟ لا يمكن شراؤهم: حتى المجازفة التي يذهبون إليها طوعاً تظهر نزاهتهم. الكذب عليهم بأنّ الله يأمر بذلك غير ممكن أيضاً لأنّ رفضهم قائم على قانون الله الواضح الذي لا شكّ فيه، والذي يعتنقه حتى الذين يريدون إرغام الناس على التصرّف على النقيض منه. تخويفهم إمكانيّته أقلّ لأنّ الحرمانات والآلام التي سيتعرّضون لها في سبيل عقيدتهم سوف تقوّي فحسب تعلّقهم بعقيدتهم، وفي شريعتهم يرد صراحةً أنّ عليهم طاعة الله أكثر من البشر، وأنّ عليهم عدم الخوف من القادرين على قتل الجسد بل من القادر على قتل الجسد والنفس. تعذيبهم وسجنهم إلى الأبد أيضاً غير مفيد؛ فلدى هؤلاء رفاق سابقون، طريقة تفكيرهم وعملهم معروفة، ويعرفهم الجميع كأناسٍ ودعاء طيّبين مسالمين، ويستحيل إظهارهم كمجرمين يجب إزاحتهم لإنقاذ المجتمع. وإعدام أناسٍ، يقرُّ الجميع بأنّهم أخيار، سوف يستدعي مدافعين عنهم، أناساً يُفسِّرون رفضهم. ويكفي فقط شرح أسباب الرفض حتى يغدو جلياً للجميع أنّ الأسباب التي يرفض هؤلاء المسيحيون تنفيذ أوامر الدولة بموجبها هي ذاتها بالنسبة إلى الآخرين جميعاً، وأنّ على الجميع أن يحذوا حذوهم.

الحكومات تجد نفسها في وضعٍ محرج أمام رفض المسيحين. ترى أنّ نبوءة المسيحية تتحقّق، أنّها تحطّم القيود وتحرّر البشر المتواجدين في الأسْر، وترى أنّ هذا سوف يقضي حتماً على الذين يُبقون الآخرين في الأسْر. ترى الحكومات وتعرف أنّ

ساعاتها معدودة، وليس بمقدورها عمل شيء. كلّ ما يمكنها القيام به لإنقاذ نفسها هو تأخير ساعة هلاكها فحسب. وهي تفعل ذلك لكنّ وضعها -رغم ذلك- محرج.

وضع الحكومات كوضع المحتلّ الذي يريد الحفاظ على مدينةٍ يحرقها سكّانها. ما إن يُطفئ النار في مكانٍ ما حتى تندلع في مكانين آخرين، وما إن يخمد النار المندلعة في بناءٍ كبير، ويُحطِّم ما احترق منها، حتى تندلع من طرفي هذا البناء ذاته. الحرائق ما زالت نادرة لكن النار التي بدأت بشرارة لن تخمد حتى تحرق كلّ شيء.

وهنا، حين تغدو الحكومات عاجزةً عن حماية نفسها في مواجهة أناسٍ يدينون بالمسيحية، ويبقى القليل جداً على انهيار هذه القوّة التي تبدو بمنتهى الجبروت والقائمة كلّ هذه القرون، هنا يبدأ الناشطون الاجتماعيون بالترويج أن ليس فقط لا يجب بل وضارّ ولاأخلاقي أن يتحرّر كلّ إنسان على حدة من العبودية. كأناسٍ عملوا طويلاً ليجعلوا مياهاً محجوزةً في نهرٍ تجري بحرية، وبعد أن حفروا القناة كلّها ولم يتبقَّ عليهم سوى فتح ثغرةٍ لكي تتدفّق المياه منها وتقوم بالباقي، يأتي أناسٌ في هذه اللحظة ويبدأون بنصحهم بأنّ الأفضل، بدلاً من إطلاق الماء، بناء آلاتٍ ذات مضخّات فوق النهر لتضخَّ الماء من جهة إلى أخرى في البحيرة ذاتها. لكن الأمر قد ذهب بعيداً جداً: باتت الحكومات تشعر بعدم حصانتها وضعفها، وأصحاب الوعي المسيحي، الذين استيقظوا من التنويم، بدأوا يشعرون بقوتهم.

X

"جئتُ لألقي ناراً على الأرض -قال المسيح- فماذا أريد لو اضطرمت؟" (لوقا: 12،49)

المسيحية، في معناها الحقّ، تقوّض الدولة. هكذا فُهمت منذ البداية لذا صُلب المسيح، وفهمها دائماً على هذا النحو الناس غير المقيّدين إلى ضرورة تبرير الدولة المسيحية. فقط منذ اعتناق رؤساء الدول مسيحيةً اسميةً ظاهريةً بدأوا بابتكار كلّ تلك النظريات المعقّدة المستحيلة التي يمكن بموجبها الجمع بين المسيحية والدولة. لكن بالنسبة لأيّ شخصٍ صداقٍ وجادّ في زماننا لا يمكن ألاّ تكون جليّةً استحالة الجمع بين المسيحية الحقّ -تعليم الوداعة وغفران الإساءة والمحبّة- وبين الدولة بإكبارها العنف والإعدام والحروب. إنّ المسيحية الحقّ لا تنفي فقط إمكانية الاعتراف بالدولة بل وتقوّض أسسها.

لكن حتى إذا كان الجمع بين المسيحية والدولة صائباً فمن الطبيعي أن ينشأ السؤال التالي: ما الذي يلزم أكثر لخير الإنسانية، ما الذي يكفل خير الناس أكثر: شكل الحياة الدولتية أم تقويضه واستبدال المسيحية به؟

يقول بعضهم إنّ الإنسانية بحاجة أكثر إلى الدولة، وإنّ القضاء على صيغة الدولة سيجرّ خلفه القضاء على كلّ ما أبدعته البشرية، وإنّه كيفما كانت الدولة فإنها تبقى الصيغة الوحيدة لتطور البشرية، وإنّ كلّ ذلك الشرّ الذي نراه لدى الشعوب، التي تعيش ضمن صيغة الدولة، لا يحدث بسبب هذه الصيغة بل من جرّاء سوء الاستخدام الذي يمكن إصلاحه دون القضاء على الدولة، وإنّ البشرية قادرة، دون تقويض صيغة الدولة، على التطور وبلوغ أعلى درجات الرخاء. والناس الذين يفكرون على هذا النحو يوردون، لإثبات صواب رأيهم، حججاً فلسفيةً وسياسيةً وحتى دينيةً تبدو لهم دامغةً. لكن هناك أناساً يعتقدون العكس، وبالتحديد، بما أنّ البشرية كانت تعيش من دون صيغة الدولة في وقتٍ ما، فإنّ هذه الصيغة مؤقته، وسوف يأتي وقت يحتاج البشر فيه صيغةً

جديدةً، وإنّ هذا الوقت قد حلّ الآن. وهؤلاء الناس كذلك، لتأكيد رأيهم، يوردون حججاً فلسفيةً وسياسيةً ودينيةً تبدو لهم دامغة.

بالإمكان كتابة مجلّدات دفاعاً عن الرأي الأول (وقد كُتبت منذ زمنٍ بعيد، وما زالت تكتب حتى الآن) لكن يمكن أيضاً كتابة (كذلك كُتب الكثير، وبصورة رائعة، وإن منذ فترة قريبة) الكثير ضدّه.

ويستحيل إثبات -كما يفعل المدافعون عن مفهوم الدولة- أنّ القضاء على الدولة سيجرّ خلفه فوضى اجتماعية، ونهباً متبادلاً، وجرائم قتل، والقضاء على كافة المؤسسات الاجتماعية، وعودة البشرية إلى الهمجية؛ وكذلك يستحيل إثبات -كما يفعل معارضو مفهوم الدولة- أنّ البشر قد أصبحوا عقلاء وأخياراً إلى درجة أنّهم لن ينهبوا ويقتلوا بعضهم بعضاً، وأنّهم سيفضّلون التعايش السلمي على العدوان، وسينشئون بأنفسهم، دون مساعدة الدولة، كلّ ما يلزمهم، وأنّ الدولة -لهذا السبب- ليست فقط لا تساعد على ذلك، بل على العكس، بحجّة حماية الناس تؤثّر فيهم تأثيراً ضارّاً يجعلهم عنيفين. ليس بالإمكان إثبات ذلك من خلال التجربة إذ إنّ السؤال هو هل ينبغي أم لا ينبغي تجربة ذلك. إنّ مسألة هل آن أوان إلغاء الدولة أم لا لكانت غير قابلة للحلّ لو لم تكن هناك طريقة أخرى للعيش تشكّل حلاً لا جدال فيه للمسألة.

بغضّ النظر كليّاً عن الجدال حول ما إن كانت الأفراخ في العش قد كبرت لكي تنقر القشرة وتخرج من البيض لو أنّها لم تكبر بعد، الأفراخ هي التي ستحلّ المسألة بشكل حاسم حين تكبر ولا يعود البيض يتّسع لها، حيث ستبدأ بنقرها بمناقيرها وستخرج منها من تلقاء ذاتها.

الأمر ذاته مع السؤال: هل حان الوقت أم لا ليقوم البشر بالتخلص من صيغة الدولة واستبدال صيغة جديدة بها؟ إذا كان الإنسان، نتيجةً لنمو الوعي لديه، لم يعد قادراً على تنفيذ متطلبات الدولة، ولم تعد الدولة تتّسع له، فضلاً عن أنّه لم يعد بحاجة إلى حماية صيغة الدولة، فإنّ السؤال ما إن كان البشر قد باتوا راشدين أم لا لتغيير صيغة الدولة يُحلّ من منحى مختلف كليّاً، وكذلك بصورة حاسمة، كالفرخ الذي يفقس من البيضة التي لا يمكن لأيّ قوّة في العالم إعادته إليها، من قبل الناس أنفسهم الذين كبروا على الدولة، والذين لا تستطيع أيّ قوّة إعادتهم إليها.

"محتملٌ جداً أنّ الدولة كانت لازمة، وما زالت لازمة، لتحقيق كلّ الأهداف التي تنسبونها إليها -يقول الشخص الذي هضم فهم الحياة المسيحي- لكنّي أعرف فحسب أنّني لم أعد بحاجة إلى الدولة، من جهة، ومن جهةٍ أخرى لم أعد قادراً على القيام بالأعمال اللازمة لوجود الدولة. أنشئوا لأنفسكم ما تحتاجونه من أجل حياتكم، لا يمكنني إثبات الضرورة العامة للدولة، ولا ضررها، لكنّي أعلم فحسب ما أنا بحاجة إليه وما لستُ بحاجة إليه، وما هو مسموحٌ لي وما هو ممنوع. بالنسبة إليّ أعلم أنّي لست بحاجةٍ إلى فصل نفسي عن الشعوب الأخرى لذا لا يمكنني الإقرار بانتمائي المتميّز إلى أيّ شعبٍ أو دولةٍ، ولا بولائي لأيّ حكومة كانت؛ أعرف عن نفسي أنّني لست بحاجة إلى جميع تلك المؤسسات الحكومية التي تُقام داخل الدولة لذا لا يمكنني حرمان الناس المحتاجين إلى نتاج عملي، وإعطاؤه، على شكل ضرائب، لأناسٍ لست بحاجةٍ إليهم، ولمؤسساتٍ ضارّة على قدر علمي؛ أعرف عن نفسي أنّني لست بحاجة إلى الإدارات والمحاكم التي هي نتاج العنف لذا لا يمكنني المشاركة لا في هذه ولا في تلك؛ أعرف أنّني لست بحاجة إلى غزو الشعوب الأخرى وقتلها، ولا إلى حماية نفسي منها والسلاح بيدي، لذا لا يمكنني المشاركة في الحروب، ولا الإعداد لها. محتملٌ جداً أنّ هناك أناساً لا يمكنهم ألاّ يعتبروا هذا كلّه لازماً وضرورياً، لا يمكنني مجادلتهم، فأنا أعرف فقط فيما يخصّني لذا أعرف يقيناً أنني لست بحاجةٍ إلى ذلك، وأنّني لست قادراً على القيام بذلك، ولست بحاجةٍ إليه، ولست قادراً عليه، ليس لأنني، شخصياً، أريد ذلك بل لأنّ الذي أرسلني إلى الحياة، ومنحني قانوناً لا ريب فيه يقودني في هذه الحياة، لا يريد ذلك."

أيّاً كانت الحجج التي يقدّمها الناس لإثبات أنّ إلغاء سلطة الدولة ضارّ، وأنّ إلغاءها قد يتسبَّب بكوارث، فإنّ الذين كبروا على سلطة الدولة لم يعد بإمكانهم حشر أنفسهم فيها. وأيّاً كانت، وكيفما كانت، الحجج التي تُقدَّم لإنسانٍ قد كبر على صيغة الدولة عن مدى ضرورتها، فإنّه لم يعد قادراً على العودة إليها، ولم يعد قادراً على المشاركة في أعمالٍ منافيةٍ لإدراكه، كما لا يمكن للأفراخ التي كبرت العودة إلى البيوض التي فقست منها.

"لكن إذا كان هذا صحيحاً –يقول المدافعون عن النظام القائم– فإنّ إلغاء عنف الدولة ممكنٌ ومرغوبٌ فقط بعد أن يصبح البشر جميعاً مسيحيين. لكن، إلى أن يحدث ذلك، مادام هناك، وسط الذين يُسمَّون مسيحيين، أناساً غير مسيحيين، أناساً أشراراً مستعدين للإضرار بالآخرين من أجل رغباتهم الخاصة، فإنّ إلغاء سلطة الدولة ليس فقط لن يكون خيراً بالنسبة للناس الآخرين بل سيجعل مصيبتهم أكبر فحسب. إلغاء صيغة الحياة الدولتية ليس مستحسناً ليس فقط حين تكون هناك قلّة قليلة من المسيحيين الحقيقيين بل كذلك حين يغدو الجميع مسيحيين مع بقاء أُناسٍ غير مسيحيين بينهم أو من حولهم، بين الشعوب الأخرى، لأنّ غير المسيحيين سوف ينهبون ويقهرون ويقتلون المسيحيين، ويجعلون عيشهم ضنكاً، دون أن يُعاقَبوا. سيحدث فقط أنّ الأشرار سوف يتسلّطون على الأخيار ويقهرونهم دون عقاب. لذا لا يجب إلغاء سلطة الدولة إلى أن يتمّ القضاء على جميع الأشرار المتوحّشين في الدنيا. وبما أنّ هذا مستحيل، أو بعيد المنال على الأقلّ، ورغم محاولات بعض المسيحيين للتحرّر من سلطة الدولة، فيجب الإبقاء على هذه السلطة من أجل معظم البشر". هذا ما يقوله المدافعون عن الدولة. يقولون: "من دون الدولة سوف يقهر الأشرارُ الأخيارَ ويتسلّطون عليهم. سلطة الدولة تمنح الأخيار القدرة على قمع الأشرار."

لكنّ المدافعين عن النظام القائم، بتأكيدهم ذلك، يقرّرون مسبقاً صواب الوضع الذي يجب عليهم إثبات صوابه. بقولهم إنّ الأشرار سيتسلّطون على الأخيار من دون الدولة يعتبرون أنّ الأخيار هم الذين يحوزون السلطة في الوقت الراهن، وأنّ الأشرار هم المخضوعون. لكن هذا بالتحديد هو ما يجب إثباته. لكان هذا صواباً لو أنّ في عالمنا حدث –رغم أنّه لا يحدث في الصين لكنّ الصينيين يرون أنّ هذا ما يجب أن يكون– أن يحكم دائماً الأخيار، وأن يُطيح المواطنون برؤساء الحكومات إذا لم يكونوا أخياراً بقدر الذين يحكمونهم. هذا هو الاعتقاد السائد في الصين، لكن، في الواقع، لا وجود لهذا، ولا يمكنه أن يحدث لأنّه، من أجل تقويض سلطة حكومة قاهرة، لا يكفي امتلاك الحقّ في ذلك بل يجب امتلاك القدرة على ذلك.

بالتالي، حتى في الصين هذا ما يُفترّض فحسب. لكن في عالمنا المسيحي لم يُفترَض هذا قط. في عالمنا ما من أساس حتى لافتراض وجوب أن يحكم الأخيار أو الناس

الأفضل، وليس الذين استولوا على السلطة واستأثروا بها لأنفسهم ولورثتهم. وللاستحواذ على السلطة والاستئثار بها لا بدّ من محبتها. وحبّ السلطة لا يجتمع مع الطيبة بل يجتمع مع صفات مناقضة للطيبة: مع الغرور والخبث والقسوة.

من دون تعظيم الذات والحطّ من الآخرين، من دون نفاقٍ وكذب، من دون سجونٍ وقلاعٍ وإعدامٍ وقتل، لا يمكن لأيّ سلطة أن تنشأ وتستمر.

"إذا ما أُلغيت سلطة الدولة فسوف يتسلّط الأكثر شرّاً على الأقلّ شرّاً" -يقول المدافعون عن الدولة. لكن إذا كان المصريون القدماء قد أخضعوا اليهود، والفرس أخضعوا المصريين، والمقدونيون أخضعوا الفرس، والرومان أخضعوا اليونان، والبرابرة أخضعوا الرومان؛ فهل يُعقل أنّ كلّ الذين أُخضعوا كانوا أخياراً أكثر من الذين أخضعوهم؟

والأمر ذاته فيما يتعلّق بانتقال السلطة في دولة ما من أيدي أناسٍ إلى أيدي آخرين: هل انتقلت السلطة دائماً إلى الأصلح؟ حين تمّ إسقاط لويس السادس عشر وتسنّم السلطة روبسبير ثمّ نابليون، من الذي حكم: الأخيَر أم الأشرّ؟ ومتى حكم الأخيَر: حين تسنّم السلطة الفيرساليون أم الكومونيّون؟ أو حين حكم شارل الأوّل أم كرومويل؟ أو حين كان بطرس الثالث قيصراً أم حين قُتِل وحكمت كاترينا جزءاً من روسيا، وبوغاتشوف الجزء الآخر؟ من كان آنذاك الشرير، ومن كان الخيّر؟

كلّ الذين يكونون في السلطة يؤكّدون أنّ سلطتهم ضرورية لكي لا يقهر الأشرار الأخيار، قاصدين بهذا أنّهم أخير الناس، وأنّهم يحمون الأخيار من الأشرار.

لكنّ التسلّط يعني **الإكراه**، والإكراه يعني القيام بما لا يريده المُكرَه، والذي -ربّما- لا يريده المُكرِه لنفسه؛ بالتالي التسلّط يعني أن نفعل بالآخرين ما لا نريد أن يُفعَل بنا، أي عمل الشرّ.

الخضوع يعني تفضيل الصبر على العنف، وتفضيل الصبر على العنف يعني أن يكون المرء خيّراً أكثر أو، على الأقلّ، أقلّ شرّاً من الذين يفعلون بالآخرين ما لا يتمنّونه لأنفسهم. ولهذا فالاحتمال الأكبر دائماً هو أن يحكم، ويحكم الآن، ليس الأخيَر، بل على العكس، الأشرّ من الذين يحكمونهم. قد يكون هناك أشرار بين المحكومين لكن لا يمكن أن يحكم الأخيارُ الأشرارَ.

كان مستحيلاً التسليم بهذا في ظلّ التحديد الوثني غير الدقيق للخير، أما في ظلّ التحديد المسيحي الواضح والدقيق للخير والشرّ بات مستحيلاً عدم الاعتقاد بذلك. إذا لم تكن هناك في العالم الوثني إمكانية لتمييز الأكثر أو الأقلّ خيراً من الأكثر أو الأقلّ شرّاً، فإنّ المفهوم المسيحي للخير والشرّ قد حدّد بمنتهى الوضوح صفات الأخيار والأشرار بحيث بات مستحيلاً الخلط بينهم. وفق تعليم المسيحي، الأخيار هم الودعاء الصابرون الذين لا يقاومون الشرّ بالعنف، وينفرون من الإساءة، ويحبّون أعداءهم؛ والأشرار هم المتكبّرون الذين يتسلّطون، ويقاتلون ويقهرون الناس، وبالتالي ما من شكٍّ –بموجب تعليم المسيح– في موضع الأخيار والأشرار بين الحاكمين والمحكومين. بل حتى من المضحك الحديث عن حكّام مسيحيين.

اللامسيحيون، أي الذين يرون حياتهم في الخيرات الدنيوية، دائماً يحكمون، ويجب أن يحكموا، المسيحيين، أي الذين يرون حياتهم في الزهد في هذه الخيرات. هكذا كانت الحال دائماً، وباتت أوضح فأوضح تبعاً لانتشار واتّضاح التعليم المسيحي. فكلما انتشرت الحقيقة المسيحية، واستوعاها الناس، أكثر كلما قلّت إمكانية أن يكون المسيحيون بين المتسلّطين، وكلّما سهل أكثر على اللامسيحيين التسلّط على المسيحيين.

"إنّ إلغاء عنف الدولة، قبل أن يصبح كلّ الناس في المجتمع مسيحيين حقيقيين، سوف يؤدي إلى تسلّط الأشرار على الأخيار، وقهرهم دون عقاب!" يقول المدافعون عن نظام الحياة القائم. "الأشرار سوف يتسلّطون على الأخيار ويقهروهم." لكن، هكذا كانت الحال دائماً، ولا يمكنها إلا أن تكون هكذا. هكذا كانت الحال منذ بدء الخليقة، وما زالت حتى الآن. **الأشرار يتسلّطون على الأخيار دائماً ويقهرونهم.** قابيل قهر هابيل، يعقوب الماكر تسلّط على عيسو الذي وثق به، لابان على يعقوب بعد أن خدعه، قيافا وبيلاطس تسلّطا على المسيح، الأباطرة الرومان تسلّطوا على على أمثال سينيكا وإبكتيتوس والرومان الطيبين الذين عاشوا في زمانهم، إيفان الرابع بقمعه، وبطرس السكّير بألعابه، والعاهرة كاترينا بعشاقها، تسلّطوا على الروس الكادحين المتدينين في زمانهم وقهروهم. ويلهلم تسلّط على الألمان، ستامبولوف على البلغار، الموظّفون الروس على الشعب الروسي، الألمان تسلّطوا على الطليان، ويتسلّطون الآن على الهنغار والسلاف، الأتراك تسلّطوا ويتسلّطون على السلاف واليونان، الإنكليز يتسلّطون على الهنود، والمنغول على

الصينيين. وبالتالي، سواء أُلغي عنف الدولة أم لم يُلغَ فإنّ حال الأخيار، المقهورين من قِبَل الأشرار، لن تتغيّر من جرّاء ذلك.

لا يمكن إطلاقاً تخويف البشر من أنّ الأشرار سيتسلّطون على الأخيار لأنّ ما يخوّفونهم منه هو ما كان دائماً، وما زال، ولا يمكن إلا أن يكون.

مجمل تاريخ البشرية الوثني مؤلّف فقط من الأحداث التي عن طريقها استولى الناس الأكثر شرّاً على السلطة على الأقلّ شرّاً، وبعد الاستيلاء عليها بالقسوة والمكر عزّزوها وتسلّطوا على الأخيار، مقدّمين أنفسهم كرعاةٍ للعدالة وحماةٍ للأخيار من الأشرار. كلّ الانقلابات في التاريخ ليست سوى استيلاء على السلطة من قِبَل الأكثر شرّاً وهيمنتهم على الأخيار. إنّ قول المتسلّطين إنّه لولا سلطتهم لاستبدّ الأشرار بالأخيار معناه فقط أنّ القاهرين الموجودين في السلطة لا يريدون التخلّي عن هذه السلطة لقاهرين آخرين يريدون سلبهم إيّاها. بكلامهم هذا المتسلّطون يفضحون أنفسهم فحسب. إنّهم يقولون إنّ سلطتهم، أي العنف، ضرورية لحماية الناس من قاهرين آخرين ما، أو من قاهرين قد يظهرون[39].

يكمن خطر استخدام العنف في أنّه ما إن يُستخدَم، فإنّ كلّ الحجج التي يوردها القاهرون دفاعاً عن أنفسهم بالإمكان استخدامها ضدّهم، وبطريقة مبرَّرة أكثر. إنّهم يتحدّثون عن عنفٍ سابقٍ، وعن عنفٍ لاحق مُتخيَّل غالباً، في حين أنّهم، هم أنفسهم، يمارسون عنفاً فعليّاً دون توقّف. "تقولون إنّ البشر كانوا فيما مضى ينهبون ويقتلون، وسينهبون ويقتلون، بعضهم بعضاً لولا سلطتكم. قد يحدث هذا، وقد لا يحدث، لكن كونكم تُهلكون آلاف الناس في السجون والأشغال الشاقّة والمنافي والقلاع، وتدمِّرون ملايين الأُسر وتُهلكون، جسدياً وأخلاقياً، ملايين البشر في الجيش، فإنّ هذا ليس عنفاً افتراضياً بل هو عنفٌ فعليّ، ويجب محاربته بالعنف، حسب رأيكم. لذا، فإنّ الذين لا بدّ من استخدام العنف ضدّهم هم أنتم أنفسكم". هذا ما يجب أن يقوله المقهورون للقاهرين.

39- يثير الذهول إلى حدّ الفكاهة، في هذا الخصوص، تأكيد السلطات الروسية، التي تقهر شعوباً أخرى: البولونيين وألمان أوستيزيا واليهود، الحكومة الروسية التي تقمع رعاياها لقرون، ولم تهتم بالأقزام في بولونيا، ولا باللاتفيين في إقليم أوستيزيا، ولا بالفلاحين الروس، هؤلاء الناس المُستغَلّين بشتى السبل، تصبح فجأةً حاميةَ المضطهَدين من المضطهِدين، والذين هي ذاتها تضطهدهم.

والناس اللامسيحيون يقولون ويفكِّرون ويتصرّفون دائماً على هذا النحو. إذا كان المقهورون أشرّ من الذين يقهرونهم فسوف ينقضّون عليهم ويُسقطونهم، وهم يُسقطونهم عندما تكون الظروف مؤاتية، أو -الأكثر اعتيادية- سينخرطون في صفوف القاهرين ويشاركونهم قهرهم.

بالتالي، فإنّ ما يُخوِّف منه الناسّ المدافعون عن "الدولتية"، بأنّه لو لم تكن هناك سلطة قاهرة لتسلّط الأشرار على الأخيار، هو ذاته ما حدث ويحدث في حياة البشرية، لذا فإنّ إلغاء عنف الدولة لا يمكنه أن يكون، في أيّ حالٍ من الأحوال، سبباً لازدياد عنف الأشرار تجاه الأخيار.

إذا زال عنف الدولة فقد يمارس أناسٌ آخرون العنف، وليس الذين كانوا يمارسون العنف من قبل، لكنّ كميّة العنف لا يمكنها أن تزداد، في أيّ حالٍ من الأحوال، من جرّاء انتقال السلطة من أيدي بعض الناس إلى أيدي آخرين.

"يمكن لعنف الدولة أن يتوقّف فقط بعد القضاء على الناس الأشرار في المجتمع" - يقول المدافعون عن النظام القائم، ويقصدون بذلك أنّه بما أنّه سيكون هناك دائماً أناسٌ أشرار فإنّ العنف لن يتوقّف أبداً. ولكان هذا صحيحاً فقط لو كانت الحال كما يعتقدون، بالتحديد، أنّ القاهرين هم الناس الأخير، وأنّ الوسيلة الوحيدة لتخليص الناس من الشرّ هي العنف. حينذاك، بالتأكيد، لا يمكن للعنف أن يتوقّف أبداً، لكن بما أنّ الحال ليست كذلك، أي أنّ الأخيار يقمعون الأشرار، بل على العكس من ذلك، أي أنّ الأشرار هم الذين يقمعون الأخيار، وبما أنّ هناك وسيلة أخرى غير العنف، الذي لم يوقف الشرّ يوماً، للخلاص من العنف، فإنّ تأكيد أنّ العنف لن يتوقّف أبداً ليس صحيحاً. العنف يغدو أقلّ فأقلّ، وجليٌّ أنّه يجب أن يتوقّف، لكن ليس بالطريقة التي يتصوّرها بعض المدافعين عن النظام القائم، أي أنّ الناس المُعرَّضين للعنف، نتيجةً لتأثير الحكومات فيهم، سوف يصبحون أفضل فأفضل (على العكس، هم يصبحون أسوأ فأسوأ نتيجةً لذلك) وإنّما نتيجةً لأنّ -بما أنّ كلّ البشر يصبحون أفضل فأفضل باستمرار- الناس الأشرّ، المتواجدين في السلطة، سيغدون أفضل بكثير بحيث يصبحون غير قادرين على استخدام العنف.

XI

تقدّم البشرية لا يحدث من خلال أنّ أفضل أفراد المجتمع يجعلون الخاضعين لسلطتهم أفضلهم، عبر استيلائهم على السلطة واستخدامهم العنف ضدّهم، كما يعتقد المحافظون والثوريون كذلك، بل يحدث، أولاً، بسبب أنّ البشر جميعاً، باطّراد ودون توقّف، يستدمجون بوعي، أكثر فأكثر، الفهم الحياتي المسيحي، وثانياً، لأنّ البشر، بغض النظر عن نشاطهم الروحي الواعي، نتيجةً لعملية استيلاء بعض الناس على السلطة وحلولهم محلّ آخرين، يصلون تلقائياً إلى علاقةٍ أكثر مسيحية مع الحياة. هذه السيرورة تتحقق من خلال أنّ أسوأ أفراد المجتمع، الذين يستولون على السلطة ويقعون تحت هيمنتها، بتأثيرٍ من خاصيتها المُثيبة إلى الرشد، المرافقة لها، يصبحون أقلّ فأقلّ قسوةً، ويصبحون غير قادرين على استخدام أشكالٍ قاسيةٍ للعنف، ونتيجةً لذلك يتخلّون عن موقعهم للآخرين الذين يتعرّضون، بدورهم، لسيرورة التلطيف هذه، ولما يمكن تسميته مَسْحَنَةً لاشعورية.

يحدث للناس ما يشبه عملية الغليان. جميع الناس، الذين معظمهم من أهل الفهم الحياتي الامسيحي، يتطلّعون إلى السلطة ويقاتلون لبلوغها. في هذا الصراع، عناصر المجتمع، الأشدّ قسوةً وعنفاً والأقلّ مسيحيةً، عبر قهرهم للناس الأكثر وداعةً، النزّاعين للخير، الأكثر مسيحيةً، يرتقون، بوساطة عنفهم، إلى أعلى شرائح المجتمع. وهنا يحدث للناس المتواجدين في هذا الوضع ما تنبّأ به المسيح حين قال: "الويل لكم أيها الأغنياء، الشباع، المتمجّدون" يحدث أنّ الناس، المتواجدين في السلطة وأسرى تبعاتها، المجد والغنى، إذ يبلغون الأهداف المحددة المختلفة التي وضعوها لأنفسهم حسب أمنياتهم، يدركون لاجدواها، ويرجعون إلى حالتهم السابقة. شارل الخامس وإيفان الرابع وألكسندر الأول، بعد أن أدركوا بطلان السلطة وشرورها، تخلّوا عنها لأنّهم رأوا شرورها كلّها، وباتوا عاجزين عن استخدام العنف باطمئنان كعملٍ حسنٍ كما كانوا يفعلون من قبل.

لكن ليس فقط "الشارلات" و"الألكسندرات" يعبرون هذه الدرب ويدركون بطلان السلطة وشرّها: عبر سيرورة التهذيب هذه يمرّ كلّ إنسان يحوز السلطة التي كان يصبو إليها، ليس فقط كلّ الوزراء والجنرالات والمليونيريين والتجار بل كذلك الموظفون الذين

وصلوا إلى الوظائف التي تمنّوها عشرة أعوام، وكلّ الفلاحين الأثرياء الذين راكموا ثروتهم روبلاً فوق روبل.

لا يعبر هذه السيرورة الأفراد فقط بل ومجموع الناس، شعوب بأكملها.

إغواءات السلطة وكلّ ما تقدّمه: الغنى، التمجيد، العيش المترف، تُعَدُّ غايةً جديرةً بنشاط الناس إلى أن يتمّ بلوغها، لكن ما إن يبلغها الإنسان حتى تنفضح تفاهتها، وتفقد شيئاً فشيئاً جاذبيتها، كالسراب الذي له شكلٌ وجمالٌ فقط من بعيد، ما إن يبلغه المرء حتى تختفي روعته كلّها.

الناس، الحائزين السلطة والثروة، أحياناً معظمهم يكونون ورثة الذين حازوا السلطة والثروة، يكفّون عن أن يكونوا متعطّشين، إلى هذا الحدّ، إلى السلطة، وعن أن يكونوا قساةً من أجل حيازتها.

إذ يَخبر الناس، بتأثيرٍ من المسيحية، لاجدوى ثمار العنف، عبر جيلٍ واحدٍ أحياناً، وأحياناً خلال بضعة أجيال، يفقدون الرذائل التي تثير شهوتهم لحيازة السلطة والثروة، وإذ يصبحون أقلّ قسوةً يتخلّون عن مناصبهم، ويتخلّون عن السلطة لأناسٍ آخرين، أقلّ مسيحية، أشرّ، وينحدرون إلى شريحة اجتماعية أدنى من حيث الموقع، لكن أعلى أخلاقياً، مرتقين بمستوى الوعي المسيحي لدى الناس جميعاً. لكن، مرّةً أخرى، في إثرهم مباشرةً، ترتقي عناصر المجتمع الأسوأ، الأشدّ فظاظة، الأقلّ مسيحية، وثانيةً يتعرّضون للسيرورة ذاتها التي تعرّض لها الذين سبقوهم، وثانيةً، خلال جيلٍ واحد أو بضعة أجيال، إذ يَخبرون لاجدوى ثمار العنف ويتشرّبون بالمسيحية، ينزلون إلى وسط المقهورين، ومرّةً أخرى يحلّ محلّهم قاهرون جدد، أقلّ فظاظةً من السابقين، لكنّهم أكثر فظاظةً من الذين يقهرونهم. بالتالي، رغم أنّ السلطة تبقى على حالها، من حيث شكلها الخارجي، كلّما تبدّل الناس المتواجدون في السلطة، يزداد أكثر فأكثر عدد الذين يتوصّلون، عبر خبرة الحياة، إلى ضرورة استدماج الفهم الحياتي المسيحي، مع كلّ تبدّل للأشدّ فظاظةً وقسوةً والأقلّ مسيحيةً من الآخرين.بالأقلّ فظاظةً وقسوةً والأكثر مسيحيةً من الذين كانوا في السلطة، والذين يقعون في أسْر السلطة.

العنف يختار ويجذب إليه أسوأ عناصر المجتمع، فيعيد تشكيلهم، وبعد أن يحسّنهم ويهذّبهم يعيدهم إلى المجتمع ثانيةً. هذه هي السيرورة التي عن طريقها تأسر المسيحيةُ

المزيد فالمزيد من الناس، بغضّ النظر عن العنف الذي تمارسه سطة الدولة، الذي يعيق تقدّم البشرية. المسيحية تنفذ إلى وعي الناس ليس فقط رغم عنف السلطة بل وعن طريقها.

لذا فإن تأكيد المدافعين عن النظام القائم بأنّه إذا ما أُلغي عنف الدولة فسوف يتسلّط الأشرار على الأخيار، ليس فقط لا يثبت خطر تسلّط الأشرار على الأخيار، فهذا بالذات هو ما يحدث، بل، على العكس، يثبت أنّ عنف الدولة، الذي يمنح الأشرار إمكانية التسلّط على الأخيار، هو الشرّ المطلوب القضاء عليه، والذي تقضي عليه الحياة ذاتها.

"لكن حتى إذا كان صحيحاً أنّ عنف الدولة سيتوقّف حين يغدو الحائزون السلطة مسيحيين إلى درجة الامتناع عن استخدامه، وبحيث لا يُعثَر على أناسٍ مستعدّين للحلول محلهم، وإذا كان صحيحاً أنّ هذا ما سيحدث، فمتى قد يحدث ذلك؟ إذا كانت قد مرّت 1800 سنة وما زال هناك الكثير جداً من الراغبين في التسلّط والقليل جداً من الراغبين في الطاعة، فلا يوجد أيّ احتمال ليس فقط لقرب حدوث ذلك، بل لحدوث ذلك إطلاقاً."- يقول المدافعون عن النظام القائم.

"حتى لو كان هناك، كما كان هناك من قبل، بين الناس جميعاً أناسٌ يفضّلون التخلّي عن السلطة على استغلالها، فإنّ عدد البشر الذين يفضّلون التسلّط على الخضوع من الكثرة بحيث يصعب تصوّر حلول زمنٍ يُستنفَد فيه هذا العدد."

"لكي تجري عملية مَسْحَنة الناس جميعاً، لكي يتحوّل الناس جميعاً -الواحد تلو الآخر- من الفهم الحياتي الوثني إلى المسيحي، ويرفضون طوعاً السلطة والثروة بحيث لا يرغب أحد فيهما، لا يلزم فقط أن يتحوّل إلى المسيحية كلّ أولئك الأفظاظ، شبه الهمجيين، غير المؤهّلين إطلاقاً لاعتناق المسيحية والالتزام بها، والذين عددهم دائماً كبير جداً في كلّ المجتمعات المسيحية، بل كذلك كلّ الشعوب الهمجية واللامسيحية عموماً، التي ما زالت كثيرة العدد. بالتالي، حتى لو افترضنا أنّ عمليّة مَسْحَنة الناس جميعاً سوف تتحقّق في وقتٍ من الأوقات، فنظراً إلى مدى تحرّك هذا الأمر خلال 1800 سنة، فإنّ هذا قد يحدث خلال عدّة "1800 سنة" لذا ينبغي عدم التفكير في القضاء على السلطة في الوقت الراهن، وإنّما يجب فقط الحرص على وقوع السلطة في أيدي أفضل الناس."

على هذا النحو يفترض المدافعون عن النظام القائم. ولكان هذا الرأي صائباً تماماً لو أنّ تحوّل البشر من فهم حياتيٍّ ما إلى آخر يحدث فقط عن طريق هذه العملية التي يدرك، بموجبها، كلّ إنسان على حدة، واحدهم تلو الآخر، من خلال التجربة، تفاهة السلطة ويدرك، باطنياً، الحقائق المسيحية.

هذه العملية تحدث دون توقّف، والناس يتحوّلون، واحدهم تلو الآخر، بهذه الطريقة، إلى صفّ المسيحية. لكنّ الناس لا يتحوّلون، واحدهم تلو الآخر، إلى صفّ المسيحية عبر هذه الطريق الداخلية فقط بل كذلك عبر طريقة خارجية والتي بموجبها تنتفي تدريجية هذا التحوّل.

إنّ تحوّل البشر من نظامِ حياةٍ إلى آخر لا يحدث دائماً كانسكاب الرمل في الساعة الرملية: ذرّة رمل تلو الأخرى حتى آخر ذرّة رمل، بل، بالحري، كما ينسكب الماء في وعاءٍ مُلقى في الماء حيث، في البداية، ينسكب الماء فيه ببطء ثمّ فجأة، بسبب ثقل الماء المنسكب فيه، تغمره المياه ويمتلئ فوراً تقريباً بالماء الذي يتّسع له.

الأمر ذاته يحدث مع مجتمعات البشر عند انتقالها من فهمٍ حياتي–وبالتالي من نظام حياة– إلى آخر. البشر، فقط في البداية، بالتدريج وبانتظام، واحدهم تلو الآخر، يتقبّلون، بطريقة داخلية، حقيقةً جديدة ويتّبعونها في حياتهم، وعند انتشارٍ معيّن للحقيقة يبدأون باستدماجها، لكن ليس بطريقة داخلية، ليس بانتظام، بل فوراً، وتلقائياً تقريباً. لذا، فإنّ رأي المدافعين عن النظام القائم بأنّه إذا كان على امتداد 1800 سنة فقط عدد قليل من الناس قد تحوّلوا إلى صفّ المسيحية، وأنّه يلزم عدّة "1800 سنة" حتى يتحول الآخرون جميعاً إلى صفّها، ليس صحيحاً. هذا الرأي ليس صحيحاً لأنّ هذه المجادلة لا تأخذ بنظر الاعتبار الطريقة الأخرى، عدا البلوغ الداخلي للحقيقة، لاستدماج البشر الحقيقةَ الجديدة، وانتقالهم من نظامِ حياةٍ إلى آخر.

الطريقة الأخرى لاستدماج الناس حقيقةً منكشفة حديثاً وانتقالهم إلى نظامٍ جديدٍ للحياة تكمن في أنّ الناس يستدمجون هذه الحقيقة ليس فقط لأنّهم يدركونها بحسٍّ نبوئي أو عبر خبرة الحياة، بل كذلك لأنّ –عند حدّ معيّن لانتشار الحقيقة– الناس الأدنى تطوّراً يتقبّلونها جميعاً مباشرةً من خلال ثقتهم وحدها بالذين تقبّلوها داخلياً، ويلحقونها بالحياة.

كلّ حقيقة جديدة، تغيّر نظام الحياة الإنسانية وتطوّر الإنسانية إلى الأمام، يتقبّلها، في البداية، فقط عدد قليل جداً من الذين يفهمونها داخلياً. أما بقية الناس، الذين تقبّلوا، عبر الثقة، الحقيقة السابقة التي يقوم عليها النظام القائم، فيعارضون دوماً انتشار الحقيقة الجديدة.

لكن، بما أنّ البشر لا يراوحون مكانهم بل يتطوّرون دون توقّف، مدركين الحقيقة أكثر فأكثر ومقتربين إليها خلال حياتهم؛ وبما أنّ كلّ الناس الأقرب إلى استيعاب الحقيقة داخلياً، تبعاً لأعمارهم وتربيتهم وأصنافهم، بعضهم فوق بعضٍ درجات، بدءاً من الأقدر على فهم الحقائق المكتشفة حديثاً داخلياً وصولاً إلى الأقلّ قدرة على ذلك، واحدهم تلو الآخر، في البداية عبر فترات انتقالية طويلة، وبعد ذلك يتحوّلون، أكثر فأكثر، إلى جانب الحقيقة الجديدة؛ فإنّ عدد الذين يدركون الحقيقة الجديدة يزداد أكثر فأكثر، والحقيقة تغدو مفهومةً أكثر فأكثر. وكلما استوعب الناس الحقيقة الجديدة أكثر، وأصبحت الحقيقة مفهومةً أكثر، ازداد يقين الباقين، الواقفين على درجة أدنى من حيث قدرتهم على الفهم، وسهل عليهم أكثر إدراكها، وازداد عدد مستوعبيها. وهكذا تجري الحركة، متسارعةً أكثر فأكثر، ومتّسعةً أكثر فأكثر، مثل كرة ثلج، إلى أن ينشأ رأي عام موافق للحقيقة الجديدة، وينتقل حشد الناس الباقي كلّه، وليس كلاً على حدة بل جميعهم معاً، تحت ضغط هذه القوّة، إلى جانب الحقيقة الجديدة، وينشأ نظام حياة موائم لهذه الحقيقة الجديدة.

الناس، الذين ينتقلون إلى جانب الحقيقة الجديدة، التي بلغت درجة معيّنة من الانتشار، دائماً ينتقلون إلى جانبها فوراً، أفواجاً، مثل "الصابورة" التي تحفظ التوازن الوطيد والجريان الصحيح لأيّ سفينة. لولا "الصابورة" لما استقرّت السفينة في الماء، ولتغيّرت وجهتها عند أدنى تغيّر للظروف. "الصابورة" هذه، رغم أنّها تبدو في البداية فائضةً وتعيق جريان السفينة، تُعدّ شرطاً ضرورياً لتحرّكها الصحيح.

الأمر ذاته مع حشد الناس الذي ينتقل دائماً معاً، وليس واحدهم تلو الآخر، بتأثيرٍ من الرأي العام، من نظامٍ للحياة إلى نظامٍ آخر. هذا الحشد دائماً يعرقل، بعطالته، التحوّلات الجزئية السريعة، التي لم تختبرها حكمة البشر، من نظام حياةٍ ما إلى آخر، ويحافظ طويلاً، من خلال خبرة نضالية طويلة الأمد، على أيّ حقيقة مُختبَرة استوعاها البشر.

وبالتالي، ليس صحيحاً الرأي القائل إنّه إذا فقط قسم صغير، قلّة قليلة، من البشرية قد استوعب الحقيقة المسيحية على امتداد 18 قرناً، فإنّ البشرية برمّتها لن تستوعبها إلا بعد مرّات كثيرة من الـــ"1800 سنة" أي أنّنا، نحن الذين نعيش الآن، يجب علينا حتى عدم التفكير في ذلك. ليس صحيحاً لأنّ الذين يقفون على درجةٍ أدنى للتطوّر، أي أولئك أنفسهم الذين يعتبرهم المدافعون عن النظام القائم عقبةً أمام إقامة نظامِ حياةٍ مسيحي، هم الذين ينتقلون، دائماً أفواجاً معاً، إلى جانب الحقيقة المُتقبّلة من الرأي العام. لذا فإنّ التحوّل في حياة البشرية الذي، تبعاً له، يتخلّى الحائزون السلطة عنها، ولا يُعثّر بين الناس على أناسٍ يرغبون في الاستيلاء عليها، لن يحلّ فقط حين يستوعب الناس جميعاً، الواحد تلو الآخر حتى آخرهم، بوعي، الفهم الحياتي المسيحي، بل عندما ينشأ رأي عام مسيحي محدّد ومفهوم للجميع، يُخضع كلّ ذلك الحشد العاطل غير المؤهّل لاستيعاب الحقيقة داخلياً، والخاضع دائماً، لهذا السبب ذاته، لتأثير الرأي العام. والرأي العام لا يحتاج، لكي ينشأ وينتشر، إلى مئات وآلاف السنين، وله صفة معدية للتأثير في الناس، وبسرعة كبيرة يشمل عدداً كبيراً من الناس.

سيقول المدافعون عن النظام القائم: "لكن، حتى إذا كان صحيحاً أنّ الرأي العام، عند درجة معيّنة من دقّته ووضوحه، قد يجبر الكتلة المُعطِّلة من أناس المجتمعات غير المسيحية -الشعوب غير المسيحية- والناس الفاسدين والأفظاظ الذين يعيشون في المجتمعات المسيحية، على الخضوع له فما هي المؤشرات على أنّ هذا الرأي العام المسيحي قد ظهر، وعلى أنّه قادر على الحلول محلّ العنف؟"

"لا ينبغي المجازفة بالتخلي عن العنف، الذي يسند النظام القائم، والاتّكال على القدرة اللامحسوسة واللامحدّدة للرأي العام، فيحين المجال للناس الهمجيين من خارج المجتمعات وداخلها أن ينهبوا ويقتلوا ويقهروا المسيحيين بشتى السبل."

"إذا كنّا بمساعدة السلطة بالكاد نتخلص من العناصر اللامسيحية، المستعدة دائماً للهيمنة علينا والقضاء على كلّ منجزات الحضارة المسيحية، فهل، أولاً، هناك احتمال لأن يحلّ الرأي العام محلّ هذه القدرة ويكفل حياتنا. ثانياً، كيف يمكن إيجاد اللحظة التي يغدو فيها الرأي العام من القوّة بحيث يحلّ محلّ السلطة؟ إلغاء السلطة والاعتماد على الرأي العام فقط لحماية أنفسنا يشبه السلوك المجنون لشخص في معرضٍ للوحوش،

والذي، بعد إلقاءِ السلاح من يده، يطلق كلّ الأسود والنمور من الأقفاص متّكلاً على وداعة الوحوش المقيّدة في الأقفاص."

"ولهذا، فالناس الحائزون السلطة، الذين نصبهم القدر أو الله سلاطيناً، لا يحقّ لهم المجازفة بكلّ منجزات الحضارة فقط لأنّهم يريدون اختبار ما إن كان الرأي العام قادراً أو لا على الحلول محلّ حماية السلطة، لذا لا يجب عليهم إيقاف العنف."

الكاتب الفرنسي، المنسي حالياً، ألفونسيه كارّ كتب في مكانٍ ما، مبرهناً على استحالة القضاء على الإعدام: "فليقدّم السادة القتلة لنا أولاً قدوة نقتدي بها." وقد سمعتُ هذه المزحة فيما بعد كثيراً من أناسٍ بدا لهم أنّ هذه الكلمات تعبّر عن حجّةٍ مقنعةٍ ولاذعةٍ ضدّ إلغاء الإعدام. لكن ليس بالإمكان التعبير عن كلّ بطلان حجج الذين يعتبرون أنّ السلطات يجب عليها ممارسة العنف مادام الناس مؤهّلين له بشكلٍ أوضح من هذه المزحة بالذات.

"فليقدّم القتلة لنا مثالاً- يقول المدافعون عن عنف السلطات،- عبر إلغائهم الإعدام، وحينها نحنُ أيضاً سنلغيه." لكنّ القتلة يقولون القول ذاته، وهم محقّون أكثر بكثير.

يقول القتلة: "فليرينا أولئك الذين أخذوا على عاتقهم تعليمنا وقيادتنا مثالاً عن إلغاء الإعدام، ولسوف نقتدي بهم." وهم لا يقولون ذلك من قبيل المزاح بل بجديّة، لأنّ هذه هي الحال بالفعل. "لا يمكننا الكفّ عن العنف لأنّنا محاصرون بالعنيفين."

ما من شيء يعيق تقدّم البشرية في وقتنا الراهن، ويعيق إقامة نظام الحياة الذي بات ملائماً لوعيها الحالي، أكثر من هذه المحاكمة الباطلة.

الحائزون السلطة متيقّنون من أنّ فقط العنف هو الذي يحرّك البشرية إلى الأمام ويقودها، لذا يستخدمون العنف بجرأة للحفاظ على النظام القائم. في حين أنّ النظام القائم يظلّ قائماً ليس بفضل العنف بل بفضل الرأي العام الذي يخلّ العنف بتأثيره. لذا فإنّ عمل العنف يضعف ما يريد الإبقاء عليه ويخلّ به.

العنف دائماً، في أحسن الأحوال، إذا كان لا يتوخّى الغايات الخاصّة لبعض الناس، المتواجدين في السلطة، فإنّه يشجب ويحكم بالجمود على القانون الذي كان الرأي العام يشجب معظمه ويدينه أكثر بكثير من قبل، لكن مع فارق أنّ الرأي العام حين يشجب ويدين كلّ الأفعال، المناقضة للقانون الأخلاقي، مُعمّماً إدانته على مختلف الأوضاع،

القانون المدعوم بالعنف، يدين ويتحرّى مجموعة معيّنة وضيقة جداً من الأفعال، وكأنّه بهذا يبرّر كلّ الأفعال التي من هذا القبيل، والتي لا تدخل ضمن تحديده. بينما الرأي العام، منذ عصر النبي موسى، يعتبر الجشع والفجور والقسوة شروراً ويُدينها. وهو يشجب ويُدين شتى أشكال الجشع، ليس فقط الاستيلاء على ممتلكات الغير بالقوة والخداع والمكر، بل والاستخدام المتعسّف لها، يُدين شتى أنواع القسوة التي تتجلّى عبر الضرب، أو الإعالة السيئة، أو عبر قتل ليس البشر فقط بل والحيوانات. أما القانون القائم على العنف فيتحرّى فقط أشكالاً معيّنة من الجشع، كالسرقة والاحتيال، وأشكالاً معيّنة من الفجور، كالخيانة الزوجية، والقتل والتشويه، سامحاً، نتيجةً لذلك، بكلّ تجلّيات الجشع والفجور والقسوة التي لا تدخل ضمن تحديده الضيق والقابل لتأويلاتٍ باطلة.

لكن فضلاً عن أنّ العنف يُفسد الرأي العام، فإنه يخلق كذلك لدى الناس تلك القناعة المميتة بأنّ البشر لا يتطوّرون بفضل القوّة الروحية التي تدفعهم إلى إدراك الحقّ وتحقيقه عبر تلك القوّة الروحية ذاتها، بل بفضل العنف؛ أي أنه لا يقرّب البشر إلى الحقّ أبداً بل يبعدهم عنه فحسب. هذه الأضلولة مميتة لكونها ترغم البشر على تجنّب القوة الرئيسة لحياتهم -نشاطهم الروحي- وتركيز اهتمامهم وطاقتهم على النشاط السطحي المتبطل الضارّ بمعظمه للعنف.

هذه الأضلولة تشبه ضلال أناسٍ يدفعون بأيديهم عجلات قاطرة بخارية لتحريكها دون أن يخمّنوا أن البخار هو الذي يحرّك القاطرة وليست حركة العجلات. الناس الذين يستخدمون أيديهم وعَتَلاتٍ لجعل العجلات تدور سيكونون بالكاد قادرين على تحريكها، وفي الآن ذاته سيعيقون، بهذا، الحركة الفعلية.

وهو ما يفعله الذين يعتقدون أنّ البشر يتطورون عن طريق العنف الخارجي. يقولون إنّ المسيحية لا يمكن أن تُقام من دون العنف لأنّ هناك شعوباً متوحّشة في المجتمعات اللامسيحية، في أفريقيا، وفي آسيا (بعضهم يرى أنّ الصينيين يشكّلون تهديداً كهذا لحضارتنا) وهناك مجرمون متوحّشون طالحون كهؤلاء -حسب النظرية الجديدة في الوراثة- في المجتمعات المسيحية، وإنّه لا بدّ من العنف لمنع هؤلاء وأولئك من تدمير حضارتنا. .

لكنّ هؤلاء الناس المتوحّشين في المجتمعات وخارجها، الذين نخيف أنفسنا والآخرين منهم، لم يُخضعوا قط بالعنف، ولن يُخضعوا الآن أيضاً.

لم تخضع الشعوب للشعوب الأخرى بالعنف وحده قط. إذا كان الشعب، الذي يُخضِع شعباً آخر، على درجة متدنّية من حيث تطوّره، فدائماً يتكرّر أنّه لا يستطيع فرض نظام حياته بالقوة بل، على العكس، يخضع هو لنظام حياة الشعب الذي أخضعه. إذا كان بالإمكان إخضاع شعب ما، أو جعله أقرب إلى الخضوع لهيمنة شعبٍ آخر، فهذا ممكن بوساطة الرأي العام فقط، وليس، على الإطلاق، عن طريق العنف الذي، على العكس، يثير سخط الشعب أكثر فأكثر.

إذا كانت شعوبٌ بأكملها قد خضعت لعقيدةٍ دينية جديدة، وإذا كانت شعوبٌ بأكملها قد تعمّدت أو دخلت الإسلام، فهذه التحوّلات لم تحدث لأنّ أناساً، يحوزون السلطة، قد أرغموها على ذلك (العنف، على العكس، غالباً عكس وجهة هذه التحولات) بل لأنّ الرأي العام هو الذي أرغمها على ذلك. في حين أنّ الشعوب التي أُرغمت على اعتناق دين المنتصرين لم تعتنقها قط.

الأمر ذاته فيما يتعلّق بأولئك الأفراد المتوحّشين الذين يعيشون وسط المجتمع: لا زيادة ولا إقلال صرامة العقوبات، ولا زيادة الشرطة تقلّل أو تزيد من عدد الجرائم، بل هي تقلّ فقط نتيجةً للرأي العام. لم تقتلع يوماً العقوباتُ الاقتتال وسفك الدماء من جذورهما في أيٍّ من البلدان. مهما عذّبوا من الشركس بسبب السرقة فسوف يواصلون السرقة بسبب تهوّرهم، لأنّ أيّ فتاة لن تتزوّج بشابٍّ لا يُظهر جسارته عبر سرقة حصانٍ أو كبش. إذا كان الناس قد كفّوا عن التبارز، والشركس عن السرقة، فليس من جرّاء خوفهم من التعذيب (خوف التعذيب يزيد المجازفة روعةً) بل لأنّ الرأي العام قد تغيّر. والأمر ذاته مع الجرائم الأخرى كلّها. ليس بمقدور العنف أبداً القضاء على ما يقرّه الرأي العام. على العكس، يكفي فحسب أن ينبذ الرأي العام العنفَ صراحةً حتى ينتهي العنف، كما حدث ويحدث دائماً مع شتى أشكال التعذيب. ماذا سيحدث إذا لم يُستخدم العنف ضدّ الشعوب المعادية والعناصر الإجرامية في المجتمع؟ لسنا ندري، لكن كون أنّ العنف لا يُخضع لا هؤلاء ولا أولئك، فهذا نعرفه من خلال خبرتنا المديدة.

كيف يمكن بالقوة إخضاع شعبٍ تقوم كلّ تربيته وتقاليده وحتى عقيدته الدينية على أنّ الفضيلة الأسمى تكمن في محاربة المستعبِدين وفي التوق إلى الحرية؟ وكيف يمكن بالعنف اجتثاث الجريمة من مجتمعاتنا إذا كان ما تعتبره الحكومات جريمة يعتبره الرأي العام بطولة؟ بالإمكان تدمير شعوبٍ كهذه وأناسٍ كهؤلاء بالعنف، كما يحدث الآن، لكن يستحيل إخضاعهم. القوة الأساسية الحاسمة التي تحرّك البشر والشعوب دائماً كانت، وما زالت، قوة واحدة غير مرئية وغير محسوسة؛ مجموع القوى الروحية لجماعة معيّنة من البشر وللبشرية برمّتها، والتي تتجلّى في الرأي العام.

العنف يضعف فحسب هذه القوّة، يعيقها، يحرّفها، ويستبدل بها نشاطاً آخر، ليس فقط غير مفيد لتقدّم البشرية بل وضارّ به، في حين أنّ الرأي العام يقيم حياةً مسيحيةً فقط، تصرّفات مسيحية فقط، قدوات مسيحية فقط. وللهيمنة على الذين لم يخضعوا للمسيحية حتى الآن، مع توفّر وسيلة واحدة، **واحدة فقط**، للقيام بذلك، بشر زماننا يفعلون تماماً عكس ما يمكن أن يوصلهم إلى غايتهم.

من أجل إخضاع الشعوب البدائية، التي لا تمسّ بنا والتي لا مبرّر لدينا لإضطهادها، للمسيحية، نحن، بدلاً من تركهم وشأنهم و،عند الضرورة أو عند الرغبة في التقرّب إليهم، التأثير فيهم فقط عبر معاملتهم معاملةً مسيحية، عبر التعليم المسيحي، عبر الأعمال المسيحية المؤكّدة بحقّ، كالصبر والوداعة والنزاهة والطهارة والأخوة والمحبة، بدلاً من ذلك، مبتدئين ببناء أسواق جديدة بينهم من أجل تجارتنا التي غايتها منفعتنا فقط، نحتلّ أرضهم، أي ننهبهم، ونبيعهم النبيذ والتبغ والأفيون، أي نفسدهم، ونقيم نظمنا بينهم، فنعلّمهم العنف وكافة أساليبه، أي اتّباع قانون الصراع البهيمي فقط، الذي لا يمكن للإنسان أن ينحطّ أدنى منه، نفعل كلّ ما يحجب عنهم كلّ ما هو مسيحي فينا. وبعد ذلك، نرسل إليهم عشرين مبشّراً ليثرثروا بالهراء الكنسي المُختلَق، ونورد خبراتنا هذه في إدخال البدائيين إلى المسيحية كإثباتات لا تُدحض لاستحالة إرفاق الحقائق المسيحية بالحياة.

والأمر ذاته بالنسبة للذين ندعوهم المجرمين، والذين يعيشون في مجتمعاتنا. من أجل إخضاع هؤلاء الناس للمسيحية هناك **وسيلة واحدة ووحيدة**: الرأي العام المسيحي

الذي يمكن تشكيله وسط هؤلاء الناس فقط من خلال التعليم المسيحي الحقّ، المؤكَّد من خلال قدوة حياة مسيحية حقّة.

وها نحن، للتبشير بهذا التعليم المسيحي وتأكيده بقدوة مسيحية، نقيم وسط هؤلاء الناس السجون والمقاصل والمشانق والإعدامات، والتحضيرات للقتل، التي نبذل كلّ قوانا لأجلها، نقيم لأجل الشعب الأسود عبادة الأصنام التي مهمّتها تخديرهم، ننظّم التجارة الحكومية لبيعهم السموم المخدِّرة- النبيذ والتبغ والأفيون، ننشئ حتى الدعارة، نعطي الأرض لمن ليس بحاجة إليها، نبني مناظر مترفة وسط الفقر. نقضي على كلّ إمكانية لتشكّل أي رأي عام شبه مسيحي، وندمِّر بعناية الرأي العام المسيحي قيد التشكّل، وبعد ذلك، هؤلاء أنفسهم الذين أفسدناهم نحن بعناية، عبر سجنهم، كوحوش مفترسة، في أماكن لا يمكنهم الفرار منها، والتي يزدادون توحّشاً فيها، أوعبر قتلهم- هؤلاء الناس أنفسهم، الذين أفسدناهم من جميع الجهات، نوردهم براهين على استحالة التأثير في الناس سوى بالعنف الفظّ.

يحدث شيء شبيه بما يقوم به الأطباء الجهلة حين يضعون مريضاً، يتماثل للشفاء بفضل قدرة الطبيعة، في أسوأ الشروط الصحية، ويحشونه بالأدوية السُّمِّية، ثمّ يؤكِّدون أنّ المريض لم يمت بفضل تطبيبهم وعلاجهم، في حين أنّ المريض كان سيبلّ من مرضه منذ زمن بعيد لو أنّهم تركوه وشأنه.

العنف، الذي يُقدّم على أنّه الوسيلة التي يقوم عليها نظام الحياة المسيحي، ليس فقط لا يخلق هذا التأثير بل، على العكس، يمنع النظام الاجتماعي عن أن يكون ما يمكنه وما يجب أن يكونه.

النظام الاجتماعي هو على النحو الذي عليه ليس بفضل العنف بل رغم العنف.

ولهذا ليس صحيحاً تأكيد المدافعين عن النظام القائم بأنّه إذا كان العنف بالكاد يمنع العناصر الشريرة اللامسيحية عن مهاجمتنا، فإنّ إلغاء العنف واستبداله بالرأي العام لن يحمي الإنسانية. وهذا غير صحيح لأنّ العنف لا يحمي الإنسانية بل، على العكس، يحرم الإنسانية من الإمكانية الوحيدة لحماية نفسها فعلياً عبر تشكيل وإشاعة رأي عام مسيحي في نظام الحياة القائم. فقط عند إلغاء العنف سيكفّ الرأي العام المسيحي عن

الانحراف، وستتوفّر له الإمكانية للانتشار دونما عوائق، وسيكفّ البشر عن السعي إلى ما ليسوا بحاجة إليه، بل سيسعون إلى تلك القوّة الروحية القادرة على تطويرهم.

لكن، ما السبيل للتخلّي عن الحماية، العيانية والمحسوسة، لحارسٍ يحمل مسدساً، والاتّكال على شيءٍ غير مرئي وغير محسوس كالرأي العام؟ هل هو موجود حقّاً أو لا؟ والأهمّ هو أنّنا نعرف نظام الأشياء الذي نعيشه. سواء كان جيّداً أم سيّئاً، نحن نعرف عيوبه واعتدنا عليه، نعرف كيف نتصرّف، وماذا يجب أن نفعل في الظروف الراهنة، لكن ماذا سوف يحدث إذا تخلّينا عنه واتّكلنا على شيءٍ غير مرئي وغير محسوس ومجهول كليّاً؟

يبدو ذلك المجهول، الذي سيدخله البشر إذا ما تخلّوا عن النظم المعروفة للحياة، مخيفاً لهم. لكنّ الخوف من المجهول أمرٌ جيّد إذا كان وضعنا، المعروف لنا، وطيداً ومضموناً، لكنّ وضعنا ليس فقط ليس مضموناً بل نعرف يقيناً أنّنا نقف على شفير الهلاك. وإذا كان لا بدّ من الخوف فيجب أن نخاف ممّا هو مخيف فعلاً، وليس ممّا نظنّه مخيفاً.

بخوفنا من السعي للفكاك من الظروف المهلكة لنا فقط لأنّ المستقبل ليس معروفاً تماماً، نحن نشبه مسافرين على ظهر سفينة تغرق، إذ يخشون صعود القارب الذي سينقلهم إلى الشاطئ يلوذون بقمراتهم ويرفضون مغادرتها، أو كأغنامٍ، بسبب خوفها من النار، تلتصق ببعضها في الحظيرة، ولا تخرج من الباب المفتوح.

ترى هل يجوز لنا، نحن الواقفون على أعتاب حربٍ وثوراتٍ داخلية مرعبة من حيث كارثيّتها وتدميرها، حرب يقول عنها الذين يتجهّزون لها أنّ أحداث عام 1893 ستكون مجرّد لعبة، أن نتحدّث عن الخطر الذي يتهدّدنا من قبائل "الداغوم" و"الزولو" وغيرها من القبائل التي تعيش وراء البحار، ولا نفكّر في مهاجمتنا، ومن بضعة آلاف من المحتالين واللصوص والقتلة الذين خدّرناهم وأفسدناهم نحن، والذين لا ينخفض عددهم رغم محاكمنا وسجوننا وإعداماتنا كلّها.

عدا عن أنّ هذا الخوف من إلغاء حراسة شرطي خفير إنّما هو، بمعظمه، خوف أهل المدن، أي الناس الذين يعيشون في شروطٍ مصطنَعة وغير طبيعية. الناس، الذين يعيشون في شروطِ حياةٍ طبيعية، أي ليس في المدن بل وسط الطبيعة، مصارعين إيّاها،

يعيشون دون هذه الحراسة، ويعلمون مدى ضآلة قدرة العنف على حمايتهم من المخاطر الحقيقية التي تحيط بهم. في هذا الخوف هناك شيءٌ ما مرضي يتعلّق غالباً بالظروف غير الطبيعية التي عاش وترعرع الكثيرون منا فيها.

أخبر طبيب أمراض نفسيّة أنّه، مرّةً في الصيف، حين كان يغادر المشفى، رافقه المرضى النفسيّون إلى باب المستشفى. "فلتذهبوا معي إلى المدينة،" عرض عليهم الطبيب. فوافق المرضى، وسار الحشد الصغير وراء الطبيب. لكن، كلّما ابتعدوا أكثر، حيث الحركة الحرّة للناس الأصحّاء، ازداد تهيّبهم والتصقوا أكثر بالطبيب معيقين سيره. وفي نهاية المطاف راح الجميع يتوسّلونه العودة إلى المستشفى، إلى نمط حياتهم المجنون والمعتاد، إلى الحرّاس والضرب والأكمام الطويلة والغرف الإنفرادية.

كذلك يتلاصق وينجذب إلى الوراء، إلى نظام حياتهم المجنون، إلى مصانعهم ومحاكمهم وسجونهم وإعداماتهم وحروبهم، الناس الذين تدعوهم المسيحية إلى الحرية، إلى حياة العصر القادم الحرّة والعقلانية.

يقول الناس: "ما الذي سيضمن حياتنا إذا زال النظام القائم؟ كيف هي تحديداً، وما مضمون، النظم الجديدة التي ستحلّ مكان الحالية؟ لن نسير إلى الأمام ولن نتزحزح من مكاننا إلى أن نعرف كيف ستتركب حياتنا بالضبط." هذا الطلب كطلب شخصٍ يستكشف بلداناً جديدة حين يطلب وصفاً تفصيلياً للبلد الذي سيدخله.

إذا كانت حياة الفرد، عند انتقاله من عمرٍ إلى آخر، معروفةً له، فلن يعود لديه سبب للعيش. الأمر ذاته مع حياة البشرية: لو كان لديها برنامج للحياة التي تنتظرها عند انتقالها إلى عمرٍ جديد فهذا هو المؤشّر الأوثق إلى أنّها لا تعيش، لا تتقدّم، بل تراوح مكانها.

لا يمكننا أن نعلم ظروف الحياة الجديدة لأنّ علينا إبداعها. تكمن الحياة فقط في إدراك المجهول وتكييف نشاطنا مع هذا الإدراك الجديد. في هذا تكمن حياة كلّ فردٍ على حدة، وحياة المجتمعات البشرية، وحياة البشرية ككلّ.

إنّ حال العالم المسيحي، بسجونه وأشغاله الشاقّة ومشانقه، بمعامله ومراكمته رؤوس الأموال، بضرائبه، بكنائسه وحاناته وبيوت دعارته، بالتسلّح المتنامي وملايين الناس المخدَّرين، الجاهزين، ككلاب برية، للانقضاض على الذين يهيِّجهم صاحبهم للانقضاض

عليه، لكانت مرعبة لو كانت نتاج العنف. لكنّها، قبل أيّ شيءٍ آخر، نتاج الرأي العام. وما يقيمه الرأي العام ليس فقط يمكنه هدمه أيضاً، بل هو يهدمه الآن. ملايين الأموال، عشرات الملايين من المجنَّدين النظاميين، القدرة المذهلة لوسائل التدمير، في ظلّ المؤسسات التي بلغت منتهى الكمال، مع جيشٍ كامل من الذين مهمتهم خداع الشعب وتخديره، وهذا كلّه مُهيمَنٌ عليه بوساطة الكهرباء الذي يختصر المسافات، من قبل أناسٍ لا يعتبرون هذا التنظيم للمجتمع مفيداً لهم فحسب بل وأنّهم سيهلكون حتماً من دونه، لذا يستخدمون كل قدراتهم العقلية للإبقاء عليه- تبدو قوّة لا تُقهر.

غير أنّه يكفي فحسب تخيّل مآل الأمر الذي لا يمكن لشيءٍ إيقافه حين ينشأ بين الناس، بذات القوّة والعمومية التي للرأي العام الوثني، رأيٌ عامٌ مسيحيٌ يحلّ محلّ الوثني، بحيث يخجل معظم البشر من المشاركة في العنف واستخدامه كما يخجل الآن من الغشّ والسرقة والتسوّل والجبن، حتى يزول، من تلقاء ذاته دون قتالٍ وعنف، نظام الحياة المعقَّد الذي يبدو بهذا الجبروت. ولكي يحدث هذا لا يلزم أن يدرك البشر شيئاً جديداً، بل يلزم فقط زوال الضباب الذي يحجب عن الناس معنى بعض أعمال العنف، يلزم أن يحلّ الرأي العام المسيحي المتنامي محلّ الرأي العام الوثني البالي الذي يحلّل ويبرّر العنف. يلزم فقط أن يخجل الناس من القيام بأعمال العنف والمشاركة فيها واستغلالها، كما يخجل المرء الآن من أن يكون غشّاشاً أو لصّاً أو جباناً أو متسوّلاً. وهو ما بدأ يحدث الآن. لكنّنا لا نلاحظ ذلك فحسب، كما أنّ المتحرّك لا يلاحظ حركة الذي يتحرّك بجواره.

صحيحٌ أنّ نظام الحياة يبقى، بسماته الأساسية، كذلك عنفيّاً، كما كان قبل ألف عام، وليس فقط كما كان بل حتى أشدّ عنفاً في بعض النواحي، خاصّة في الإعدادات الحربية وفي الحروب ذاتها، لكنّ الرأي العام المسيحي الناشئ، الذي يجب أن يغيّر نظام الحياة الوثني برمّته حين يبلغ مستوى معيّناً في تطوّره، قد بدأ يفعل فعله. الشجرة اليابسة تقف بذات الصلابة التي كانت عليها من قبل -بل تبدو أكثر صلابة لأنّها أصبحت أقسى- لكنّها بدأت تُنخر من داخلها، وتتهيّأ للسقوط. والأمر ذاته مع نظام الحياة العنفي الراهن. الحال الظاهرية للناس هي ذاتها: بعضهم قاهرون وبعضهم مقهورون، لكنّ نظرة كليهما، القاهرين والمقهورين، إلى معنى واستحقاق وضع هؤلاء وأولئك لم تعد ذاتها.

القاهرون، أي المشاركون في الإدارة، والمستفيدون من العنف، أي الأغنياء، لم يعودوا يعتبرون أنفسهم، كما في الماضي، زهوة المجتمع وقدوة النجاح الإنساني وعظمته، والتي كان كلّ المقهورين يتطلّعون إليها فيما مضى. أما الآن، فغالباً ليس المقهورين هم الذين يتطلّعون إلى وضع القاهرين ويحاولون تقليدهم بل، على العكس، كثيراً ما يتخلّى القاهرون عن مكاسب وضعهم طوعاً، ويختارون وضع المقهورين، ويحاولون التشبّه بهم من حيث بساطة العيش.

ناهيكم عن الوظائف والمناصب التي باتت مُحتقرة بوضوح في الوقت الراهن، كالمخبرين وعملاء الشرطة السرية والمرابين وأصحاب الخمّارات، وعدد كبير من مناصب القاهرين، التي كانت محلّ احترامٍ من قبل، كرجال الشرطة ورجال البلاط والقضاة ورؤساء الدوائر ورجال الدين والضباط وجباة الضرائب والصيارفة، والتي ليس فقط لم يعد الجميع راغبين فيها بل باتت مستنكرة من قبل حلقة الناس الأكثر احتراماً. بات هناك أناسٌ يرفضون طوعاً تسنّم هذه المناصب التي لم تكن تُعتبر مستنكرة من قبل، ويفضّلون عليها مناصب مكاسبها أقلّ لكنها غير مرتبطة بالعنف.

بل ليس الناس الحكوميون فقط، فهناك الآن أناسٌ أغنياء يرفضون أن يرثوا عن ذويهم، وليس بناءً على الحسّ الديني، كما كان يحدث فيما سبق، بل فقط نتيجةً لرهافة خاصّة تجاه الرأي العام الناشئ، معتبرين أنّ من الإنصاف أن يعيشوا ممّا يكسبونه بتعبهم فقط.

لم يعد وضع المشارك في الحكم والغني يُعتبَر، كما كان من قبل، وكما هو الآن لدى الشعوب اللامسيحية، بصورة مؤكّدة، مبجّلاً وجديراً بالاحترام ومباركاً من قبل الله. الناس الخلوقون، الأرهف إحساساً (بات معظمهم من المتعلّمين) يتجنّبون هذه المناصب، ويفضّلون عليها مناصب متواضعة أكثر لكنها بعيدة عن العنف.

الشبّان الأفضل، الذين بلغوا سنّاً لم تفسدهم الحياة فيه بعد، حين يختارون مهنةً، يفضّلون أن يعملوا أطبّاء وتكنولوجيين ومدرّسين وفنّانين تشكيليين وكتّاباً، بل حتى فلاحين يعتاشون من تعبهم، على المناصب القضائية والإدارية والدينية والعسكرية التي تدفع الحكومة رواتبها، أو وضع أناسٍ يعيشون من إيراداتهم.

معظم التماثيل التي تقام الآن ليست تماثيل رجالات الدولة أو الجنرالات، أو الأغنياء طبعاً، بل لأطبّاء وفنّانين ومخترعين، لأناسٍ ليس فقط لا يجمعهم شيء مع الحكومات والسلطات بل وغالباً ما ناضلوا ضدّها. لا تُنشد قصائد، ولا تُنحت تماثيل، ولا يكرّم في الأعياد اليوبيلية رجالات الدولة والأغنياء بقدر العلماء والفنانين...

الناس الأفضل في زماننا يتطلّعون إلى هذه المناصب الأكثر احتراماً، لذا فالحلقة التي يتمّ انتقاء الموظفين الحكوميين والأغنياء منها تغدو أضيق وأحطّ، لذا فالناس الذين يترأسون الحكومة والأغنياء، من حيث العقل والتعلّم والمزايا الأخلاقية بشكل خاص، لم يعودوا يشكّلون زهوة المجتمع، كما كانت الحال في القدم، بل، على العكس، هم أدنى من المستوى المتوسط.

سواء في روسيا وتركيا أم في أمريكا وفرنسا، مهما غيّرت الحكومات موظّفيها، فإنّ معظمهم جشعون ومرتشون ومنحطّون أخلاقياً إلى درجة أنّهم لا يلبّون حتى مطلب النزاهة البسيط الذي تطلبه منهم الحكومات. كثيراً ما باتت تُسمع الآن شكاوى ساذجة لرجالات الدولة من أنّ أفضل الناس -لسببٍ غريبٍ ما، كما يعتقدون- يتواجدون دائماً في المعسكر المعادي. هذا كأن يشتكي الناس من أنّ أغلظ الناس وأقلّهم طيبة يصبحون "بالمصادفة" جلادين.

كذلك تماماً، معظم الأغنياء في زماننا لا ينتمون إلى أكثر الناس رهافةً وتعليماً في المجتمع، كما كانت الحال فيما مضى، وإنّما إلى مكتنزي المال الفظّين المنشغلين فقط بالاغتناء بوسائل غير شريفة غالباً، أو إلى ورثة هؤلاء الكانزين الذين ليس فقط ليس لهم أيّ دور بارز في المجتمع بل هم، في معظم الحالات، عُرضة للاحتقار العام.

لكن، عدا عن أنّ الحلقة، التي يُنتقى منها موظّفو الدولة والأغنياء، تضيق أكثر فأكثر، وتغدو منحطّة أكثر فأكثر، هؤلاء الناس أنفسهم لم يعودوا ينسبون للمناصب التي يشغلونها القيمة السابقة، وغالباً ما يشعرون بالخزي ويمتنعون عن القيام بما تفرضه عليهم مناصبهم، ملحقين الضرر بالعمل الذي يخدمونه. الملوك والأباطرة لم يعودوا يديرون شيئاً تقريباً، ولا يقومون بأيّ تغييرات داخلية تقريباً، ولا يحسمون أمرهم للّحاق بالظروف السياسية الخارجية الجديدة، ويتركون حلّ معظم هذه المسائل للمؤسسات الحكومية أو للرأي العام. كلّ وظيفتهم تنحصر في أن يمثّلوا وحدة الدولة وجبروتها.

وحتى هذه الوظيفة يقومون بها بصورة سيّئة. لم يعد معظمهم يتربّع على عرش العظمة التي لا تُنال بل، على العكس، تزداد الأمور دمقرطةً، وحتى لامركزيةً، أكثر فأكثر، ليطرحوا عن أنفسهم آخر مظاهر اللياقة، أي يُخلّون بما يجب عليهم المحافظة عليه. الأمر ذاته يحدث مع العسكر. الضباط الأعلى رتبةً، بدلاً من تشجيع خشونة وقسوة العسكر، الضروريتين لعملهم، هم أنفسهم ينشرون التعليم بين شريحة العسكر، ويدعون إلى الإنسانية، بل حتى يشاطرون الجماهير قناعاتها الاشتراكية ويستنكرون الحرب. وكثيراً ما يحدث، كما حدث منذ أيّام، أنّ العسكر المدعوّون لقمع السكّان يرفضون إطلاق النار عليهم. البسالة الحربية تُدان صراحةً من قبل العسكر، وكثيراً ما تكون مادةً للسخرية. الأمر ذاته فيما يتعلّق بالقضاة والمدّعين العامّين: القضاة، الذين واجبهم إدانة المجرمين والحكم عليهم، يديرون الجلسة بحيث يبرّئونهم، بحيث أنّ الحكومة الروسية، لكي تدين الأشخاص الذين تحتاج إلى إدانتهم، لم تعد تخضعهم للمحاكم العادية بل تسلّمهم إلى ما يُسمّى القضاء العسكري، الذي هو أبعد ما يكون عن القضاء. الشيء ذاته مع المدّعين العامّين الذين كثيراً ما يمتنعون عن إدانة الذين يجب أن يدينوهم، بل حتى أنّهم، بدلاً من الإدانة، يتجاوزون القانون ويدافعون عنهم. المحامون، الذين وظيفتهم تبرير عنف السلطة، ينفون أكثر فأكثر حقّ العقاب ويلجأون، بدلاً منه، إلى نظرية الجنون، ويطلبون ليس إصلاح بل معالجة الذين يسمّونهم مجرمين. السجّانون وآمرو الأشغال الشاقّة كثيراً ما يدافعون عن الذين يجب أن يعذّبوهم. الدّرك ورجال التحرّي ينقذون باستمرار الذي يجب أن يقتلوه. رجال الدين يدعون إلى التسامح، وأحياناً إلى شجب العنف، والأعلى ثقافةً بينهم يحرصون في خطبهم على تجنّب الأكذوبة التي هي جوهر عملهم، والتي يجب عليهم التبشير بها. الجلاّدون يرفضون تنفيذ واجباتهم بحيث أنّ أحكام الإعدام، في روسيا، كثيراً ما لا تُنفَّذ لعدم وجود جلاّدين لأنّ الراغبين في الانضمام إلى الجلاّدين، رغم كلّ المكاسب التي تُقدَّم إلى هؤلاء الناس، الذين يتمّ اختيارهم من بين المحكومين بالأشغال الشاقّة، يغدون أقلّ فأقلّ. رؤساء الأقضية، رؤساء شرطة الأقضية، رؤساء المخافر، جباة الضرائب، العشّارون، شاعرين بالرثاء لحال الشعب، يجهدون لإيجاد مبرّرات لعدم جباية الضرائب من الناس. لم يعد الأغنياء يحرصون على أن ينتفعوا وحدهم بثروتهم، بل يوزّعونها على الأعمال الاجتماعية.

الملاّكون يُنشئون المشافي والمدارس في أراضيهم، بل البعض منهم يتخلّى عن أملاكه ويعطيها للفلاحين أو ينشئ فيها تعاونيات. أصحاب المصانع والمعامل يبنون المستشفيات والمدارس المهنية، وينظِّمون صناديق الإعالات والتقاعد، ويبنون المساكن للعمّال، بعضهم يؤسّسون جمعيات تعاونية يغدون فيها مساوين للمشاركين الآخرين. الرأسماليون يعطون جزءاً من رأسمالهم للمؤسسات الاجتماعية والتعليمية والفنية والخيرية. الكثير منهم، ممّن يعجزون عن مفارقة ثروتهم في حياتهم، بعد موتهم، في وصاياهم، يتخلّون عنها لصالح المؤسَّسات الاجتماعية.

كان يمكن لهذه الظواهر كلّها أن تبدو عرَضية لو أنّها كلّها لم تكن ترجع إلى سببٍ واحدٍ مشترك، كما قد يبدو تفتّح البراعم على بعض الأشجار في الربيع عرضياً لو لم نكن نعلم أنّ سبب ذلك هو الربيع الشامل، وأنّه إذا كانت الأغصان قد بدأت تونع على بعض الأشجار فهذا يعني أنّ الشيء ذاته سيحدث للأشجار الأخرى أيضاً.

الأمر ذاته في ظهور رأي عام مسيحي حول معنى العنف ومعنى ما يقوم عليه. إذا كان هذا الرأي العام قد بدأ يؤثِّر في بعض الناس الأكثر رهافةً ويجبرهم، كلاً في عمله، على رفض الامتيازات التي يمنحهم إيّاها العنف، وعلى عدم الانتفاع بها، فسوف يستمرّ تأثيره، وسيؤثِّر إلى أن يغيّر مجمل نشاط البشر، ويصل به ليغدو موافقاً للوعي المسيحي الذي بات يكمن في روّاد البشرية.

وإذا كان قد أصبح هناك حكّام قرّروا الكفّ عن استخدام سلطتهم لأيّ شيء، ويحاولون ألاّ يكونوا شبيهين بالملوك وأن يكونوا أقرب إلى أبسط الفانين قدر استطاعتهم، ويُعربون عن استعدادهم للتخلّي عن صلاحياتهم، ويصبحوا أوّل مواطني جمهوريّتهم، وإذا كان قد بات هناك عسكر يدركون كلّ شرّ وإثم الحرب، ولا يريدون إطلاق النار، لا على شعبهم ولا على الشعوب الأخرى، وقضاة ومدّعون عامّون لا يريدون إدانة المجرمين والحكم عليهم، ورجال دين يمتنعون عن الكذب، وجباة ضرائب يحاولون قدر استطاعتهم أن ينفّذوا أقلّ ما يجب أن يقوموا به، وأغنياء يتخلّون عن ثرواتهم، فلا بدّ أن يحدث الشيء ذاته للحكّام الآخرين، والعسكر الآخرين، والقضاة الآخرين، ولرجال الدين وجباة الضرائب والأغنياء الآخرين. وإذا لم يعد هناك أناسٌ يشغلون هذه المناصب فلن يعود هناك وجود لا للمناصب ذاتها ولا للعنف.

لكن ليس بهذه الطريقة وحدها يوصل الرأي العام الناسَ إلى القضاء على النظام القائم، واستبداله بنظامٍ جديد. كلّما قلّت جاذبية مناصب القهر، وكلّما قلّ الراغبون في شغلها، تبيّن أكثر عدم لزومها.

ما زال الحكّام، في العالم المسيحي، هم ذاتهم، وكذلك الحكومات والجيوش والقضاة وجباة الضرائب والملاّكون وأصحاب المصانع والمعامل الأغنياء، كما في السابق، لكنّ نظرة الناس إليهم قد تغيّرت كليّاً، وكذلك نظرة الناس إلى المنصب ذاته.

ما زال الحكّام ذاتهم يذهبون إلى ذات اللقاءات والمواعيد والولائم وحفلات الرقص، ما زالت الأزياء الرسمية ذاتها، الدبلوماسيون هم ذاتهم، وكذلك الحديث عن التحالفات والحروب، ما زالت البرلمانات هي ذاتها، والتي تُعالج فيها قضايا الشرق وأفريقيا، والنقابات والتفجيرات ويوم العمل ذو الثماني ساعات، وما زال الوزراء يُستبدلون بآخرين، وذات الخطابات وذات الأحداث. لكن، بالنسبة إلى الذين يرون كيف أنّ مقالاً واحداً في جريدة يغيّر الأمور أكثر من عشرات اللقاءات بين الملوك وعشرات جلسات البرلمان يتّضح أكثر فأكثر أنّ كلّ هذه اللقاءات والالتقاءات والأحاديث في البرلمانات ليست هي التي تدير شؤون الناس بل شيء مستقلّ عن هذا كلّه، وليس مركّزاً في أيّ مكان.

الجنرالات والضباط والجنود هم ذاتهم، وكذلك المدافع والقلاع والاستطلاعات والمناورات، لكن ما من حربٍ لعام، لعشر سنوات، لعشرين سنة، عدا عن انخفاض إمكانية الاعتماد على العسكر لقمع العصيانات، ويغدو جليّاً أكثر فأكثر أنّ الجنرالات والضبّاط والجنود باتوا مجرّد أعضاء مواكب احتفالية، راقصي باليه كبار، باهظي التكاليف، لتسلية الحكّام.

المدّعون العامّون والقضاة هم ذاتهم، والجلسات هي ذاتها، لكن يغدو جليّاً، أكثر فأكثر، بما أنّ المحاكمات المدنية تُحلّ تبعاً لموجبات متنوّعة جداً، العدالة ليست أحدها، وحيث أنّه لا معنى على الإطلاق للمحاكم الجنائية التي لا تحقق أيّاً من الغايات المرجوّة حتى من قِبل القضاة أنفسهم، أنه لا معنى على الإطلاق لهذه المؤسسات سوى أنّها وسيلة يعتاش منها أناسٌ لا ينفعون لأيّ شيءٍ آخر.

الأساقفة والمطارنة هم ذاتهم، وذات الكنائس والسينودس، لكن يغدو جلياً أكثر فأكثر للجميع أنّ هؤلاء الناس لم يعودوا، هم أنفسهم، يؤمنون بما يعظون به منذ زمنٍ بعيد، لذا لم يعودوا قادرين على إقناع أحد بضرورة الإيمان بما لم يعودوا هم يؤمنون به.

جباة الضرائب هم ذاتهم لكنهم يصبحون أقلّ فأقلّ قدرةً على انتزاع ممتلكات الناس منهم، ويتجلّى أكثر فأكثر أنّ الناس يستطيعون تحصيل كلّ ما يلزم بموجب تعهّد طوعي، ومن دون محصّلي ضرائب.

ذات الأغنياء لكن يزداد وضوحاً أكثر فأكثر أنّ بمقدورهم أن يكونوا نافعين فقط بقدر كفّهم عن أن يكونوا المتصرّفين بثرواتهم، وبقدر إعطائهم كلّ ثرواتهم، أو جزءاً منها، للمجتمع.

حين يغدو هذا كلّه واضحاً كلياً للجميع فسيكون من الطبيعي أن يتساءل الناس: "لماذا يجب علينا إطعام وإعالة كلّ هؤلاء الملوك والأباطرة والرؤساء وأعضاء مختلف المجالس والوزراء إذا كان لا ينتج شيء عن اجتماعاتهم ومباحثاتهم كلّها؟ أليس الأفضل صنع ملكة من الشمع، كما قال أحد الظرفاء؟"

"وما حاجتنا إلى الجيوش بجنرالاتها وموسيقاها وفرسانها وطبولها؟ ما الحاجة إليهم ما دامت ليست هناك حرب، فلا أحد يريد غزو أحد، وحتى إذا كانت هناك حرب فإنّ الشعوب الأخرى لا تسمح بالاستفادة من مغانمها، والجنود يرفضون إطلاق النار على شعبهم؟"

"وما الحاجة إلى هؤلاء القضاة والمدّعين العامّين إذا كانوا لا يحلّون القضايا المدنية بموجب القانون، وفي القضايا الجنائية هم أنفسهم يعلمون لاجدوى العقوبات؟"

"وما الحاجة إلى محصّلي ضرائب لا رغبة لديهم في تحصيل الضرائب، وما يلزم يُحصّل من دونهم؟"

"وما الحاجة إلى رجال دين لم يعودوا يؤمنون بما يجب أن يبشّروا به منذ زمنٍ بعيد؟"

"وما الحاجة إلى رؤوس أموالٍ في أيدي الأفراد إذا لم تكن مفيدة إلا إذا أصبحت ملكية جماعية؟"

وإذا سأل الناس أنفسهم هذه الأسئلة فلا بدّ من أن يقرّروا الكفّ عن الإنفاق على كلّ هذه المؤسّسات التي أصبحت بلا فائدة.

لكن، عدا عن أنّ الناس، الذين ينفقون على هذه المؤسّسات، سيصلون إلى قرارٍ بإلغائها، فإنّ نفس الناس، الذين يشغلون هذه المناصب، في الآن ذاته أو ربما قبل ذلك، سيُساقون إلى ضرورة رفض هذه المناصب.

الرأي العام يُدين ويشجب العنف أكثر فأكثر، لذا فإنّ الناس، مذعنين أكثر فأكثر للرأي العام، ستقلّ رغبتهم أكثر فأكثر في شغل هذه المناصب المرتكز إلى العنف؛ ذات الأشخاص الذين يشغلون هذه الوظائف ستقلّ قدرتهم على استخدام العنف. والذين يشغلون هذه المناصب، حين يكفّون عن استخدام العنف مع بقائهم في وظائفهم التي تشترط العنف، فستقلّ أكثر فأكثر الحاجة إليهم. وعدم اللزوم هذا، إذ يستشعره أكثر فأكثر أولئك الذين يدعمون هذه الوظائف، وكذلك الذين يشغلونها، يغدو، في النهاية، على نحوٍ بحيث لا يُعثَر على أناسٍ يدعمون هذه الوظائف، ولا على أناسٍ يشغلونها.

حضرتُ مرّةً في موسكو، مجادلات حول الدين، كانت تجري عادةً في كنيسة "طائفة التوّاقين" في "فومينا". تجمّعت مجموعة من عشرين شخصاً على الرصيف وجرى حديثٌ جادّ عن الدين. في الآن ذاته كانت هناك حفلة موسيقية في مبنى مجلس النبلاء الكائن على مقربة، فأرسل ضابط شرطة، لاحظ جمهرة الناس المتجمّعين قرب الكنيسة، دركيّاً مع أمرٍ بالتفرّق. لم تكن هناك حاجة لأن يتفرّق الناس؛ فالأشخاص العشرون المتجمّعون لم يكونوا يزعجون أحداً، لكنّ الضابط الواقف هنا منذ الصباح كان لا بدّ له من أن يفعل شيئاً. الدركي الفتيّ، واضعاً يده اليمنى على خاصرته ومقعقعاً بسيفه، جاء إلينا وأمر بصرامة: "تفرّقوا! ما هذا التجمّع؟" نظر الجميع إلى الدركي، وأحد المتكلّمين، وهو شخص وقور يرتدي معطفاً طويلاً من الجوخ، قال له بهدوءٍ ورقّة: "إنّنا نتحدّث عن قضية، وما من سببٍ لتفرّقنا، وأنت -أيّها الشابّ- الأفضل أن تنزل وتستمع إلى ما يقال، وسيفيدك ذلك." ثمّ أدار ظهره وواصل النقاش. فأدار الدركيّ فرسه صامتاً، وغادر.

الشيء ذاته يجب أن يحدث في كلّ أعمال الإكراه. الضابط يشعر بالملل، ما من شيءٍ يفعله؛ المسكين موضوعٌ في منصبٍ لا بدّ له فيه من أن يتحكّم. إنّه محرومٌ من أيّ

حياة إنسانية، يمكنه فقط أن يراقب ويتحكّم، يتحكّم ويراقب، رغم أنّ تحكّمه ومراقبته لا لزوم لهما إطلاقاً. وكلّ هؤلاء الحكّام والوزراء وأعضاء البرلمانات والولاة والجنرالات والضباط والمطارنة والقساوسة وحتى الأغنياء سيجدون أنفسهم في هذا الوضع قريباً جداً، بل إنّ قسماً منهم قد أصبح في هذا الوضع. لم يعودوا قادرين على عمل شيء سوى إصدار الأوامر، وهم يصدرون الأوامر، وإرسال مراسيلهم، كما أرسل الضابط الدركي، لإزعاج الناس، وحيث أنّ الناس يرجونهم الكفّ عن إزعاجهم، فإنّهم يعتقدون أنّ وجودهم ضروري.

لكن، سيأتي وقتٌ يغدو جليّاً تماماً فيه للجميع أن لا لزوم لهم على الإطلاق، وأنّهم يزعجون الناس فحسب، والناس، الذين يزعجونهم، سيقولون لهم برقّة ووداعة، مثل الرجل صاحب معطف الجوخ: "لا تزعجونا من فضلكم." وكلّ هؤلاء المُرسِلين والمُرسَلين سيتوجّب عليهم العمل بهذه النصيحة الطيّبة، أي أن يكفّوا عن التجول، وأيديهم على خواصرهم، بين الناس وإزعاجهم، وأن ينزلوا عن جيادهم، ويخلعوا أزياءهم الرسمية، ويستمعوا إلى ما يقوله الناس، والانضمام إليهم، والإقبال مع الجميع على العمل الإنساني الحقيقي. سيأتي وقت، وسيأتي حتماً، تزول فيه كلّ مؤسسات القهر في زماننا نتيجةً لعدم الحاجة إليها، وسخفها، وحتى عدم لياقتها، الأمر الذي يتجلّى بوضوح للجميع.

لا بدّ أن يأتي وقتٌ يحدث فيه للناس، الذين يشغلون وظائف هي نتاج العنف، ما حدث للملك في حكاية أندرسن "الرداء الجديد للملك" عندما صاح طفل صغير بسذاجة، حين رأى الملك العاري :"انظروا، إنّه عارٍ!" كلّ الذين كانوا يرون ذلك دون أن يقولوه لم يعودوا قادرين على إخفائه.

فحوى الحكاية هو أنّ ملكاً، محبّاً للثياب الجديدة، جاء إليه خيّاطان ووعداه بأن يخيطا له رداءً غير عاديّ. فاستأجر الملك الخيّاطين، وبدأ الخيّاطان بخياطة الرداء وهما يقولان إنّ رداءهما يتميّز بأنّ الذين لا لزوم لهم ولوظائفهم لا يمكنهم رؤية الرداء.

بدأ النبلاء يأتون لمشاهدة عمل الخيّاطين لكنّهم لم يكونوا يرون شيئاً لأنّ الخيّاطين كانا يمرّران الأبر في الفراغ. لكنّ جميع الموظّفين، متذكّرين الشرط، راحوا يدّعون أنّهم يرون الرداء، ويثنون عليه. والملك أيضاً يفعل الشيء ذاته. ثمّ يحين أوان الموكب

الذي سيسير فيه الملك بردائه الجديد، فيخلع الملك ثيابه ويرتدي الرداء الجديد، أي يبقى عارياً، وعارياً يسير في الطريق. لكنّ أحداً لم يجرؤ، متنكّرين الشرط، على قول إنّ الرداء لا وجود له، إلى أن صاح طفلٌ صغير: "انظروا، إنّه عارٍ!"

الشيء ذاته لا بدّ أن يحدث لكلّ الذين يشغلون -بمقتضى قوّة العطالة- وظائف لم يعد لها لزوم منذ زمنٍ بعيد حين يقوم شخصٌ، غير معنيّ بالمثل القائل: "حُكَّ لي فأحكّ لك"، بكشف عدم لزوم هذه المؤسّسات، ويشير إلى لاجدواها، ويهتف بسذاجة: "لكنّ هؤلاء الناس قد انتفت الحاجة إليهم منذ زمنٍ بعيد."

إنّ وضع العالم المسيحي، بقلاعه ومدافعه وديناميته وأسلحته وطوربيداته وسجونه ومشانقه وكنائسه ومعامله وجماركه وقصور ملوكه، مرعبٌ فعلاً؛ لكن ليست القلاع والمدافع والأسلحة هي التي تطلق النار؛ ليست السجون هي التي تسجن؛ ليست المشانق هي التي تشنق؛ ليست الكنائس هي التي تكذب؛ ليست الجمارك هي التي تعيق؛ القصور والمصانع لا تبني ولا تسند نفسها بنفسها؛ بل الناس هم الذين يفعلون هذا كلّه، وقد بدأ الناس يدركون ذلك، وإذا لم يكن كلّ الناس قد أدركوا هذا بعد، فإنّ روّاد الناس باتوا يدركون كلّ شيء، وهم الذين يقتدي بهم الآخرون، وما دام الناس الروّاد قد أدركوا ذلك فلم يعد بإمكانهم الكفّ عن إدراكه، وباقي الناس ليسوا قادرين فحسب على فهم ما فهمه الروّاد بل لا مناص لهم من ذلك.

وبالتالي، فإنّ النبوءة التي تقول بمجيء وقت يُعلِّم اللهُ فيه الناسَ، وأنهم سيصبحون عاجزين عن القتال "فيطبعون سيوفهم سككاً ورماحهم مناجل" (إشعياء: 2، 4) أي، بلغتنا، أنّ كلّ السجون والقلاع والثكنات العسكرية والقصور والكنائس ستغدو فارغة، وكلّ المشانق والأسلحة والمدافع سيُكَفُّ عن استخدامها، لم تعد حلماً بل شكلاً جديداً ومحدّداً للحياة، تقترب إليه البشرية بسرعة تزداد باطّراد.

لكن متى سوف يحدث ذلك؟

قبل 1800 عام أجاب المسيح عن هذا السؤال بقوله إنّ نهاية العصر الحالي، أي نظام الحياة الوثني، سوف تحين (متّى: 24، 3-28) حين تبلغ مصائب البشر أقصاها، وبشّر بقدوم ملكوت الله، أي أنّ نظاماً جديداً لاعنفياً للحياة سيعمّ الأرض كلّها.

"وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد.. إلا أبي وحده." (متّى: 24، 36)
يقول المسيح في الآن ذاته، لأنّه قد يحلّ في أيّ وقت، في أيّ لحظة، وحين لا نتوقّعه.

ردّاً على السؤال المتعلّق بساعة حلول ذلك يقول المسيح إنّنا لا نستطيع معرفة ذلك؛ لكن بالذات لكوننا لا نستطيع أن نعلم زمن حلول تلك الساعة، فليس علينا أن نكون دائماً مستعدّين لاستقبالها فحسب، كما أنّ ربّ البيت، الذي يحرس بيته، مستعدّ دائماً، وكجاهزية العذراوات مع المصابيح لاستقبال العريس، بل ويجب أن نعمل بكلّ قوانا لكي تحلّ تلك الساعة، كما كان على العمّال الذين أُعطوا وزنات المال أن يعملوا. (متّى: 24، 43 و 25، 1-30). ردّاً على السؤال حول زمن حلول تلك الساعة يُنذر المسيح الناسَ بأنّ عليهم العمل بكلّ قواهم لتسريع حلولها.

ولا يمكن أن يكون هناك جواب آخر. لا يمكن للبشر إطلاقاً معرفة يوم وساعة حلول ملكوت الله لأنّ حلول تلك الساعة لا تتوقّف على أحد بقدر توقّفها على البشر أنفسهم.

الجواب هو ذات جواب الحكيم الذي سأله عابر سبيل: هل الطريق بعيدة؟ حين أجاب: "سِر". كيف يمكننا معرفة مدى بعد البشرية عن الغاية التي تسعى إليها إن كنّا لا نعلم كيف ستسير نحو هذه الغاية البشرية التي يتوقّف عليها: السير أو عدم السير، التوقّف، كبح حركتها أو تسريعها.

كلّ ما يمكننا معرفته هو ما يجب علينا -نحن الذين نشكّل البشرية- عمله وما لا يجب لكي يحلّ ملكوت الله. وجميعنا نعرف هذا. ويكفي فحسب أن يبدأ كلّ منا بعمل ما يجب عليه والكفّ عن عمل ما لا يجب عليه؛ يكفي فحسب أن يعيش كلٌّ منا بالنور الكائن فينا حتّى يحلّ، في التوّ واللحظة، ملكوت الله الموعود الذي تتوق إليه قلوب الناس جميعاً.

XII
الخاتمة

1

أنهيتُ هذا العمل، الذي استمرّ لعامين، حين اتّفق لي أن سافرت، في 9 أيلول، بالقطار إلى مقاطعتي تولا وريازان اللتين عانى فلاحوها الجوع في العام الماضي، ويعانون المزيد من الجوع هذا العام. في إحدى المحطات التقى القطار الذي كنت على متنه بقطارٍ سريع ينقل، بقيادة المحافظ، جنوداً مسلّحين ببنادق وقضبان لتعذيب وقتل هؤلاء الفلاحين الجائعين.

إنّ تعذيب الناس بالضرب بالقضبان لتطبيق قرارات السلطة، رغم أنّ القانون قد ألغى التعذيب الجسدي قبل 30 سنة، بات يُستخدم في روسيا في الآونة الأخيرة أكثر فأكثر.

لقد سمعتُ عن هذا، بل حتى قرأتُ في الصحف، عن التعذيب المرعب الذي بدا محافظ مدينة "نيجغورد" بارانوف كأنّما يفتخر به، وعن التعذيب الذي يجري في تشيرنيغوف وتامبوف وساراتوف وأستراخان وأورل، لكن لم يتّفق لي، كما الآن، أن رأيتُ تنفيذ هذه الأمور. وها قد رأيت بأمّ عيني روساً طيّبين ومشبعين بالروح المسيحية، مسلّحين بالبنادق والقضبان، يذهبون لقتل وتعذيب إخوانهم الجائعين.

سبب ذهابهم كان التالي:

في ضيعةٍ تعود لملاّكٍ غنيّ استنبت الفلاحون غابةً في مرجٍ مجاورٍ لأراضي الملاّك (استنبتوها أي رعوها أثناء نموّها) ودائماً كانوا يستثمرونها، وبعد ذلك اعتبروا أنّ الغابة لهم، أو على الأقلّ ملكية مشتركة، لكنّ الملاّك استولى على الغابة وبدأ يحتطبها. فقدم الفلاحون شكوى. قاضي محكمة الدرجة الابتدائية أصدر حكماً جائراً (أقول: جائراً، بناءً على أقوال المدّعي العام والمحافظ، وهم أناسٌ يعرفون القضية جيداً) لصالح الملاّك. كلّ المراجع اللاحقة، بما فيها مجلس "السينات"، رغم أنّها رأت أنّ الحكم جائر، أثبتت القرار، وقُضي بالغابة للملاّك. بدأ الملاّك بقطع أشجار الغابة لكنّ الفلاحين، الذين لم

يستطيعوا تصديق أنّ السلطة العليا بمقدورها ارتكاب هذا الظلم الجليّ في حقّهم، لم يذعنوا للقرار وطردوا العمّال الذين أُرسلوا لقطع الغابة، معلنين أنّ الغابة غابتهم، وأنّهم سيوصلون القضية إلى القيصر، لكنّهم لن يسمحوا بقطع الغابة.

أُبلغ الوزير في بطرسبورغ بالقضية. الوزير عرضها على الملك، والملك أمر بتنفيذ قرار المحكمة. الوزير أمر المحافظ بتنفيذ القرار. المحافظ أرسل بطلب القوّات، وهاهم الجنود، المسلّحون ببنادق لها حراب وبرصاصات حقيقية بالإضافة إلى فائض من القضبان المُعدّة خصّيصاً لهذا الغرض، والمحمّلون في إحدى عربات القطار، يذهبون لتنفيذ قرار السلطة العليا.

وتنفيذ قرار السلطة العليا يتمّ عن طريق قتل وتعذيب الناس، أوترهيبهم بهذا أو ذاك، تبعاً لما إذا كانوا سيبدون مقاومة أو لا.

في الحالة الأولى، إذا كان الفلاحون سيبدون المقاومة، سيُفعل في روسيا (الشيء ذاته يُفعَل في كلّ مكان فيه نظام دولة وملكية خاصّة) ما يلي: القائد يلقي كلمة ويأمر بالخضوع. الحشد الهائج، الذي يكذب عليه الرؤساء معظم الوقت، لا يفقه شيئاً ممّا يقوله ممثّل السلطة بلغة الموظّفين والكتب، ويستمرّ بالقلق. حينها يعلن القائد أنّهم إذا لم يذعنوا ويتفرّقوا فسيضطر إلى اللجوء إلى السلاح. إذا لم يذعن الحشد حتى بعد هذا ولم يتفرّق، فسيصدر القائد بإطلاق النار على الحشد مباشرةً، كيفما اتّفق، وسيطلق الجنود النار، وسيسقط جرحى وقتلى في الشوارع، وعندها عادةً يهرب الحشد في شتى الاتّجاهات، والجنود، بموجب أمر القُوّاد، يلقون القبض على الذين يُعتبرن المحرّضين الرئيسيين، ويُساقون مخفورين.

بعد ذلك يتمّ التقاط الرجال، وأحياناً النساء والأطفال، المحتضرين والمشوّهين والمضرّجين بالدماء، القتلى والجرحى؛ فيتمّ دفن القتلى، وإرسال الجرحى إلى المستشفى. أولئك الذين يتعبرونهم المحرّضين يأخذونهم إلى المدينة ويخضعونهم لمحكمة عسكرية خاصّة.

وإذا كان هناك عنف من جهتهم فسيُحكم عليهم بالإعدام شنقاً، وحينها تُقام المشانق ويتمّ خنق عدد من الناس العزّل بالحبال، كما حدث كثيراً في روسيا، وكما حدث ولا

يمكنه إلا أن يحدث في كلّ مكان يقوم النظام الاجتماعي فيه على العنف. هذا ما يحدث في حال المقاومة.

أما في الحالة الثانية، في حال استسلام الفلاحين، فسيحدث شيء خاص، روسي بامتياز. سيحدث ما يلي: المحافظ، بعد وصوله إلى موقع الأحداث، يلقي خطاباً للشعب يلومه فيه على عصيانه، وإما يجعل القوّات تتموقع عند مداخل القرية حيث يهين الجند الفلاحين بتموقعهم هذا طوال شهر، وإما يسامح الجمهور برأفة، مكتفياً بترهيبه، ويغادر، أو يعلن له، وهو ما يحدث غالباً، أنّ المحرّضين على هذا يجب أن يُعاقبوا، وينتقي، عشوائياً ودون محاكمة، عدداً محدّداً من الناس، المُعتَبرين محرِّضين، ويتمّ تعذيبهم في حضوره.

لتقديم تصوّر عن كيفيّة تنفيذ هذه الأعمال سأقدّم وصفاً لعملٍ تمّ تنفيذه في أورل، وتلقّى مباركة السلطة العليا.

جرى في أورل ما يلي: تماماً كما حدث هنا في مقاطعة تولا، أراد ملاّك انتزاع ملكية الفلاحين منهم، وكذلك تماماً قاوم الفلاحون ذلك. فحوى الأمر أنّ الملاّك أراد، دون موافقة الفلاحين، احتجاز الماء في طاحونته أعلى من مستوى جريانه في بساتينهم. عارض الفلاحون ذلك. قدّم الملاّك شكوى لمدير الناحية. مدير الناحية حسم القضية لصالح الملاّك بصورة غير قانونية (وقد اعترفت حتى المحكمة بذلك فيما بعد) سامحاً له بضخِّ الماء إلى أعلى. فأرسل الملاّك عمّالاً لسدّ القناة التي تنحدر عبرها المياه. امتعض الفلاحون من هذا القرار الجائر، وأرسلوا نساءهم لمنع عمّال الملاّك من سدّ القناة. فخرجت النساء إلى السدّ وقلبن العربات وطردن العمّال. قدّم الملاّك شكوى ضدّ النساء على اعتدائهن. فأصدر مدير الناحية أمراً بوضع امرأة من كلّ بيت من بيوت القرية في السجن. لم يكن القرار قابلاً للتنفيذ لأنّ في كلّ بيت كانت هناك عدّة نساء، فلم تكن هناك إمكانية لمعرفة أيهنّ يجب اعتقالها، لذا لم تضع الشرطة القرار قيد التنفيذ. اشتكى الملاّك للمحافظ عدم تنفيذ الشرطة القرار. المحافظ، دون أن يفهم فيمَ الأمر، أصدر أمراً صارماً لرئيس شرطة القضاء بتنفيذ قرار مدير الناحية فوراً. مُذعِناً لرئيسه الأعلى، رئيس شرطة القضاء، على عادة السلطات الروسية في عدم احترام الناس، سافر إلى القرية، وأمر الشرطة بأخذ امرأة من كلّ بيت. لكن حيث أنّ هناك عدّة نساء في كلّ

بيت، ولم تكن هناك إمكانية لمعرفة التي يجب اعتقالها، بدأت المجادلات والاعتراضات. لكن بغضّ النظر عن هذه المجادلات والاعتراضات، أمر رئيس شرطة القضاء بإلقاء القبض على امرأة من كلّ بيت، كيفما اتّفق، وأخذهنّ إلى السجن. أخذ الرجال يدافعون عن زوجاتهم وأمّهاتهم، ولم يسلّموهن، وأثناء ذلك قاموا بضرب الشرطة ورئيس شرطة القضاء. ظهرت جريمة جديدة مخيفة: مقاومة السلطات، ونُقل خبر هذه الجريمة الجديدة إلى المدينة. والمحافظ، تماماً مثل محافظ مقاطعة تولا، مصحوباً بكتيبة من الجنود المسلّحين بالبنادق والقضبان، مستفيداً من البرق والهاتف وسكّة الحديد، على متن قطارٍ سريع، يرافقه طبيب، والذي عليه مراقبة صحيّة الضرب، محقّقاً بذلك تماماً نبوءة غيرتسن عن جنكيزخان بهاتف، سافر إلى موقع الأحداث.

أمام مبنى مديرية الناحية، وقف جنودٌ، صفٌّ من رجال الشرطة بأحزمتهم الحمراء التي عُلّقت عليها المسدسات، وجمعٌ من الوجهاء من الفلاحين والمتّهمين، يحيط بهم حشدٌ من الناس يبلغ تعداده 1000 شخص أو أكثر. بوصوله إلى مديرية الناحية، خرج المحافظ من العربة، وألقى كلمةً مُعدّة سلفاً، وطلب إحضار المتّهمين ومقعداً. لم يُفهَم هذا الطلب في البداية، لكنّ الشرطيّ، الذي يرافق المحافظ دائماً والذي عمله تنظيم عمليّات التعذيب التي جرت في المقاطعة كثيراً، أوضح أنّه يقصد مقعداً للضرب بالقضبان. فأُحضِر المقعد، وجلبوا القضبان التي أحضروها معهم، واستدعوا الجلاّدين. الجلاّدون كانوا قد أُعِدّوا مسبقاً، وهم سارقو خيل من تلك القرية ذاتها، لأنّ العسكر رفضوا تنفيذ هذه المهمّة.

حين جُهِّز كلّ شيء، أمر الرئيس بإخراج أوّل الأشخاص الاثني عشر الذين أشار إليهم الملاّك على أنّهم أوّل المذنبين. أوّل الخارجين كان ربّ أسرة، شخصاً محترماً في المجتمع، في الأربعين من العمر، والذي دافع بشجاعة عن حقّ المجتمع ما جعله يحوز احترام السكّان. أحضروه إلى المقعد وجرّدوه من ملابسه وأمروه بأن يستلقي. حاول الفلاح توسّل العفو لكنّه، حين رأى أنّ هذا بلا جدوى، رسم علامة الصليب واستلقى. أمسك به اثنان من رجال الشرطة. الطبيب أيضاً وقف مستعدّاً لتقديم المساعدة الطبيّة اللازمة. بصق الجلادون في أكفّهم، ولوّحوا بالقضبان، وبدأوا بالضرب. تبيّن أن المقعد ضيّق جداً، وكان من الصعب الإمساك بالمُعذّب الذي كان يتلوّى من الألم. حينها أمر

المحافظ بإحضار مقعد آخر ووضعِ لوحٍ عليه. نفّذ أناسٌ الأمر بسرعة وطاعة وهم يؤدّون التحيّة العسكرية قائلين: "أمر معاليكم". في هذه الأثناء كان الرجل المُعذَّب الشاحب، شبه العاري، ينظر إلى الأرض مقطّب الحاجبين، ينتظر، وأسنانه تصطكّ وقدماه تحترقان. حين أُحضر المقعد الثاني، أضجعوه ثانيةً، وراح الجلاّدون يضربونه. تغطّى ظهر المُعذّب، وكذلك ردفاه وفخذاه وحتى مؤخّرته، أكثر فأكثر بالندوب والجروح، ومع كلّ ضربة كانت تصدر أنّة خافتة من المُعذَّب الذي لم يكن قادراً على كبحها. من الحشد، الواقف في المحيط، كانت تُسمع ولاويل الزوجات والأمّهات والأولاد، وأقرباء المُعذَّب، وأقارب كلّ الذين أُحضِروا للتعذيب.

المحافظ الشقي، الثمل بالسلطة، الذي بدا له أنّه لا يستطيع أن يتصرّف بطريقة أخرى، راح يعدّ الضربات عاقفاً أصابعه، ويدخّن دون توقّف، الأمر الذي كان يجعل بعض الناس الخدومين يهرعون إليه بعيدان الكبريت لإشعال سيجارته كلّما همّ بالتدخين. بعد عدّ خمسين ضربة كفّ الفلاح عن الصراخ والتلوّي، والطبيب، الذي تدرّب في مؤسّسة للتعذيب ليخدم بمعارفه العلمية ملكه ووطنه، دنا من المُعذَّب، جسّ نبضه واستمع إلى ضربات قلبه، وأخبر ممثّل السلطة أنّ المُعاقَب قد غاب عن الوعي، وأنّ مواصلة العقاب -حسب معطيات العلم- قد يشكلّ خطراً على حياته. لكنّ المحافظ الشقي، الذي أسكرته رؤية الدمّ كليّاً، أمر بمواصلة العقاب، واستمرّ التعذيب حتى بلغ سبعين ضربة، العدد الذي بدا له ضرورياً الوصول إليه لسببٍ ما. عند الضربة السبعين، قال المحافظ: "يكفي. التالي!" والشخص المُعذّب الفاقد الوعي، بظهره المتورّم، حُمِل وأُبعد وأُحضِر آخر. ازداد صراخ وعويل الحشد لكنّ ممثّل سلطة الدولة واصل التعذيب.

كذلك ضُرب الثاني والثالث والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر، سبعين ضربةً لكلٍّ منهم. جميعهم توسّلوا العفو، أنّوا، صرخوا. عويل وأنين حشد النساء علا أكثر، ووجوه الرجال تجهّمت أكثر فأكثر. لكنّ الجنود كانوا يحيطون بهم، ولم يتوقّف التعذيب إلى أن تمّ الأمر كما اعتقده ضرورياً ذلك الشخص المهووس، الشقي، شبه الثمل، الضالّ، المدعو بالمحافظ. الموظّفون

والضباط والجنود لم يكونوا موجودين فقط في هذه الأثناء بل كانوا شركاء في هذا الأمر بوجودهم، ومنعوا الحشد من الإخلال بتطبيق هذا القرار الحكومي.

حين سألتُ أحد المحافظين عن سبب إنزال هذا التعذيب بالناس ما داموا قد أذعنوا، وما دام الجنود يرابطون في القرية، أجابني، بوجه شخصٍ مسؤول عارفٍ بكلّ تفاصيل حكمة الدولة، إنّ هذا يُفعل لأنّ الخبرة أثبتت أنّه إذا لم يتمّ تعذيب الفلاحين فسيعودون إلى مقاومة سلطة السلطات ثانيةً بينما إنزال العقاب ببعضٍ منهم يُعزّز قرار السلطة إلى الأبد.

وها هو محافظة مقاطعة تولا، يرافقه الموظفون والضباط والجنود، يسافر للقيام بذات الأمر. بالطريقة ذاتها تماماً، أي بوساطة القتل والتعذيب، يجب أن يضع قرار السلطات العليا قيد التنفيذ، القرار الذي فحواه أن يحصل الملاّك الشابّ، الذي يبلغ مدخوله السنوي مائة ألف، على ثلاثة آلاف روبل إضافية لقاء الغابة التي انتزعها بالقوة من مجتمعٍ كاملٍ من الفلاحين الذين يعانون الجوع والبرد، لكي يبذّر هذا المال، خلال أسبوعين أو ثلاثة، في حانات موسكو وبطرسبورغ أو باريس. للقيام بهذا العمل بالتحديد سافر أولئك الناس الذين التقيتهم.

ساقني القدر، كما لو قصداً، بعد سنتين من حشد تفكيري في ذات الاتجاه، للمرّة الأولى في حياتي لكي يريني بمنتهى الوضوح عملياً ما توضّح لي منذ زمن بعيد نظرياً، وبالتحديد أنّ كلّ نظام حياتنا لا يرتكز على مبادئ حقوقية ما، كما يحب المستفيدون من النظام القائم للأشياء أن يقنعوا أنفسهم، بل على العنف الصريح والفظّ، على قتل الناس وتعذيبهم.

الناس، الذين يمتلكون أراضٍ شاسعةٍ ورساميل كبيرة، أو الذين يتلقّون رواتب كبيرة محصّلة من العمّال المحتاجين إلى الحاجات الأولية، وكذلك التجار والأطباء والفنانون وأصحاب الحوانيت والعلماء والحوذية والطبّاخون والكتّاب والفرّاشون والمحامون، الذين يعتاشون على حساب هؤلاء الناس الأغنياء، يحبّون أن يصدقّوا أنّ الامتيازات التي يتمتعون بها ليست نتاج العنف بل هي نتاج تبادلٍ حرٍّ عادلٍ للخدمات، وأنّ هذه الامتيازات ليست فقط غير ناتجة عن الضرب والقتل اللذين يمارسان في حقّ الناس، كما حدث في أورل وفي أماكن كثيرة من روسيا في الصيف الجاري، وكما يحدث في

أوروبا وأمريكا كلّها، بل ولا علاقة لها على الإطلاق بهذا العنف. يحبّون أن يصدّقوا أنّ الامتيازات التي يتمتّعون بها تأتي من تلقاء ذاتها، وبموافقة طوعيّة من قبل الناس، وأنّ العنف، المُمارَس على الناس، قائم من تلقاء ذاته، ويحدث بموجب قوانين حقوقية وحكومية واقتصادية سامية ما. يحرص هؤلاء الناس على عدم رؤية أنّهم إنّما يتمتّعون بالامتيازات التي يتمتّعون بها دائماً وفقط نتيجة لذات الشيء الذي بنتيجته يتمّ الآن إرغام الفلاحين، الذين استنبتوا الغابة التي هم في حاجة قصوى إليها، على إعطائها للملاّك الغني الذي لم يشارك في رعايتها أثناء نموّها يوماً، والذي لا حاجة له بها، أي نتيجة أنّه سيتمّ ضربهم أو قتلهم إذا لم يعطوا الغابة.

فإذا كان واضحاً تماماً أنّ طاحونة أورل أصبحت تقدّم إيراداً كبيراً للملاّك، وأنّ الغابة، التي استنبتها الفلاحون، أُعطيت للملاّك، فقط نتيجةً لضربهم وقتلهم أو ترويعهم، فكذلك تماماً يجب أن يكون واضحاً أنّ كلّ الحقوق الاستثنائية للأغنياء، والتي تحرم الفقراء مما هو ضروري، لا بدّ أنّها تقوم على الأساس ذاته. إذا كان الفلاحون، المحتاجين إلى الأرض لإطعام أسرهم، لا يفلحون الأرض المحيطة ببيوتهم، وهي كافية لإطعام 1000 عائلة، بل يستثمرها شخص واحد، روسي أو إنكليزي أو نمساوي، أو أيّ ملاّك كبير كان، لا يعمل في هذه الأرض، وإذا كان التاجر، الذي يشتري الحبوب من الفلاحين في وقت الفاقة، يستطيع أن يخزّن هذه الحبوب بأمان في عنابره وسط أناسٍ جائعين، وأن يبيعها لنفس الفلاحين الذين اشتراها منهم بثلاثة أضعاف السعر الذي دفعه عند الشراء، فجليٌّ أنّ هذا يحدث للأسباب السابقة ذاتها. وإذا كان أحدهم لا يستطيع شراء سلعةٍ بيعت له بسعرٍ أرخص بسبب ما يُسمّى الحدود إذا لم يدفع رسماً جمركياً لأناسٍ لم يشاركوا قط في إنتاج السلعة، وإذا لم يكن الناس قادرين على ألاّ يعطوا بقرتهم الأخيرة كضريبة تقدّمها الحكومة لموظّفيها أو تستخدمها لإعالة جنودٍ سيقومون بقتل دافعي الضرائب هؤلاء أنفسهم، فالمفروض أن يكون جليّاً أنّ هذا لا يحدث نتيجةً لحقوقٍ مجرّدة ما بل نتيجةً لما حدث في أورل، وما قد يحدث الآن في مقاطعة تولا، ويحدث بصورة دورية، بهذا الشكل أو ذاك، في العالم كلّه، حيث يوجد نظام الدولة، وحيث يوجد أغنياء وفقراء.

نتيجةً لأنّه لا يحدث تعذيب وقتل في كلّ معاملات الناس القهرية، الناس، الذين يتمتّعون بمكاسب الطبقات الحاكمة الإستثنائية، يقنعون أنفسهم والآخرين بأنّ المكاسب التي يتمتّعون بها ليست نتاج التعذيب والقتل، بل هي نتاج أسباب عامة خفيّة ما، أو حقوقٍ مجرّدة، الخ. غير أنّ من الواضح أنّه إذا كان الناس، الذين يعتبرون هذا جائراً (كما يعتبره كلّ العمّال في الوقت الراهن)، يعطون النصيب الأكبر من عملهم للرأسمالي أو الملاّك، ويدفعون الضرائب وهم يعلمون أنّ هذه الضرائب ستُستخدم بشكلٍ سيّء، فإنّهم لا يفعلون ذلك انطلاقاً من إدراكهم لحقوقٍ مجرّدة ما لم يسمعوا عنها قط بل لأنّهم يعلمون أنّهم سيُضربون ويُقتلون إذا لم يفعلوا ذلك. وإذا كان لا يحدث اعتقال وضرب وقتل للناس في كلّ مرّة يجمع فيها الملاّك أجرة الأرض، وحين يدفع المحتاجون إلى الخبز ثلاثة أضعاف ثمنه للتاجر المحتال، والعامل يرضى براتبٍ أقلّ ضعفين من مدخول صاحب المعمل، وحين يدفع الفقير روبل يملكه للرسوم والضرائب، فهذا يحدث لأنّ الناس قد ضُرِبوا وقُتلوا كثيراً بسبب محاولتهم عدم القيام بما يُطلب منهم، ولأنّهم يذكرون هذا جيداً. كما أنّ النمر القابع في القفص لا يلتقط اللحم الموضوع أمامه، ولا يستلقي هادئاً بل يقفز فوق العصا حين يُؤمر بذلّ، لا يفعل ذلك لأنّه يريد ذلك بل لأنه يتذكّر الحديدة المحمّاة أو الجوع، ممّا تعرّض له في كلّ مرّة رفض الإذعان، كذلك تماماً الناس، الذين يخضعون لما ليس في صالحهم بل والمهلك لهم وما يعتبرونه جائراً، يفعلون ذلك لأنّهم يتذكّرون ما جرى لهم حين قاوموا ذلك.

أما الذين يتمتّعون بالامتيازات التي هي نتاج عنفٍ سحيق القدم، فغالباً ما ينسون، ويحبّون أن ينسوا كيفية الحصول على هذه الامتيازات. غير أنّه يكفي تذكّر التاريخ، ليس تاريخ نجاحات شتى السلالات الملكية الحاكمة بل التاريخ الحقيقي، تاريخ اضطهاد عدد قليل من الناس للأكثرية، لرؤية أنّ كلّ امتيازات الأغنياء عن الفقراء لا تقوم على شيءٍ سوى القضبان والسجون والأشغال الشاقة والقتل.

يكفي فقط التفكير في الطموح العنيد اللامتوقّف للناس جميعاً في زيادة رفاهيّتهم، الطموح الذي ينقاد له الناس في زماننا، حتى نقتنع بأنّ الأغنياء لم يستطيعوا، ولا يستطيعون، المحافظة على امتيازهم عن الفقراء إلا عبر هذه الممارسات.

قد يكون هناك اضطهاد وضرب وسجون وإعدامات لا تهدف إلى تفوّق الطبقات الغنية (رغم أنّ هذا نادرٌ جداً، لكن، يمكن القول بجرأة إنّ في مجتمعنا مقابل كلّ شخص يعيش كسيّد محترم هناك عشرة عمّال مُعذّبين بالعمل، حاسدين، بخلاء، وغالباً ما يعانون معاناةً صريحةً مع عائلاتهم. كلّ امتيازات الأغنياء، كلّ ترفهم، كلّ الكماليات التي يتمتّع بها الأغنياء مقارنةً بالعامل المتوسّط الحال، كلّ هذا مُكتسب ويُحافظ عليه عن طريق التعذيب والاعتقالات والإعدامات.

2

القطار الذي التقيته في التاسع من أيلول، الذي كان ينقل الجنود ببنادقهم ورصاصاتهم الحقيقية وقضبانهم إلى فلاحين جائعين ليثبّتوا أحقيّة الملاّك الغني في غابةٍ صغيرةٍ انتزعها من الفلاحين، والتي هو ليس بحاجةٍ إليها في حين أنّهم يحتاجونها بشدّة، أثبت، بجلاءٍ مذهل، مدى قابلية الناس للقيام بأعمالٍ تناقض قناعاتهم وضمائرهم دون أن يروا ذلك.

القطار السريع، الذي التقيته، كان مؤلّفاً من عربة درجة أولى للمحافظ والموظّفين والضباط، ومن عدّة عربات لشحن البضائع مليئة بالجنود.

الجنود الفتيان الطائشون، في بزّاتهم الرسمية الجديدة النظيفة، كانوا يتأرجحون واقفين أو يجلسون في الأبواب الواسعة المفتوحة لعربات الشحن مؤرجحين أرجلهم. بعضهم كان يدخّن، وبعضهم كان يتحدّث ويلقي النكات ويضحك مُكشّراً عن أسنانه، وفريقٌ ثالثٌ كان "يفصفص" البزر باصقاً القشور بوقاحة. بعضهم كانوا يركضون عبر رصيف المحطة إلى برميل ماءٍ ليشربوا، وحين يلتقون بالضباط يضربون بأرجلهم الأرض ويؤدّون تحيّتهم الغبية رافعين أيديهم إلى جباههم وبوجوهٍ صارمة، كأنّما يقومون بعملٍ ليس معقولاً فحسب بل وبالغ الأهميّة، كانوا يمرّون بجوارهم مودّعين إيّاهم بأعينهم، ثمّ يحثّون خطاهم بمرحٍ أكثر راكضين فوق ألواح رصيف المحطّة وهم يضحكون ويثرثرون، كما ينبغي لشبّان أصحّاء طيبين، يسافرون ضمن جماعةٍ مرحةٍ من مكانٍ إلى آخر، أن يفعلوا.

كانوا ذاهبين لقتل آبائهم وأجدادهم الجائعين كما لو أنّهم ذاهبون للقيام بعملٍ مسلٍّ أو عاديٍّ على الأقلّ. الانطباع ذاته خلقه الموظّفون والضباط المتأنّقون المنتشرون على الرصيف أو في صالة الدرجة الأولى. إلى طاولةٍ، عليها زجاجاتٌ كثيرة، في زيّه الرسميّ شبه العسكريّ، كان يجلس المحافظ، قائد هذه الحملة كلّها، يأكل شيئاً ما، ويتحدّث بهدوءٍ عن الطقس مع صديقٍ التقاه كما لو أنّ الأمر الذي يسافر لأجله من البساطة والعادية بحيث لا يمكنه أن يخلّ بهدوئه وباهتمامه بتحول الطقس. بعيداً عن الطاولة كان يجلس، دون أن يتناول الطعام، جنرال الجندرمة بمظهرٍ مكتئبٍ لا يدرك كنهه كأنّما مستثقلاً الرسميات التي سئمها. من جميع الجهات كان يتحرك ويصخب ضباطٌ في أزيائهم الرسمية الجميلة المخاطة بخيوطٍ ذهبية: مَنْ كان يجلس إلى طاول كان يحتسي النبيذ، ومن كان يقف قرب "البوفيه" كان يمضغ كعكةً وينفض الفُتات الساقطة على سترته، ويلقي بالنقود بحركة وقحة، وبعضهم، نافضاً قدميه، كان يتنزّه بجوار عربات قطارنا، ناظراً إلى وجوه النساء.

كل هؤلاء الناس، الذاهبين لقتل وتعذيب أناسٍ عُزِل وجائعين، نفس الناس الذين يطعمونهم، كانت لهم سحنات الذين يعرفون بالتأكيد ما يجب أن يفعلوه، بل حتى يفتخرون، (يتعجرفون)، بعض الشيء بقيامهم بهذا العمل.

فما الأمر؟ كلّ هؤلاء الناس يقيمون على مبعدة نصف ساعة سفر عن المكان الذي قد يُرغمون فيه، من أجل استحصال 3000 روبل لشخصٍ غنيّ ليس بحاجة إليها عبر انتزاعها من مجتمعٍ برمّته من الفلاحين الجائعين، على القيام بأشدّ الأعمال هولاً، مما يمكن تصورّها، فقد يبدأون بقتل أو تعذيب إخوانهم العُزل، كما حدث في أورل، وهم يقتربون إلى مكان وزمان حدوث ذلك.

القول إنّ هؤلاء الناس، كلّ هؤلاء الموظفين والضباط والجنود، لا يعلمون ما ينتظرهم وما هم ذاهبون إليه، غير جائز لأنهم قد أعدّوا لذلك. فقد كان على المحافظ أن يأمر بإحضار القضبان، وكان على الموظفين شراء أغصان شجرة البتولا، ويُقرّوا ميزانية لذلك. العسكر أصدروا وتلقّوا ونفّذوا الأوامر المتعلقة بالرصاصات القتالية. جميعهم يعلمون أنهم ذاهبون لتعذيب وضرب، وربما قتل، إخوانهم الذين يعانون الجوع، وأنهم سيباشرون القيام بذلك بعد ساعة ربما.

القول إنهم يفعلون ذلك لأنهم مقتنعون به، كما يُقال عادةً وكما يكررونه هم أنفسهم،- لأنهم مقتنعون بضرورة الحفاظ على نظام الدولة، ليس صحيحاً، أولاً، لأنّ هؤلاء الناس جميعاً هيهات أن يكونوا قد فكّروا يوماً بنظام الدولة وضرورته؛ ثانياً، لا يمكنهم على الإطلاق أن يكونوا مقتنعين بأنّ ما يشاركون فيه سيخدم الحفاظ على الدولة، وليس انهيارها؛ ثالثاً، فعلياً، معظم هؤلاء الناس، إن ليس الجميع، ليسوا فقط لن يضحّوا أبداً بطمأنينتهم وسعادتهم في سبيل الحفاظ على الدولة بل لن يتركوا أبداً فرصة استغلال كل ما يمكنهم استغلاله لأجل طمأنينتهم وسعادتهم على حساب الدولة. هم لايفعلون ذلك، إذاً، انطلاقاً من مبدأ الدولة المجرّد.

ففيمَ الأمر إذاً؟ فأنا أعرف هؤلاء الناس جميعاً. إذا كنت لا أعرفهم شخصياً، فإني أعرف تقريباً سلوكياتهم، ماضيهم، نمط حياتهم. جميعهم لديهم أمهات، وبعضهم لديهم زوجات وأبناء. جميعهم أناسٌ طيّبو القلب، ودعاء، لطفاء غالباً، لا يطيقون شتى أشكال القسوة ناهيكم عن قتل الناس، كثيرون منهم لا يستطيعون تعذيب الحيوانات؛ فضلاً عن أن جميعهم يدينون بالمسيحية، ويعتبرون ممارسة العنف ضد أناسٍ عُزل عملاً شنيعاً ومخزياً. ما من أحدٍ من هؤلاء الناس، في حياته العادية، قادر ليس فقط على القيام، من أجل مصلحته الشخصية، بواحد بالمائة مما فعله محافظ أورل بالناس، بل أيّ واحد منهم سيشعر بالغضب إذا أُعتُقد أنّه قادر على القيام بعملٍ كهذا في حياته الخاصة. لكن هاهم على مبعدة نصف ساعة عن المكان الذي قد ينقادون فيه إلى الاضطرار للقيام بهذا.

فيمَ الأمر إذاً؟ وليس فقط هؤلاء الناس المسافرين بالقطار والمستعدين للقتل والتعذيب، بل كيف استطاع الناس الذين بدأ هذا الأمر بهم: الملاّك ومدير الناحية والقاضي، وأولئك الذين فرضوا هذا الأمر من بطرسبورغ ويشاركون فيه بسلطاتهم، كيف استطاع هؤلاء الناس: الوزير والملك، الطيبين أيضاً، اللذان يدينان بالمسيحية، كيف استطاعا اتخاذ وفرض أمر كهذا، وهما يعلمان بعواقبه؟ كيف يمكن حتى للمشاهدين غير المشاركين في هذا الأمر، الذين يكدّرهم أيّ عنفٍ منفرد، بما في ذلك تعذيب الخيول، السماح بارتكاب عملٍ مخيف كهذا؟ كيف يمكنهم ألاّ يختنقوا عليه، ألاّ يقفوا في عرض الطريق ويصرخوا: "كلا، لن نسمح بقتلِ وجلدِ أُناسٍ جائعين لأنهم يرفضون التخلّي عن آخر ما يملكون والذي انتُزع منهم عن طريق الاحتيال!".

لكن ليس فقط أنّ أحداً لا يفعل ذلك بل، على العكس، معظم الناس، بمن فيهم أولئك الذين كانوا وراء هذا الأمر، كمدير الناحية والملاّك والقاضي، وأولئك الذين كانوا شركاء ومتصرّفين فيه، كالمحافظ والوزير والملك، مطمئنون تماماً، بل حتى لا يشعرون بوخز الضمير. كذلك -على ما يبدو- كل هؤلاء الذاهبين لارتكاب هذه الجريمة.

المشاهدون، الذين يبدو أنّ الأمر لا يعنيهم، كانوا ينظرون، بتعاطفٍ وليس بسخط، إلى كلّ هؤلاء الناس الذين يتجهزون للقيام بهذا العمل الشنيع. تاجرٌ يشتري الأخشاب من الفلاحين، كان يسافر في العربة التي كنت فيها، أعرب، بصراحة وبصوتٍ عالٍ، عن موافقته على العقوبات التي تمارس على الفلاحين: "لا يجوز عدم الخضوع للقيادة - قال هو.- لن يمرّ وقت طويل حتى "يكشّوا الذباب"؛ فليكفّوا عن العصيان. إنّهم يستحقّون ذلك".

فيمّ الامر؟ لا يجوز على الإطلاق كذلك اقول إنّ كلّ هؤلاء الناس، المحرّضين على، والمشاركين في، والمتغاضين عن، هذا الأمر لئامٌ إلى درجة أنهم، رغم معرفتهم بدناءة ما يقومون به، بعضهم لأجل الراتب والمكاسب وبعضهم خشية العقاب، يقومون بعملٍ متناقض لقناعاتهم. كل هؤلاء الناس يجيدون الذود عن قناعاتهم في مواقف معينة. لن يقوم أحدٌ من هؤلاء الموظفين بسرقة محفظة، أو قراءة رسالة شخص آخر، أو يحتمل إهانة دون أن يطلب من المهين أن يعتذر. لن يوافق أحدٌ من هؤلاء الضباط على الغش في لعب الورق، أو عدم دفع ديون القمار، أو على خيانة رفيقه، أو على الفرار من ساحة القتال وإلقاء العلم. لن يعمد أيّ من هؤلاء الجنود إلى عدم الصوم وتناول اللحم في الجمعة الحزينة. كل هؤلاء الناس مستعدون لتحمّل شتى أنواع الحرمان والمعاناة والمخاطر على أن يقبلوا بالقيام بعمل يعتبرونه سيئاً، لابدّ إذاً أنّ لدى هؤلاء الناس توجد قوة ممانعة تعمل حين يتوجّب عليهم القيام بما يتعارض مع قناعاتهم.

القول إنّ هؤلاء الناس متوحشّون إلى درجة أنّ من طبيعتهم، ولا يُعذّبهم، القيام بهذه الأعمال،- هذا ضعيف الاحتمال. إذ يكفي التحدّث إلى هؤلاء الناس حتى يدرك المرء أنّ جميعهم، الملاّك والقاضي والوزير والقيصر والمحافظ والضباط والجنود، ليسوا فقط غير موافقين على هذه الأعمال في أعماقهم بل ويعانون من جرّاء إدراكهم لها

ومشاركتهم فيها حين يتمّ تذكيرهم بمعنى هذه الأعمال. إنهم يحاولون عدم التفكير في ذلك فحسب.

يكفي وحسب التحدّث إليهم، إلى جميع المشاركين في هذا العمل، من الملاّك حتى آخر شرطي وجندي، حتى يرى المرء أنّهم جميعاً يعلمون في أعماقهم أنّ هذا العمل سيئ، وأنّ الأفضل لو أنهم لا يشاركون فيه، وأنهم يعانون من جرّاء ذلك.

سيّدة ليبرالية، كانت راكبة معنا في القطار ذاته، حين رأت المحافظ والضباط في صالة الدرجة الأولى وعرفت الغاية من سفرهم، بدأت، بصوتٍ عالٍ قصداً لكي يسمعوها، تشتم إجراءات زماننا، وتشنّع على الذين يشاركون في هذه الأعمال. شعر الجميع بالإحراج، ولم يعودوا يعرفون أين ينظرون، لكنّ أحداً لم يردّ على كلامها. تظاهر ركّاب القطار بأنّ هذه الأقوال الفارغة ليست جديرة بالردّ، لكن كان يُرى من الوجوه والأعين الهاربة أنّ الجميع قد شعروا بالخزي. وقد لاحظت هذا على الجنود أيضاً، فقد كانوا يعلمون أنّ العمل الذي يذهبون إليه عمل سيئ لكنهم لم يكونوا يريدون التفكير في ما ينتظرهم.

حين بدأ تاجر الأخشاب بالتحدّث -ولم يكن صادقاً باعتقادي بل فقط لكي يُظهر تحضّره- عن مدى ضرورة هذه الإجراءات أشاح كلّ الجنود الذين كانوا يسمعونه عنه، وتظاهروا بأنهم لا يسمعونه، مقطّبين وجوههم. كلّ الذين ساهموا في حدوث هذا الأمر، كالملاّك والمدير والوزير والقيصر، وكذلك ركّاب هذا القطار، وحتى الذين ينظرون إلى ما يجري بحياد دون أن يشاركوا فيه، جميعهم يرون أنّ هذا العمل سيئ، ويشعرون بالخجل من مشاركتهم فيه أو حتى من حضورهم أثناء حدوثه.

فلماذا قاموا ويقومون به، ويحتملونه؟ اسألوا عن ذلك أولئك الذين اختلقوا الأمر، كالملاّك، وكذلك الذين، كالقاضي، أصدروا الحكم القانوني رسمياً لكن الجائر بوضوح، والذين أمروا بتنفيذ القرار، والذين سينفّذون هذه الأعمال بأيديهم- ضرب وقتل إخوانهم- كالجنود ورجال الشرطة والفلاحين، وكلهم -المحرّضين على هذه الجرائم والمُعينين عليها ومنفّذيها والمتغاضين عنها- سيقولون الكلام ذاته من حيث الجوهر.

الرؤساء، الذين حرّضوا على هذا العمل وساعدوا عليه وأمروا به، سيقولون إنهم يقومون بما يقومون به لأنّ هذه الأعمال ضرورية للحفاظ على النظام القائم، والحفاظ

على النظام القائم ضروري لمصلحة الوطن والإنسانية ولإمكانية الحياة الاجتماعية وحركة التقدّم.

الفلاحون والجنود، الذين من الطبقات الدنيا والذين عليهم ممارسة العنف بأيديهم، سيقولون إنهم يقومون بما يقومون به لأنّ القيادة العليا قد أمرت بذلك، وإن القيادة العليا تعرف ما تفعل. وكون القيادة تتكوّن من أناسٍ يجب أن يكونوا القيادة، وأنّ هذه القيادة تعرف ما تفعل، يُعدُّ بالنسبة إليهم حقيقة لا ريب فيها. حتى إذا افترض هؤلاء المنفّذون الفقراء إمكانية الخطأ والضلال؛ ففقط لدى الشخصيات القيادية الأدنى مرتبةً، بينما السلطة العليا، التي يصدر عنها كلّ شيء، فتبدو لهم أنْ لا شكّ في عصمتها.

بغضّ النظر عن أنهم يفسّرون دوافع أعمالهم تفسيرات مختلفة؛ فإنّ هؤلاء وأولئك، الآمرين والمأمورين، متّفقون على أنهم يفعلون ما يفعلون لأنّ النظام القائم هو النظام الذي لا بدّ من، ويجب، أن يوجد في الوقت الراهن، والذي يُعدُّ الحفاظ عليه واجباً مقدّساً للجميع.

على هذا الإقرار بضرورة، وبالتالي ثبات، النظام القائم يقوم دائماً، من قِبل جميع المشاركين في عنف الدولة، الرأي الذي يتمّ إيراده لتبرير الذات، والذي مفاده أنّ النظام القائم بما أنه ثابت فإنّ رفض شخص بمفرده تنفيذ الواجبات الملقاة على عاتقه لن يغيّر من حقيقة الأمر، ويمكنه فقط جعل شخص آخر يحلّ محلّ الرافض، والذي قد يقوم بالعمل بشكل أسوأ، أي أعنف، وأشدّ ضرراً بالناس الذين يمارَس عليهم العنف.

إنّ هذا اليقين من أنّ النظام القائم لا بدّ منه، وبالتالي لامتغيّر، ومن أنّ الحفاظ عليه واجب مقدّس لأيّ شخص، هو الذي يمنح الناس، الخلوقين والطيبين في حياتهم الخاصة، القدرة على المشاركة، بضمير أكثر أو أقلّ اطمئناناً، في أعمالٍ مماثلة لما حدث في أورل، ولما يستعدّ ركّاب قطار تولا للقيام به.

لكن على ماذا يقوم هذا اليقين؟ مفهومٌ أنّ الملاّك يطيب له أن يُصدّق أنّ النظام القائم ضروري وثابت لأنّ هذا النظام القائم بالذات هو الذي يؤمّن له إيراد مئات وآلاف هكتاراته، والذي بفضله يعيش حياته المتبطّلة والمترفة المعتادة. مفهومٌ أيضاً أنّ القاضي أيضاً يطيب له أن يؤمن بضرورة النظام الذي بنتيجته يتلقّى أكثر بخمسين مرة ممّا يتلقّاه عاملٌ يعمل في العمل الأسود. وهذا مفهوم أيضاً فيما يتعلّق برئيس القضاة الذي يزيد

راتبه على ستة آلاف، وبكلّ موظفي المراتب العليا، إذ فقط في ظلّ نظامٍ كهذا يمكن لموظفٍ كهذا، سواء كان محافظاً أم نائباً عامّاً أم سيناتوراً أم عضوَ أيّ مجلس كان، تلقّي راتبه البالغ عدة آلاف، والتي لولاها لهلك هو وعائلته فوراً لأنه، تبعاً لمؤهّلاته وقدراته ومعارفه، باستثناء المنصب الذي يشغله الآن، ما كان ليحصل على واحدٍ بالألف مما يحصل عليه الآن، وهذه هي كذلك حال الوزير والملك وأي سلطة عليا أخرى مع فارقٍ واحدٍ فقط هو أنهم كلّما علت مكانتهم وازدادت امتيازاتهم كلّما ازدادت حاجتهم إلى تصديق أنّ النظام القائم هو النظام الممكن الوحيد لأنهم في ظلّ نظامٍ آخر لن يكونوا عاجزين فحسب عن الحصول على مرتبةٍ مساوية لمرتبتهم بل لا بدّ من أن ينحطّوا أدنى من الآخرين جميعاً. الشخص، الذي يتطوّع في الشرطة لقاء راتب مقداره عشرة روبلات، يمكنه بسهولة الحصول عليه في أي مكان آخر، قلّما يحتاج إلى النظام القائم لذا يمكنه عدم الإيمان بثباته. لكن الملك أو الإمبراطور، الذي يتلقّى الملايين لقاء منصبه، والذي يعلم أنّ آلاف الناس من حوله يتمنّون عزله والحلول مكانه، ويعلم أنه لن يحصل في أيّ منصب آخر على هذا الدخل والاحترام، ويعلم، في معظم الحالات، في ظلّ حكمٍ أكثر أو أقلّ استبداداً، أنه إذا أُسقط فسوف يحاكَم على كل ما فعله عبر استخدام سلطته،- ليس بمقدور أيّ ملك أو إمبراطور إلاّ أن يؤمن بثبات وقدسية النظام القائم. كلّما علا منصب الشخص كلما كان أنفع له، وبالتالي أقلّ استقراراً، وكلما كان السقوط عنه أرهب وأخطر كلما ازداد إيمان شاغل هذا المنصب برسوخ النظام القائم، ولهذا يستطيع هذا الشخص، وضميره مرتاح جداً، وكأنما ليس لأجله هو بل للحفاظ على هذا النظام، القيام بأعمال سيئة وعنيفة.

هكذا هو الأمر بالنسبة لكلّ القياديين الذين يشغلون مناصب أنفع لهم من التي كانوا سيشغلونها لولا هذا النظام، بدءاً من أدنى شرطي وصولاً إلى أعلى سلطة. كلّ هؤلاء الناس يؤمنون، بدرجة أو بأخرى، برسوخ النظام القائم لأنه، بصورة رئيسة، مفيد لهم.

لكن ما الذي يجبر الفلاحين والجنود الواقفين على أدنى درجات السُّلّم، والذين ليست لهم أي مصلحة في النظام القائم، والمتواجدين في أدنى وظائف الخضوع والإذلال، على تصديق أنّ النظام القائم، الذي بنتيجته يتواجدون في مواقع ليست مفيدة بل مذلّة لهم، هو النظام الذي يجب أن يكون، وبالتالي يجب المحافظة عليه، مرتكبين في سبيل ذلك أعمالاً

سيئة تناقض ضمائرهم حتى؟ ما الذي يجبر هؤلاء الناس على إجراء تلك المحاكمة الباطلة بأنّ النظام القائم لامتغيّر وبالتالي يجب الإبقاء عليه، في حين أنه يبدو، على العكس، لامتغيّراً فقط لأنهم يحافظون عليه؟

ما الذي يجبر هؤلاء المجلوبين من القفار بالأمس، والمرتدين هذه الملابس الخشنة وغير اللائقة بياقاتها الزرقاء وأزرارها الذهبية، على حمل البنادق والسيوف والذهاب لقتل آبائهم وإخوانهم الجائعين؟ إذ ما من نفعٍ لهؤلاء، وما من خطرٍ في فقدانهم وظائفهم لأنّ وضعهم أسوأ من الذي أخذوا منه.

الشخصيات القيادية من الشرائح العليا، كالملاّكين والتجّار والقضاة والسيناتورات والولاة والوزراء والملوك والضباط، تشارك في هذه الأعمال للحفاظ على النظام القائم لأنّ هذا النظام مفيد لها. فضلاً عن أنّ هؤلاء الناس -وهم غالباً أناس طيبون وودعاء- يشعرون بأنهم قادرون على القيام بهذه الأعمال لأنّ مشاركتهم فيها محصورة بالأحكام والقرارات والأوامر. كلّ هؤلاء القادة لا يقومون بأنفسهم بالأعمال التي يقرّرونها ويأمرون بها، بل حتى غالباً لا يشهدون كيفية القيام بكل الأعمال المرعبة التي يحكمون ويأمرون بها.

لكن الأشقياء من الشرائح الدنيا، الذين ليست لهم أيّ مصلحة في هذا النظام بل، على العكس، يعانون احتقاراً عظيماً من جرّاء هذا النظام، هؤلاء أنفسهم، الذين من أجل الحفاظ على نظامٍ ليست لهم أيّ مصلحة فيه ينتزعون الناس من عائلاتهم بأيديهم ويعتقلونهم ويحبسونهم في السجون أو يرسلونهم إلى الأشغال الشاقة ويحرسونهم ويطلقون النار عليهم،- لماذا يفعلون هذا؟

ما الذي يجبر هؤلاء الناس على تصديق أنّ النظام القائم لامتغيّر ويجب الإبقاء عليه؟ إذ إنّ شتى أشكال العنف إنما يرتكز على هؤلاء فقط، على هؤلاء الذين بأيديهم يضربون ويعتقلون ويسجنون ويقتلون. فلولا هؤلاء الناس -الجنود أو رجال الشرطة-، المسلّحين عموماً، والمستعدّين، حين يؤمرون، لقهر وقتل كل مَن يؤمرون بقهره وقتله، لما تنطّع أيٌّ من الذي يوقّعون أحكام الإعدام والسجن المؤبّد والأشغال الشاقة لشنق وسجن وتعذيب واحد بألف ممّن يأمر، وهو جالس في مكتبه مرتاح الضمير، بشنقهم

وتعذيبهم بشتى الطرق فقط لأنه لا يرى ذلك، ولأنه ليس هو من ينفّذ ذلك بل يقوم به منفّذون مأمورون في مكانٍ بعيدٍ.

إنّ كلّ المظالم والأفعال العنيفة، التي أصبحت عادية في الحياة الراهنة، قد أصبحت كذلك فقط بسبب وجود هؤلاء الناس المستعدّين دائماً لمساندة هذه المظالم والأفعال العنيفة. إذ لولا هؤلاء الناس ليس فقط ما كان ليوجد أحد لقهر كل هذه الجماهير الهائلة من المقهورين بل لما قرّر الحكّام أبداً ليس إصدار الأحكام فقط بل لما تجرّأوا حتى على الحلم بإصدار الأحكام التي يُصدرونها الآن بكلّ ثقة. لولا وجود هؤلاء الناس، المستعدّين -تبعاً لمشيئة الذي يأتمرون بأمره- لتعذيب وقتل الذين يؤمرون بتعذيبهم وقتلهم، لما قام أحد أبداً بتأكيد ما يؤكّده بثقة في الوقت الراهن كلّ الملاّكين المتبطّلين، وبالتحديد، أنّ الأرض، التي تحيط بالفلاحين المحتضرين من الفاقة، ملكٌ لشخصٍ لا يعمل فيها، ولأنّ احتياطي الحبوب، الذي جُمع عن طريق الغشّ، يجب أن يُخزَّن بأكمله وسط السكان الذين يموتون من الجوع لأنّ التجار يحتاجون إلى الأرباح، وهلمّ جرّا. لولا وجود هؤلاء الناس، المستعدين لتعذيب وقتل كل من تأمر القيادة بتعذيبه وقتله، لما خطر للملاّك أن ينتزع من الفلاحين الغابة التي استنبتوها، ولما خطر للموظفين أن يعتبروا تلقّيهم رواتبهم المحصّلة من الشعب الجائع لقاء اضطهادهم له مشروعاً، ناهيكم عن إعدام وسجن ونفي الناس لأنهم يدعون إلى الحق ويدحضون الباطل. هذا كله يؤمر به ويُفعل فقط لأنّ القياديين جميعهم على يقين من أنّ هناك تحت تصرّفهم دائماً أناساً خاضعون مستعدون لتنفيذ أوامرهم كلها عن طريق التعذيب والقتل.

تُرتكب كل الأعمال المماثلة لما يرتكبه كلّ الطغاة، بدءاً من نابليون وصولاً إلى آخر قائد سرية يطلق النار على الحشود، فقط لأنّ هؤلاء الطغاة منتشين بسلطتهم النابعة من أناسٍ خاضعين مستعدين لتنفيذ كل ما يؤمرون به. السلطة كلها، إذاً، تكمن في الذين ينفّذون أعمال القهر بأيديهم؛ في الذين يخدمون في الشرطة والجيش، وخاصةً الجيش لأنّ الشرطة لا يمكنها ارتكاب ما ترتكبه لولا مساندة الجيش لها.

فما الذي أوصل هؤلاء الناس الطيبين، الذي لا مصلحة لهم على الإطلاق في هذا كلّه، والمرغمين على القيام بكلّ هذه الأعمال المخيفة بأيديهم، والذين يتوقّف الأمر كله

عليهم، إلى هذا الضلال المثير للاستغراب الذي عن طريقه أمكن إقناعهم بأنّ النظام القائم الضارّ والمُهلك والمعذِّب للجميع هو النظام الذي يجب أن يكون؟

مَنْ أوصلهم إلى هذا الضلال المثير للاستغراب؟ إذ ليسوا هم الذين أقنعوا أنفسهم بوجوب قيامهم ليس فقط بما هو مُعذِّب وغير مفيد ومُهلك، لهم ولطبقتهم كلّها التي تشكّل تسعين بالمائة من مجمل السكان، فحسب بل وبما يتناقض مع ضمائرهم.

كيف يمكنك قتل الناس إذا كان قانون الله يقول: "لا تقتل"؟ لقد طرحت هذا السؤال مرات كثيرة على مختلف الجنود، ودائماً كنت أضع، بهذا السؤال، المسؤول في وضع مرتبك غير مريح، عبر تذكيري إياه بما لا يريد التفكير فيه. إنه يعلم أنّ هناك قانوناً إلهياً إلزامياً يأمر بعدم القتل، ويعلم أنّ هناك خدمة عسكرية إلزامية، لكنه لم يفكّر يوماً بأنّ هناك تعارضاً هنا. إنّ فحوى الإجابة الوجلة التي كنت أتلقاها دائماً عن هذا السؤال كان دائماً تقريباً هو أنّ القتل في الحرب وإعدام المجرمين بموجب أمر السلطات لا يدخلان ضمن هذا التحريم الشامل للقتل. لكن حين كنت أقول إنّ القانون الإلهي لم يقم بتقييد كهذا، وأُذكّر بالتعليم المسيحي، المُلزم للجميع، حول الأخوة وغفران الإساءة والمحبة، والذي لا يمكن على الإطلاق الجمع بينه وبين القتل؛ فإنّ الذين من عامة الشعب كانوا يوافقونني عادةً لكنهم، من جهتهم، كانوا يطرحون علي السؤال التالي: فكيف إذاً تقوم الحكومة –المعصومة عن الخطأ في رأيهم– بتشكيل الجيوش وإرسالها، عند اللزوم، إلى الحروب ولإعدام المجرمين؟ وحين كنت أردّ على هذا بأنّ الحكومة، بقيامها بهذه الأعمال، لا تتصرّف بشكل صحيح، كان محادثي يزداد حيرةً، وإما يتوقّف عن الحديث أو يحنق عليّ.

"يبدو أنهم قد وجدوا قانوناً. نحن لا نعرف أفضل من رجال الدين"– قال لي هذا الكلام جندي روسي. وبقوله هذا جليٌّ أنّ الجندي شعر الراحة، وكان متأكداً تماماً من أن رؤساءه قد وجدوا قانوناً خَدَم أسلافَه بموجبه، والملوك كذلك، وورثة الملوك وملايين الناس، وهو نفسه، وأنّ ما قلته له كان خدعة أو طرفة من قبيل الأحجية.

كل الناس في عالمنا المسيحي يعلمون، يقيناً يعلمون بموجب قانون المنقول أو الوحي أو صوت الضمير الذي لا جدال فيه، أنّ القتل هو أحد أشدّ الجرائم هولاً، والتي يمكن لإنسان ارتكابها، كما يرد في الإنجيل، ولا يمكن لخطيئة القتل هذه أن تُحصر في

بعض الناس، أي أنّ القتل خطيئة لبعض الناس وليس كذلك للآخرين. يعلم الجميع أنّ القتل إذا كان خطيئة فإنه دائماً خطيئة، بغضّ النظر عن الذين يُرتكب في حقّهم، كخطيئة الزنى والسرقة وأي خطيئة أخرى، لكنّ الناس يرون، منذ الطفولة، أنّ القتل لا يُقَرُّ به فحسب بل ويُبارك من قِبل كلّ أولئك الذين اعتادوا على تبجيل قوّادهم الروحيين، الذين نصبّهم الله، ويرون أن قوّادهم الدنيويين، بثقة مطمئنة، يُنظمون المذابح، ويحملون على عاتقهم الإعداد للقتل، مفتخرين بذلك، ويطلبون من الجميع، باسم القانون المدني أو حتى الإلهي، المشاركة في المذبحة. يرى الناس أنّ هنالك تناقضاً هنا، وحيث أنّهم عاجزون عن حلّه، لا شعورياً يفترضون أنّ هذا التناقض يحدث فقط من جرّاء جهلهم. إنّ فظاظة وجلاء التناقض هما اللذان يبقيانهم على هذه القناعة. إنهم لا يستطيعون تصور أنّ مُنوّريهم، الناس العلماء، يمكنهم التبشير، بهذه الثقة، بمبدأين يبدوان بهذا التعارض: إلزامية الشرع المسيحي للناس والقتل. لا يستطيع الطفل البسيط غير المفسَد بعد، الشاب فيما بعد، أن يتصوّر أنّ أولئك الناس الذين يقفون عالياً في رأيه، الذين يعتبرهم مقدسين أو علماء، من أجل أيّ غايات كانت، يمكنهم الكذب عليه دون خجل. وهذا هو بالتحديد ما فُعِل، ويُفعل دائماً، بهم. يُفعل أولاً أنّ كلّ الكادحين، الذين لا وقت لديهم لمعالجة المسائل الأخلاقية أو الدينية بأنفسهم، يتم تلقينهم، من المهد إلى اللحد، عبر القدوة أو التعليم المباشر، أنّ التعذيب والقتل يجتمعان مع المسيحية، وأنهما، من أجل غاياتٍ دولتية معينة، لا يمكن فقط السماح بهما بل ويجب استخدامهما؛ ثانياً، يتم تلقين بعضهم، ممّن يؤخذون معاً بموجب الخدمة العسكرية أو الاستئجار، أنّ قيامهم بالتعذيب والقتل بأيديهم يُعدّ واجباً مقدّساً بل هو حتى عملٌ شجاعٌ جديرٌ بالثناء والمكافأة.

الكذبة العامة، المنتشرة بين الناس جميعاً، تكمن في أنّه، في كل كتب الشريعة أو التي حلّت محلها، والتي تُعدُّ في الوقت الراهن تعليماً إلزامياً للأطفال، يرد أنّ العنف، أي التعذيب والسجن والإعدام، وكذلك القتل في الحروب الأهلية والخارجية للحفاظ على النظام الدولتي القائم والدفاع عنه (أيّاً كان هذا النظام: استبدادياً أم ملكياً أم توافقياً أم استشارياً أم إمبراطورياً، سواء إمبراطورية نابليون أم بولانجيه، أم ملكياً دستورياً أم كومونياً أم جمهورياً) أمر مشروع تماماً ولا يتعارض مع الأخلاق ولا مع المسيحية.

في كلِّ كتب الشريعة أو الكتب المستخدمة في المدارس يرد هذا. ويتمّ إقناع الناس بذلك إلى درجة أنهم يترعرعون ويعيشون ويموتون وهم على هذه القناعة، ولا يشكّون فيها أبداً.

هذه إحدى الكذبات- الكذبة العامّة، التي تُكذب على الناس جميعاً، الكذبة الأخرى هي الكذبة الخاصة التي تُكذب، بطريقة أو بأخرى، على أناسٍ مختارين، الجنود ورجال الشرطة الذين ينفذون عمليات التعذيب والقتل اللازمة للحفاظ على النظام القائم والدفاع عنه.

في نُظم الخدمة العسكرية كلّها يرد، بكلمات أو بأخرى، ما يرد في نظام الخدمة العسكرية الروسي بالكلمات التالية (78): تنفيذ أوامر القيادة بدقة ودون تردّد يعني: يجب تنفيذ الأمر المتلقّى من القيادة بدقة، ودون مناقشة ما إن كان جيداً أم لا، وما إن كان تنفيذه ممكناً أم لا. القائد هو الذي يتحمّل المسؤولية عن الأمر الذي يصدره. (88): يجب على المرؤوس عدم تنفيذ أمر رئيسه فقط حين يرى بوضوح -لاشعورياً يعرف المرء ما سيُقال- أنه، عبر تنفيذه الأمر، يخرق قانون الله.

لا يرد أبداً: **إذا كان يرى بوضوح أنه ينكث بقسمه وإخلاصه وخدمته للملك.**

يرد أنّ الشخص، حين يصبح جندياً، يجب عليه تنفيذ كافة أوامر القائد، دون استثناء، والتي تكمن معظمها، بالنسبة للجندي، في القتل، وبالتالي خرق كافة التشريعات الإلهية والإنسانية، لكن فقط ليس إخلاصه وخدمته للذي يحوز السلطة، بالصدفة في اللحظة المعطاة.

هذا ما يرد في نظام الخدمة العسكرية الروسي، وهو ما يرد بالضبط، وإن بكلمات أخرى، في كافة نظم الخدمة العسكرية، كما ينبغي أن يكون الأمر، لأنّ كل جبروت الجيش والدولة إنما يقوم، في الواقع، على هذه الكذبة التي فحواها تحلّل الناس من طاعة الله أو الإذعان لضمائرهم واستبدال هذه الطاعة بالخضوع لقائدٍ عرَضيٍّ ما.

هاكم علامَ يقوم اليقين الغريب للطبقات المعدمة بأنّ النظام القائم، المُهلك لهم، هو النظام الذي يجب أن يكون، وبالتالي عليهم الحفاظ عليه من خلال التعذيب والقتل.

هذا اليقين قائم على كِذبة متعمَّدة تمارسها عليهم الطبقات العليا.

ولا يمكن للأمر إلا أن يكون على هذا النحو. فمن أجل إرغام الناس، من الطبقات الدنيا الكثيرة العدد، على اضطهاد وتعذيب أنفسهم بأنفسهم، عبر ارتكابهم أعمالاً تناقض ضمائرهم في أثناء ذلك، كان لا بدّ من خداع هؤلاء الناس الفقراء الغفيرين. وهو ما صُنع.

قبل أيام، مرة أخرى، شاهدت ممارسة مكشوفة لهذه الكذبة المخزية، ومرة أخرى أذهلني كيف أنها تُمارَس بوقاحة وحرية.

في مطلع تشرين الأول، أثناء سفري عبر مقاطعة تولا، رأيت، عند مدخل مديرية الناحية، حشد الناس الكئيب المعروف لي، والذي كان يصدر عنه، عدا صيحات السُكارى، عويل الأمهات والزوجات. كان يجري اختيار المجنّدين.

كعادتي، لم أستطع المرور بهذا المشهد مرور الكرام: إنه يجذبني إليه بغوايات شريرة ما. دخلت وسط الحشد ثانيةً، وقفت، نظرت، طرحت الأسئلة، وأذهلتني الحرية التي يتمّ بها ارتكاب هذه الجريمة المروعة في وضح النهار، ووسط حشدٍ كبير.

كما في الأعوام السابقة، في كافة قرى وضيَع روسيا، البالغ تعداد سكانها 100 مليون نسمة، في الأول من تشرين الأول، كان مخاتير القرى ينتقون، بموجب قوائم، شباناً محددين، أبناءهم غالباً، ويسوقونهم إلى المدينة.

كان يجري سُكْرٌ منفلت العقال في الشارع، لكنّ كبار السنّ لم يزعجوا المجنّدين، شاعرين أنّ تتطّعهم لهذا العمل المجنون، متخلّين عن زوجاتهم وأمهاتهم، ومتنكّرين لكلّ ما هو مقدّس فقط لكي يصبحوا أداوت سخيفة، في يد أحدهم، للقتل، مؤلمٌ جداً إذا لم يخدّر المرءُ نفسَه بالنبيذ.

وهاهم يتجولون ويثملون ويشتمون ويغنّون ويتشاجرون ويمسخون أنفسهم.

لقد أمضوا ليلتهم في الخانات. وفي الصباح، مرة أخرى شربوا وتجمّعوا عند مدخل مديرية الناحية.

قسمٌ منهم، يرتدي معاطف جديدة والأوشحة معقودة حول أعناقهم، بأعينهم الثملة الدامعة، يشجّعون أنفسهم بصرخات وحشية، أو يتحدّثون بهدوءٍ وشجَن قرب المدخل بين الأمهات والزوجات النائحات، في انتظار دورهم (لقد وصلتُ في اليوم الذي كانت

تجري فيه المقابلات، أي فحص المعينين للخدمة العسكرية)؛ والقسم الآخر كان متجمهراً، في هذه الأثناء، في ممر المديرية.

أما في الدائرة فكان يجري عمل محموم. يُفتح الباب، وينادي الحارس على بيوتر سيدَروف. بيوتر سيدروف يجفل، يرسم علامة الصليب، ويدخل غرفة صغيرة لها باب زجاجي. في هذه الغرفة يخلع المستدعون ملابسهم.

رفيق سيدروف، المجنّد الذي قُبِل للتوّ والخارج من الدائرة عارياً، يرتدي ثيابه بسرعة وفكّاه تصطكّان. سمع بيوتر سيدروف أنّ ذاك قد قُبل، ويرى ذلك في وجهه. يريد بيوتر سيدروف أن يسأله لكنهم يستعجلونه ويأمرونه بالإسراع في خلع ملابسه؛ فيلقي عنه معطفه، ويخلع جزمته بقدميه، وصديريته، ويرمي بقميصه من فوق رأسه دون أن يفكّ أزراره، ويدخل الدائرة عارياً، بأضلاعه البارزة، مرتعشاً، وتفوح منه رائحة النبيذ والتبغ والعرق، بقدمين حافيتين، محتاراً ماذا يفعل بيديه المعروقتين العاريتين.

في الدائرة، في الواجهة مباشرةً، في إطارٍ ذهبيٍّ كبير، كانت معلّقة صورة للملك في زيّه الرسمي ذي الوشاح، وفي الركن صورة صغيرة للمسيح يرتدي قميصاً وتاج الشوك على رأسه. في وسط الغرفة تنتصب طاولة مغطّاة بجوخٍ أخضر اللون، وقد توضّعت عليها أوراق وقطعة مثلثة الشكل رُسِم عليها نسر. حول الطاولة يجلس الرؤساء بهيئة واثقة مطمئنّة. أحدهم يدخّن، والآخر يُقلّب الأوراق. ما إن دخل سيدروف حتى دنا منه حارس ووضعه تحت المقياس، وراح ينقره من أسفل ذقنه ويصحّح وضعية قدميه. ثم اقترب شخص في فمه لفافة تبغ- إنه الطبيب، ودون أن ينظر إلى وجه المجنّد، لمس جسده باشمئزاز وقاس طوله، وأمر الحارس بفتح فمه، أمره أن يأخذ شهيقاً، يقول شيئاً ما. وأحدهم يدوّن شيئاً ما. في نهاية المطاف، ودون أن ينظر إلى عينيه ولو لمرة واحدة، قال الطبيب: "يَصلُح! التالي!" وبمظهرٍ متعب جلس إلى الطاولة ثانيةً. مرة أخرى يدفع الجنود الشاب، ويستعجلونه. وهو يرتدي قميصه بسرعة تائهاً عن الأكمام، وبطريقة ما يرتدي بنطاله وجوربيه وجزمته، يبحث عن وشاحه وقبعته، يلتقط معطفه بعجالة، ويتمّ إخراجه إلى القاعة، حاجزين إياه خلف مقعد. خلف هذا المقعد ينتظر

المقبولون. شابٌ فتيٌّ، قرويٌ مثله، لكن من مقاطعة بعيدة، قد صار جندياً مجهّزاً ببندقية لها حربة حادّة، يحرسه، وهو مستعدٌ لطعنه إذا ما فكّر بالهرب.

في هذه الأثناء، يدفع رجال الدرك حشد الآباء والأمهات والزوجات، ويلتصق بالمدخل لمعرفة الذين قُبلوا والذين لم يتمّ قبولهم. يخرج أحد المرفوضين ويُعلن أنّ بيتروخا[40] قد قُبل، فينطلق عويل حبيبة بيتروخا التي بالنسبة إليها كلمة "مقبول" تعني فراقاً لمدة أربع أو خمس سنين، وتعني العمل طباخةً بالنسبة إليها، وحياة الفجور بالنسبة إليه.

وها هو شخص طويل الشعر، يرتدي ملابس تختلف عن ملابس الآخرين جميعاً، يعبر الشارع، ثم ينزل من العربة، ويتجه نحو مبنى مديرية الناحية. يفسح رجال الشرطة له الطريق عبر الحشد. "وصل "أبونا" لإجراء القسَم". و"أبونا" هذا، الذي أقنعوه أنه خادم متميّز واستثنائي للمسيح، والذي غالباً ما لا يلاحظ الكذبة التي يخضع لتأثيرها، يدخل الغرفة التي ينتظر فيها المقبولون، ويرتدي عباءةً من الخيش مُدخلاً شعره الطويل عبر فتحتها، ويفتح ذلك الإنجيل ذاته الذي يُحرِّم القسَم، ويتناول الصليب، ذلك الصليب الذي صُلب عليه المسيح لأنه رفض القيام بما يقوم به الآن خادمه الوفي، فيضعهما على المنصب، وكلّ هؤلاء الفتيان العُزّل المخدوعين البؤساء يكرّرون وراءه الكذبة التي يلفظها بجرأة واعتيادية. هو يقرأ وهم يردّدون: "أُقسم بالله القدير، أمام إنجيله المقدَّس...الخ، بأن أدافع، أي أقتل كل الذين يأمرونني بقتلهم، وأُنفِّذ كلّ ما يأمرني به هؤلاء الناس الذين أعرفهم، والذين يحتاجونني فقط لارتكاب الجرائم التي بفضلها يبقون في مناصبهم التي يضطهدون إخواني عن طريقها. كلّ الفتيان المقبولين يُكرّرون هذه الكلمات الوحشية دون أن يفهموها، والمدعو "أبونا" سيغادر معتقداً أنه قد قام بواجبه بشكل صحيح وبراحة ضمير، وكلّ هؤلاء الفتيان المخدوعين سيعتبرون أنّ تلك الكلمات السخيفة وغير المفهومة، التي نطقوها للتوّ، قد حرّرتهم، طوال مدة خدمتهم العسكرية، من واجباتهم الإنسانية وربطتهم إلى واجبات الجندية الجديدة الأكثر إلزاميةً.

---

40 – بيتروخا صيغة تصغير التصغير من بيوتر= بطرس.

وهذا الأمر يتمّ علناً، ولا أحد يصرخ بالخادعين والمخدوعين: ثوبوا إلى رشدكم وتفرّقوا؛ فهذه الكذبة هي الأشدّ قبحاً وخبثاً، وهي لا تهلك أجسادكم فقط بل ونفوسكم أيضاً.

لا أحد يفعل هذا، على العكس، بعد أن قُبل الجميع ويجب إخلاء سبيلهم، كما لو سخريةً منهم، يخرج القائد العسكري، بثقة وتعاظم، إلى الصالة التي حُبس فيها الفتيان المخدوعون المنتشون، ويهتف بطريقة عسكرية" تحية يا شباب! أُهنّئكم بـــ"**خدمة القيصر**". والمساكين (سبق أن علّمهم أحدهم) يبرطمون بلغةٍ شبه منتشية وغير معتادة، شيئاً من قبيل أنهم سعداء بهذا.

في هذه الأثناء يكون حشد الآباء والأمهات واقفاً قرب المدخل ينتظر. النساء ينظرن إلى الباب بأعينٍ باكيةٍ محدّقة. وها هو الباب يُفتح، ويخرج المجنّدون المقبولون دائخين مترنّحين: وبيتروخا وفانيوخا [فانيا] وماكار يحرصون على عدم النظر إلى ذويهم وعدم رؤيتهم. يتعالى عويل الأمهات والزوجات. بعضهم يتعانق ويبكي، وبعضهم يتظاهر بالشجاعة، وبعضهم يتنهّد. الأمهات والزوجات، اللواتي يعلمن أنهنّ قد أصبحن يتيمات، وأنهنّ سيبقين دون معيل لثلاث أو أربع أو خمس سنوات، يولولن ويندبن بصوتٍ واحد. الآباء نادراً ما يتحدّثون، وفقط يبلعون ريقهم ويتنهّدون بأسف، عارفين أنهم لن يروا ثانيةً مساعديهم الذي ربّوهم وعلّموهم، والذين لن يعودوا إليهم فلاّحين كادحين متواضعين، كما كانوا من قبل، بل سيعود معظمهم مفسَداً، يُفضّل دلال الجندية على الحياة البسيطة.

وها هو الحشد يركب الزلاّجات وينحدر إلى الأسفل عبر الشارع إلى الخانات والحانات، وبصوتٍ أعلى تُدوّي معاً، مقاطعةً بعضها بعضاً، الأغاني والعواء وصرخات السكارى ونواح الأمهات والزوجات وأصوات الهارمونيكا والشتائم. جميعهم يتوجّهون إلى الخمّارات والحانات، التي تذهب إيراداتها إلى الحكومة، ويبدأ السُكر الذي يُخمد لديهم الشعور بعدم شرعية ما يُفعل بهم.

يبقون لأسبوعين أو ثلاثة في بيوتهم، ومعظم هذا الوقت يتسكّعون، أي يثملون. وفي اليوم الموعود يتمّ تجميعهم وسوقهم، كالبهائم، إلى مكانٍ ما، ويبدأون بتدريبهم وتعليمهم أساليب القتال. والذين يُدرّبونهم على ذلك مخدوعين ومتوحشين مثلهم لكنهم أقدم منهم

فحسب بأسبوعين أو ثلاثة. وسائل التدريب هي: الأكاذيب، التخدير، الركل، الفودكا. ولن يمرّ عام ولحد حتى يغدو هؤلاء الفتيان الطيبون الأذكياء الأصحّاء نفسياً كائنات متوحشة كمدرّبيهم.

- فإذا كان أباك سجيناً وهرب؟ - سألتُ جندياً شاباً.

- قد أطعنه بالحربة. - أجاب بصوت الجنود المتميّز السخيف،- وإذا ابتعد هارباً فيجب إطلاق النار عليه،- أضاف مفتخراً بجلاء لكونه يعرف ماذا عليه أن يفعل إذا ما هرب والده.

وحين يتمّ إيصال هذا الشاب الطيّب إلى أدنى من مستوى الوحوش على النحو الذي يحتاج إليه أولئك الذين يستخدمونه أداةً للعنف يغدو جاهزاً: لقد أُهلك إنسان وصُنعت أداة جديدة للعنف.

وهذا كلّه يحدث كلّ عام، كلّ خريف، في كلّ مكان، في روسيا كلها، في وضح النهار، في مدينة كبيرة، على مرأى من الجميع، والخدعة من الحذاقة والدهاء بحيث أنّ الجميع يرونها، ويعلمون في أعماقهم مدى شناعتها، ويعلمون تبعاتها المرعبة كلّها، ويعجزون عن التحرّر منها.

3

حين تتفتح عيناك وتُبصر هذا الكذب المخيف الذي يمارَس على الناس، فسيدهشك كيف يستطيع وعّاظ الدين المسيحي ووعّاظ الأخلاق ومربّو الشبيبة والآباء العقلاء الطيبون ببساطة، الموجودين دائماً في المجتمعات كافة، التبشير بأيّ تعليم أخلاقي كان وسط مجتمعٍ تقرُّ فيه كلّ الكنائس والسلطات بأنّ التعذيب والقتل يُعدّان شرطان ضروريان لحياة البشر أجمعين، وأنّه لا بدّ دائماً من وجود أُناسٍ خاصّين، مستعدين لقتل إخوانهم، قد يكون أيٌّ منّا واحداً من هؤلاء؟

كيف يمكن تعليم الأطفال والفتيان، وتنوير الناس عموماً، ناهيكم عن التنوير بروح المسيحية، أيُّ عقيدة أخلاقية كانت جنباً إلى جنب التعليم الذي يقول إنّ القتل ضروري للحفاظ على الرفاه العام، وبالتالي رفاهنا، وبالتالي مشروع، وإنّ هناك أناساً، قد يكون

أيٌّ منّا واحداً منهم، من واجبهم تعذيب وقتل أقربائهم، وارتكاب شتى أنواع الجرائم تبعاً لإرادة الذين يهيمنون على السلطة. وإذا كان التعذيب والقتل وارتكاب شتى أنواع الجرائم، تبعاً لإرادة الممسكين بالسلطة، ممكناً وواجباً، فهذا ليس تعليماً أخلاقياً، ولا يمكنه أن يكون كذلك، بل هو حقّ القوي فحسب. وهكذا هي الحال. في الحقيقة، هذه العقيدة هي السائدة بالنسبة للذين يبرّرون نظرياً نظرية "الصراع من أجل البقاء".

وبالفعل، ما هذه العقيدة الأخلاقية التي يمكن بموجبها تبرير القتل مهما كانت الغاية؟ هذا مستحيل باستحالة الرياضيات التي قد تبيح أنّ (2=3).

قد تبيح رياضيات مزيفة قاعدة أنّ (2=3) لكنّ أيّ رياضيات حقيقية لن تفعل ذلك. يمكن فقط لعقيدة أخلاقية مزيّفة أن تحلّل القتل على شكل إعدامات وحروب ودفاع عن النفس، لكن أيّ عقيدة أخلاقية حقيقية لن تفعل ذلك. إنّ الإقرار بقدسية حياة الناس جميعاً هو الأساس الأول والوحيد لأيّ عقيدة أخلاقية.

لقد أبطلت المسيحية تعليم "عينٌ بعين، وسنٌّ بسنّ، وحياةٌ بحياة" لأنّ هذا التعليم ليس سوى تبرير للاأخلاق، وليس سوى تعليم أخلاقي مزيّف لا معنى له على الإطلاق. الحياة قيمة لا توزن ولا تُقاس، ولا يمكن لأي حياة أخرى قطعها، لذا ليس هناك معنى للقضاء على حياة لقاء حياة. فضلاً عن أنّ أي قانون اجتماعي إنما يهدف إلى تحسين حياة الناس. فكيف يمكن تحسين حياة الناس عبر القضاء على حياة بعض الناس؟ القضاء على حياةٍ لا يُحسّن الحياة، بل هو انتحار. القضاء على حياة شخصٍ آخر لتحقيق العدالة يشبه أن يقوم شخص، فقد ذراعاً، بقطع ذراعه الأخرى لكي يحقق العدالة.

لكن، ناهيكم عن خطيئة الكذب التي بموجبها تتمثّل أشدّ الجرائم هولاً للناس على أنها واجب، ناهيكم عن الخطيئة المخيفة المتمثّلة في استخدام اسم المسيح وصورته لشرعنة أكثر عمل حرّمه المسيح، كما يحدث في القسَم، ناهيكم عن الإغواء الذي لا يُهلك فقط أجساد بل ونفوس "هؤلاء الصغار"، ناهيكم عن هذا كله، كيف يستطيع الناس، حتى ولو لأجل أمنهم الشخصي، السماح بأن تتشكّل بينهم، بين أناسٍ يحرصون على نمط حياتهم وتقدّمهم، تلك القوة المخيفة العنيفة المميتة التي لا معنى لها، والتي تشكّلها أي سلطة مخيفة مرتكزة على الجيش؟ إنّ أشدّ عصابة قطاع طرق قسوةً وهولاً ليست مخيفة بقدر مؤسسة الدولة هذه. أيّ زعيم عصابة قطاع طرق مقيّد، رغم كلّ شيء، بأنّ

الناس الذين تتشكّل عصابته منهم يبقى لديهم نصيب من الحرية الإنسانية، ويمكنهم الاعتراض على الأعمال التي تناقض ضمائرهم. لكنّ الناس الذين يشكّلون جزءاً من سلطة منظّمة تنظيماً جيداً، تملك وجيشاً منضبطاً الانضباط الذي بلغه في الوقت الراهن، بالنسبة لأناسٍ كهؤلاء لا توجد أيّ حدود. ما من جرائم أشدّ هولاً من التي قد يرتكبها أناسٌ يشكّلون جزءاً من السلطة والجيش، تبعاً لمشيئة من قد يرأسهم بالصدفة (من أمثال بولانجيه أو بوغاتشوف أو نابليون).

غالباً، ليس فقط حين ترى "سَوق" المجنّدين وتدريبات الجنود والمناورات العسكرية بل كذلك حين ترى رجال الشرطة بمسدساتهم المحشوة والخفراء ببنادقهم المثبّت عليها الحراب، وحين تسمع (كما أسمع في "خاموفنيكي"، حيث أُقيم) لأيام بأكملها صفير وأزيز طلقات الرصاص حين تصيب الدرايا، وترى وسط المدينة، حيث تُمنع أي محاولة للثأر أو العنف، حيث لا يُسمح ببيع البارود والعقاقير، وبالسرعة الزائدة، وبممارسة الطب دون شهادة طبية، ...الخ، وترى في هذه المدينة ذاتها آلاف الناس من الجيش النظامي، المدرَّبين على القتل، والخاضعين لشخص واحد،- فإنّك تتساءل: كيف يمكن للناس، الحريصين على أمنهم، السماح بهذا وتحمّله بهدوء؟ إذ، بغضّ النظر عن ضرره ولاأخلاقيته، ما من شيء يمكنه أن يكون أشدّ خطراً من هذا. فماذا ينتظر -دع عنك المسيحيين- كل القساوسة ومحبّو الإنسانية والأخلاقيون والمسيحيون، ماذا ينتظر كلّ الحريصين، على الأقل، على حياتهم وأمنهم ورفاهيتهم؟ فهذه المنظمة سوف تتصرّف دائماً على هذا النحو، أيّاً كان الذين يقف على رأسها: لنفترض أنّ السلطة الآن في أيدي حاكمٍ مقبول، لكن غداً قد يستولي عليها نيرون أو إليزابيث أو كاترينا أو بوغاتشوف أو نابليون الأول أو الثالث. بل حتى ذلك الشخص، الذي السلطة في يده، المقبول حالياً، قد يتحول إلى وحش غداً، أو قد يجلس مكانه وريث مجنون أو شبه مجنون، كالملك البافاري أو بافل [بولس].

وليست القيادات العليا فقط: كل هؤلاء الطغاة الصغار المنتشرين في كلّ مكان، كمختلف البارونات ورؤساء الشرطة وحتى رؤساء المخافر وقوّاد السرايا، قد يرتكبون جرائم مروّعة قبل أن يتسنّ استبدالهم، كما يحدث غالباً.

لاإرادياً يتساءل المرء: كيف يسمح هؤلاء الناس بهذا، إن لم يكن لاعتبارات حكومية عليا فمن أجل أمنهم الشخصي؟

الجواب عن هذا السؤال هو أنّ ليس كلّ الناس يسمحون بهذا (بعضهم -القسم الأكبر-، مخدوع وخانع، وليس بمقدوره عدم السماح بأيّ شيءٍ كان)، بل يسمح بهذا الناس الذين يشغلون، فقط في ظلٍّ مؤسسة كهذه، مواقع مربحة في المجتمع. وهم يسمحون به لأنّ خطر المعاناة، بالنسبة إلى هؤلاء الناس، من جرّاء هيمنة شخص مجنون أو عنيف على الحكومة والجيش، هو دائماً أقلّ من المكاسب، مقارنةً بما قد يتعرّضون له في حال القضاء على المؤسسة ذاتها.

القاضي أو الشرطي أو المحافظ أو الضابط سيبقى دائماً في منصبه في ظلّ حكم بولانجيه أو الجمهورية، بوغاتشوف أو كاترينا، لكنه قد يفقد منصبه إذا انهار الناظم القائم الذي يضمن له منصبه المربح. لذا لا يخشى هؤلاء الناس جميعاً من الذي سيصبح رئيس مؤسسة القهر؛ فهم سيتكيّفون مع أيٍّ كان لكنهم يخشون القضاء على المؤسسة ذاتها لذا يدعمونها دائماً، ولاشعورياً غالباً.

كثيراً ما يُدهش المرء من سبب التحاق هؤلاء الناس الأحرار، المُسمّون زهوة المجتمع، بالخدمة العسكرية، دون أن يكونوا مضطرّين إلى ذلك على الإطلاق، في روسيا وإنكلترة وألمانيا والنمسا وحتى فرنسا، ويبحثون عن فرصة ليصبحوا قتلة! لماذا يُلحِق الآباء الأخلاقيون أبناءهم بالمؤسسات التي تُعدّهم للعمل الحربي؟ لماذا تشتري الأمهات لأبنائهنّ الخوذ والبنادق والرماح، كألعابٍ محبّبة؟ (أبناء الفلاحين لا يلعبون ألعاب الحرب أبداً). لماذا يفتتن الرجال الطيبون والنساء كذلك، الذين لا علاقة لهم أبداً بالشأن العسكري، ببطولات "سكوبيليف" وغيره، ويثنون عليها بعناية؛ لماذا يكرّس أناسٌ شهوراً بأكملها من العمل الدؤوب، دون أن يكونوا مجبرين على ذلك، ودون أن يتلقّوا رواتب لقاء ذلك غالباً، كالمخاتير في روسيا، للقيام بعملٍ مضنٍ بدنياً ومؤلم أخلاقياً: مقابلة المجنّدين الجدد؟ لماذا يتجوّل كلّ هؤلاء الأباطرة والملوك بالأزياء العسكرية، لماذا يجرون المناورات والاستعراضات الحربية، ويقدّمون الأوسمة للضباط، ويقيمون النُّصب التذكارية للجنرالات والفاتحين؟ لماذا يعتبر أناسٌ أحرارٌ أغنياء شرفاً أن يلتحقوا بخدمة كائنات ذوي تيجان، فيتذللون لهم ويتملّقونهم ويدّعون أنهم يصدّقون العظمة

الاستثنائية لهؤلاء الأشخاص؟ لماذا أناسٌ، لم يعودوا يؤمنون منذ زمنٍ بعيد بالخرافات الكنسية القروسطية التي ليس بمقدورهم الإيمان بها، يتظاهرون بالإيمان بها بجدية، ودون تردّد يساندون المؤسسات الدينية المغوية والمجدِّفة؟ لماذا يُحرَس جهل الشعب بهذا الحرص من قِبل أناسٍ مستقلّين عن المجتمع "الراقي"، وليس من قِبل السلطات فقط؟ لماذا ينقضّون بهذا الاحتدام على أيّ محاولة لتحطيم الخرافات الدينية وعلى التنوير الحقيقي للشعب؟ لماذا يقوم المؤرّخون والروائيون والشعراء، دون أن يتلقّوا شيئاً لقاء تملّقهم، بوصف الأباطرة والملوك والقوّاد، الموتى منذ زمن بعيد، بأنهم أبطال؟ لماذا يكرّس أناسٌ، يدعون أنفسهم العلماء، حياتهم برمّتها لوضع نظريات ينتج بموجبها أنّ العنف الذي تمارسه السلطة ضد الشعب ليس عنفاً بل حقٌّ استثنائيّ؟

غالباً ما يُدهش المرء من أن تقوم امرأة من علية القوم، أو رسّام، ممّن لا يهتمون لا بالقضايا الاجتماعية ولا بالمسائل الحربية، بإدانة إضرابٍ للعمال والدعوة إلى الحرب، ومهاجمة أحد الأطراف بالذات دائماً، والدفاع عن الطرف الآخر؟

لكنّ هذا كله سيظلّ يثير دهشة المرء إلى أن يفهم أنّ سبب ذلك هو أنّ كلّ الناس من الطبقات الحاكمة دائماً يشعرون غريزياً بما يهدم وما يسند المؤسسة التي يتمتعون بفضلها بالامتيازات التي يتمتعون بها.

المرأة، التي من علية القوم، لم تجرِ محاكمة عقلية بأنه إذا لم يكن هناك رأسماليون والقوات التي تحميهم فلن يكون لدى زوجها مال، ولن يكون لديها صالونها وثيابها؛ والرسّام أيضاً لم يجرِ محاكمة كهذه بأنّ الرأسماليين، الذين تحميهم الجيوش، لازمين له ليكون هناك من يشتري لوحاته، لكنّ الغريزة، التي تحلّ محلّ الإدراك في هذه الحالة، تقودهما دونما خطأ. وهذه الغريزة بالذات هي التي تقود، مع استثناءات قليلة، كلّ الذين يدعمون كلّ تلك المؤسسات السياسية والدينية والاقتصادية المفيدة لهم.

لكن هل يُعقل أنّ أناس الطبقات العليا قادرون على الإبقاء على هذا النظام فقط لأنه مفيد لهم؟ لا يمكن لهؤلاء الناس عدم رؤية أنّ هذا النظام إنما هو نظام سيئ بذاته، وأنه لم يعد متناسباً مع مستوى وعي البشر، ولا حتى مع الرأي العام، وأنه مليء بالأخطار. ليس بمقدور الناس من الطبقات الحاكمة، - الشرفاء والأخيار والأذكياء منهم، - ألاّ يعانوا من جرّاء هذه التناقضات الداخلية، وألاّ يروا مخاطر هذا النظام عليهم. وهل يُعقل أنّ

أبناء الطبقات الدنيا، ملايين الناس هؤلاء، يمكنهم، بنفسٍ مطمئنّة، ارتكاب كلّ هذه الأعمال الشريرة بوضوح، أعمال التعذيب والقتل التي يُرغمون عليها، فقط لأنهم يخشون العقاب؟ هذا لا يُعقل بالفعل، فلا هؤلاء ولا أولئك لا يمكنهم عدم رؤية حماقة أعمالهم لو لم تحجب خصوصية نظام الدولة عن هؤلاء وأولئك مجمل لاطبيعية وحماقة الأعمال التي يقومون بها.

هذه الحماقة تحتجب من خلال أنّ فقط المحرّضين والمعينين عليها، والمتغاضين عنها، يكونون موجودين عند القيام بأيٍّ من هذه الأعمال بحيث أنّ أحداً من المشاركين في الأمر لا يشعر أنه مسؤول عنه أخلاقياً.

القتلة يجّبرون جميع المتواجدين أثناء عملية القتل بضرب الضحية التي سبق لها أن ماتت بحيث تتوزّع المسؤولية على أكبر عدد من الناس. وهو ما يحدث في النظام الدولتي، بأشكال أكثر دقةً، عند ارتكاب هذه الجرائم كلها، والتي يستحيل قيام أي نظام دولتي دون ارتكابها باستمرار. السلطات الحكومية دائماً تتطلّع إلى جرّ أكبر عدد من المواطنين إلى المزيد من المشاركة في جميع الجرائم التي ترتكبها، والضرورية بالنسبة إليها.

في الآونة الأخيرة يتجلّى هذا بسطوعٍ خاصّ من خلال اجتذاب المواطنين إلى المحاكم كمحلّفين، وإلى الجيش كجنود، وإلى الإدارة المحلية والمجلس التشريعي كناخبين ونوّاب.

من خلال نظام الدولة الذي النهايات كلها مخفية فيه، كضفائر سلة مصنوعة من الخيزران، بحيث يستحيل إيجادها، يتمّ إخفاء المسؤولية عن الجرائم المرتكبة عن الناس بطريقة بحيث أنّ الناس، حين يرتكبون أشدّ الأعمال هولاً، لا يرون مسؤوليتهم عنها.

في الأزمنة القديمة كان يتمّ اتّهام الطغاة على الجرائم التي تحدث لكن في زماننا يتمّ ارتكاب أفظع الجرائم التي لا مثيل لها، في ظلّ حكم "النيرونات"، وما من أحد لاتّهامه.

أحدهم يأمر بها، وآخر يصدر الحكم، وثالث يصادق عليها، ورابع يقترح، وخامس يقدّم التقارير، وسادس يوقّع عليها، وسابع ينفّذها. يُقتَل ويُشنَق ويُجلَد النساء والشيوخ الأبرياء، كما حدث لدينا في روسيا منذ عهدٍ قريب في مصنع يوزَفسكي، وكما يحدث في كلّ مكان من أوربا وأمريكا- في محاربة الأنارخيين وكلّ الذين يخرقون النظام

القائم: يتم قتل وشنق، وإطلاق النار على، مئات بل آلاف الأشخاص، أو، كما يحدث في الحروب، يُقتل ويُهلك ملايين الناس، أو، كما يحدث باستمرار، يتمّ إهلاك نفوس الناس في السجون الانفرادية، وفي تشكيلات الجيش المفسِدة، وما من أحدٍ لإدانته.

على أدنى درجات السلّم الاجتماعي يقوم الجنود، ببنادقهم ومسدساتهم وسيوفهم، بتعذيب الناس وقتلهم، وعن طريق هذا التعذيب والقتل بالذات يرغمون الناس على الالتحاق بالجيش، وهم واثقون تماماً من أنّ المسؤولية عن أعمالهم منزوعة عنهم من قِبل القيادة التي تأمرهم بهذه الأفعال.

على أعلى الدرجات يأمر الملوك والرؤساء والوزراء والقوّاد بعمليات التعذيب والقتل هذه، ويستدعون الناس إلى الخدمة العسكرية، وهم واثقون تماماً من أنهم لا يتحمّلون المسؤولية لكون الأوامر تأتيهم من الأعلى من جهة، ومن جهة أخرى لأنّ هذه الأوامر ذاتها يطالبهم بها كلّ الذين يقفون على الدرجات الأدنى.

السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية، المتموضعتان عند نهايتي نظام الدولة، تلتقيان كنهايتي حلقة، إحداهما تشترط الأخرى وتسندها وتسند الحلقات الوسيطة كلها. لولا قناعتهم بأنّ هناك شخص، أو أشخاص، يأخذ على عاتقه مسؤولية هذه الأعمال لما رفع جندي واحد يده للتعذيب أو القتل. لولا الاعتقاد بأنّ الشعب كله يريد ذلك لما كان بمقدور أيّ إمبراطور أو ملك أو رئيس أو مجلس أن يأمر بأيٍّ من عمليات التعذيب والقتل هذه. لولا قناعتهم بأنّ هناك أشخاصاً أعلى منهم مرتبةً يأخذون على عاتقهم المسؤولية عن أعمالهم، وبوجود أناسٍ أدنى منهم مرتبةً يطالبون بالقيام بهذه الأعمال لأجل مصلحتهم، لما كان بمقدور أيٍّ من الناس، ممّن يقفون على الدرجات الوسيطة بين الحكّام والجنود، القيام بالأعمال التي يقوم بها.

إنّ نظام الدولة على نحوٍ بحيث أنّ مستوى عدم شعور الإنسان بالمسؤولية، أياً كانت درجة السلّم الاجتماعي التي يتواجد عليها، هو دائماً على حاله: كلّما علت مكانته على السلّم الاجتماعي كلما كان معرّضاً أكثر لتأثير مطلب التصرّف من الأسفل، وكلما كان معرّضاً أقلّ لتأثير الأوامر من الأعلى، وبالعكس.

لكن فضلاً عن أنّ كلّ الناس، المرتبطين بنظام الدولة، يحمّلون بعضهم بعضاً مسؤولية الأعمال التي يقومون بها: الفلاح، المأخوذ إلى الجندية، يُحمّل المسؤوليةَ النبيلَ

أو التاجرَ الذي يلتحق بالضباط، والضباط يُحملّها النبيلَ الذي يشغل منصب المحافظ، والمحافظ يحمّلها ابنَ الموظف أو النبيل الذي يشغل منصب الوزير، والوزير يحمّلها عضوَ العائلة المالكة الذي يشغل منصب الملك، والملك يحمّلها ثانيةً كلَّ هؤلاء النبلاء والتجار والفلاحين، وفضلاً عن أنّ الناس يتخلّصون، بهذه الطريقة، من إدراك مسؤوليتهم عن الأعمال التي يرتكبونها، فإنهم يفقدون إدراكهم الأخلاقي لمسؤوليتهم أيضاً من جرّاء أنهم، إذ ينتمون إلى نظام الدولة، يقنعون أنفسهم والآخرين، دائماً وباستمرار ودأب، بأنهم ليسوا متشابهين بل مختلفون عن بعضهم بعضاً "كما يختلف نجمٌ عن نجمٍ"، بحيث يبدأون بتصديق ذلك حقاً. فبعضهم يؤكّد أنهم ببساطة ليسوا كالآخرين ولا يشبهونهم، وأنهم أناسٌ متميّزون يجب أن يكونوا موضع احترامٍ خاصّ، ويوهمون الآخرين، بشتّى السبل، بأنهم أدنى من الآخرين، وبالتالي يجب أن يخضعوا لكلّ ما يأمر به الذين أعلى منهم دونما اعتراض.

بالذات على عدم المساواة هذه، وعلى تعظيم بعض الناس والحطّ من قيمة آخرين، تقوم، بشكل رئيس، قدرة الناس على عدم رؤية نظام الحياة القائم وقسوته وإجراميته، وعدم رؤية الكذبة التي يمارسها بعضهم على بعضهم الآخر.

بعضهم، ممّن أوهموا بأنهم يتميّزون بقيمة وعظمة غير عادية، ينتشي بهذه العظمة الموهومة بحيث يكفّ عن رؤية مسؤوليته عن الأعمال التي يقوم بها؛ وآخرون، ممّن يتمّ إيهامهم، بالعكس، بأنهم كائنات تافهة، ويجب عليهم الإذعان للذين أعلى منهم في كلّ شيء، نتيجةً لحالة الإذلال المستمرّ هذه، ينحطّون إلى حالة نشوة غريبة من الخنوع، ونتيجةً لهذه النشوة هم أيضاً لا يرون معنى أفعالهم، ولا يعودون يدركون مسؤوليتهم عنها. أما الناس الذين في الوسط، الخاضعين للذين في الأعلى من جهة، والمعتبرين أنفسهم أعلى من جهة أخرى، فيخضعون للتأثير المُسكر للسلطة والخنوع في الآن ذاته، ويفقدون من جراء ذلك إدراكهم لمسؤوليتهم.

يكفي وحسب النظر إلى قائدٍ أعلى منتشٍ بعظمته، يرافقه نوّابه -جميعهم يعتلون صهوات جيادٍ أصيلةٍ رائعة، بأزيائهم الرسمية المتميّزة وبعلامات تميّزهم- حين يجول، على أصوات الأبواق المظفّرة، أمام جنود الحراسة المتجمّدين من الخنوع،- يكفي النظر إلى هذا حتى يفهم المرء أنّ القائد الأعلى والجنود وكلّ الذين في الوسط، المتواجدين في

هذه الدرجة العالية من الانتشاء، قادرون، في هذه اللحظة، على القيام بأعمالٍ ما كانوا ليفكّروا بالقيام بها أبداً في ظروفٍ أخرى.

لكنّ النشوة التي يشعر بها الناس عند ظواهر كالاستعراضات والحملات العسكرية والاحتفالات الكنسية ومراسم التتويج، هي مجرّد حالة مؤقتة وذُريوية، لكن هناك حالات أخرى، حالات نشوة دائمة ومستمرة يختبرها، بصورة متماثلة، الناس الذين يتمتعون بالسلطة، أيّاً كانت، بدءاً من سلطة الملك وصولاً إلى سلطة الشرطي الواقف في الشارع، وكذلك الناس الخاضعون للسلطة الذين هم في حالة نشوة الخنوع، والذين، لتبرير وضعهم، دائماً ينسبون، كما تجلّى ويتجلّى لدى كلّ العبيد، أعلى قيمة وجدارة للذي يخضعون له.

على كذبة عدم تساوي الناس هذه، وعلى النشوة من السلطة والخنوع الناتج عنها، تقوم، بصورة رئيسة، قابلية الناس، المتّحدين في النظام الدولتي، للقيام بأعمالٍ تناقض ضمائرهم دون أن يشعروا بتأنيبها.

تحت تأثير هذه النشوة –نشوة السلطة ونشوة الخنوع، سواءً بسواء– يتمثّل الناس لأنفسهم وللآخرين ليسوا ما هم عليه بالفعل،– بشراً، بل كائناتٍ خاصّة متميّزة: نبلاء، تجّار، محافظون، قضاة، ضبّاط، ملوك، وزراء، جنود، لا يجدر بهم القيام بالواجبات الإنسانية العادية بل بواجبات أفضل من الواجبات الإنسانية، أي واجبات النبلاء والتجار والمحافظين والقضاة والضباط والملوك والوزراء والجنود.

بالتالي؛ فالملاّك، الذي رفع دعوى قضائية للاستيلاء على الغابة، قد فعل ما فعل فقط لأنه لا يتصوّر نفسه شخصاً عادياً له ذات الحقّ في الحياة الذي لجميع الفلاحين الذين يعيشون بجواره، بل يتصوّر نفسه ملاّكاً كبيراً وفرداً من طبقة النبلاء، ونتيجةً لذلك، تحت تأثير نشوة السلطة، شعر بالإهانة من جرّاء دعاوى الفلاحين. فقط بسبب هذا، دون أن يأخذ بالحسبان العواقب التي قد تنتج عن طلبه، أرسل التماساً يطالب فيه بحقّه المزعوم.

كذلك تماماً القضاة، الذين قضوا بالغابة للملاّك، إنما فعلوا ما فعلوا فقط لأنهم لا يتصوّرون أنفسهم مجرّد أناسٍ ككلّ الآخرين، وبالتالي من واجبهم، في كلّ ما يفعلون، الانقياد فقط لما يعتبرون أنه الحقّ، وإنما يتصوّرون أنفسهم، ثملين بالسلطة، حُماة الحقّ

الذين لا يمكنهم أن يخطئوا، في حين أنهم تحت تأثير نشوة الخنوع يتصوّرون أنفسهم مُلزمين بتطبيق أقوالٍ مكتوبةٍ في كتابٍ معيّن، تدعى القانون. على هذا النحو تماماً يتصوّر أنفسهم أشخاصاً استثنائيين، نتيجةً للتأثير المُسكر للسلطة أو الخنوع، وليس كما هم على حقيقتهم، كلّ المشاركين الآخرين في هذا الأمر، بدءاً من القيصر، الذي وقّع على تقرير الوزير، والمختار الذي ينتقي المجنّدين للجيش، والقسّ الذي يكذب عليهم، وصولاً إلى آخر جنديٍّ يستعدُّ الآن لإطلاق النار على إخوانه. جميعهم يفعلون ما يفعلون، وهم مستعدون للقيام بما يجب عليهم، فقط لأنهم يتصوّرون أنفسهم، ويتصوّرهم الآخرون كذلك، ليسوا كما هم بالفعل،- بشراً يواجهون السؤال المتعلّق بمشاركتهم أو عدم مشاركتهم في العمل السيئ الذي يدينه ضميرهم، وإنما يتمثّلون لأنفسهم وللآخرين أشخاصاً استثنائيين مختلفين: أحدهم يتصوّر نفسه ملكاً- مقدّساً، كائناً استثنائياً، من واجبه الاهتمام بمصالح 100 مليون شخص، وآخر يتصوّر نفسه ممثّلاً للنبلاء، وثالث قسّاً يتمتع بفضيلة متميّزة بفضل تكرّسه، ورابع جندياً يُلزمه قسَمه بتنفيذ كلّ ما يؤمر به دون جدال.

فقط تحت تأثير نشوة السلطة والخنوع، الناتجة عن مواقعهم المتخيّلة، استطاع ويستطيع كلّ هؤلاء الناس أن يفعلوا ما يفعلون. لو لم تكن لدى كلّ هؤلاء الناس قناعة راسخة بأنّ لقب الملك أو الوزير أو المحافظ أو القاضي أو النبيل أو الملاّك أو المختار أو الضابط أو الجندي شيء حقيقي وبالغ الأهمية لما استطاع أيٌّ من هؤلاء الناس التفكير، دون الشعور بالخوف والاشمئزاز، بالمشاركة في الأعمال التي يقوم بها الآن.

المناصب الاستثنائية، الناشئة منذ مئات السنين، التي أقرّها لقرون ويقرّها الآن الجميع، والتي تُطلق عليها مسمّيات خاصة، عدا عن أنّها ترسَّخ عبر شتّى أنواع الاحتفالات، يُوهَم الناس بها، عبر التأثير في أحاسيسهم ومشاعرهم، إلى درجة أنهم ينسون الشروط العادية والعامّة للحياة، ويبدأون بالنظر إلى أنفسهم وإلى الآخرين فقط من وجهة النظر المشروطة هذه، وفقط من خلال وجهة النظر المشروطة هذه يُقيّمون أفعالهم وأفعال الآخرين.

وهكذا، فإنّ شخصاً سليم العقل تماماً، طاعناً في السنّ، فقط لأنه يرتدي زيّاً سخيفاً أو مضحكاً، لأنّ هناك مفاتيحَ على مؤخَّرته أو شريطاً أزرقَ يليق فقط بفتاةٍ مغناج،

ولأنهم يوهمونه بأنه جنرال أو فارس أندرييفسكي أو عبيطٌ ما من هذا القبيل، فجأةً يغدو من جرّاء ذلك مغروراً أو فخوراً أو حتى سعيداً، أو، على العكس، لأنه حُرم من، أو لم يحصل على، الرتبة الموعودة أو اللقب الموعود يغدو كئيباً وحزيناً إلى حدّ أنه قد يمرض. والمثير للدهشة أكثر هو أنّ شاباً حرّاً، سليم العقل، بل حتى غنياً، فقط لأنه سُمّي، وأصبح، محققاً قضائياً أو مديرَ ناحية، يأخذ أرملةً بائسةً من أطفالها الصغار ويلقي بها في السجن، تاركاً أطفالها دون أمّ، فقط لأنّ هذه المرأة المسكينة تتاجر بالنبيذ سرّاً وتحرم الخزينة من إيرادٍ مقداره 25 روبلاً، دون أن يشعر بأدنى ندم من جرّاء ذلك. أو، ما هو أكثر إثارةً للدهشة بعد، أنّ شخصاً عاقلاً ووديعاً، فقط لأنه يرتدي نوطاً أو زيّاً رسمياً، ولأنه قيل له إنّه خفيرٌ أو جمركيّ، يبدأ بإطلاق الرصاص على الناس، ولا هو ولا الذين من حوله ليس فقط لا يعتبرونه مذنباً في هذا بل سيعتبرونه مذنباً إذا لم يطلق النار؛ ناهيكم الحديث عن القضاة والمحلّفين الذين يُصدرون أحكام الإعدام، وعن القوّاد العكسريين الذين يقتلون الآلاف دون أدنى شعورٍ بالذنب فقط لأنهم يعتقدون أنهم ليسوا مجرّد بشر بل محلّفون وقضاة وجنرالات وجنود.

حال الناس هذه، الدائمة وغير الطبيعية والغريبة، في الحياة الدولتية يُعبَّر عنه بالكلمات على النحو التالي عادةً: "كإنسان، أُشفق عليه، لكن كخفير أو قاضٍ أو جنرالٍ أو محافظٍ أو ملكٍ أو جنديٍّ، يجب عليّ قتله أو تعذيبه"، تماماً كأنما هناك موقع معين أو مُعترَف به من قِبل الناس يمكن منه إلغاء الواجب الإنساني الموضوع على عاتق كلٍّ منا.

فعلى سبيل المثال، في الحالة الراهنة يذهب أناسٌ لقتل وتعذيب أناسٍ جائعين، رغم معرفتهم بأنّ، في الخلاف بين الفلاّحين والمَلاّك، الفلاحين على حقّ (القوّاد جميعاً قالوا لي هذا الكلام)، ولأنّ الفلاحين بؤساء وفقراء وجائعون، ولأنّ الملاّك غنيٌّ ولا يستدرّ التعاطف، وكلّ هؤلاء الناس –رغم ذلك– ذاهبون لقتل الفلاحين لكي يحصل الملاّك على 3000 روبل، فقط لأنّ هؤلاء الناس لا يتصورون أنفسهم في هذه اللحظة بشراً بل يتصورّ أحدهم نفسه محافظاً، وآخر موظّفاً، وآخر جنرالَ دركٍ، وآخر ضابطاً، وآخر جندياً، ولا يعتبرون مطالب ضمير الإنسان الأبدية إلزامية لهم بل هم ملزمون بالمطالب العَرَضية المؤقّتة لمواقعهم كضباط أو جنود. والتفسير الوحيد لهذه الظاهرة المثيرة

للدهشة هو أنّ هؤلاء الناس يتواجدون في حالة أناسٍ منوّمين، والذين، كما يُقال، يؤمرون بتصوّر أنفسهم أو الشعور بأنفسهم في أوضاع استثنائية معينة، والتصرّف كما قد تتصرّف الكائنات التي يُشخّصونها، كأن يتمّ إيهام الشخص المنوَّم، على سبيل المثال، بأنّه أعرج فيبدأ بالعرج، أو أنه أعمى فلا يعود يبصر، أو أنه حيوان مفترس فيروح يعضّ. وهذه ليست فقط حال ركّاب هذا القطار فقط بل هي حال كلّ الذين يُفضّلون أداء واجباتهم الاجتماعية والحكومية على حساب واجبهم الإنساني.

تكمن حقيقة هذا الوضع في أنّ الناس، بتأثيرٍ من الفكرة الوحيدة المُلقّنة لهم، يعجزون عن معاينة أفعالهم وبالتالي، دونما نقاش، يقومون بكلّ ما يؤمرون به وكلّ ما يُدفعون إليه عبر القدوة أو النصيحة أو الإيماءة، تبعاً للفكرة التي لُقِّنوها.

الفرق بين المنوَّمين بطريقة اصطناعية وبين الخاضعين لإيهام الدولة يكمن في أنّ المنوَّمين صناعياً يتمّ إيهامهم من قِبل شخص واحد ولفترة زمنية قصيرة جداً لذا يتمثّل لنا هذا الوهم بشكل حادّ يثير دهشتنا، في حين أنّ الناس، الذين يتصرّفون بتأثيرٍ من إيهام الدولة، وضعهم المتخيَّل يوحى إليهم بالتدريج، شيئاً فشيئاً، بشكل غير ملحوظ، منذ الطفولة، وليس لسنواتٍ فحسب بل لأجيالٍ أحياناً، عدا عن أنّه لا يوحى إليهم من قِبل شخصٍ واحد بل من قِبل كلّ الذين من حولهم.

"لكن،- سيقولون ردّاً على ذلك،- دائماً، في كل المجتمعات، معظم الناس: كلّ الأطفال، كلّ النساء المنهمكات بالحمل والولادة والرضاع، الجماهير الهائلة من العمال المضطرين إلى العمل العضلي الدؤوب والمستمر، كلّ ضعاف العقول بالطبيعة، كلّ الناس غير الطبيعيين نتيجة تسمّمهم بالنيكوتين والكحول والأفيون أو لأسبابٍ أخرى،- كلّ هؤلاء الناس يتواجدون دائماً في وضعٍ بحيث، لعجزهم عن التفكير المستقلّ، يطيعون أناساً أعلى منهم درجةً من حيث الإدراك العقلي، أو يذعنون للتقاليد الأُسرية والدولتية المُسمّاة بالرأي العام، وفي هذا الخضوع لا يوجد ما هو غير طبيعي ومتناقض".

وبالفعل، لا يوجد ما هو غير طبيعي في ذلك، وقابلية ضعاف العقول للإذعان لأوامر الناس الأعلى إدراكاً هي صفة دائمة للبشر، الصفة التي بنتيجتها يمكن للناس، عبر خضوعهم لذات المبادئ العقلانية، أن يعيشوا كمجتمعات: بعضهم -الأقلية- يخضع

لذات المبادئ العقلانية بسبب توافقها مع متطلبات عقله؛ وآخرون -الأكثرية- يخضعون لذات المبادئ لاشعورياً فقط لأنّ هذه المطالب أصبحت رأياً عاماً. إنّ خضوع ضعاف التفكير هذا لا يعدّ غير طبيعي إلى أن ينقسم الرأي العام إلى قسمين.

لكن تكون هناك أوقات تستولي فيها الحقيقة، المناقضة لمستوى الإدراك السابق، والتي يكتشفها عدد من الناس في البداية، عن طريق انتقالها من بعضهم إلى بعضهم الآخر بانتظام، على عدد كبير من الناس بحيث أنّ الرأي العام السابق، القائم على مستوى أدنى للإدراك، يبدأ بالترنّح، والرأي العام الجديد مستعدّ للتشكّل لكنه لم يتشكّل بعد. هناك أوقات، كالربيع، لم يَنْهَرْ فيها بعد الرأي العام القديم ولم يتشكّل الجديد بعد، وذلك حين يبدأ الناس بمحاكمة أفعالهم وأفعال الآخرين بناءً على إدراكٍ جديد، في حين أنّ الحياة تستمرّ، بقوة العطالة وبسبب التقاليد، بالخضوع للمبادئ التي فقط في الأزمنة القديمة كانت تُعتبر أعلى مستويات الإدراك الحصيف، والتي الآن تتعارض معه بشكل واضح. وحينها الناس، من جهة، يشعرون بضرورة الانصياع للرأي العام الجديد، ومن جهة أخرى، لا يحسمون أمرهم للتخلّي عن القديم، ويتواجدون في حالة متأرجحة غير طبيعية. وفيما يتعلق بالحقائق المسيحية، هذه هي حال البشر جميعاً في زماننا وليس فقط المتواجدين في هذا القطار.

في هذا الوضع يتواجد، بصورة متماثلة، أناس الطبقات العليا الذين يتمتعون بمكانة استثنائية مفيدة لهم، وكذلك أناس الطبقات الدنيا الذين يذعنون لما يؤمرون به دونما اعتراض.

بعضهم -أناس الطبقات الحاكمة-، والذين لم يعد لديهم تفسير معقول للمكانة المربحة التي يشغلونها، مضطرون، للحفاظ على مكانتهم، إلى قمع قدراتهم العقلانية السامية، وإيهام أنفسهم بضرورة مكانتهم الاستثنائية، بينما الآخرون -الطبقات الدنيا-، المسحوقين بالعمل والمخدَّرين بصورة متعمّدة، يتواجدون في حالة دائمة من الإيهام الممارَس عليهم، بدأب واستمرار، من قِبل أناس الطبقات العليا.

فقط بهذا يمكن تفسير تلك الظواهر المدهشة التي تمتلئ بها حياتنا، والتي نماذجها المذهلة تمثّلت في أولئك الناس الودعاء الطيبين، الذين أعرفهم، والذين صادفتهم في التاسع من أيلول، وكانوا ذاهبين، بأنفسٍ مطمئنّة، لارتكاب أشدّ الجرائم وحشيةً وعبثيةً

وشناعة. لو لم تكن ضمائر هؤلاء الناس مخدَّرة بطريقة ما لما استطاع أيٌّ منهم القيام بجزءٍ من مائة مما ينوون القيام به، والذي يُحتَمل كثيراً أن يقوموا به.

ليس أنْ لا ضمير لهم يمنعهم عن القيام بما ينوون القيام به، كما كانت حال البشر الذين كانوا -حتى منذ 400، 300، 200، 100 سنة- يحرقون الناس بالنار ويُعذّبونهم ويجلدونهم، بل كلّ هؤلاء الناس لديهم ضمائر، لكنها منوَّمة. لدى بعضهم، القوّاد الذين يتواجدون في مواقع مربحة لهم، عن طريق الإيحاء الذاتي، كما يدعوه المحللون النفسيون؛ ولدى آخرين، المنفّذين والجنود، عن طريق التنويم المباشر والإيهام المقصود من قِبل الطبقات العليا.

الضمير منوَّم لدى هؤلاء الناس لكنه موجود، وهو يتكلّم فيهم جنباً إلى جانب الإيهام الذاتي والإيهام اللذين يستحوذان عليهم، وسرعان ما سيوقظهم.

حال هؤلاء الناس جميعاً كحال شخصٍ منوَّم يُلقَّن ويُؤمَر بالقيام بعملٍ يتناقض مع كل ما يعتبره عقلانياً وخيّراً: قتل والدته أو طفله. الشخص المنوَّم يشعر أنّه مقيّد إلى الإيحاء الذي يمارَس عليه، ويعتقد أنّه عاجز عن التوقّف، لكنه كلّما اقترب أكثر إلى زمان ومكان ارتكاب الفعل كلّما دوّى أعلى صوت الضمير المُصمّ في داخله، وكلّما بدأ يتلوّى ويعاند أكثر، ويرغب في الاستيقاظ. ويستحيل التكهّن بما إن كان سيقدم على التصرّف الذي لُقِّنه أم لا،- ما الذي سيغلب: الإدراك العقلاني أم الإيهام اللاعقلاني. كل شيء يتوقّف على القوة النسبية لهذا أو ذاك.

الأمر ذاته يجري الآن لركّاب هذا القطار، وعموماً لكلّ الذين يمارسون عنف الدولة ويستخدمونه في وقتنا الراهن.

في وقتٍ من الأوقات كان الناس، الذين يذهبون لممارسة التعذيب والقتل وتلقين الدروس، يرجعون كما كانوا قبل أن يذهبوا للقيام بما ذهبوا لأجله، وبعد قيامهم بعملٍ كهذا لم تكن تُعذّبهم مشاعر الذنب والشكّ بل كانوا يعودون، بعد تعذيبهم الناسَ، بهدوء إلى أُسرهم ليلاطفوا أبناءهم، فيمزحون ويضحكون ويستسلمون للسعادة الزوجية الهانئة. آنئذٍ لم يكن حتى يخطر للمستفيدين من هذا العنف، كالملاّكين والأغنياء، أنّ المكاسب التي يتمتعون بها لها علاقة مباشرة بكل أعمال القسوة هذه. لكن لم يعد الأمر كذلك الآن؛ فقد بات الناس يعلمون، أو على وشك أن يعلموا، ماذا يفعلون، ولماذا يفعلون ما

يفعلون. يمكنهم إغماض أعينهم، وإرغام ضمائرهم على الهجوع، لكن دون أن يغمضوا أعينهم ويُسكتوا ضمائرهم لم يعودوا قادرين –سواء الذين يقومون بها أم الذين يستفيدون منها– على عدم رؤية معنى هذه الأعمال. يحدث أن يدرك الناس معنى ما قاموا بهم فقط بعد قيامهم به، ويحدث أن يدركوا هذا قبل القيام به مباشرةً. على هذا النحو أدرك الناس، الذين أُمروا بالتعذيب في نيجني–نوفغَرَد وساراتوف وأورل ومصنع يوزَفسكي، معنى ما قاموا به فقط بعد قيامهم بالأمر، وهم الآن يعانون الخزي أمام الرأي العام وأمام ضمائرهم. يعاني كلا الآمرين والمنفّذين. وقد تحدّثت إلى الجنود الذين قاموا بهذه الأعمال، وجميعهم كانوا دائماً يرفضون التحدث عن الأمر، لكن حين كانوا يتحدّثون فبعدم تصديق وبهلع. كما أنّ هناك حالات يثوب فيها الناس إلى رشدهم بعد ارتكابهم العمل مباشرةً. أعلم بحادثةٍ جرت لضابط صفّ تعرّض للضرب من قِبل اثنين من الفلاحين، أثناء عملية قمع تمرّد، فقدّم تقريراً بذلك، لكن في اليوم التالي، حين رأى التعذيب الذي يتعرَّض له الفلاحون الآخرون، طلب من قائد السرية تمزيق التقرير وإخلاء سبيل الفلاحين اللذين ضرباه. وأعلم بحادثةٍ رفض فيها الجنود إطلاق النار حين أُمروا بذلك، ولي علمٌ بحالات كثيرة رفض فيها القوّاد إعطاء أوامرَ بالتعذيب أو القتل. وبالتالي فالناس، الذين يأمرون بالعنف والذين يمارسونه، يثوبون أحياناً إلى رشدهم قبل الإقدام على العمل الذي لُقِّنوه بوقتٍ طويل، وأحياناً قبل ذلك مباشرةً، وأحياناً بعد قيامهم به.

ركّاب هذا القطار ذاهبون لتعذيب وقتل إخوانهم لكنّ أحداً لا يعلم ما إن كانوا سيقومون بالعمل الذي هم ذاهبون للقيام به أم لا. مهما كانت مسؤولية كلّ واحد منهم عن العمل محجوبة عنه، ومهما بلغت قوة إيهام هؤلاء الناس بأنهم ليسوا بشراً وبأنهم محافظون ورؤساء شرطة وضباط وجنود، وأنهم –ككائنات كهذه– يستطيعون الإخلال بواجباتهم الإنسانية؛ فإنهم كلّما اقتربوا أكثر إلى موقع مهمتهم كلّما ازداد الشكّ لديهم حول وجوب قيامهم بالعمل الذي هم ذاهبون إليهم، وهذا الشكّ سيبلغ أقصى مداه حين يقتربون من لحظة التنفيذ.

ليس بمقدور المحافظ، رغم كل تخدير الوسط المحيط، عدم التفكير في اللحظة التي سيتوجّب عليه فيها إعطاء الأمر الأخير والحاسم بالقتل أو التعذيب. إنه يعلم أنّ تصرّف

محافظ أورل قد أثار سخط أفضل الناس في المجتمع، وهو نفسه، بتأثيرٍ من رأي عام الأوساط التي يتواجد فيها، أعرب عن استنكاره له أكثر من مرة، ويعلم أنّ النائب العام، الذي كان يجب أن يرافقه، رفض صراحةً المشاركة في هذا الأمر لأنه يعتبره شنيعاً، ويعلم أيضاً أنه قد تحدث تغييرات في الحكومة غداً، والتي بنتيجتها قد يصبح عمله الجدير بالاستحقاق اليوم سبباً لفقدانه الحظوة غداً، ويعلم أنّ هناك وسائل إعلام، إن ليست روسية فأجنبية، قد تكتب عن هذا الأمر وتشنِّع عليه إلى الأبد. لقد بات يشعر بالرأي العام الجديد الذي سيبطل ما كان يُطالب به من قبل. فضلاً عن أنّه لا يستطيع أن يكون واثقاً تماماً من طاعة المنفّذين في اللحظة الأخيرة. إنه متردد، ويستحيل التكهّن بما سيفعله.

وهذا ما يشعر به، بدرجة أو بأخرى، كلّ الموظّفين والضبّاط الذين يرفقونه. جميعهم يعلمون في أعماقهم أنّ ما يحدث مخزٍ، وأنّ المشاركة فيه يلوِّث سمعة المرء ويحطّ من قدره أمام بعض الناس الذين تعنيه آراؤهم. إنهم يعلمون أنّ الذهاب إلى الخطيبة أو الزوجة، التي يتغنّج المرء أمامها، بعد قتل وتعذيب أناسٍ عزّل أمرٌ مخجل. فضلاً عن أنهم كذلك، كالمحافظ، يشكّون في احتمال عدم طاعة الجنود لأوامرهم. ومهما كان هذا بعيداً عن المظهر الواثق الذي يتحرّك به كلّ هؤلاء القوّاد في المحطة وعلى الرصيف؛ فجميعهم في أعماقهم لا يعانون فحسب بل هم متردّدون كذلك، بل حتى يتصنّعون هذا المظهر الواثق لكي يخفوا تردّدهم الداخلي. وهذا الشعور يتنامى كلّما اقتربوا أكثر إلى موقع العملية.

مهما بدا هذا غير ملحوظ، ومهما بدا هذا الكلام غريباً؛ فهذه هي حال هذا الحشد من الفتيان، الجنود الذين يبدون بهذه الاستكانة. فهم جميعاً لم يعودوا كالجنود السابقين الذين كانوا يرفضون الحياة الكادحة الطبيعية ويكرّسون حياتهم كلها للنهب والقتل، كما كان الجنود الرومان أو مقاتلو حرب الثلاثين عاماً أو حتى جنود الآونة الأخيرة؛ إذ إنّ معظم هؤلاء الناس قد أُخذوا من عائلاتهم منذ فترة قريبة، ومازالوا ممتلئين بالذكريات عن الحياة الطيبة والرشيدة التي أُخذوا منها.

كل هؤلاء الناس -معظمهم من الفلاحين الشباب- يعلمون بالعمل الذي يذهبون إليه، يعلمون أنّ الملاّكين يسيئون دائماً إلى إخوانهم الفلاحين، وأنّ هذا ما حدث في هذه

الحالة أيضاً. عدا عن أنّ النصف الأكبر من هؤلاء الناس باتوا يقرأون الكتب، وليست كلّ الكتب يُثنى فيها على العمل العسكري بل هناك أيضاً كتبٌ تبرهَن فيها لاأخلاقيته. يخدم بينهم غالباً رفاقٌ أحرار الفكر، أحرار الإرادة، وكذلك ضباطٌ ليبراليون، كما غُرِست بينهم بذرة الشكّ بشرعية وجلال عملهم. صحيح أنهم جميعاً قد اجتازوا التدريب المخيف، المبتكَر ببراعة منذ قرون، الذي يقضي على أيّ إرادة فردية لدى الإنسان، وأنّهم دُرِّبوا على الطاعة الآلية بحيث أنهم حين تُلفَظ الكلمات الآمرة: لقِّمْ سلا...حك!... ترا...صفْ... أطلِقْ! ...الخ، ترتفع بنادقهم تلقائياً، ويُنفِّذون الحركات المعتادة. لكنّ "أطلِق!" لن تعني الآن إطلاق النار على دريئة بل تعني قتل آبائهم وإخوانهم المُعذَّبين والمُساء إليهم، الذين يقفون الآن في الشارع جمعاً مع النساء، ويصرخون بشيءٍ ما للفتيان. إنّ أدنى إشارة إلى أنّه لا ينبغي القيام بذلك، والأهم، إلى إمكانية عدم القيام بذلك، كلمة واحدة، إيماءة واحدة ستكون كافية لإيقافهم.

كلّ ركّاب هذا القطار، عند مباشرتهم الأمر الذي هم ذاهبون إليه سيكونون في وضع شخصٍ منوَّم أُوحي إليه بقطع قُرمة شجرة، وحين لوّح بالفأس رأى أو قيل له إنّ هذه ليست قرمة شجرة بل أخوه نائماً. قد يُقدم على العمل الذي أُوحي إليه وقد يستيقظ قبل إقدامه عليه. وهذه هي حال هؤلاء الناس جميعاً: قد يستيقظون وقد لا يستيقظون. إذا لم يستيقظوا فسيتمّ هذا العمل المرعب، كما حدث في أورل، وسيتعزّز لدى الناس الآخرين ذلك الإيهام والإيهام الذاتي الذي يتصرّفون تحت تأثيره، أما إذا استيقظوا؛ فليس فقط لن يحدث الأمر بل أيضاً الكثيرون ممّن سيعلمون بالتحوّل الذي جرى سيتحرّرون من الوهم الذي يعيشونه أو، على الأقل، سيقتربون من هذا التحرّر. لكن ليس فقط إذا استيقظ كلّ ركّاب هذا القطار، ورفضوا القيام بالأمر الذي يكادون يقومون به، بل إذا استيقظ ورفض ولو عدد قليل منهم وأخبر الآخرين بشجاعة عن إجرامية هذا العمل؛ فحينذاك قد يوقظ تأثير هذا العدد القليل من الناس الآخرينَ أيضاً من الإيهام الذي هم تحت تأثيره، ولا تحدث الجريمة المتوقَّعة.

بل حتى بضعة أفراد، من غير المشاركين في هذا العمل بل فقط كانوا موجودين عند الإعداد له، إذا لم يقفوا على الحياد وعبّروا، بصراحة وجرأة، عن اشمئزازهم تجاه

المشاركين في أعمال كهذه، وأظهروا لهم مدى حماقتها وقسوتها وإجراميتها،- حتى هذا لن يمرّ دون أن يترك أثراً.

يمكن لهذا أن يحدث في الحالة الراهنة أيضاً. يكفي أن يُعرب بشجاعة عدد من الناس، من المشاركين وغير المشاركين في الأمر، الذين تحرّروا من تأثير الإيهام، حين كان هذا الأمر لا يزال قيد الإعداد له، عن استيائهم من التعذيب الذي يتمّ في أماكن أخرى، وعن اشمئزازهم واحتقارهم للمشاركين فيها؛ يكفي، فيما يتعلق بالأمر الذي يحدث في تولا الآن، أن يُعرب بضعة أشخاص عن عدم رغبتهم في المشاركة فيه، يكفي أن تقوم هذه السيدة الإقطاعية المسافرة، ويقوم بعض الأشخاص الآخرين بالإعراب، هنا في المحطة مباشرةً، لركّاب هذا القطار، عن استيائهم من الأمر الذي هم مقدمون عليه؛ يكفي أن يُعرب أحد رؤساء الأفواج، التي طُلب منها إرسال قسم من قواتها لعملية القمع، عن رأيه بأنّ الجنود لا يمكنهم أن يكونوا جلاّدين حتى يأخذ الأمر منحىً آخر تماماً بفضل هذه التأثيرات الخاصة وغيرها، والتي لا تبدو ذات أهمية، وحتى لا يقوم الجنود، الذاهبون إلى المكان، بالتعذيب بل فقط سيقومون بقطع أشجار الغابة وإعطائها للملاّك.

إذا لم يتوفّر لدى بعض الناس إدراكٌ واضح بأنّ العمل الذي يقومون به عمل سيئ، وإذا لم يؤثّر الناس، نتيجةً لذلك، في بعضهم بعضاً في هذا المنحى؛ فسيحدث ما حدث في أورل. أما إذا كان هذا الإدراك أقوى، وبالتالي عدد هذه التأثيرات أكبر مما كان، فمن المحتمل جداً أن لا يقوم المحافظ حتى بقطع الغابة وإعطائها للملاّك. أما إذا كان هذا الإدراك أقوى بكثير، وكان عدد التأثيرات أكثر بكثير، فمن المحتمل جداً أنّ يقرّر المحافظ حتى عدم الذهاب إلى موقع العملية. إذا كان هذا الإدراك أقوى، وكان عدد التأثيرات أكثر، فمن المحتمل جداً أنّ الوزير ما كان سيتّخذ القرار، ولما صادق عليه الملك. بالتالي، كل شيء يتوقف على إدراك كلّ فرد على حدة للحقيقة المسيحية.

لذا، المفروض أنّ كلّ الذين يؤكّدون أنهم يتمنّون العمل لخير الإنسانية يجب أن يوجّهوا نشاطهم نحو تعزيز وضوح متطلبات الحقيقة المسيحية في أنفسهم وفي الآخرين.

لكنّ المثير للاستغراب هو أنّ بالتحديد أولئك الناس، الذين يقولون إنهم يهتمون أكثر من الآخرين جميعاً بتحسين حياة الناس، والذين يُعدُّون قوّاد الرأي العام، يؤكّدون أنّ هذا بالذات لا حاجة للقيام به، ولأنّ هناك وسائل أخرى، أكثر فعّاليةً، لتحسين أوضاع الناس. يؤكِّد هؤلاء الناس أنّ تحسين حياة البشر لا يحدث نتيجةً للجهود الداخلية للأفراد لإدراك واستجلاء واعتناق الحقّ بل نتيجةً للتبدّل التدريجي لظروف الحياة الخارجية العامة في منحىً مفيد للإنسانية، أمّا أيّ اعتناق فرديّ للحقّ المخالف للنظام القائم؛ فليس فقط غير مفيد بل هو ضارّ لأنه يحرّض السلطات على القمع الذي يعيق هؤلاء الأفراد عن مواصلة نشاطهم المفيد لخدمة المجتمع. بموجب هذه العقيدة، كل التغييرات في الحياة الإنسانية تجري وفق القوانين التي تجري بها في حياة الحيوانات كذلك.

بالتالي، تبعاً لهذه العقيدة، كلّ مؤسّسي الأديان، مثل موسى والأنبياء وكونفوشيوس ولاوتسه وبوذا والمسيح وغيرهم، لم يُبشِّروا بتعاليمهم، ولم يعتنقها أتباعهم، لأنهم أحبّوا الحقّ وقاموا باستجلائه وبيانه لأتباعهم بل لأنّ الظروف السياسية والاجتماعية، والاقتصادية خاصةً، لدى الشعوب التي نشأت وانتشرت هذه التعاليم بينها، كانت ملائمة لنشوئها وانتشارها.

لذا؛ فالنشاط الرئيس للإنسان، الراغب في خدمة المجتمع وتحسين حال الإنسانية، لا يجب توجيهه، حسب هذه العقيدة، لاستجلاء الحقّ واعتناقه بل لتحسين الظروف السياسية والاجتماعية، وخاصةً الاقتصادية، الخارجية. وتغيير هذه الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية يتمّ، من جهة، عبر خدمة الحكومة وإدخال المبادئ الليبرالية والتقدمية إليها، ومن جهة أخرى، من خلال العمل على تطوير الصناعة ونشر الأفكار الاشتراكية، ونشر التعليم بشكل خاص. بموجب هذه العقيدة، الأهم هو ليس الالتزام، في الحياة، بالحقيقة التي كُشفت لك، وأن يكون واجبك -نتيجةً لذلك- تحقيقها في الحياة أو، على الأقل، عدم القيام بأفعالٍ تناقض الحقّ الذي تَدين به: عدم خدمة الحكومة وعدم تعزيز سلطتها إذا كنتَ ترى أنّ هذه السلطة مؤذية، عدم الاستفادة من النظام الرأسمالي إذا كنت تعتبر هذا النظام خاطئاً، عدم الإعراب عن الاحترام تجاه مختلف الطقوس

الدينية إذا كنت تعتبرها خرافات ضارّة، عدم المشاركة في المحاكم إذا كنت تعتبرها باطلة، عدم الخدمة في الجندية، عدم القسَم، وعموماً عدم الكذب، عدم المبالغة، بل الأهم هو، دون تغيير أنماط العيش القائمة، والخضوع لها على النقيض من قناعاتك، إدخال الليبرالية إلى المؤسسات القائمة: العمل على تطوير الصناعة، والدعاية للاشتراكية ولمنجزات ما يسمى العلم، والعمل على نشر التعليم. وفق هذه النظرية لا يمكن للمرء، مع بقائه إقطاعياً أو تاجراً أو صناعياً أو قاضياً أو موظفاً، يتلقى راتبه من الحكومة، أو جندياً أو ضابطاً، أن يكون شخصاً إنسانيَّ المذهب فحسب بل وحتى اشتراكياً وثورياً.

النفاق، الذي كان له فقط أساس ديني، وذلك في التعليم المتعلق بسقوط الجنس البشري وتكفير الذنوب والكنيسة، حصل في زماننا، في هذه العقيدة، على أساس علمي جديد، ونتيجةً لذلك أسَرَ في شباكه كلّ الذين لم يعودوا قادرين، من حيث مستوى تطورهم، على الاعتماد على النفاق الديني. بالتالي، إذا كان فيما مضى فقط الشخص، الذي يَدين بالعقيدة الدينية الكنسية، قادراً، مع عدِّه نفسه طاهراً من أي خطيئة في أثناء ذلك، على المشاركة في كلّ الجرائم التي ترتكبها الدولة، والاستفادة منها، شريطة أن ينفّذ المتطلبات الظاهرية لعقيدته وحسب؛ ففي الوقت الراهن بات لدى كل الناس، غير المؤمنين بالمسيحية الكنسية، أساس علمي راسخ لكي يعتبروا أنفسهم أناساً أطهاراً ويتمتعون بحسّ أخلاقيّ عالٍ، بغضّ النظر عن مشاركتهم في جرائم الدولة واستفادتهم منها.

يعيش، ليس في روسيا وحدها بل أينما كان –في فرنسا وإنكلترة وألمانيا وأمريكا– ملاّك غنيّ ينتزع من الناس، الذين يعيشون على أرضه ويعتاشون منها، والذين يعاني معظمهم الجوع، كلّ ما يمكنه أن ينتزع منهم لقاء سماحه لهم بذلك. إنّ حقّ هذا الشخص في ملكية الأرض يقوم على أنّ، عند أيّ محاولة يقوم بها هؤلاء الناس المضطهَدين لاستثمار الأرض التي يعتبرها الملاّك أرضه، يأتي الجنود ويقومون بتعذيب وقتل الناس الذين استولوا على الأرض. المفروض أن يكونَ واضحاً أنّ شخصاً يعيش على هذا النحو إنما هو كائن شرير وأناني، ولا يمكنه على الإطلاق اعتبار نفسه شخصاً مسيحياً أو ليبرالياً. المفروض أن يكون واضحاً أنّ أول ما يجبُ أن يفعله إنسان كهذا، إذا كان يريد الاقتراب إلى المسيحية أو الليبرالية ولو قليلاً، هو الكفّ عن نهب وإهلاك الناس

عن طريق حقّه في الأرض، المدعوم بالقتل والتعذيب من قِبل الدولة. لكن لكان الأمر هكذا لولا وجود ميتافيزيقا النفاق التي تقول إنّ امتلاك أو عدم امتلاك الأرض متساويان بالنسبة إلى الخلاص من وجهة النظر الدينية، وتقول، من وجهة النظر العلمية، إنّ التخلّي عن ملكية الأرض إنما هو جهد فردي لا جدوى منه، وإنّ العمل لخير الناس لا يتمّ بهذه الطريقة بل عبر التغيير التدريجي لأنماط الحياة الخارجية. وها هو هذا الشخص، دون أن يحتار أو يشكّ أبداً بما يقنعونه به، يقيم معرضاً زراعياً، وينشئ جمعيةً لمكافحة الإدمان على الكحول، ويرسل عبر زوجته وأولاده صديريات وحساء لثلاث نساءٍ طاعنات في السنّ، ثم يجرؤ على التبشير، وسط أسرته وفي المضافات والمجالس والصحف، بالمحبة الإنجيلية أو الإنسانية تجاه القريب عموماً، وخصوصاً تجاه العمال الزراعيين الذين يُعذّبهم ويضطهدهم باستمرار. والناس، الذين وضعهم كوضعه، يُصدّقونه ويثنون عليه، وبجدية يناقشون معه المسائل المتعلقة بكيفية تحسين أوضاع العمال الذين تقوم حياتهم على نهبهم، مبتكرين لأجل ذلك كلّ الوسائل الممكنة باستثناء الوسيلة الوحيدة التي من دونها يستحيل أيّ تحسين لأوضاع الشعب، وبالتحديد الكفّ عن انتزاع الأرض من الشعب، والضرورية لقوته.

المثال الأكثر إثارةً للاستغراب لهذا النفاق هو انشغال الملاّكين الروس، في السنة الأخيرة، بمكافحة الجوع الذي هم سببه، والذي عمدوا إلى استغلاله فوراً عبر بيعهم بأعلى سعر ليست الحبوب فقط بل وقشور البطاطا بخمسة روبلات للهكتار كوقود للتدفئة للفلاحين المتجمّدين من البرد.

أو يعيش تاجر، تقوم كل تجارته، كشتى أشكال التجارة، على سلسلة من عمليات الغشّ التي من خلالها، مستغلاً جهل وحاجة الناس، يشتري منهم البضائع بأسعار أدنى من قيمتها، ويبيعهم إياها، كذلك مستغلاً جهلهم وحاجتهم والإغراء، بأسعار أعلى من قيمتها. المفروض أن يكون واضحاً أنّ شخصاً يقوم عمله كله على ما يسمّى على لسانه غشّاً، فيما لو أنّ هذه الأعمال تتمّ في ظروف أخرى، يجب أن يخجل من وضعه بحيث لا يعود بإمكانه تقديم نفسه كشخصٍ مسيحيٍّ أو تاجرٍ مع بقائه تاجراً. لكنّ ميتافيزيقا النفاق تقول له إنّ بالإمكان أن يذيع صيته كإنسان فاضل، مع استمراره بعمله الضارّ: الشخص المتدين يكفيه أن يكون مؤمناً فقط، والليبرالي يكفي فقط أن يعمل على تغيير

الظروف الخارجية، أي تقدّم الصناعة. وها هو هذا التاجر (الذي، عدا عن ذلك، يرتكب أيضاً سلسلة من عمليات الاحتيال المباشر، بائعاً السيئ على أنه جيد، يزن ويقيس ويبيع السلع التي تهلك حياة الشعب بشكل خاص، كالنبيذ والأفيون) بوقاحة يعتبر نفسه ويعتبره الآخرون، إذا فقط لم يخدع صراحةً في أعماله رفاقه في الخداع، أي إخوانه التجار، مثالاً للنزاهة والإخلاص. أما إذا أنفق واحد بالألف من الأموال التي سرقها على مؤسسة اجتماعية ما: مستشفى أو متحف أو مؤسسة تعليمية، فإنه يُعدُّ محسناً إلى الشعب الذي تقوم رفاهيته كلها على خداعه وتسميمه؛ وإذا ضحّى بقسم من المال المسروق على الكنيسة والفقراء؛ فيُعدُّ مسيحياً قدوة.

أو يعيش صناعي، يأتي مدخوله كله ممّا ينتزعه من العمال، ويقوم نشاطه كله على العمل الاضطراري وغير الطبيعي الذي يهلك أجيالاً بأكملها من الناس؛ المفروض أن يكون واضحاً، قبل أي شيء آخر، إذا كان هذا الإنسان يعتنق أي مبادئ مسيحية أو ليبرالية، لأنّ عليه الكفّ عن إهلاك الحيوات الإنسانية من أجل أرباحه الفائضة. لكنه، بموجب النظرية القائمة، يساعد على تطور الصناعة، ولا يجب عليه، بل حتى سيكون ضاراً للبشر والمجتمع، أن يوقف نشاطه. وهذا الإنسان القاسي الذي يستعبد آلاف الناس، بسبب بنائه للناس الذين ينهكهم بالعمل بيوتاً لها حدائق تبلغ مساحتها 140 سنتيمتراً، وإنشائه صندوقاً خيرياً وكنيسةً ومستشفى، متأكّد تماماً من أنه بهذه الأعمال الضئيلة قد دفع ثمن كل الحيوات الإنسانية التي أهلكها بدنياً وروحياً، ويواصل عمله باطمئنان، مفتخراً به.

أو يعيش حاكم أو موظف دولة مدني أو ديني أو عسكري، يقوم بوظيفته لكي يشبع حبه للرفعة أو حبه للسلطة أو، وهذا هو الغالب، فقط لكي يحصل على الراتب الذي يُحصّل من عمل الشعب المضني والمهلك (أياً كان مصدر الضرائب فهي تأتي دائماً من عمل العمال)، إذا هو، وهو أمر نادر جداً، لم يسرق أموال الدولة على غير العادة، فإنه يعتبر نفسه ويعتبره الآخرون عضو المجتمع الأسمى فضلاً.

يعيش قاضٍ أو مدّعٍ عام أو حاكمٌ ما، ويعلم أنّ مئات وآلاف الناس البؤساء، المأخوذين من عائلاتهم، يقبعون، بموجب حكمه أو قراره، في سجونٍ انفرادية، وفي الأشغال الشاقة، ويفقدون عقولهم ويقتلون أنفسهم بقطع الزجاج أو من الجوع؛ يعلم أنّ

لدى آلاف الناس هؤلاء هناك كذلك آلاف الأمهات والزوجات والأبناء الذين يعانون الفراق، والمحرومين من الزيارات، ويذلّون أنفسهم طالبين العفو أو على الأقل تخفيف أحكام آبائهم وأبنائهنّ وأزواجهنّ وأخوتهم، وهذا القاضي أو الحاكم غارقٌ في نفاقه إلى درجة أنه وأمثاله وزوجاتهم وعائلاتهم متأكّدون تماماً أن بإمكانه، رغم ذلك كله، أن يكون شخصاً طيباً وحساساً. بموجب ميتافيزيقا النفاق ينتج أنه يقوم بعملٍ مفيدٍ للمجتمع. وهذا الشخص، الذي يهلك مئات، بل آلاف، الناس الذين يلعنونه واليائسين من جرّاء إيمانه بالخير والله، بابتسامةٍ متألّقةٍ باشّةٍ على وجهه الأملس، يذهب إلى الصلاة، ويستمع إلى الإنجيل، ويلقي الخطابات الليبرالية، ويلاطف أبناءه، ويعلّمهم الأخلاق، ويُبدي تعاطفه مع آلامٍ متخيّلة.

يعيش كلّ هؤلاء الناس، والذين يعتاشون من حولهم وزوجاتهم ومدرّسوهم وأبناؤهم وفنّانوهم وطبّاخوهم وغيرهم، بالدماء التي يمصّونها، بطريقة أو بأخرى، بهذه العلَقات أو تلك، من الشعب الكادح، يعيشون مبتلعين يومياً، كلٌّ من أجل رغباته، مئات وآلاف أيام عمل العمال المنهكين، مجبرين إياهم على العمل عبر التهديد بالقتل، ويرون حرمانات وآلام هؤلاء العمال وأبنائهم وزوجاتهم والعجائز والمرضى، ويعلمون بتلك الإعدامات التي تجري بحقّ الذين يخلّون بهذا النهب المنظَّم، وليس فقط لا يقللون من ترفهم، لا يخفونه، بل بوقاحة يعرضون، أمام هؤلاء العمال المضطهَدين الذين معظمهم يكرهونهم، مثيرين غيظهم كما لو قصداً، حدائقهم وقصورهم ومسارحهم وحملات صيدهم وسباقات خيلهم، وإضافةً إلى ذلك، يقنعون أنفسهم وبعضهم بعضاً، باستمرار، بأنهم جميعاً مهتمّون جداً بمصلحة الشعب الذي يدوسونه بأقدامهم باستمرار، وفي أيام الأحد، بملابس فاخرة، وفي عرباتٍ فاخرة، يذهبون إلى بيوتٍ مبنية كما لو للتهكّم عمداً على المسيحية، وهناك يستمعون إلى أناسٍ مدرَّبين على هذه الكذبة بشكل مقصود من كافة الأشكال، بحبريات ودون حبريات، بربطات عنقٍ بيضاء، يعظون بعضهم بعضاً بمحبة البشر التي يكفر بها جميعهم طوال حياتهم. وهؤلاء الناس، بقيامهم بهذا كله، يتقمّصون أدوارهم إلى درجة أنهم يُصدّقون فعلاً أنهم فعلاً ما يدّعون.

النفاق العام، الداخل في أجساد ودماء كل شرائح عصرنا، بلغ حدوداً بحيث أنّه لم يعد يثير استياء أحد. ليس عبثاً أنّ "الهيبوقريطية" تعني التمثل، التصنّع– القدرة على

لعب أيّ دور. إنّ ظواهر مثل قيام خلفاء المسيح بمباركة القتلة الواقفين صفاً، الممسكين ببنادق موجّهة إلى إخوانهم، في الصلاة؛ وأنّ القساوسة ورعاة الكنائس من شتى الطوائف المسيحية يشاركون دائماً، تماماً كالجلادين، في الإعدامات مُقرّين، عبر حضورهم، بأنّ القتل يجتمع مع المسيحية (كان راعي أبرشية حاضراً أثناء اختبار الإعدام بالكهرباء في أمريكا)،- كلّ هذه الظواهر لم تعد تثير دهشة أحد.

منذ فترة قريبة كان هناك معرض دولي للسجون في بطرسبورغ عُرضت فيه أداوت التعذيب: الأصفاد، نماذج عن الزنزانات الانفرادية، أي أدوات تعذيب أسوأ من السياط والقضبان، والسادة والسيدات الحسّاسون ذهبوا لمشاهدته واستمتعوا بذلك.

كذلك لا يُدهِش أحداً أنّ العلم الليبرالي يبرهن، إلى جانب اعترافه بتساوي وإخوة وحرية البشر، على ضرورة الجيش والإعدام والجمارك والرقابة وتنظيم البغاء وطرد العمال رخيصي الأجر ومنع الهجرة، وضرورة وعدالة الاستعمار القائم على تدمير ونهب والقضاء على أقوام بأكملها، تدعى أقواماً همجية، الخ.

يتحدثون عن ما سيحدث عندما يعتنق جميع الناس ما يسمّى المسيحية (أي مختلف العقائد المعادية لبعضها بعضاً)، عندما يغدو الجميع شباعاً ومكتسين، عندما يرتبط الجميع من شتى أطراف الدنيا فيما بينهم عن طريق البرق والهاتف، ويتواصلون عن طريق المناطيد، عندما يعتنق كل العمال العقائد الاشتراكية، وحين تجمع نقابات العمال ملايين الأعضاء والروبلات ويغدو الجميع متعلّمين، الجميع سيقرأون الصحف، ويعرفون العلوم.

لكن ما الشيء المفيد والخيّر الذي قد ينتج عن هذه المنجزات كلها إذا لم يقل ويفعل الناس ما يعتبرونه الحقّ في أثناء ذلك؟

إذ إنّ مصائب البشر تنتج عن انقسامهم. والانقسام ينتج عن أنهم لا يتّبعون الحقّ الوحيد، بل يتّبعون الأكاذيب الكثيرة.

الوسيلة الوحيدة لتوحيد البشر هي الحقّ. لذا كلّما تطلّع البشر بعزمٍ أكبر إلى الحقّ كلّما اقتربوا أكثر إلى هذه الوحدة.

لكن كيف يمكن للبشر أن يتّحدوا في الحقّ أو يقتربوا منه على الأقل إذا كانوا ليس فقط لا يقولون الحقّ الذي يعرفونه بل يعتبرون أنْ لا حاجة للقيام بهذا، ويتصنّعون أنهم يعتبرون الحقّ ما لا يعتبرونه الحقّ.

لذا لا يمكن أن يحدث أيّ تحسّن لحال البشر ما دام الناس يتصنّعون، أي يحجبون الحق عن أنفسهم بأنفسهم، ما داموا لا يعترفون بأنّ وحدتهم، وبالتالي خيرهم، ممكنة فقط في الحقّ، وبالتالي لا يَسمون بالحقيقة التي كُشفت لهم فوق أيّة حقيقة أخرى يعترفون أو يَدينون بها.

حتى لو تحقّقت كل المنجزات التي يمكن للناس المتدينين والعلمانيين أن يحلموا بها فحسب؛ حتى لو أنّ البشر جميعاً اعتنقوا المسيحية، وحتى لو تحققت كل التحسينات التي يتمنونها مع كلّ الإضافات والتصحيحات الممكنة، لكن إذا ظلّ، في أثناء ذلك، النفاق الموجود الآن قائماً، وإذا لم يعتنق البشر الحقّ الذي يعرفونه وواصلوا الادّعاء بأنهم يؤمنون بما لا يؤمنون به، وأنهم يحترمون ما لا يحترمونه، فإنّ وضع البشر ليس فقط لن يبقى على حاله بل سيزداد سوءاً أكثر فأكثر. كلما شبع الناس أكثر، وكلما ازدادت أجهزة البرق والهاتف والكتب والجرائد والمجلات، كلما ازدادت وسائل انتشار الأباطيل والأكاذيب المختلفة فيما بينها، وكلما ازداد انقسام البشر، وبالتالي مصائب البشر، كما هي الحال الآن. حتى لو تحققت هذه التغييرات الخارجية كلها فإنّ وضع الإنسانية لن يتحسن. لكن فليقم كلّ شخص، الآن فوراً في حياته وقدر استطاعته، باعتناق الحق الذي يعرفه، أو على الأقل فليكفّ عن الدفاع عن الباطل الذي يفعله، مقدِّماً إياه على أنه الحقّ، ولسوف تتمّ فوراً، في عام 1893 هذا، كل تلك التحولاّت نحو تحرّر البشر وإقامة الحقّ على الأرض، والتي لا يمكننا أن نحلم بها حتى بعد قرون.

ليس عبثاً أنّ الخطبة الوحيدة غير الوديعة بلْ الفاضحة والعنيفة للمسيح كانت موجّهة إلى المنافقين وضدّ النفاق. ما يفسد الناس ويجعلهم أشراراً ووحوشاً، وبالتالي يُقسّمهم، ليس النهب أو القتل، ليست الزنى، ليس الغشّ، بل الكذب، ذلك الكذب المميّز للنفاق الذي يقضي في إدراك الناس على الفرق بين الخير والشرّ، ويُفقدهم بذلك إمكانية تجنّب الشرّ والبحث عن الخير، يحرمهم مما يُشكل جوهر الحقيقة الإنسانية، لذا يقف في طريق أيّ تكامل للبشر.

الذين لا يعرفون الحقّ ويعملون الشرّ، محرّضين لدى الآخرين التعاطف مع تضحياتهم والاشمئزاز من تصرّفاتهم، يسيئون فقط إلى من يسيئون إليه، لكنّ الذين يعرفون الحقّ ويعملون الشرّ، المغلّف بالنفاق، يسيئون إلى أنفسهم وإلى من يسيئون إليه وكذلك إلى آلاف مؤلفة من الناس الآخرين، المفتونين بالكذبة التي يحاولون إخفاءها من خلال الشرّ الذي يرتكبونه.

اللصوص والنهّابون والقتلة والكذّابون، الذين يرتكبون أفعالاً تُعتبر شريرةً من قبلهم هم أنفسهم ومن قبل الناس جميعاً، يُعدّون قدوةً لما يجب عدم القيام به، ويحرفون الناس عن الشرّ. أما الذين يقومون بذات أعمال اللصوصية والنهب والتعذيب والقتل، مغلّفين إياها بتبريرات دينية وعلمية ليبرالية، كما يفعل جميع الملاّكين والتجار والصناعيين وشتى أنواع موظفي الحكومة في زماننا، فإنهم يدعون الآخرين إلى تقليد أفعالهم، ولا يسيئون فقط إلى الذين يعانون من جرّاء شرّهم بل كذلك إلى آلاف وملايين البشر الذين يُفسدونهم عبر قضائهم على التمييز بين الخير والشرّ بالنسبة إلى هؤلاء الناس.

فقط المال المكتسب عن طريق تجارة السلع الضرورية للشعب أو المفسِدة للشعب، أو عبر العمليات المصرفية، أو عبر اكتساب أراضٍ رخيصة والتي يتمّ رفع أسعارها فيما بعد بسبب احتياج الناس إليها، أو عبر بناء المصانع التي تهلك صحة وحياة الناس، أو عبر الخدمة المدنية أو العسكرية للدولة، أو بأية طريقة أخرى كإغراء الناس- المال، المكتسب عن طريق هذه الأعمال ليس فقط بموافقة بل بمباركة قوّاد المجتمع الذي يتمّ تجميله بأعمال الإحسان في أثناء ذلك، أكثر إفساداً للناس بما لا يقاس من ملايين السرقات وأعمال الاحتيال والنهب التي تعدّ خارجة عن القانون والمعرّضة للملاحقة الجنائية. عملية إعدام واحدة يقوم بها، دون أن يكونوا تحت تأثير الغضب، أناسٌ مثقفون محترمون بمباركة ومشاركة رؤساء كنائس مسيحيين، والتي يتمّ إظهارها كشيء ضروري بل حتى عادل، تُفسد وتُوحش الناس أكثر من مئات وآلاف جرائم القتل التي يرتكبها عُمّالٌ أمّيون، وحتى تحت تأثير الغضب، وإنّ إعداماً كالذي اقترحه جوكَفسكي، والذي يشعر الناس أثناءه برأفة دينية، سيكون أشدّ الأعمال إفساداً مما يمكن تصوره.

أيّ حرب، أقصر الحروب، مع النفقات التي ترافق الحروب عادةً، وتدمير الحقول، مع السرقات التي تُعد استرجاعاً للمسروقات، وعمليات النهب والقتل، مع مبرّرات

ضرورتها وعدالتها المختلقة، مع إكبار ومدح البطولات الحربية، مع حبّ العَلَم والوطن وادّعاء الاهتمام بالجرحى... الخ- تُفسد في سنة واحدة من الناس أكثر من ملايين السرقات والحرائق وجرائم القتل المرتكبة على امتداد مئات السنين من قِبل أفرادٍ تحت تأثير الغضب.

حياة مترفة، ضمن حدود اللياقة، لأسرةٍ غنيةٍ، تُدعى فاضلة، تنفق على ذاتها من أيام العمل ما يكفي لإطعام آلاف الناس الذين يعيشون في الفقر بجوار هذه الأسرة- تُفسد الناس أكثر من آلاف الحفلات الجنونية التي يقيمها التجّار والضباط والعمال الذين يستسلمون للسُكر والتقيؤ، ويُكسّرون المرايا والأواني وغيرها للتسلية واللهو.

موكب احتفالي واحد، أو صلاة أو موعظة تقوم بها كُليّة الكذبة التي لا يؤمن بها الواعظون، تخلق من الشرّ أكثر بما لا يقاس من آلاف الأطعمة المغشوشة والمزيفة، وهلمّ جرّا.

إنهم يتحدثون عن نفاق الفرنسيين. لكنّ نفاق الناس في زماننا يتفوّق بما لا يقاس على نفاق الفريسيين البريء. فلدى أولئك كان هناك على الأقل تشريع ديني ظاهري كان بإمكانهم، من جرّاء التزامهم الصارم به، عدم رؤية واجباتهم تجاه أقربيهم، ناهيك عن أنّ تلك الواجبات لم تكن واضحة آنذاك؛ لكن في زماننا لا يوجد تشريع ديني يُحرّر الناس من واجباتهم تجاه أقربيهم جميعاً دون تمييز (لا أخذ بالحسبان أولئك الناس الفظّين والأغبياء الذين ما زالوا يعتقدون أنّ الأسرار ومغفرة البابا يمكنها أن تغفر خطاياهم) بل، على العكس، التشريع الإنجيلي، الذي جميعنا ندين به بطريقة أو بأخرى، يشير صراحةً إلى هذه الواجبات، فضلاً عن أنّ هذه الواجبات ذاتها، التي عبّر عنها آنذاك بعبارات مبهمة فقط، بات مُعبَّراً عنها بمنتهى الوضوح بحيث أصبحت شعارات يردّدها طلاّب المدارس الثانوية وكتّاب المقالات النقدية. وبالتالي المفروض أنّ بشر زماننا لا يمكنهم على الإطلاق الادّعاء بأنهم لا يعرفون واجباتهم هذه.

بشر زماننا، المستفيدين من النظام الحالي القائم على العنف والواثقين، إضافةً إلى ذلك، من أنهم يحبّون أقربيهم جداً دون أن يلاحظوا على الإطلاق أنهم طوال حياتهم يسيئون إلى أقربيهم، مَثلهم كمثل شخصٍ ينهب الناس باستمرار، والذي أُلقي القبض عليه، أخيراً، رافعاً سكيناً على ضحيةٍ يطلب النجدة بصرخاتٍ مذعورة، فيؤكد أنّه لم

يكن يعلم أنّ ما يفعله لم يكن مقبولاً للذي نهبه فقرّر ذبحه. فكما أنّه يستحيل على هذا اللصّ والقاتل إنكار ما هو على مرأى من الجميع، كذلك تماماً المفروض أن يكون مستحيلاً في الوقت الراهن على بشر زماننا، الذين يعيشون على حساب الناس المضطهدين، أن يُقنعوا أنفسهم والآخرين أنّهم يتمنّون الخير لأولئك الناس الذين لا يكفّون عن نهبهم، وأنهم لم يكونوا يعلمون كيفية اكتساب ما يستفيدون منه.

بات مستحيلاً علينا تأكيد أننا لم نكن نعلم عن المائة ألف إنسان الذين يقبعون في السجون والأشغال الشاقة، في روسيا وحدها، لضمان أملاكنا وأماننا، وأننا لا نعلم عن تلك المحاكم التي نحن أنفسنا نشارك فيها، والتي يتم فيها، بإذنٍ منّا، الحكم على الذين يهدّدون أملاكنا وأمننا بالسجن والنفي والأشغال الشاقة التي يهلك ويفسد فيها أناسٌ ليسوا أسوأ من الذين يحاكمونهم؛ وأننا لم نكن نعلم أنّ كلّ ما نملك إنما يتمّ تحصيله ونهبه لأجلنا عن طريق القتل والتعذيب. يستحيل علينا الإدّعاء بأننا لا نرى ذلك الخفير الذي يتجول أمام نوافذنا، بمسدسه المحشو، لكي يحمينا أثناء تناولنا غذاءً شهياً أو مشاهدتنا مسرحيةً جديدة، وعن أولئك الجنود الذين سيهرعون فوراً، ببنادقهم ورصاصاتهم القتالية، إلى حيث يتمّ الاعتداء على ممتلكاتنا. إذ أننا نعلم أننا إذا كنّا ننهي تناول الغذاء أو مشاهدة المسرحية أو نستمتع بمشاهدة الباليه أو التزلج أو سباق الخيل أو الصيد، ففقط بفضل الرصاصة في مسدس الخفير وبندقية الجندي التي ستصيب البطن الجائع لذلك المخدوع في حصتّه الذي، متسللاً من خلف الزاوية، ينظر إلى مُتعنا، والذي سيخرقها ما إن يغادر الخفير مع مسدسه أو لا يكون هناك جندي في الثكنة مستعداً للحضور ما إن نستدعيه.

وبالتالي، كما أنّ الشخص الذي يُلقى عليه القبض متلبّساً بالسرقة في وضح النهار يستحيل عليه تماماً إقناع الجميع بأنّه لم يهاجم الشخص المتعرّض للنهب لكي يستولي على محفظته أو ليذبحه، كذلك بات مستحيلاً علينا إقناع أنفسنا والآخرين بأنّ الجنود والحرّاس بمسدساتهم ليسوا موجودين من حولنا لكي يحمونا أبداً بل للدفاع عنّا ضدّ أعداء الخارج، أو من أجل تنظيم الأمور، أو للتجميل و التسلية والمواكب، وأننا لم نكن حتى نعلم أنّ الناس لا يحبّون الموت جوعاً لأنهم لا يحقّ لهم استثمار الأرض التي يعيشون فيها ليقتاتوا عليها، وأنهم لا يحبون العمل تحت الأرض، تحت المطر، في

القيظ، 10-14 ساعة في اليوم، وليلاً في مختلف المعامل والمصانع لصناعة سلع متعتنا. المفروض أن يكون إنكار ما هو بهذا الجلاء مستحيلاً. لكن هذا بالذات ما يحدث.

ورغم وجود أناسٍ أحياء بين الأغنياء، ألتقيهم -لحسن الحظّ- أكثر فأكثر، خاصةً من النساء والشباب، عند تذكيرهم بثمن هنائهم، دون محاولة إخفاء الحقيقة، يمسكون برؤوسهم ويقولون: "آخ، هل هذا معقول. إذا كان الأمر هكذا فيستحيل العيش"؛ ورغم وجود أناس صادقين يرون خطيئتهم، مع أنهم لا يستطيعون التخلّص منها، فإنّ معظم الناس في زماننا قد تقمصوا أدوارهم المنافقة إلى درجة أنّهم ينكرون ما يسفع أعين أيّ مبصر.

"هذا كلّه غير صحيح، -يقولون- فلا أحد يرغم الشعب على العمل لدى الملاّكين وفي المعامل. إنه اتّفاق حرّ. الملكية الكبيرة والرساميل ضرورية لأنّها تنظم العمل وتعطيه للطبقة العاملة، والعمل في المعامل والمصانع ليس بهذا الهول الذي تتحدث عنه. إذا كان هناك شيء من سوء الاستخدام في المعامل فإن الدولة والمجتمع يتخذان الإجراءات لإزالتها ولجعل عمل العمال أسهل بل حتى مستساغاً. لقد اعتاد العمال على العمل العضلي وهم ليسوا مؤهلّين لأيّ شيء آخر في الوقت الراهن. أما بؤس الشعب فليس ناتجاً على الإطلاق عن الإقطاع؛ وليس عن اضطهاد الرأسماليين له بل عن أسباب أخرى: إنه ناتج عن أميّة وفظاظة وسُكرْ الشعب. ونحن الموظفون الحكوميون نعمل على مكافحة ذلك بالإدارة الحكيمة، ونحن الرأسماليون نعمل على مكافحة ذلك عبر نشر المنتجات الصناعية، ونحن رجال الدين، عبر التعليم الديني، ونحن الليبراليون، عبر إنشاء نقابات العمال، وعبر رفع مستوى التعليم ونشره، بهذه الطرق سوف نزيد من رفاهية الشعب دون تغيير مواقعنا. لا نريد أن يكون الناس جميعاً فقراء بل نريدهم أن يكونوا أغنياء. وأيضاً كون الناس يتمّ تعذيبهم وقتلهم لإرغامهم على العمل لدى الأغنياء، إنما هي سفسطة: يتم إرسال الجنود لقتال الشعب فقط حين يقوم الشعب، الذي لا يفهم مصلحته، بالتمرّد ويخلّ بالاستقرار اللازم للصالح العام. كذلك لابدّ من قمع المجرمين الذين لأجلهم أُنشئت السجون والمشانق والأشغال الشاقة. نحن أيضاً نتمنى إلغاءَها ونعمل في هذا المنحى".

النفاق في زماننا مدعوم من طرفين:

كذبة الدين وكذبة العلم بلغتا حدوداً لو لم نكن نعيشها لما صدّقنا أنّ بإمكان الناس بلوغ هذه الدرجة من خداع الذات. وصل الناس في زماننا إلى حالة غريبة من قسوة القلب بحيث أنّهم ينظرون ولا يبصرون، يصغون ولا يسمعون ولا يفقهون.

يعيش البشر حياة متناقضة لوعيهم منذ زمنٍ بعيد. ولولا وجود النفاق لما استطاعوا عيش هذه الحياة. نظام الحياة المتناقض لوعيهم هذا مستمرّ فقط لأنّه مغلّف بالنفاق. وكلّما ازدادت المسافة بين الواقع ووعي الناس كلّما امتدّ النفاق أكثر. لكن حتى النفاق له حدود. وأعتقد أننا قد وصلنا في زماننا إلى ذلك الحدّ.

كل إنسان في زماننا، بإدراكه المسيحي اللاشعوري، حاله تماماً كحالِ شخصٍ نائم يرى في المنام أنه يجب أن يفعل ما يعلم أنْ ليس عليه أن يفعله، حتى في المنام. إنه يعلم ذلك في أعماق وعيه، ورغم ذلك، كما لو أنه عاجز عن تغيير وضعه، لا يمكنه التوقف والكفّ عن القيام بما يعلم أنْ ليس عليه القيام به. وكما يحدث في المنام، تغدو حاله مضنية أكثر فأكثر، ويبلغ أخيراً، أقصى درجات التوتر، وحينها يبدأ بالشك في واقعية ما يتمثّل له، ويبذل جهداً واعياً للاستيقاظ من الكابوس الذي يمسك بتلابيبه.

هذه أيضاً حال الإنسان في عالمنا المسيحي. إنه يعلم أن ما يقوم به وما يحدث من حوله كريه وشنيع وغير ممكن ويناقض إدراكه، ويشعر أنّ هذا الوضع يصبح مضنياً أكثر فأكثر، وأنه قد بلغ أقصى مستويات التوتر.

هذا غير ممكن: غير ممكن أننا، بشر زماننا، بإدراكنا المسيحي، الممتزج بدمائنا وأجسادنا، لكرامة الإنسان وتساوي البشر، بمطلبنا بتعايش الشعوب السلمي واتّحادها، أنّ نعيش فعلاً بحيث أنّ شتى أفراحنا، شتى أشكال راحتنا، يكون ثمنها آلام وأرواح إخواننا، وبحيث أن نكون في هذه الأثناء، على قيد شعرة للانقضاض، في أي لحظة، كوحوشٍ ضارية، على بعضنا بعضاً، شعبٌ على شعب، مدمرين دون رحمة أعمال وحيوات الناس فقط لأن دبلوماسياً أو حاكماً ضالاً ما كتب حماقةً ما إلى دبلوماسيٍّ أو حاكمٍ ضالٍّ مثله.

هذا مستحيل. لكنّ أيّ إنسان في زماننا يرى أنّ هذا بالتحديد ما يحدث وأنّ هذا بالتحديد ما ينتظره. والوضع يغدو مضنياً أكثر فأكثر. وكما أنّ الشخص النائم لا يصدّق

أن يكون واقعاً ما يتمثّل له واقعاً، ويريد الاستيقاظ منه إلى الواقع الفعلي، كذلك تماماً الإنسان العادي لا يمكنه أن يصدّق من أعماقه أنّ الوضع المخيف الذي يعيشه، والذي يغدو أسوأ فأسوأ، واقعٌ، ويريد الاستيقاظ إلى الواقع الحقيقي، إلى الواقع الذي يعيش في وعيه.

وكما أنه يكفي أن يقوم الإنسان النائم ببذل جهدٍ واعٍ ويتساءل: أليس هذا حلماً؟ حتى ينهار فوراً ما بدا له وضعاً ميئوساً منه ويستيقظ إلى الواقع المريح والمفرح، كذلك تماماً الإنسان المعاصر يكفيه أن يبذل جهداً واعياً، وأن يشكّ في ما يصوره له نفاقه الخاص ونفاق المحيط، ويتساءل: أليست هذه كذبة؟ حتى يشعر فوراً أنه قد انتقل، مثل الشخص المستيقظ، من العالم المخيف المتخيّل إلى الواقع الحقيقي المريح والمفرح. ومن أجل هذا لا يحتاج الإنسان للقيام بأي بطولات أو أفعال بل يلزم فقط أن يبذل جهداً داخلياً واعياً.

5

لكن هل يستطيع الإنسان القيام بهذا المسعى؟ وفقاً للنظرية القائمة والضرورية للنفاق الإنسان ليس حراً ولا يمكنه تغيير حياته.

"ليس بمقدور الإنسان تغيير حياته لأنه ليس حراً؛ وهو ليس حراً لأنّ كلّ أفعاله مقيّدة إلى أسبابٍ سابقة. ومهما فعل الإنسان هناك دائماً أسباب ما قام الإنسان بموجبها بأفعالٍ ما، لذا لا يمكن للإنسان أن يكون حرّاً وأن يغير حياته"،- يقول المدافعون عن ميتافيزيقا النفاق. ولكانوا محقّين تماماً لو أنّ الإنسان كان كائناً لا واعياً وجامداً فيما يتعلق بالحقيقة، أي أن يبقى مستوى إدراكه للحقيقة ذات المستوى الذي أدركها منه أول مرة. لكن الإنسان كائنٌ واعٍ ويرتقي باستمرار في إدراكه للحقيقة، وبالتالي حتى لو لم يكن الإنسان حرّاً في هذا التصرّف أو ذاك لأنّ لكلّ تصرّفٍ سبب، فإنّ أسباب هذه التصرّفات ذاتها، التي تنحصر بالنسبة للإنسان الواعي في أنّه يقرّ بهذه الحقيقة أو تلك دافعاً لتصرّفه، يتحكّم بها الإنسان. وبالتالي فالإنسان غير الحرّ بالقيام بهذا التصرّف أو ذاك، هو حرٌّ من حيث دوافع هذه التصرّفات. كما أنّ سائق الشاحنة ليس حرّاً في تغيير حركة الشاحنة التي تمّت أو التي تتمّ، لكنه حرٌّ من حيث تحديد حركتها اللاحقة مسبقاً.

مهما فعل الإنسان الواعي فإنه يتصرّف على هذا النحو، وليس على نحوٍ آخر، فقط لأنه إما الآن يقرّ بأنّ الحقيقة تكمن في أن يتصرّف على هذا النحو، وإما لأنّه كان يقرّ في وقتٍ ما بذلك، لكنه يتصرّف الآن، بسبب قوة العطالة أو العادة، كما كان يعتبره واجباً من قبل.

في كلتي الحالتين سبب تصرّفه لم يكن معروفاً بينما إقراره بشكلٍ معين للحقيقة، وبالتالي إدراكه لهذه الظاهرة أو تلك، هو سبب كافٍ للتصرّف.

إذا امتنع الإنسان عن تناول الطعام، إذا كان يعمل أو يرتاح، إذا كان يتجنّب الخطر أو يتعرّض له، إذا كان شخصاً واعياً فإنه يتصرّف على هذا النحو فقط لأنّه يعتبر ذلك الآن واجباً وحصيفاً؛ يعتبر أن الحقّ يكمن في أن يتصرّف على هذا النحو، وليس على نحوٍ آخر، أو أنّه يرى هذا منذ زمنٍ بعيد.

أما الإقرار بحقيقة معينة أو عدم الإقرار بها فلا يتوقّف على أسبابٍ خارجية بل على أسبابٍ أخرى كامنة في الإنسان ذاته. بالتالي، أحياناً، في ظلّ كل الظروف الخارجية التي تبدو مربحة للاعتراف بالحقيقة شخصٌ ما لا يعترف بها بل، على العكس، يعترف بأخرى رغم كل الظروف غير المربحة دون أسبابٍ ملحوظة. شيءٌ من هذا القبيل يرد في إنجيل يوحنا (6،44): "لا يقدر أحد أن يُقبل إليّ إن لم يجتذبه الآب الذي أرسلني"، أي أنّ معرفة الحقّ، الذي هو سبب كل تجلّيات الحياة الإنسانية، لا تتوقف على الظواهر الخارجية بل على صفات داخلية ما للإنسان لا يمكنه ملاحظتها.

وبالتالي فالإنسان، غير الحرّ في تصرّفاته، يشعر بنفسه حرّاً فيما يتعلّق بسبب تصرّفاته، في معرفة أو عدم معرفة الحقّ. ويشعر بنفسه حرّاً ليس فقط فيما يتعلّق بالأحداث الخارجية التي لا تحدث في داخله بل كذلك فيما يتعلّق بتصرّفاته.

كذلك الإنسان الذي يرتكب، بفعل الغضب، عملاً مناقضاً للحقيقة التي يقرّها، يبقى - رغم ذلك- حرّاً في إقراره أو عدم إقراره بها؛ أي يستطيع، دون أن يُقرّ بالحقيقة، اعتبار تصرفه ضرورياً، وتبرير ارتكابه إياه لنفسه، ويمكنه، مع أقراره بالحقيقة، اعتبار تصرّفه سيئاً وإدانة نفسه عليه.

كذلك المقامر أو السكّير، الذي لا يمكنه مقاومة الإغراء ويستسلم لإدمانه، يبقى - رغم ذلك- حرّاً في اعتبار أن القمار أو السُكر شرّاً أو تسليةً بريئة. في الحالة الأولى،

حتى إذا لم يتخلّص من إدمانه فوراً فإنّه كلّما اعترف بالحقيقة بصدقٍ أكبر كلما تحرّر منه أكثر؛ في الحالة الثانية، سيقوم بتعزيز إدمانه أكثر ويحرم نفسه أيّ إمكانية للتخلّص منه.

كذلك تماماً الشخص الذي لم يحتمل الحريق، وفرّ من منزلٍ يحترق دون أن ينقذ صديقه، يبقى حرّاً (مع اعترافه بحقيقة أنّ على الإنسان تعريض حياته للخطر لإنقاذ حياة الآخرين) في اعتبار تصرّفه سيئاً وإدانة نفسه عليه أو (دون أن يعترف بهذه الحقيقة) اعتبار تصرّفه طبيعياً وضرورياً وتبرير نفسه. في الحالة الأولى، التي يعترف فيها بالحقيقة بغضّ النظر عن تراجعه عنها، هو يمهّد السبيل أمام سلسلة كاملة من النتائج الناتجة حتماً عن إقراره بتصرفات نكران ذاتٍ كهذه؛ في الحالة الثانية يمهّد السبيل لسلسلة كاملة من التصرّفات الأنانية بامتياز.

هذا لا يعني أن الإنسان حرّ دائماً في اعترافه أو عدم اعترافه بشتى الحقائق. هناك حقائق معترف بها منذ زمن بعيد، إما من قِبل المرء ذاته وإما منقولة إليه عبر التربية أو التقاليد، ويعتبرها عقيدته التي اتبّاعها أصبح عادة، طبيعةً ثانية، وهناك حقائق تبدو له غير واضحة فحسب. الإنسان ليس حرّاً في عدم الاعتراف بالحقائق الأولى وفي الاعتراف بالحقائق الثانية، بصورة متماثلة. لكن هناك نوع ثالث من الحقائق، كالتي لم تصبح بعد دوافع لا واعية للعمل بالنسبة للإنسان لكنّها، بدلاً من ذلك، كُشفت له بمنتهى الوضوح بحيث لا يمكنه تجاوزها ولابدّ له، بطريقةٍ ما، من التعامل معها، والاعتراف أو عدم الاعتراف بها. في تعامله مع هذه الحقائق تتجلّى حرية الإنسان.

كل إنسان في حياته يجد نفسه، فيما يتعلق بالحقيقة، في وضع عابر سبيل يسير في العتمة على ضوء القنديل المتحرك إلى الأمام: إنّه لا يرى ما لم يُنره القنديل بعد، لا يرى ولا يمكنه تغيير علاقته، لا بهذا ولا بذاك؛ إنه يرى، أيّاً كان الموضع الذي يقف فيه في الطريق، فقط ما ينيره القنديل، ويستطيع دائماً اختيار هذه الجهة أو تلك من الطريق التي يسير فيها.

بالنسبة لأيّ إنسان هناك دائماً حقائق غير مرئية له، ولا تُكشف له بالبحث العقلي، وهناك حقائق سبق له أن عاشها ونسيها أو استوعاها، وهناك حقائق معينة تنهض أمامه

عندما يستنير عقله، وتتطلب الاعتراف بها. وفي هذا الاعتراف أو عدم الاعتراف بهذه الحقائق تتجلّى ما نعتبره جميعاً حريّتنا.

كلّ صعوبة المسألة، التي تبدو غير قابلة للحلّ، المتعلقة بحرية الإنسان ناتجة عن أنّ الذين يحاولون حلّ المسألة يتصورون الإنسان جامداً في تعامله مع الحقيقة.

الإنسان ليس حرّاً دون شك إذا كنّا نعتبره جامداً، إذا نسينا أنّ حياة الإنسان والإنسانية ليست سوى حركة دائمة من الظلام إلى النور، من مستوى أدنى للحقيقة إلى مستوى أعلى، من حقيقة أكثر امتزاجاً مع الضلالات إلى حقيقةٍ أكثر تحرراً منها. لما كان الإنسان حرّاً لو أنّه لم يكن يعرف أيّ حقيقة كانت، وكذلك تماماً ما كان ليكون حرّاً بل حتى ما كان ليكون لديه أي مفهوم عن الحرية لو أنّ كلّ الحقيقة، التي يجب أن تقود حياته، لم تكشف له مرّة وإلى الأبد، بعذريتها دون أي ضلالات.

لكن الإنسان ليس جامداً في علاقته مع الحقيقة بل يدرك باستمرار، تبعاً لتطورَه في الحياة، كل إنسان على حدة وكذلك الإنسانية جمعاء، مستوى أعلى فأعلى للحقيقة ويتحرّر أكثر فأكثر من الضلالات. لذا فالبشر يتواجدون دائماً في علاقة ثلاثية مع الحقيقة: بعض الحقائق باتت مستوعاة من قبله وأصبحت دوافع لا شعورية لأفعاله، وبعضها بدأ يكتشفها للتوّ، وثالثة، رغم أنه لم يستوعبها بعد، مكشوفة له بدرجة من الوضوح ولا بدّ له من التعامل معها بطريقة ما، لابدّ له من الاعتراف أو عدم الاعتراف بها. وهذه الحقائق بالذات الإنسان حرٌ في اعترافه أو عدم اعترافه بها.

لا تكمن حرية الإنسان في أنّه، بغضّ النظر عن مجرى الحياة وعن الدوافع الموجودة والمؤثّرة فيه، قادر على التصرّف على هواه، بل في أنه قادر، باعترافه بالحقيقة المكشوفة له واعتناقه إياها، على أن يصبح حرّاً وفاعلاً سعيداً للعمل الأزلي والأبدي الذي يقوم به الله وتقوم به الحياة، ويمكنه ألا يعترف بهذه الحقيقة، ويغدو عبداً لها ويُدفع، مُكرهاً ومُعذباً، إلى حيث لا يريد.

الحقيقة لا تهدي فقط إلى درب الحياة الإنسانية بل تفتح الدرب الوحيد الذي يمكن للحياة الإنسانية السير فيه. لذا لابدّ للبشر كافةً، طوعاً أم كُرهاً، من السير في طريق الحقيقة: بعضهم من تلقاء ذاتهم عبر قيامهم بما قدّرته لهم الحياة، وآخرون عبر خضوعهم مكرهين لقانون الحياة. وحرية الإنسان تكمن في هذا الاختيار.

حرية كهذه، ضمن هذه الحدود الضيّقة، تبدو للناس ضئيلة إلى درجة أنّهم لا يلاحظونها. بعضهم (أصحاب نظرية الحتمية) يعتبرون أنّ نصيب الفرد من الحرية ضئيل بحيث لا يعترفون بها على الإطلاق؛ آخرون (المدافعون عن الحرية المنطلقة)، آخذين بالحسبان حريتهم المتخيّلة، يرفضون هذه الحرية التي تبدو لهم تافهة. الحرية، المحصورة بين حدّ جهل الحقيقة وحدّ معرفتها بدرجة معينة، لا تبدو للناس حرية لكن، شاء الإنسان أم أبى الاعتراف بالحقيقة المكشوفة له، فإنه سيُرغم حتماً على تحقيقها في الحياة.

الفَرَس، المربوطة مع أفراسٍ أخرى إلى عربة، ليست حرّة في عدم جرّ العربة. وإذا لم تجرّ العربة فستضربها العربة في أرجلها، وستذهب إلى حيث تذهب العربة، وستجرّها رغماً عنها. لكن بغضّ النظر عن هذه الحرية المحدودة فهي حرّة في أن تجرّ العربة طوعاً أو أن تدفعها العربة دفعاً. والأمر ذاته فيما يتعلق بالإنسان.

سواء كانت هذه الحرية كبيرة أم لا مقارنة بتلك الحرية الفنطازية التي نرغب في امتلاكها، فإن هذه الحرية لا شكَّ في وجودها، وهذه الحرية حرية حقاً، وفي هذه الحرية يكمن خيرٌ يمكن للإنسان بلوغه.

وعدا عن أنّ هذه الحرية تمنح الإنسان الخير، فإنها أيضاً الوسيلة الوحيدة للقيام بالعمل الذي يمنح العالم حياةً.

حسب تعليم المسيح، الإنسان الذي يرى معنى الحياة في المجال الذي هي ليست حرّة فيه، في عالم النتائج، أي الأفعال، ليست له حياة حقّة. يمتلك حياة حقّة -وفق التعليم المسيحي- فقط مَنْ ينقل حياته إلى المجال الذي هي حرّة فيه، إلى عالم الأسباب، أي إدراك وإقرار الحقيقة الموحاة واتّباعها، وبالتالي لابدّ من تطبيقها لاحقاً، كما تتبع العربة الفَرَس.

بتكريسه حياته للأعمال الحسّية يعمل الإنسان الأعمال التي تتوقّف دائماً على أسباب مؤقتة زائلة ليست في داخله. هو ذاته لا يفعل شيئاً مما يبدو له أنه يقوم به، لأن، في الواقع، كل الأعمال التي يعتقد أنّه هو الذي يقوم بها إنّما تُفعل من خلاله من قِبل قوة عليا، وهو ليس خالق الأشياء بل عبدٌ لها؛ وبتكريسه حياته لإقرار واعتناق الحقيقة المكشوفة له، متّحداً بمنبع الحياة ككلّ، فإنه لا يعود يقوم بأعمالٍ شخصية خاصّة، متوقّفة

على ظروف المكان والزمان، بل يقوم بأعمالٍ لا أسباب لها بل هي ذاتها أسباب كلّ شيء آخر، ولها قيمة لا متناهية ولا حدود لها.

عبر استخفافهم بجوهر الحياة الحقّة الكامن في الاعتراف بالحقّ واتباعه، وعبر تكريس جهودهم لتحسين حياتهم من خلال أفعالٍ خارجية، أصحاب الفهم الحياتي الوثني مَثَلهم كمَثَل أناسٍ على متن باخرة، والذين لكي يبلغوا غايتهم قاموا بإطفاء المرجل البخاري الذي يعيقهم عن توزيع المُجذِّفين، وراحوا يحاولون، بدلاً من أن يسافروا مجهّزين بالبخار والمروحة لعبور العاصفة، التجذيف بمجاذيف لا تبلغ المياه. ملكوت الله يؤخذ بالمجاهدة وفقط المجاهدون يغتبطون به، وهذا الجهد للتخلّي عن تغيير الظروف الخارجية، وللاعتراف بالحقّ واتّباعه هو الجهاد الذي يؤخذ ملكوت الله بوساطته، والذي يمكن ويجب أن يُبذل في زماننا.

يكفي أن يفهم البشر ما يلي: الكفّ عن الانشغال بالأعمال الخارجية والعامّة التي هم ليسوا أحراراً فيها، واستخدام واحد بالمائة فقط من الطاقة، التي يستخدمونها في الأعمال الخارجية، على ما هم أحرار فيه، على إقرار واعتناق الحقيقة التي تَمثُل أمامهم، على تخليص الناس من الكذب والنفاق اللذين يحجبان الحقيقة، حتى ينهار فوراً، دون جهدٍ أو قتال، نظام الحياة الباطل الذي يُعذّب البشر ويُهدّد بويلاتٍ أسوأ، وحتى يتحقّق ملكوت الله أو على الأقل درجته الأولى التي بات البشر جاهزين لها من حيث مستوى وعيهم.

كما أنه تكفي دفعة واحدة لكي يتحوّل فوراً السائل المشبع بالملح إلى بللورات، كذلك قد يكون أدنى جهد كافياً في الوقت الراهن لكي تأسر الحقيقة، التي سبق أن كُشفت للناسن مئات، بل آلاف وملايين، الناس، ولكي ينشأ رأي عام يتناسب مع الوعي الحالي، ولكي يتغير، نتيجةً لنشوئه، مجمل نظام الحياة القائم. والقيام بهذا الجهد متوقّف علينا.

فقط لو أنّ كلاًّ منّا حاول أن يفهم ويعي تلك الحقيقة السامية التي تحيط بنا من جميع الجهات، بشتى الأشكال، وتتوسلنا في داخل نفوسنا؛ فقط لو أننا كففنا عن الكذب وعن التظاهر بأننا لا نرى هذه الحقيقة أو بأننا نتمنى تحقيقها ليس فقط في ما تطلبه منّا قبل أيّ شيءٍ آخر، فقط لو أننا اعترفنا بهذه الحقيقة التي تنادينا واعتنقناها بشجاعة، لكنّا رأينا فوراً أنّ مئات، بل آلاف وملايين، الناس حالهم كحالنا، ويرون مثلنا الحقيقة، وينتظرون مثلنا اعتراف الآخرين بها. فقط لو كفّ الناس عن المراءاة لكانوا رأوا فوراً

أنّ نظام الحياة العنيف، الوحيد الذي يقيّدهم ويبدو لهم راسخاً وضرورياً ومقدّساً ومُقاماً من قِبل الله، قد بدأ يترنّح ويرتكز فقط على كذبة النفاق التي نحن مع أمثالنا نُبقي عليها.

"لكن إذا كان هذا صحيحاً، إذا كان صحيحاً أنّ تدمير نظام الحياة القائم يتوقّف علينا؛ فهل يحقّ لنا تدميره دون أن نعلم بوضوح ما الذي سنضعه مكانه؟ ما الذي سيحدث للعالم إذا تمّ القضاء على نظام الحياة القائم؟"

"ماذا سيحدث هناك، خلف جدران العالم التي نُبقي عليها؟"

"غِرتسن"

الخوف يهيمن- الفراغ، الاتّساع، الإرادة... كيف يمكن السير دون معرفة الوجهة، كيف يمكن الفَقْد دون رؤية المكسب؟

"لو أنّ كولومبس فكّر على هذا النحو لما رفع المرساة. من الجنون مَخْر عُباب المحيط دون معرفة الطريق، المحيط الذي لم يمخر عبابه أحد، الإبحار إلى بلادٍ وجودها -سؤال. بهذا الجنون اكتشف عالماً جديداً. بالطبع، لو أنّ الشعوب انتقلت من hotel garni إلى آخر، أفضل، لكان الأمر أسهل، لكنّ المصيبة أنْ ما من أحدٍ هناك ليقوم بتحضير شققٍ جديدة. الأمور أسوأ في المستقبل -أين منه المحيط- إذ ليس فيه شيء، وسيكون على النحو الذي ستصنعه فيه الظروف، والناس."

"إذا كنتم قانعين بالعالم القديم فحاولوا الحفاظ عليه، فهو هشٌ ولن يصمد طويلاً؛ لكن إذا كنتم لا تطيقون العيش في التناقض الأبدي بين قناعاتكم وحياتكم بحيث تفكّرون في شيء وتعملون شيئاً آخر، فاخرجوا من تحت قبابكم الكلسية القروسطية إلى خوفكم. أعلم جيداً أنّ هذا ليس سهلاً. ليس هيّناً على الإنسان مفارقة ما اعتاد عليه منذ ولادته، ما كبر معه وترعرع عليه. البشر مستعدّون لتضحياتٍ مخيفة لكن ليست تلك التي تتطلّبها منهم الحياة الجديدة. هل هم مستعدّون للتضحية بالحضارة الحديثة وبنمط حياتهم وأديانهم وأخلاقيّتهم المشروطة؟ هل هم مستعدّون لفقدان كلّ الثمار التي أنتجوها بهذه الجهود، الثمار التي نفتخر بها منذ ثلاثة قرون، لفقدان كلّ أسباب راحة كينونتنا ومفاتنها، وتفضيل فتوّةٍ متوحّشةٍ على شيخوخةٍ مثقّفة، تحطيم قلعتنا الموروثة فقط للابتهاج بوضع حجر الأساس للعالم الجديد الذي سيُبنى أفضل، دون شك، من بعدنا؟" (غيرتسن: مج5 ، ص55)

هذا ما قاله قبل نصف قرن تقريباً كاتب روسي رأى، بعقله النفّاذ، بوضوح آنذاك ما بات يراه أيّ شخص ضعيف العقل في زماننا: استحالة استمرار الحياة على الأسس القديمة وحتمية إقامة أشكال جديدة للحياة.

من أبسط وجهة نظر دنيوية جامدة بات واضحاً أنّ من الحماقة البقاء تحت قبّة بناء لم تعد تحتمل ثقلها، وأنّه يجب الخروج من تحتها. وبالفعل، يصعب تصوّر وضعٍ أكثر كارثية من وضع العالم المسيحي في الوقت الراهن، بشعوبه المُسلَّحة ضدّ بعضها بعضاً، بضرائبه التي تزداد باستمرار للإنفاق على هذا التسلّح المتنامي، بكراهية الطبقة العاملة للغنية التي تزداد اضطراماً، بسيف حرب داموقلس المعلّق فوق رؤوس الجميع، والمستعدّ والواجب حتماً أن ينقطع في أيّ لحظة، عاجلاً أم آجلاً.

هيهات أن تكون أيّ ثورة أكثر كارثيةً بالنسبة لمعظم الشعب من النظام القائم باستمرار لحياتنا، بالحري من فوضاها، بضحايا العمل اللاإنساني المعتادين، بفقرها وسُكْرها وفجورها، وبكلّ أهوال الحرب القادمة القادرة على ابتلاع ضحايا أكثر من جميع ثورات القرن الحالي في سنة واحدة.

ماذا سيحدث لنا، للبشرية جمعاء، إذا قام كلٌّ منّا بتنفيذ ما يطلبه منه الله من خلال الضمير الكامن فيه؟ ألن تحدث مصيبة من جرّاء أنّني، مُهيمَناً عليَّ كليّاً من قِبل مالك السلطة، أنفّذ، في المؤسّسة التي أنشأها ويقودها هو، ما يأمرني بالقيام به، والذي يبدو لي، أنا الجاهل بغايات السيّد النهائية، غريباً؟

لكن حتى ليس سؤال "ماذا سيحدث؟" هو الذي يثير قلق الناس عندما يُبطئون في تنفيذ إرادة السيّد بل تقلقهم مسألة كيفية العيش دون شروط حياتنا المعتادة التي نسمّيها: العلم، الفن، الحضارة، الثقافة. إنّنا نشعر شخصياً بعبء حياتنا الراهنة كلّه، بل نرى أنّ حتى نظام الحياة هذا إذا كان سيستمر فسوف يُهلكنا حتماً، لكنّنا، إضافةً إلى ذلك، نريد لشروط حياتنا، الناتجة عنها: علومنا، فنوننا، حضاراتنا، ثقافاتنا، عند تغيّر حياتنا، أن تبقى سليمةً. مَثَل هذا كمثل شخصٍ يعيش في منزلٍ قديم، ويعاني من برد وعدم راحة هذا المنزل، ويعلم، عدا عن ذلك، أنّ المنزل يكاد ينهار، فيوافق على إعادة بنائه شريطة عدم خروجه منه: هذا الشرط يعادل رفض إعادة بناء المنزل. "لكنّي ما إن أخرج من المنزل فسأفقد لبعض الوقت كلّ أسباب الراحة، وقدلا يُبنى المنزل الجديد أو قد يُبنى

بطريقة مختلفة بحيث لا يتوفّر فيه ما اعتدت عليه!" لكن، ما دامت المواد متوفّرة والبنّاؤون موجودين، فعلى الأغلب سيُبنى المنزل الجديد أفضل من السابق، فضلاً عن أنّه ليس هناك احتمال فقط بل يقين بأنّ المنزل القديم سوف ينهار ويسحق الذين يبقون فيه. سواء كانت الشروط السبقة والمعتادة للحياة ستبقى أم تزول، سواء كانت ستنشأ شروط جديدة كلياً وأفضل أم لا، يجب حتماً الخروج من الشروط القديمة التي باتت مستحيلة ومهلكة لحياتنا، والتوجّه لملاقاة المستقبل.

"سوف تزول العلوم والفنون والحضارات والثقافات!" لكنّ هذا كلّه ليس سوى تجلّيات مختلفة للحقيقة، والتغيير القادم سيتمّ فقط من أجل الاقتراب إلى الحقيقة وإحيائها. فكيف يمكن لتجلّيات الحقيقة أن تزول نتيجةً لإحيائها؟ سوف تكون مختلفة، أفضل وأسمى، لكنّها لن تزول على الإطلاق. سيزول منها ما كان باطلاً؛ أما ما كان من الحقّ ففقط سيزدهر ويتعزّز أكثر.

6

توبوا أيّها الناس، وآمنوا بالإنجيل، بالتعليم المتعلّق بالصلاح. إذا لم تتوبوا فستهلكون كما هلك الذين قتلهم بيلاطس، وكما هلك الذين سحقهم برج "سيلوام" وكما هلك ملايين وملايين الناس، القاتلين والمقتولين، العادمين والمعدومين، المعذِّبين والمعذَّبين، وكما هلك بحماقة ذلك الإنسان الذي بذر البذار وكان ينوي العيش طويلاً فمات في الليلة التي أراد فيها بدء الحياة.

"توبوا أيّها الناس، وآمنوا بالإنجيل." قال المسيح قبل 1800 سنة، وتقول هذا بمزيدٍ من الإقناع الآن كارثية ولامعقولية حياتنا -ممّا تنبّأ به المسيح ويحدث الآن- التي بلغت أقصى حدود الكارثية واللامعقولية.

فالآن، بعد كلّ هذه القرون من المحاولات الدؤوبة لنظام العنف الوثني لضمان حياتنا، المفروض أن يكون واضحاً للجميع أنّ كلّ المساعي الموجَّهة نحو هذه الغاية تحمل فقط مخاطر جديدة إلى الحياة الشخصية والاجتماعية كذلك، لكنّها لا تضمنها على الإطلاق. إذ أيّاً كانت ألقابنا، وأيّاً كانت الملابس التي نرتديها، أيّاً كان الزيت الذي نمسح

به أنفسنا وعند أيّ قسيسٍ كان، مهما بلغت الملايين التي نملكها، مهما بلغ عدد الحرّاس الذين يحرسون طريقنا، مهما بلغ عدد رجال الشرطة الذين يحمون ثرواتنا، مهما أعدمنا مِن الثوريين والأنارخيين المجرمين، أيّاً كانت مآثرنا، كيفما كانت الدول التي أنشأناها والقلاع والأبراج التي بنيناها، من برج بابل إلى برج إيفل، يَمثُل أمامنا دائماً شرطان لا مفرّ منهما لحياتنا، يقضيان على معناها كلّه: 1) الموت القادر في أيّ لحظة على إدراك أيٍّ منّا، 2) عدم رسوخ جميع الأعمال التي قمنا بها، الزائلة بسرعة شديدة دونما أثر. مهما فعلنا: سواء أنشأنا الدول أم بنينا القصور والنصب التذكارية أم ألّفنا القصائد والأغنيات، هذا كلّه قصير الأجل، وسيمضي كلّه دون أن يترك أثراً. ولهذا، مهما أخفينا هذا عن أنفسنا، لا يمكننا عدم رؤية أنّ معنى حياتنا لا يمكنه أن يكون لا في وجودنا الجسدي الشخصي المعرَّض لآلام لا مفرّ منها وللموت المحقَّق، ولا في أيّ مؤسّسة دنيوية أو نظام دنيويّ.

أيّاً كنت –يا قارئ هذه السطور– فكّر في مكانتك وواجباتك، ليس في مكانة الملاّك أو التاجر أو القاضي أو الإمبراطور أو الرئيس أو الوزير أو القسيس أو الجندي، الذي يصفك به الناس مؤقّتاً، وليس في الواجبات المتخيّلة التي تضعها على عاتقك هذه المواقع، بل في موقعك الحقيقي والأبدي ككائنٍ خرج، بمشيئة أحدهم بعد أبدية بأكملها، من العدم، من المجهول، والذي قد يعود، بمشيئة أحدهم، إلى المكان الذي خرج منه في أيّ لحظة. فكّر في واجباتك، ليس في واجباتك المتخيّلة: واجبات الإقطاعي تجاه إقطاعته، والتاجر تجاه رأسماله، والإمبراطور والوزير والموظف تجاه الدولة، بل في واجباتك الحقيقية النابعة من مكانتك الحقيقية ككائنٍ استُدعي إلى الحياة ووُهِب عقلاً وقلباً. فهل ستفعل ما يطلبه منك الذي أرسلك إلى هذا العالم، والذي سرعان ما ترجع إليه؟ هل ستفعل ما يريده منك أم ستفعل ما يفعله الإقطاعي أو الصناعي الذي يستولي على نتاج عمل الفقراء بانياً حياته على هذا النهب، أو ما يفعله الحاكم أو القاضي الذي يقهر الناس ويحكم عليهم بالإعدام، أو ما يفعله العسكري الذي يتجهّز للحروب ويقاتل وينهب ويقتل؟

تقول إنّ العالم قد بُني على هذا النحو، إنّ هذا لا مناص منه، إنّك لا تفعل ذلك بإرادتك بل أنت مضطر إلى ذلك. لكن، قد يكون مغروساً فيك بمنتهى القوّة الاشمئزاز

من آلام الناس ومن تعذيبهم وقتلهم، قد يكون مغروسة فيك الحاجة إلى محبّة الناس، وحاجة أقوى إلى محبّة الناس لك، لكي ترى بوضوح أنّ فقط عند الاعتراف بتساوي البشر جميعاً، عند خدمتهم بعضهم بعضاً، يمكن تحقيق أكبر خير يمكن للبشر بلوغه، لكي يقول لك الكلام ذاته قلبك وعقلك والدين الذي تَدين به، لكي يقول لك العلم الشيء ذاته، ولكي تكون، رغم ذلك، من جرّاء أفكارٍ مبهمة ومعقّدة جداً، مضطراً إلى القيام بكلّ شيء على النقيض من هذا صراحةً، بحيث تكون مضطراً، إذا كنت إقطاعياً أو رأسمالياً، إلى بناء حياتك كلّها على اضطهاد الشعب، أو إذا كنت موظفاً حكومياً تكون مضطراً إلى أن تنتزع بالقوة من الفقراء أموالهم المضمّخة بدمائهم لكي تنتفع بها وتعطيها للأغنياء، أو إذا كنت قاضياً أو مُحلّفاً تكون مضطراً إلى الحكم على الناس الضالّين بالتعذيب أو الموت لأنّهم لم تُكشف لهم الحقيقة، أو أهمّ ما يرتكز عليه شرّ العالم –أن يتوجّب عليك أيّها الشابّ الالتحاق بالجندية وتتعهّد، متخلّياً عن إرادتك وعن مشاعرك الإنسانية، بقتل، تبعاً لإرادة أناسٍ غرباءٍ عنك، كلّ الذين يأمرونك بقتلهم؟

هذا مستحيل. حتى لو قال لك الناس إنّ هذا كلّه ضروري للحفاظ على نظام الحياة القائم، وإنّ النظام القائم، بفقره وجوعه وسجونه وإعداماته وجيوشه وحروبه، ضروري للمجتمع، وإنّ هذا النظام إذا انهار فستحلّ أسوأ الكوارث، فإنّ هذا يقوله فقط الذين نظام الحياة هذا مفيد لهم، أما كلّ أولئك الذين يفوقونهم عدداً بعشرة أضعاف، والذين يعانون من جرّاء نظام الحياة هذا، فجميعهم يفكّرون ويقولون العكس. وأنت ذاتك تعلم في أعماقك أنّ هذا غير صحيح، وأنّ نظام الحياة الراهن قد ولّى زمانه ولا بدّ من إعادة بنائه على أسس جديدة، وأنّه، لهذا السبب، لا حاجة أبداً للحفاظ عليه، عبر التضحية بالمشاعر الإنسانية.

الأكثر أهميةً هو أنّه حتى لو افترضنا أنّ النظام الراهن ضروري؛ فلماذا تشعر أنت بالذات بأنّك مُلزمٌ، منهكاً أفضل المشاعر الإنسانية لديك، بالحفاظ عليه؟ مَنْ جعلك حاضنة هذا النظام المُنهار؟ لا المجتمع، ولا الدولة، ولا الناس جميعاً لم يطلبوا منك الحفاظ على هذا النظام، شاغلاً موقع الإقطاعي أو التاجر أو الإمبراطور أو القسّ أو الجندي الذي تشغله؛ وإنّك تعلم جيداً أنّك لم تشغل وتقبل منصبك على الإطلاق للحفاظ، بنكران ذات، على نظام الحياة الضروري لخير البشر، بل لأجل ذاتك: لأجل جشعك

وحبّك للمجد وحبك للرّفعة، لأجل كسلك وجبنك. لو لم تكن راغباً في هذا الموقع لما فعلت كلّ ما ينبغي القيام به باستمرار للحفاظ على موقعك. حاول فقط الكفّ عن القيام بتلك الأعمال القاسية والعنيفة والغادرة والدنيئة التي لا تكفّ عن القيام بها للحفاظ على موقعك، وستفقده فوراً. فقط حاول، إذا كنت حاكماً أو موظفاً، الكفّ عن الكذب والدناءة، وعن المشاركة في أعمال العنف والإعدام؛ أو إذا كنت قسّاً، عن الكذب؛ أو إذا كنت عسكرياً، فعن القتل؛ أو إذا كنت إقطاعياً أو صناعياً، فعن الدفاع عن ملكيّتك عن طريق المحاكم وأعمال العنف، ولسوف تفقد فوراً الموقع الذي تقول إنّك مُقسَر عليه، والذي تدّعي أنه يُثقل عليك.

يستحيل وضع إنسانٍ رغماً عنه في موقعٍ يتعارض مع وعيه.

إذا كنت موجوداً في هذا الموقع فليس لأنّ هذا ضروري لأحدهم بل فقط لأنّك تريد ذلك. ولهذا، عارفاً أنّ هذا الموقع يتعارض صراحةً مع قلبك وعقلك وعقيدتك وحتى مع العِلم الذي تؤمن به، يستحيل عليك عدم التفكير بالسؤال: هل ستفعل ما يجب أن تفعل إذا بقيت في هذا الموقع، خاصةً وأنّك تحاول تبريره؟

إذ يمكن المجازفة بارتكاب الخطأ لو لم يكن لديك وقت لرؤية خطئك، ولو كان لما تجازف في سبيله أيّ أهمية. لكن ما دمت تعلم، ربّما، لأنّك قد تفنى في أيّ لحظة دون أدنى إمكانية، لا لك ولا للذين تجتذبهم إلى خطئك، لتصحيحه، فضلاً عن أنّك تعلم أنّك مهما فعلت في النظام الخارجي للعالم، فإنّ هذا كلّه سيزول مثلك أنت، بسرعة جدّاً، ربّما، دون أن يترك أثراً، فجليٌّ أنّه ما من شيءٍ يدعوك إلى المجازفة بارتكاب هذا الخطأ المخيف.

إنّ هذا بمنتهى البساطة والوضوح فقط لو لم نُعتِّم على الحقيقة المكشوفة لنا دون شك بالنفاق.

"تقاسم ما لديك مع الآخرين. لا تكنز الثروة. لا تتكبّر. لا تسرق. لا تُعذِّب. لا تقتل أحداً. لا تفعل بأحد ما لا تريد أن يُفعل بك." قيل هذا قبل 5000 سنة، وليس قبل 1800 سنة، ولم يكن بالإمكان الشكّ في حقّانية هذا القانون لولا النفاق: إذا كان يستحيل القيام بذلك، فعلى الأقلّ عدم الاعتراف بأنّ هذا يجب القيام به دائماً، وأنّ من لا يفعل ذلك يعمل سوءاً.

لكنّك تقول إنّ هناك أيضاً الصالح العام الذي من أجله يمكن ويجب التراجع عن هذه القواعد: من أجل الصالح العام يمكن القتل والتعذيب والنهب. "خيرٌ أن يموت إنسانٌ واحد عن الشعب،" تقول ما قاله قيافا، وتحكم بالإعدام على أحدهم، فثانٍ، فثالث، تسدِّد البندقية إلى هذا الشخص الذي يجب أن يموت عن الشعب، تودعه السجن، تنتزع منه أملاكه. تقول إنّك تقوم بهذه الأعمال العنيفة لأنّك تعتبر نفسك ابن المجتمع، أو الدولة، وتشعر أنّ من واجبك أن تخدمه وتتّبع قوانينه. لكن عدا عن انتمائك إلى دولة معيّنة، وإلى الواجبات النابعة من ذلك، لديك انتماء آخر إلى حياة العالم الأبدية، وإلى الله، وإلى الواجبات النابعة من هذا الانتماء.

وكما أنّ واجباتك النابعة من انتمائك إلى عائلة معيّنة أو مجتمع معيّن تخضع دائماً لواجباتك الأعلى النابعة من انتمائك إلى الدولة، كذلك واجباتك النابعة من انتمائك إلى الدولة لا بدّ لها من أن تخضع للواجبات النابعة من انتمائك إلى حياة العالم، إلى الله. وكما أنّه ليس من الحصافة تحطيم أعمدة الاتصال البرقي لتأمين حطب الوقود للأسرة أو المجتمع وزيادة رفاهيته لأنّ هذا يخرق القوانين التي ترعى مصلحة الدولة، كذلك تماماً ليس من الحصافة، من أجل صيانة الدولة وزيادة رفاهيّتها، تعذيب أو إعدام أو قتل إنسان لأنّ هذا يخرق القوانين التي ترعى مصلحة العالم.

واجباتك النابعة من انتمائك إلى الدولة ليس بإمكانها عدم الخضوع للواجب الأبدي الأسمى النابع من انتمائك إلى حياة العالم اللامتناهية أو إلى الله، ولا يمكنها مناقضتها، كما قال تلاميذ المسيح قبل 1800 سنة: "إن كان حقّاً أمام الله أن نسمع لكم أكثر من الله، فاحكموا." (أعمال الرسل: 4 ، 19) وأيضاً: "ينبغي أن يُطاع الله أكثر من الناس." (5 ، 29)

يؤكِّدون لك إنّه لكي لا ينهار النظام، الذي أُقيم البارحة من قِبل بضعة أشخاص في ركنٍ معيّنٍ من العالم والمتغيّر باستمرار، يجب عليك القيام بإعدام وتعذيب وقتل الأفراد الذين يُخلّون بنظام العالم الموثوق والثابت الذي أقامه الله أو العقل، فهل هذا جائز؟ ولهذا لا يمكنك عدم التفكير بموقعك، كإقطاعي أو تاجر أو قاضٍ أو إمبراطور أو رئيس أو وزير أو قسيس أو جندي، المرتبط بأعمال الاضطهاد والقهر والكذب والتعذيب والقتل، وعدم الاعتراف بعدم شرعيّتها.

لستُ أقول إنّ عليك فوراً إعطاء أرضك للفقراء، إذا كنت إقطاعياً، أو إعطاء أموالك ومعملك للعمّال. إذا كنت رأسمالياً، أو إذا كنت ملكاً أو وزيراً أو موظفاً أو قاضياً أو جنرالاً، أن تتخلّى فوراً عن منصبك، وإذا كنت جندياً (أي تشغل الموقع الذي يرتكز عليه كلّ العنف) أن تتخلّى فوراً عن موقعك، بغضّ النظر عن مخاطر رفض أداء الخدمة العسكرية.

إذا فعلت ذلك فإنّك تفعل الأفضل لكنّك -وهو الاحتمال الأكبر- قد لا تكون قادراً على القيام بذلك، فلديك علاقات وأسرة ومرؤوسون ورؤساء، وقد تقع تحت تأثيرٍ بمنتهى القوة للغوايات بحيث لا يكون بمقدورك القيام بذلك، لكن يمكنك دائماً الاعتراف بحقيقة الحقائق وعدم الكذب. عدم التأكيد بأنك تظلّ إقطاعياً أو صناعياً أو تاجراً أو رسّاماً أو كاتباً لأنّ هذا مفيد للناس، بأنّك لا تعمل محافظاً أو نائباً عامّاً أو ملكاً لأنّ هذا مستساغ ومعتاد لك بل لأجل خير الناس، بأنّك لا تستمرّ بالبقاء جندياً لأنّك تخشى العقاب بل لأنّك تعتبر الجيش ضرورياً لضمان حياة الناس، يمكنك دائماً عدم الكذب على هذا النحو على نفسك وعلى الناس، وليس يمكنك فحسب بل يجب عليك لأنّ في هذا وحده، في تحرّرك من الباطل واعتناقك الحقّ، يكمن خير حياتك الوحيد.

ويكفي أن تفعل هذا فقط حتى يتغيّر وضعك تلقائياً لا مناص.

أُعطي لك أمر واحد، واحد فقط، أنت فيه حرٌّ ومهيمن، في الحياة، والأمور الأخرى كلّها خارجة عن سلطانك. يكمن هذا الأمر في معرفة الحقّ واعتناقه.

وإذا بك -لأنّ أناساً ضالّين مثيرين للشفقة، مثلك، قد أقنعوك بأنّك جندي أو إمبراطور أو إقطاعي أو غني أو قسّ أو جنرال- تبدأ بالقيام بالشرّ الذي يناقض، بوضوح ودون شك، عقلك وقلبك: تبدأ بتعذيب ونهب وقتل الناس، تبني حياتك على معاناتهم، والأهمّ، بدلاً من القيام بعمل حياتك الوحيد، أي الاعتراف بالحقيقة المعروفة لك واعتناقها، تقوم، متظاهراً بعناية بأنّك لا تعرفها، بحجبها عن ذاتك وعن الآخرين، مناقضاً بذلك صراحةً واجبك الوحيد.

وفي أيّ شروط تفعل هذا؟ أنت، الذي قد تموت في أيّة لحظة، تُصدر حكم الإعدام، تعلن الحرب، تذهب إلى الحرب، تحاكم، تعذّب، تنهب العمّال، تترفّه وسط الفقراء وتُعلِّم الضعفاء الذين يصدّقونك أنّ هذا ما يجب وأنّ هذا هو واجب الناس، غافلاً عن أنّك في

اللحظة التي تفعل فيها هذا قد تصيبك بكتيريا أو رصاصة فتحشرج وتموت، وتُحرَم إلى الأبد من إمكانية تصحيح أو تغيير الشرّ الذي صنعته بالآخرين، وبنفسك خاصّةً، مُهلكاً عبثاً، مرّة وإلى الأبد، الحياة التي مُنِحتها، دون أن تعمل فيها الشيء الوحيد الذي كان عليك عمله حتماً.

إذ مهما كان هذا بسيطاً وقديماً، ومهما خدّرنا أنفسنا بالنفاق وبإيهام الذات النابع منه، ما من شيءٍ قادرٍ على تقويض يقينية تلك الحقيقة البسيطة والواضحة، بأنّه لا يمكن لأيّ جهود خارجية ضمان حياتنا المرتبطة، لا مناص، بآلام لا مفرّ منها، والمنتهية بالموت الذي يستحيل أكثر ردّه، والذي قد يحلّ بالنسبة لأيٍّ منّا في أيّ لحظة، وأنّ حياتنا -لهذا السبب- لا يمكن أن يكون لها معنى آخر سوى القيام، في كلّ لحظة، بما تريده منّا القوّة التي أرسلتنا إلى الحياة ومنحتنا في هذه الحياة قائداً لا شكّ فيه: وعينا الرشيد.

ولهذا لا يمكن لهذه القوّة أن تطلب منّا ما ليس رشيداً وممكناً: بناء حياتنا الجسدية الفانية، وحياة المجتمع أو الدولة. هذه القوّة تطلب منّا الشيء الوحيد اليقيني والحصيف والممكن: خدمة ملكوت الله، أي العمل على إقامة أكبر اتّحاد لكلّ ما هو حيّ، والممكن فقط في الحقّ، وبالتالي الاعتراف بالحقيقة المكشوفة لنا واعتناقها، الأمر الوحيد الذي تحت سلطاننا دائماً. "اطلبوا أوّلاً ملكوت الله وبرّه، وهذه كلّها تُزاد لكم."

المعنى الوحيد لحياة الإنسان يكمن في خدمة العالم عبر العمل على إقامة ملكوت الله. وهذه الخدمة يمكن أن تتمّ فقط عبر اعتراف كلّ شخص على حدة بالحقيقة واعتناقها.

"لا يأتي ملكوت الله بمراقبة، ولا يقولون: هوذا ههنا، أو هوذا هناك! لأن ها ملكوت الله داخلكم."

14 أيار 1893

ياسنايا بوليانا

الفهرس

صدر عن دار معابر للنشر

قاموس اللاعنف، جان ماري مولِّر، تقديم: د. وليد صليبي، ترجمة: محمد علي عبد الجليل (بالتعاون مع الهيئة اللبنانية للحقوق المدنية، بيروت) 2007.

التأمل، جِدُّو كريشنامورتي، ترجمة وتقديم: ديمتري أڤييرينوس، 2008.

على خطى غاندي، كاثرين إنغرام، ترجمة: أديب خوري، تدقيق: ديمتري أڤييرينوس، 2008.

المحبة في العمل، تيك نات هانه، ترجمة: غياث جازي، تدقيق: أكرم أنطاكي، 2008.

كتابات وأقوال للمهاتما م. ك. غاندي، ترجمة: أكرم أنطاكي، مراجعة: هڤال يوسف، 2009.

فلسفة اللاعنف، ديڤيد مكرينولدز، ترجمة: ديمتري أڤييرينوس، 2009.

اللاعنف في التربية، جان ماري مولِّر، ترجمة: محمد علي عبد الجليل، 2009.

ليف تولستوي: مختارات من كتاباته الفكرية والفلسفية، ترجمة: هڤال يوسف، 2009.

سيمون ڤايل: مختارات، ترجمة: محمد علي عبد الجليل، 2009.

البحث عن مستقبل لاعنفي، مايكل ن. ناغلر، ترجمة: غياث جازي، 2009.

أنا وأنت، مارتن بوبر، ترجمة: أكرم أنطاكي، 2010.

يصدر قريباً

التجذُّر، سيمون ڤايل، ترجمة: محمد علي عبد الجليل، 2010.

كما أن الإنسان الفرد ليس بمقدوره العيش دون أن يكون لديه تصوّر معيّن عن معنى حياته، ودائماً، لاشعورياً على الأغلب، يلائم تصرفاته مع معنى حياته هذا المعطى له، كذلك تماماً لا يمكن ألاّ يكون لدى مجموع البشر، الذين يعيشون في ظروف متماثلة، تصوّر عن معنى حياتهم المشتركة، وعن النشاط النابع منه.

وكما أن الفرد، حين يبلغ سنّ الرشد، لابدّ له من أن يُغيّر مفهومه للحياة لأنّ الإنسان البالغ يرى معنى حياته في شيء مختلف عمّا يراه الطفل، كذلك تماماً مجموع البشر، الشعب، لابدّ له، تبعاً لنضجه، من أن يغيّر مفهومه للحياة والنشاط النابع من هذا الفهم.


ISBN 978-9933-454-02-9
9 789933 454029 >



معابر للنشر